I

فاسيلي غروسمان

الحياة والمصير

ترجمة: ثائر زين الدين وفريد الشحف

رواية

دار سؤال ؟

اهداء لأصدقاء مكتبة ..

دارا محمد | إيناس | حسين علي

رحمة الحداد | هيفاء | ليلى محمود

زيدون حسن | أبو الأميرات

أحمد الخولي | حمدي بكر

فاضل زوين | ليث كرار

للمرحوم الخال محمد يسري | علي جاسب

إلى مصطفى أشرف

محمد حامد المرصفي #مجتمع_أصدقاء_السعي

صوفيا ولقاء وزهراء

لروح الوالد قينس علي خير الله

مكتبة | 743
سُر مَن قرأ

الحياة والمصير

الجزء الأوّل

فاسيلي سيميونوفيتش غروسمان

الحياة والمصير

رواية

الجزء الأوّل

ترجمة:

د. ثائر زين الدين   د. فريد حاتم الشحف



دار سؤال ؟

العنوان الأصلي للكتاب

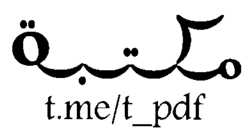
Жизнь и судьба

Васи́лий Семёнович Гро́ссман

بيروت السادس

ISBN: 978-614-8020-83-4

٢٠٢١ ١٠ ٢١



رواية «الحياة والمصير» مهداة إلى والدتي
يكاتيرينا سافيليفنا غروسمان.

الجزء الأول

1

خيّم الضباب فوق الأرض. وأضاءَ انعكاسُ مصابيح السيّارات أسلاكَ التوتّر العالي الممتدة على جانب الطريق السريع.

لم يكن ثمَّةَ مطر. لكنّ الأرض كانت مبتلّة عند الفجر، وعندما أضاءت إشارة المرور الحمراء ظهرت على الأسفلت المبتل بقعٌ حمراءُ ضبابيّة. كان تنفّس معسكر الاعتقال محسوساً عن بُعد الكثير من الكيلومترات - حيث امتدت نحوه وتكثّفت أسلاك الطريق السريع وسكة القطار. لقد كان فضاءً ممتلئاً بالخطوط المستقيمة، والمستطيلات ومتوازيات الأضلاع التي شرّحتِ الأرضَ، والسماءَ الخريفيَّة والضباب.

طويلةً وخافتةً دوّت صفارات الإنذار البعيدة.

التصقَ الطريقُ السريعُ بسكة الحديد، وكانت قافلة السيارات المُحمّلة بأكياس الإسمنت الورقية تسير أحياناً بسرعة واحدة في نسق طويل لا نهاية له. لم يلتفت السائقون في المعاطف العسكرية إلى عربات القطار التي تسير بمحاذاتهم، وإلى بقع الوجوه البشرية الشاحبة.

خرجَ من الضباب سياجُ معسكرِ الاعتقال - وهو صفوف أسلاك

ممدودة بين الأعمدة الإسمنتية المُسلّحة، وامتدت الثكنات مشكّلة شوارع عريضة ومستقيمة. وقد عبّرت بتماثلها عن لاإنسانية المعسكر الضخم.

ما من تماثلٍ تامٍّ بين كوخين اثنين في الأكواخ الريفية الروسية وأعدادُها بالملايين ، ولا يمكن أن يكون. كلّ ما هو حيّ - لا يتكرّر. لا يمكن تصوّر تشابه وتطابق تام بين شخصين، وبين نبتتَي ورد. . . الحياة تتوقف هناك، حيث يسعى العنف لمحو تعدديَّتها وخصوصيتها.

كانت عين سائق القطار اليقظة وغير المكترثة، تتابع وميض الأعمدة الخرسانية، والصواري العالية التي ثُبتت عليها كواشف ضوئية دوّارة، والأبراج الخرسانية، حيث يُشاهدُ في المصباح الزجاجي الحارس عند المدفع الرشّاش. غمز السائق مساعدَه، وأعطى القطار إشارة صوتيّة تحذيرية. ومضت الإضاءة الكهربائية في غرفة الحارس، واصطفّ طابورُ السيارات خلف الحاجز المخطط المنخفض، بعد أن أضاءت إشارة المرور الحمراء.

سُمعت من بعيد صفارات القطار القادم من الجهة المقابلة. وقال السائق لمساعده:

- إنّه تسوككير، أعرفه من صوته الضعيف، لقد أفرغ حمولته ويتجه إلى ميونيخ فارغاً.

قطار عربات فارغة، قعقعة، التقيا مع القافلة المتجهة إلى المعسكر، الهواءُ الممزّق يصفر، ومضت الفجواتُ الرمادية بين العربات. وفجأة اتّحد الفضاء وضوء الصباح الخريفي من قطع ممزّقة، ليشكِّلَ قماشاً منتظماً يعدو بسرعة.

- آه يا رفيق أبفيل، صدقني، كان بإمكاننا العودة وقت الغداء وليس في الساعة الرابعة صباحاً، خائري القوى، لولا تعقيم العربات هذا. وكأنّ التعقيم لا يمكن إجراؤه في المحطة عندنا.

سئمَ العجوزُ من الحديث الأبدي عن التعقيم، قال:

- دعنا نتابع، لقد حدّدوا لنا موقع التفريغ الرئيسي، وليس الموقع الاحتياط.

2

أتيح لميخائيل سيدوروفيتش موستوفسكي في معسكر الاعتقال الألماني، لأوّل مرة بعد المؤتمر الثاني للكومنترن، تطبيق معرفته باللغات الأجنبية بجدّية. نادراً ما كان يتحدَّثُ إلى الأجانب وهو يعيش في لينينغراد قبل الحرب. لقد تذكّر الآن سنوات الهجرة التي قضاها في لندن وسويسرا، حيث كان هناك مع رفاقه الثوار يتحدثون، ويتجادلون، ويغنّون بأكثر من لغةٍ أوروبية.

قالَ الكاهنُ الإيطالي هاردي لموستوفسكي، وهو جاره في السرير، يعيشُ في المعسكر أشخاصٌ من ستٍّ وخمسين جنسيّة.

المصيرُ، ولونُ البشرة، والثياب، ووقع الخطى، والحساء الواحد المطهو من اللفت والنشا، والذي كان يسمّيه السجناءُ الروسُ «عين السمك» - كلّ ذلك كان مُتكافِئاً، واحداً، عند عشرات الآلاف من قاطني ثكنات المعسكر.

كانت سلطات المعسكر تميّز الأشخاص من الأرقام ولون الشريط المخيط على السترة: الأحمر - للسياسيين، الأسود - للمخربين، والأخضر - للصوص والقتلة.

لم يفهم الناس بعضهم بعضاً بسبب اختلاف لغاتهم، لكن مصيراً واحداً كان يجمعهم. خبراء الفيزياء الجزيئيّة والمخطوطات القديمة

استلقوا على الأسرّة بجانب الفلاحين الإيطاليين، والرعاة الكرواتيين الذين لا يعرفون كيف يكتبون أسماءَهم. منهم من لم يطلب من الطباّخ الفطور وأزعج المستخدمة بشهيّته السيّئة، ومنهم من كان يأكل سمك القدّ المُملّح، ساروا إلى العمل جنباً إلى جنب، يطرقون الأرضَ بنعالهم الخشبيّة ويتلفتون بشوق - أما جاءَ Kosttrager بعد - حاملو البراميل- «كوستريغي» كما كان يُسمّيهم الروسُ المعتقلون في الثكنات.

لقد وُلدَ التشابُهُ في مصير البشر المعتقلين في المعسكر من الاختلافات نفسها. ألم تربطهم رؤى الماضي عن الحديقة بجانب الطريق الإيطالي الترابي، مع الضجيج الكئيب لبحر الشمال أو مع عاكس الضوء الورقي البرتقالي في بيت قائد الطاقم في ضواحي بوبرويسك - لقد كان الماضي عند كلّ المعتقلين رائعاً.

كلّما كانت الحياةُ أكثر صعوبة بالنسبة للشخص، كانَ ميّالاً للكذب. هذا الكذب لم يخدم أهدافاً عمليّة، بل كان لتمجيد الحرّية: لا يمكن للشخص خارج المعسكر إلّا أن يكون سعيداً. . .

سُمِّيَ هذا المعسكر قبل الحرب معسكراً للمجرمين السياسيين.

وظهر أنموذجٌ جديدٌ للمعتقلين السياسيين، أنشأهُ الاشتراكيون - القوميون[1]: مجرمون، لم يُنفّذوا جرائم.

الكثيرون وصلوا إلى المعسكر بسبب ملاحظات سياسية عن نظام هتلر تضمَّنتها أحاديثُهم إلى أصدقائهم، وبسبب نكتة ذات محتوى

(1) الحزب الذي كان يتزعمه هتلر، وكان اسمه: الحزب الاشتراكي- القومي. (المترجمان).

سياسي. ما وزَّعوا منشوراتٍ، وما شاركوا في أحزاب سرّية. اتهموهم بأنّهم قد يفعلون ذلك كلّه.

سجنُ أسرى الحرب في المعتقلات السياسية هو أيضاً ابتكار للفاشيّة. ثمَّةَ هنا طيّارون بريطانيون وأمريكيون، أُسقِطَتْ طائراتهم فوق الأراضي الألمانيّة، وقادة ومفوّضو الجيش الأحمر الذين كانوا محطَّ اهتمام الغستابو[1]. لقد طُلب منهم تقديم معلومات، وتعاون، واستشارات، وتواقيع على بيانات متعددة الأغراض.

كان في المعسكر أيضاً مخرّبون - متهرّبون، حاولوا طواعيةً ترك العمل في المصانع والمباني العسكريّة. إنّ سَجنَ العمال في معسكرات الاعتقال بسبب عملهم السيّئ، كان أيضاً من مكتسبات الاشتراكيّة - القوميّة.

وكان في المعسكر أيضاً، أناس يرتدون شرائط ليلكيّة على سُترهم - وهم المهاجرون الألمان، الذين غادروا ألمانيا الفاشيّة. وهذا أيضاً كان من ابتكار الفاشيّة- فمن غادر ألمانيا، حتى ولو كان مُخلصاً لدولته خارج الحدود، أصبحَ عدوّاً سياسياً.

الأشخاص ذوو الشرائط الخضراء على سُترهم - هم اللصوص وقطّاع الطرق، وكانوا في المعتقل السياسي جزءاً مُميّزاً؛ فقد اعتمدت عليهم سلطات المعتقل في الرقابة على السياسيين.

وبرز ابتكار الاشتراكيّة - القوميّة أيضاً، في سلطة المجرم على السجين السياسيّ.

وكان في المعتقل أيضاً أشخاصٌ ذوو مصير من نوع آخر، لم

---

(1) المخابرات السرّية في عهد هتلر. (المترجمان).

يُختَرَعُ لهم لونُ شرائط، تتناسب مع وضعهم. منهم الهنودُ ساحرو الأفاعي، والفارسي الذي قدِم من طهران لدراسة الفن التشكيلي الألماني، والصيني طالبُ الفيزياء، فقد جهّزَتْ لهم الاشتراكيّةُ - القوميّةُ أمكنة على الأسِرّة، وعند أوعية الحساء، واثنتي عشرة ساعة عمل في المزارع.

استمرّت حركة القوافل إلى معسكرات الموت، ومعسكرات الاعتقال ليل نهار. وخيّم في الهواء صوتُ العجلات، وهديرُ القطارات، قرقعة أحذية مئات آلاف المعتقلين، الذاهبين إلى العمل بأرقام زرقاء خماسيّة، مخيطة على ثيابهم. وأصبحت معسكراتُ الاعتقالِ مدنَ أوروبا الجديدة. فقد نمت وتوسّعت في مُخططاتها، وبأزقّتها وساحاتها، ومشافيها، وبأسواق أمتعتها، وملاعبها ومباني حفظ الجثث.

وكم بدت السجون القديمة القابعة على أطراف المدن، ساذجةً وأبويّةً - طيّبةً، مقارنة مع مدن معسكرات الاعتقال هذه، ومقارنة مع التوهّج الجنونيّ الأسود - الأرجواني فوق أفران حرق الجثث.

بَدا أن إدارة هذه الكتلة القمعيّة الضخمة، تحتاجُ إلى جيوشٍ مليونية من المراقبين والمشرفين تقريباً. لكن الوضعَ لم يكن على هذا النحو. لأسابيع طويلة لم يظهر داخل الثكنات أشخاصٌ يرتدون بزّاتِ المخابرات السرّية! لقد تولّى السجناءُ أنفسُهم الحمايةَ الأمنيةَ لمدنِ المعسكرات. وتابع السجناء أنفسهم النظام الروتيني الداخلي في الثكنات، وتوخّوا أن توضع في قدور الطهي حبّاتُ البطاطا المتعفّنة المتجمّدة فحسب، أمّا الكبيرة، والمفروزة جيداً - فقد كان يتمُّ انتقاؤها من أجل إرسالها إلى المراكز التموينية للجيش.

السجناءُ كانوا أطبّاء، اختصاصيّي باكتيريا في مستشفيات الأعمال الشاقة ومخابرها، وعمّال نظافة يغسلون أرصفة المعتقلات، وكانوا مهندسين يؤمّنون الضوء، والدفء، وقطع غيار سيّارات المعتقلات.

شرطةُ المعتقل النشطة والشرسة - كابو[1]، التي عُلّقَ على الأكمام اليسرى لأفرادها شريطٌ أصفرُ واسعٌ، والمشرفُ على المعسكر، والمشرفُ على الكتلة، ثم المشرفُ في الثكنة - شملت رقابتها حياة معسكر الاعتقال كلّها، من الشؤون العامّة للمعسكر حتى الأحداث الخاصّة؛ التي تحدث في الليل على الأسِرّة. فقد سُمح لهؤلاء المساجين الوصول إلى الشؤون السرّية لسلطة المعتقل - وحتى لإعداد قوائم الاختيار، ولتجهيز الأشخاص الذين هم قيد التحقيق في الزنزانات المظلمة - الصناديق الإسمنتية. وبدا أن المسؤولين اختفوا، لكن المعتقلين سيستمرّون في الحفاظ على تيار التوتر العالي في الكابلات، لكي لا يهربَ أحد، بل ليعمل الجميع.

لقد خدم هؤلاء الكابو والمشرفون آمرَ معسكر الاعتقال، لكنّهم تنهّدوا، وبكوا أحياناً عندما أرسلوا أحداً ما إلى أفران المحرقة. . . مع ذلك لم تذهب هذه الازدواجية حتى النهاية، فأسماؤهم لم يضعوها في قوائم الاختيار. هُيّئَ لميخائيل سيدوروفيتش أن الأكثر شرّاً في الأمر تَمَثَّلَ في أنّ الاشتراكية - القومية لم تأتِ إلى معسكر الاعتقال بنظّارة من عين واحدة، وبوحشيّة قاسية، غريبة عن الشعب.

---

(1) فئة مُميّزة من المعتقلين في معسكرات الاعتقال الفاشية في ألمانيا. (المترجمان).

لا لقد عاشت الاشتراكية - القومية في المعسكر على طريقتها، لم تكن بعيدة عن الشعب البسيط، فقد كانت تمزح على الطريقة الشعبية، ومزاحها كان يثير الضحك، لقد كانت من عامّة الشعب وتصرّفت بكل بساطة، وعرفت بشكل ممتاز لغةَ وروحَ وعقلَ أولئك الذين حرمتهم الحرّية.



3

نُقِلَ موستوفسكي، وأغريبنا بيتروفنا، والطبيب العسكري ليفينتون والسائق سيمينوف، بعد أن اعتُقلوا من قبل الألمان على مشارف ستالينغراد، إلى مقر فرقة المشاة.

أفرجوا عن أغريبينا بيتروفنا بعد التحقيق، وزوّدها المترجمُ بأمرٍ من ضابط الشرطة الميداني برغيفِ خبزٍ بازيلاء وقطعتين نقديتين صغيرتين، وألحقوا سيمينوف بقافلة الأسرى، المتّجهة إلى معسكر في منطقة مزرعة فيرتياشيغو. ونقلوا موستوفسكي وصوفيا أوسيبوفنا ليفينتون إلى مقرّ مجموعة عسكرية.

هناك، موستوفسكي رأى صوفيا أوسيبوفنا آخر مرّة - كانت تقف وسط فناء ترابيّ، من دون غطاء، وعلاماتُ التمييز ممزقة على ثوبها، لقد أثارت إعجاب موستوفسكي بتعابير عينيها ووجهها، الغاضبة والمتجهّمة.

اقتادوا موستوفسكي بعد التحقيق الثالث، سيراً على قدميه إلى محطة السكة الحديدية، حيثُ يُحَمَّلُ قطارٌ بالقمح. خُصِّصتْ عشرُ قاطراتٍ للشبان والفتيات المرسلين للعمل في ألمانيا - ولقد سمع موستوفسكي صراخَ النساء أثناء انطلاق القطار. أقفلوا عليه في

حجرة خدمة صغيرة لقاطرة قاسية. لم يكن الجندي المرافق له غليظاً، لكن ظهرت على وجهه أثناء أسئلة موستوفسكي تعابيرُ كما لو أنّه أصمّ وأبكم. ومع ذلك بدا واضحاً أثناء ذلك أنّه مشغولٌ كلّياً بموستوفسكي فحسب، مثل موظف حديقة الحيوانات المتمرّس الذي يراقب بتوتّر صامت دائم صندوقاً يُخشخش، ويتحرك بداخله وحش، يقوم برحلة في القطار. وعندما مرّ القطار في الأراضي البولندية ظهر في الحجرة راكبٌ جديدٌ - مطران بولندي، بشعرٍ أشيب، جميل، طويل، بعينين مأساويتين، وفم فتى متورّم. أخذ يحدّث موستوفسكي مباشرة عن أعمال العنف التي مارسها هتلر ضدّ رجال الدين البولونيين. لقد تحدّث بلغة روسيّة مُكسّرة. وبعد أن هاجم ميخائيل سيدوروفيتش الكاثوليكية والبابا، صمت وأجاب عن أسئلة موستوفسكي باختصار شديد وباللغة البولونية. أنزلوه بعد عدّة ساعات في بوزناني.

أحضروا موستوفسكي إلى معسكر الاعتقال، متجاوزين برلين... بدا كأنَّ أعواماً قد مرّت في الكتلة التي احتوت المعتقلين الذين يلقون اهتماماً خاصّاً من قبل الغستابو. كانت الحياة في الكتلة الخاصّة أكثر تغذية، ممّا هي عليه في معسكر العمل، لكنّها كانت الحياة السهلة لحيواناتِ المختبراتِ المُعذّبة. المُناوبُ يستدعي شخصاً إلى الباب، ويعرض عليه عملية تبادل متكافئة، التبغ مقابل حصّته من الطعام، فيبتسم الشخصُ مسروراً، ويعود إلى سريره. ويستدعى الشخصُ الثاني مثل زميله تماماً، فيقطع حديثه ويتوجّه إلى الباب، ولا يأملُ الجليسُ بمتابعة الحديث حتى نهايته. لكن بعد يوم يقترب الكابو من الأسِرّة، ويأمرُ المناوبَ أن يجمعَ حاجياته، فيسأل

أحدٌ ما بتملّقٍ مشرفَ الثكنة كييز - أيمكنُه أن يشغلَ السرير الشاغر؟ لقد أصبح مُعتاداً ذلك الخلطُ الوحشي للأحاديث عن الاختيار، وعن محرقة الجثث، وعن فِرق لعبة القدم في المعسكر - الأفضل: الزراعة - Moorsoldaten (جنود المستنقع)، فريق قويّ ووقور، هجوم حيويّ عند المطبخ، الفريق البولوني «براتسيفيكس» بدون دفاع. وأصبحت معتادة مئاتُ الشائعاتِ عن السلاح الجديد، وعن الخلافات بين زعماء الاشتراكيين - القوميين. الشائعات كانت دائماً جيّدة وكاذبة - أفيون شعب المعسكر.



4

تساقطَ الثلجُ مع حلول الصباح، ولم يذبْ، بقي متوضّعاً فوق الأمكنة حتى الظهيرة. شعرَ الروسُ بالفرح والحزن. لقد تنفست روسيا باتّجاههم، ورمت منديل الأمومة تحت الأرجل الفقيرة والمنهكة، وبيّضت أسقفَ الثكنات، وقد بدوا من بعيد بيتوتيّين، على الطريقة القرويّة.

لكن الفرح الذي ومض للحظة امتزج بالحزن وغرق فيه.

اقترب من موستوفسكي المنظّمُ مساعدُ المناوبِ، الجندي الإسباني أندريا، وقال بلغة فرنسيّة ركيكة، إنّ صديقَه المدوّن رأى ورقة عن العجوز الروسي، لكن المدوّن لم يسعفه الوقت لقراءتها، وأخذها رئيس الديوان معه.

«لعل قرار حياتي في تلك الورقة» - فكّر موستوفسكي، وفرحَ بهدوئِهِ.

قال أندريا هامساً:

- لكن لا تقلق، يمكن أن نعرف لاحقاً.

سأل هاردي، والتمعتْ عيناهُ الكبيرتانِ بالسواد في شبه العتمة:

- عند رئيس المعسكر؟ أم عند مُمثّل الإدارة الرئيسية للأمن ليز نفسه؟

أدهشَ موستوفسكي الاختلافُ بين هاردي النهاريّ وهاردي الليليّ. لقد تحدّث الكاهن في النهار عن الحساء، وعن القادمين الجدد، تحدّث مع جيرانه عن تبادل الحصص الغذائية، تذكّر الطعام الإيطالي الحار والمثوّم.

عرف جنود الجيش الأحمر الأسرى مَثلَه المُفضّل «توتي كابوتي»[1]، فكانوا يصيحون به من بعيد حين يلتقونه في ساحة المعسكر: «بابا بادري، توتي كابوتي» - ثم يضحكون، كما لو أن تلك الكلمات كانت تبعث الأمل فيهم. سمّوه - بابا بادري، معتقدين أنّ «بادري» هو اسمه.

أخذ القادة والمفوّضون السوفييت المعتقلون في الكتلة الخاصّة يمازحون هاردي، ذات مرّة مساء في وقت متأخّر، هل كان بالفعل ملتزماً بالرهبنة.

سمع هاردي دون أن يبتسم مجموعة خليطة من الكلمات الفرنسية والألمانية والروسية.

ثم تكلّم فيما بعد، وترجم موستوفسكي كلماته. ألم يذهب الثوريون الروس إلى الأعمال الشاقّة وحبل المشنقة من أجل الأفكار. لكن لماذا يشكك محدّثوه، في أنّ الإنسان ومن أجل الأفكار الدينية لا يمكنه الامتناع عن الاقتراب من المرأة؟ إنّ هذا لا يضاهي التضحية بالحياة.

قال مفوّض اللواء أوسيبوف:

- حسناً، بإمكانك ألّا تجيب.

ليلاً، وعندما نام قاطنو المعسكر، أصبح هاردي شخصاً آخر.

---

(1) العبارة بالإيطالية، لم نجد لها معنىً. (المترجمان).

ركعَ على ركبتيه فوق السرير وصلّى. وتراءى أنّ في عينيه المتأثرتين المبتهجتين، وفي محدّبتيهما المخمليتين السوداوين، يمكن أن تغورَ معاناةُ مدينةِ الأعمال الشاقة كلّها. توترت الحبال العصبيّة في عنقه البنّي، وكأنّه يعمل، واكتسبَ وجهه الطويل غير المبالي تعبير المثابرة الجريئة والسعيدة. لقد صلّى طويلاً. غفا ميخائيل سيدوروفيتش على همس الإيطالي السريع والخافت. واستيقظ موستوفسكي كالعادة، بعد أن نام ساعة ونصف - ساعتين، وحينها يكون هاردي قد نام. لقد غفا الإيطاليّ مضطرباً، وكأنّه يجمع في نومه جوهرَيه الاثنين، النهاريّ والليليّ، وشخر، ومضغ شفتيه باستمتاع، وصرّ بأسنانه، وأطلق غازات معدته بصوت عال، وفجأة راح ينطق كلمات الصلاة الرائعة، التي تتحدّث عن رحمة الربّ وأمّ الرب.

لم يوبّخ أبدا الشيوعيّ الروسيّ القديم بسبب الإلحاد، وغالباً ما كان يسأله عن روسيا السوفييتية.

كان الإيطالي يهزّ رأسه وكأنّه موافق، مُستمعاً إلى موستوفسكي وهو يتحدّث عن الكنائس والأديرة المقفلة، وعن الأراضي الشاسعة، التي استولت عليها الحكومة السوفييتية من المجمّع الكنسي.

نظرت عيناه السوداوان بحزن إلى الشيوعي القديم، فسأله ميخائيل سيدوروفيتش غاضباً:

- Vous me comprenez? (هل تفهمني؟ «باللغة الفرنسية»).

ابتسم هاردي ابتسامته الحياتيّة الاعتيادية، تلك التي رافقت حديثه عن الراغو الفرنسي[1] والصلصة المُحضَّرة من البندورة.

---

(1) راغو (بالفرنسية: Ragout) هي وجبة طعام يخنة فرنسية، وكلمة راغو تعني

Je comprends tout ce que vous dites, je ne comprends - pas seulement, pourquoi vous dites cela (أنا أفهم كل ما تقوله، لكنني لا أفهم فحسب، لماذا تقول ذلك «باللغة الفرنسية»).

لم يُعفَ الأسرى العسكريون الروس المعتقلون في الكتلة الخاصّة من العمل، ولذلك التقاهم موستوفسكي وتحدّث إليهم في الساعات المسائيّة والليليّة المتأخّرة فحسب. لم يخرج إلى العمل الجنرال غودز وقائد اللواء أوسيبوف.

جليسُ ومحادِثُ موستوفسكي المتكرر كان شخصاً غريباً، شخص عمره غير مُحدّد - إيكونيكوف - مورج. كان ينام في أسوأ مكان في الثكنة - عند المدخل، حيث كان يجري تيارٌ باردٌ، وقد وضع في الوقت نفسه وعاء كبير له أذنان وغطاء - مظلّة يُصدرُ صوتاً مزعجاً.

سَمّى المعتقلون الروسُ إيكونيكوف «العجوزَ - المظلّي»، وعَدّوه معتوهاً وعاملوه بشفقة مشمئزّة. كانت لديه قدرة على التحمّل لا تصدّق، تلك القدرة التي تُميّز الحمقى والأغبياء من سواهم. ما مرضَ على الإطلاق، على الرغم من أنّه ما خلعَ عن جسمه ثيابه المُبتلّة بمطر الخريف، عندما كان يستلقي للنوم. وبدا أنّ هذا الصوت الواضح والطنّان يمكن أن يكون فحسب لشخص مجنون.

إحدى وجبات الباستا المشهورة في شمال إيطاليا. راغو هي وجبة خضروات وبهارات بشكل رئيسي يضاف أحياناً إليها اللحم، وفي مناطق أخرى يضاف إليها أذن الخنزير وبيض الغنم، تعتبر من الأكلات الكلاسيكية القديمة وهي مشهورة بشكل رئيسي في فرنسا وإنجلترا. (المترجمان).

لقد تعرّف إلى موستوفسكي بهذه الطريقة: اقترب إيكونيكوف - مورج من موستوفسكي وتفحّص وجهه طويلاً بصمت.

- ألا تقولُ قولاً طيباً أيّها الرفيق؟ - سأله ميخائيل سيدوروفيتش وسخر، عندما أجاب إيكونيكوف سريعاً وبنغمة خاصة:

- أقولُ قولاً طيباً؟ وهل توجد طيبة؟

نقلت هذه الكلمات ميخائيل سيدوروفيتش فجأة إلى زمن الطفولة، عندما فتحَ أخوه الأكبرُ العائدُ من سيمينار (جلسة بحثٍ وحوار)، حديثاً مع أبيه عن المواد الدينية.

- السؤالُ أطلقهُ شخصٌ ذو لحية شيباء - قال موستوفسكي - وقد فكّر فيه البوذيون والمسيحيون الأوائل. نعم وبذلَ الماركسيون جهداً ليس بقليل، من أجل حلّه.

سأل إيكونيكوف مُنغّماً، ما أضحك موستوفسكي:

- وحلّوه؟

- هذا هو الجيش الأحمر - قال موستوفسكي - يحلّه الآن. وفي نبرتك، سامحني، يوجد زيتٌ مقدّسٌ ما، أو شيء من هذا القبيل، لا هو زيتُ بوبوف، ولا هو زيت تولستوي[1].

قال إيكونيكوف:

- كل شيء ممكن، فقد كنت من أتباع تولستوي.

---

(1) بوبوف وتولستوي اسما أديبين ومفكريين روسيين معروفين، وفي الكلام هنا إشارة إلى نظرة مدرستين فلسفيتين يمثلهما كل من هذين الأديبين إلى مسألة العلاقة بين السلطة والأخلاق، بين الغاية والوسيلة. (المترجمان).

- هكذا إذاً!!! - قال ميخائيل سيدوروفيتش، وقد أثار الشخص الغريب اهتمامه.

تابَعَ إيكونيكوف:

- تعلم، أنّني مقتنع بأنّ الاضطهاد الذي مارسه البلشفيون ضد الكنيسة بعد الثورة، كان مفيداً للأفكار المسيحية، حيث انتقلت الكنيسة إلى حالة بائسة أمام الثورة.

قال ميخائيل سيدوروفيتش بلطف:

- أنت بحق ديالكتيكي. ها قد قُدّر لي أن أرى معجزة الإنجيل في شيخوختي.

- لا، - أجاب إيكونيكوف عابساً - فعندكم الغايةُ تبرّر الوسيلة، ووسائلكم بلا رحمة. إنّك لم تر المعجزة عندي - أنا لست ديالكتيكيّاً.

قال موستوفسكي فجأة غاضباً:

- هكذا إذاً، بماذا مع ذلك، يمكنني أن أخدمك؟

قال إيكونيكوف واقفاً متّخذاً وضعيةَ العسكري «باستعداد»:

- لا تهزأ منّي! - بدا صوته المحزن مأساوياً - أنا لم أقترب منك من أجل المزاح. لقد شَهدتُ في الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) العام الماضي شنقَ عشرين ألفِ يهوديٍّ - نساء، وأطفال، وكبار السنّ. أدركت في ذلك اليوم، أنّ الربّ لا يمكن أن يسمح بمثل هذا الحدث، وأصبح من الواضحِ عندي، أنّه غير موجود. إنّني أرى قوّتكم في الظلمة الحاليّة، إنّها تتصارع مع الشرّ المُرعب...

- حسناً، - قال ميخائيل سيدوروفيتش - فلنتحدّث.

عمل إيكونيكوف في الزراعة، في الجزء المستنقعي من الأرض

التابعة للمعسكر، حيث تم وضع منظومة من الأنابيب الخرسانية الضخمة لتصريف النهر والوديان القذرة، إلى الأراضي المستنقعية المنخفضة. لقد سمّوا العمال في هذا الجزء «Moorsoldaten» (جنود المستنقع)، وعادة ما كان يُرمى إلى تلك المنطقة الأشخاصُ الذين نفرت منهم الإدارة.

كانت يدا إيكونيكوف صغيرتين، أصابعهما رقيقة، لهما أظافرُ أطفال. عاد من العمل ملطخاً بالطين، ومُبتلّاً، اقترب من سرير موستوفسكي وسأل:

- أتسمح لي بالجلوس إلى جانبك؟

جلس وابتسم، دون أن يلتفت إلى محاوره، مرّر يده على جبينه. كان جبينُه مدهشاً - إلى حدٍّ ما - فهو ليس واسعاً جداً، محدّباً، وزاهياً لدرجة بدا وكأنّه مُنفصلٌ تماماً عن أذنيه المتسختين ويديه مُكسَّرتي الأظافر، وعنقه البنّي القاتم.

كانت سيرُ حياة الأسرى العسكريين السوفييت بسيطة، في حين بدا هو إنساناً غامضاً وغير مفهومٍ.

كان أسلافُ إيكونيكوف ومنذ زمنِ بطرس الأوّل كهنةً من جيل إلى جيل. جيل إيكونيكوف الأخير فقط سار في طريق آخر - إخوة إيكونيكوف جميعهم وبرغبة الوالد حصلوا على تعليم مدنيّ.

درس إيكونيكوف في معهد بطرسبورغ التكنولوجي، لكنّه اهتمّ بالتولستيّة[1]، ترك الدراسة في السنة الأخيرة وتوجّه إلى شمال

(1) التولستية: تيار جمالي- دينيّ اجتماعيّ في روسيا نهاية القرن التاسع عشر- بداية القرن العشرين. ظهر في الثمانينيات من القرن التاسع عشر تحت تأثير التعاليم الفلسفية - الدينية لليف تولستوي. (المترجمان).

مقاطعة بيرم مُعلّماً شعبيّاً. عاش في القرية نحو ثماني سنوات، ثم مضى نحو الجنوب، إلى أوديسا، وعمل على باخرة شحن، ميكانيكيّاً في قسم المحرّكات، زار الهند، واليابان، وعاش في سيدني. عاد إلى روسيا بعد الثورة، وانضمّ إلى جمعيّة زراعيّة فلّاحية. هذا كان حلمه القديم، فقد آمنَ أنّ العملَ الشيوعيَّ الزراعي يؤدّي إلى تحقيق ملكوت اللّه على الأرض.

لقد رأى زمن الكلخزة[1] العامّة قوافل مُمتلئة بأُسَر الكولاك[2]. لقد رأى كيف تساقط الناس الضعفاء على الثلج ولم يستيقظوا. ورأى قرى «مُغلقة»، مُنقرضة، مقفلة الأبواب والنوافذ. شاهد فلّاحة مُعتقلة، امرأة بثيابٍ ممزقةٍ، ذات عنقٍ نحيل، ويدين عاملتينِ غامقتي

---

(1) سياسة توحيد الأراضي والمنشآت الزراعية الفلّاحية الخاصة، في جمعيات تعاونية (كلخوزات، سوفخوزات) انتهجها الاتحاد السوفييتي منذ عام 1928 حتى عام 1937، بهدف إعادة تشكيل المنشآت الفردية الصغيرة في جمعيات تعاونية إنتاجية عامّة كبرى. (المترجمان).

(2) كولاك (بالروسية: кула́к) تعني قبضة، بتمديد الكلمة صاحب القبضة الضيقة، أو بمعنى آخر: بخيل. والكولاك هم فئة من المزارعين الأغنياء نسبياً في أواخر عصر الإمبراطورية الروسية، جمهورية روسيا السوفييتية الاتحادية الاشتراكية، وبدايات الاتحاد السوفييتي. كلمة كولاك ترجع في الأصل إلى المزارعين الأحرار أو المستقلين في الإمبراطورية الروسية الذين نشأوا وترعرعوا على العمل الفلاحي، ثم أصبحوا أغنياء كنتيجة لإصلاحات بيوتر ستوليبين الزراعية التي بدأت عام 1906. أصبح وصف كولاك أكثر شمولية عام 1918 فقد أصبح يتضمن كل فلاح امتنع عن تسليم الحبوب للمفارز من موسكو. خلال فترة 1929-1933، تحت قيادة ستالين وفي أثناء الحملة الشاملة للزراعة الجماعية أو الزراعة بشكل جماعي جرت تسمية الفلاحين ممن يملكون زوجاً من البقر، أو خمس أو ست فدانات زيادة على أقرانهم بالكولاك. (المترجمان).

اللون، كان الحراسُ ينظرون إليها بفزع: كانت تأكل طفليها بسبب جنونها من الجوع.

في تلك الفترة ودون أن يغادر الجمعيّة أخذ يدرِّس الإنجيل، ويصلّي للربّ كي ينقذ الذين على حافة الموت، فانتهى الأمر باعتقاله، اتضح أن مصائب الثلاثينيات أفقدته عقله. وبعد عام من العلاج القسريّ في مستشفى السجن للأمراض النفسية، أُطلِقَ سراحُه وانتقلَ للسكن في بيلاروسيا عند أخيه الأكبر، البروفيسور - البيولوجي، والتحق بالعمل في مكتبة تقنيِّة بمساعدته. لكن الأحداث المروّعة تركت لديه انطباعاً غير عادي.

عندما بدأت الحربُ واحتلَّ الألمانُ بيلاروسيا، شاهد إيكونيكوف عذابات أسرى الحرب، وإعدام اليهود في مدن بيلاروسيا وقراها. فدخل من جديد في حالةٍ هيستيريّة وأخذ يتوسّل معارِفَه وغيرَهم من الناس أن يخبِّئوا اليهود، وحاول بنفسه إنقاذ الأطفال والنساء اليهود، وسرعان ما أبلغوا عنه، وبأعجوبة ما نجا من حبل المشنقة، ووصل إلى معسكر الاعتقال.

وسيطرتِ الفوضى في رأس «المظلّي» الأشعث القذر، وأكَّدَ فرضيّاتٍ خرقاء ومُضحكة فوق الأخلاق الطبقيّة.

- هناك، حيث يوجدُ العنف - شرح إيكونيكوف لموستوفسكي- تسودُ المصيبةُ وتراقُ الدماء. لقد رأيت معاناة الفلاحين العظيمة، وعمليةُ الكلخزة جرت باسم الخير. أنا لا أؤمن بالخير، أنا أؤمن بالطيبة.

أجاب ميخائيل سيدوروفيتش:

- حسب نصيحتك، سنصاب بالرعب إذا ما شنقوا هتلر وهملر باسم الخير. حينها فلتشعر بالرعب من دوني!

قال إيكونيكوف:

- اسأل هتلر، وسيوضّح لك، أنّ معسكر الاعتقال هذا من أجل الخير.

بدا لموستوفسكي أنَّ عملَ مَنطِقِهِ في أثناء الجدال مع إيكونيكوف أشبه بجهود السكين التي لامعنى لها، وهي تصارع قنديل البحر.

أكّد إيكونيكوف قائلاً:

- لم يرتفع العالمُ فوقَ الحقيقة، وكما قال المسيحيّ السوريّ، الذي عاش في القرن السادس: «فلتُدنِ الإثمَ ولتغفرْ للآثم».

كان في الثكنة عجوز روسيّ آخر - تشيرنوف. وهو بعين واحدة. وقد حطّم الحارس عينَهُ الاصطناعية الزجاجية، فبدا محجرُ العين الفارغة الأحمر مخيفاً على خلفية الوجه الشاحب. كان عندما يتحدّثُ يحجب بكفِّهِ ذلك المحجرَ الفاغرَ الفارغ.

كان واحداً من المناشفة، وهرب من روسيا السوفييتية عام 1921. عاش عشرين عاماً في باريس، وعمل محاسباً في أحد البنوك. وصل إلى معسكر الاعتقال بسبب تحريضه عمال البنك على عدم تنفيذِ أوامر الإدارة الألمانية الجديدة. حاول موستوفسكي ألا يصطدم به.

أقلقت على ما يبدو شعبيّةُ موستوفسكي المنشفيّ ذا العين الواحدة - فلقد اندفعَ الجندي الإسباني، والنرويجي صاحب متجر القرطاسية، والمحامي البلجيكي، نحو البلشفيِّ العجوز يسألونه ويتحدَّثون إليه.

جلس ذات مرّة الرائد يرشوف مسؤول الأسرى الروس بجانب موستوفسكي على السرير، مال قليلاً نحو موستوفسكي ووضع يده على كتفه، وتحدّث إليه بسرعة وحماس.

التفت موستوفسكي فجأة - فلاحظَ أن تشيرنوف ينظر إليهما من موضعه في السرير البعيد. وفَكَّرَ موستوفسكي أن تعبير الشوق في عينه المعافاة، أكثر رعباً من الحفرة الحمراء في محجر العين الخارجة من مكانها.

فكّر موستوفسكي دون أن يشعر بالشماتة: «نعم أيّها الأخ، إنّك حزين».

ليست الصدفةُ طبعاً، بل القانون هو من حَدد، أن الجميع يحتاجون دوماً إلى يرشوف. «أين يرشوف؟ لم تروا يرشوف؟ الرفيق يرشوف! الرائد يرشوف! قال يرشوف... اسأل يرشوف...». قدموا إليه من الثكنات الأخرى، ودائماً كانت هناك حركة حول سريره.

رسم ميخائيل سيدوروفيتش إشارة الصليب على يرشوف: الشخصيّة المؤثّرة. وكانت هناك شخصيّات مؤثّرة أيضاً - شخصيّات الستينيّات والثمانينيّات. ثمّةَ نارودنكسيين[1]، وهناك

(1) النارودنكس كانت حركة اجتماعية روسية من الطبقة الوسطى في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر. وكان أصحاب الحركة في نواح كثيرة من أسلاف الثوريين الاشتراكيين الذين أثروا في تاريخ روسيا في القرن العشرين. وكان المثقفون هم معظم من شغل مناصب هذه الحركة، خصوصاً الذين قرأوا أعمال ألكساندر هيرزن (1812-1870) ونيقولاي قافرالوفيتش تشيرنيسبسكي (1828-1889). في أواخر القرن التاسع عشر

ميخائيلوفسكي[1] وقد سطع نجمه. في معسكر الاعتقال الهتلري وجِدَت أيضاً شخصيّة مؤثّرة! وحدةُ صاحبِ العين الوحيدة في هذا المعسكر بدت أنموذجاً مأساوياً.

مرّت عشرات السنوات على ذلك الزمن، عندما سُجِن ميخائيل سيدوروفيتش لأوّل مرّة في السجن القيصري - وحتى القرن كان قرناً آخر؛ التاسع عشر.

تذكّر الآن كيف انزعج من عدم ثقة عدد من مسؤولي الحزب، في قدراته على ممارسة العمل التنفيذي. كان يشعر بنفسه قويّاً، إنّه يرى كلّ يوم، كم كانت كلماتُهُ مسموعة عند الجنرال غودزي، وعند قائد اللواء أوسيبوف، وعند الرائد دائم الحزن والاكتئاب كيريلوف.

عزاءُه قبل الحرب تمثَّلَ في أن ابتعاده عن الممارسة العمليّة للعمل الحزبي، كان يقلّل من احتكاكه بكل ما يثير احتجاجه وعدم موافقتهِ من الأمور - تفرّد ستالين بالحزب، والعلميات الدموية للمعارضة، وقلّة احترام الحرس الحزبي القديم. لقد عانى بصورة مؤلمة جرّاء إعدام بوخارين، الذي كان يعرفه جيّداً ويحبّه. لكنّه كان يعلم أنّه إذا ما عارض الحزب في أيّة مسألة من هذه المسائل، فسيجد نفسه من دون إرادته معارضاً للقضيّة اللينينيّة التي وهب حياته لها. عذَّبته الشكوك أحياناً - ربّما صمت بسبب ضعفه وجبنه، ولم

أصبحت الرأسمالية والاشتراكية النظريتين الأساسيتين للفكر السياسي الروسي. وكان أكثر الحجج الراسخة للنارودنكس ضد الرأسمالية اعتقادهم بأن ليس لها مستقبل في روسيا أو في أي بلد زراعي. (المترجمان).

(1) ميخائيلوفسكي نيقولاي كونستانتينوفيتش (1842-1904)، مُنظّر حركة النارودنكس. (المترجمان).

يقف ضدّ ما لم يكن موافقاً عليه. فالكثير كان مرعباً في حياة ما قبل الحرب! غالباً ما تذكّر لوناتشارسكي الراحل - كم يرغب في أن يراه من جديد، وكم كان سهلاً الحديثُ إليه، كانا يفهمان بعضهما بعضاً بسرعة ومن الإشارة.

الآن وفي معسكر الاعتقال الألماني المرعب، يشعر بنفسه واثقاً وقويّاً. لكن ثمّةَ إحساس مزعج فقط لا يفارقه. فهو لا يستطيع في هذا المعسكر أن يستعيد الإحساس الواضح الحيويّ الشاب: صديق بين الأصدقاء، وغريب بين الغرباء.

المسألة لم تكمن في أنّ ضابطاً إنكليزيّاً سأله ذات مرّة، ألم يُعقْهُ وهو يُمارسُ علمَ الفلسفة أنّه في روسيا لا يستطيع أن يفصح عن وجهات نظر معادية للماركسية.

فأجاب ميخائيل سيدوروفيتش:

- قد يزعجُ ذلك أحداً ما. أمّا أنا الماركسي، فلم يزعجني الأمر.

قال الإنكليزي:

- لقد طرحت عليك هذا السؤال، وأعني ذلك بشكل خاص، كونك ماركسيّاً قديماً.

ومع أنّ موستوفسكي تأثّر بالإحساس المرضي، الذي أثارته فيه هذه الكلمات، إلّا أنّه تمكّن من إجابة البريطاني بشكل صحيح.

المسألة لم تكمن في أنّ أشخاص مثل أوسيبوف، وغودز، ويرشوف، قد ضايقوه أحياناً، بالرغم من أنّهم كانوا من المقرّبين جداً إليه. لا، المصيبة كانت في أن الكثير ممّا هو داخل روحه نفسها

أصبح بالنسبة له غريباً. حدث له في أوقات السلم، أن كان فرحاً جداً للقاء صديق قديم، لكنه رأى فيه في نهاية اللقاءِ شخصاً غريباً.

لكن كيف يمكن التصرّف، في الوقت الذي تعيش غرابة الوقت الحاضر بداخله هو نفسه، وكانت جزءاً منه... بحيث لا يمكنك نزعها، ولا يمكنك ألا تلتقيها.

شعرَ بالاشمئزاز خلال أحاديثه مع إيكونيكوف، كان غليظاً أحياناً، ساخِراً، نعته بالحامض، والرخو، والأملس، والقبّعة. لكن بالرغم من أنّه كان يهزأ به، فقد اشتاق إليه، عندما كان يغيب عنه لفترة طويلة.

في هذا يكمنُ التغيّرُ الأساسي بين أعوام السجن في شبابه والزمن الحالي.

كان في مرحلةِ الشبابِ كلُّ شيءٍ في أصدقائه ورفاقه مفهوماً وقريباً منه. وكل فكرة، وكلّ وجهة نظر للعدوّ كانت غريبةً ووحشيّةً.

وعرف الآن فجأة في أفكار الغريب، ما كان ثميناً بالنسبة إليه قبل عشرات السنين، والأفكار الغريبة تجلّت أحياناً وبشكل غير مفهوم في أفكار الأصدقاء وكلماتهم.

فكّر موستوفسكي - «هذا ما يجب أن يكون، ما دمتُ أعيش طويلاً جداً في هذا العالم».

5

عاشَ عقيدٌ أمريكي في غرفة منفصلة في الثكنة ذات الوضع الخاصّ. سمحوا له أن يخرج بحرّية من الثكنة في الأوقات المسائيّة، قدموا له غداءً خاصّاً. قالوا، كانت هناك توصية حول وضعه من النمسا - لقد طلب الرئيس روزفلت إلى الملك النمساوي الاهتمام بوضعه.

أحضر العقيد ذات مرّة قطعة شوكولا للمقدم الروسي المريض نيكونوف. أكثر ما كان يثير اهتمامه في الثكنة الخاصّة، هم الأسرى العسكريون الروس. حاول أن يفتح حديثاً مع الروس عن التكتيك الألماني، وعن أسباب الهزائم في السنة الأولى من الحرب.

غالباً ما كان يتحدّث مع يرشوف، وينظر إلى عينيّ الرائد الروسي الذكيّتين والجديّتين والمَرحتين في الوقت نفسه، ناسياً أنّ الرائد الروسي لا يفهم اللغة الإنكليزية.

بدا له غريباً كيف لا يفهمه شخص له هذا الوجه الذكيّ، أضف إلى ذلك أنّه لا يفهم حديثاً في مواضيعَ تقلقُ كثيراً الاثنين على حدّ سواء.

سأل بحسرة:

- أيُعقل أنك لا تفهم اللغة الإنكليزية على الإطلاق؟

أجابه يرشوف باللغة الروسية:

- الملازم المحترم عندنا يعرف اللغات كلّها عدا الأجنبية.

ومع ذلك وبلغة مكوَّنةٍ من الابتسامات، والنظرات، والطبطبة على الظهر وبعشر كلمات - خمس عشرة كلمة روسيّة، وألمانيّة وإنكليزيّة وفرنسيّة مشوّهة، تحدّثَ عن الرفاقيّة، والمؤازرة، والمساعدة، وعن حبّ البيت، والزوجات، والأطفال - أشخاصُ المعسكر الروس وسواهم ممن يمثّلون عشرات القوميات واللغات.

إنّ الكلمات الألمانية التي وُلدت في المعسكر مثل: رفيق، مشرف، تبغ، سيجارة، كابو... إلخ، كانت كافية للتعبير عن الشيء الهام في الحياة البسيطة والمُختلِطة لمعتقلي المعسكر.

وكانَ ثمةَ كلمات روسيّة - شباب، تبغ، رفيق- استخدمها مُعتقلو الكثير من القوميات. أمّا الكلمة الروسية «دوخودياغا[1]»، التي كانت تُحدّد حالة المعتقل القريب من الموت، فقد أصبحت عامّة بالنسبة للجميع، واستوعبتها جميع قوميات المعسكر الست والخمسين.

لقد اقتحم الشعب الألماني العظيم بعشر - إلى خمسَ عشرة كلمة، القرى والمدن التي يقطنها الشعب الروسيّ العظيم، والملايين من النساء الروسيّات، وكبار السنّ، والأطفال، والملايين من الجنود الألمان تفاهموا بكلمات - «ماتكا، ارفع يديك، دجاجة، بيضة، سيّئ». ما من أمرٍ طيّب نتجَ عن هذا التفاهم. لكن هذه الكلمات كانت تكفي الشعبَ الألمانيَّ العظيم، كي يقومَ بتلك الأعمال التي قام بها في روسيا.

---

(1) تعني الشخص الهزيل جداً، خائر القوى. (المترجمان).

وهكذا أيضاً ما من أمرٍ طيّبٍ نتجَ من محاولة تشيرنيتسوف الحديث مع الجنود الأسرى السوفييت - بالرغم من أنّه لم ينسَ اللغة الروسية خلال عشرين عام من الهجرة، وتحدّث باللغة الروسية بشكل رائع. لم يستطع فهم الجنود السوفييت الأسرى، لقد كانوا غريبين عنه.

وكذلكَ لم يستطع الجنود الأسرى السوفييت أن يتفقوا فيما بينهم - بعضُهم كان مستعداً للموت، ولكن لا يخون، وآخرون فكّروا في الانضمام إلى جيش فلاسوف[1]. كانوا كلّما تكلّموا أكثر وتجادلوا، قلّ فهمُ أحدهم للآخر. ثم صمتوا فيما بعد، وشعروا بكرهٍ تام بعضهم لبعض.

في غمرةِ غمغمةِ الصُمّ وأحاديثِ البكّم، في هذا المكان المكتظّ بالناس الذين وحّدهم الرعب، والأمل والمصيبة، وفي عدم الفهم وفي الكره ما بين الأشخاص الذين يتكلمون لغة واحدة، تجلّت مأساوياً إحدى كوارث القرن العشرين.

---

(1) جيش التحرير الروسي يعرف باسم (جيش فلاسوف)، وهو مجموعة من العسكريين الروس المنشقّين عن الجيش الصدامي الثاني والذين أعلنوا ولاءهم للقيادة العليا للجيوش الألمانية النازية خلال الحرب العالمية الثانية. تكوّن جيش التحرير الروسي على يد جنرال الجيش الأحمر أندري فلاسوف الذي حاول لم شمل مناهضي الشيوعيّة من الروس والمعارضين لنظام الحكم الشيوعي في روسيا، ومن ثم كان المتطوعون في صفوف جيش التحرير الروسي هذا من أسرى الحرب السوفييت والمهاجرين البيض (الذين كان منهم من حارب الشيوعيين ضمن صفوف الجيش الأبيض أثناء الحرب الأهلية الروسية). (المترجمان).

6

كانت أحاديث الجنود الأسرى الروس، في ذلك اليوم، الذي تساقط فيه الثلج، حزينةً أيّما حزن.

حتى العقيد زلاتوكريليتس وقائد اللواء أوسيبوف، اللذان كانا دائماً، قويّين وممتلئين بالطاقة المعنويّة، أصبحا صامتين ومتجهّمين.

جلس رائد المدفعيّة كيريلوف على سرير موستوفسكي، وقد أرخى كتفيه، وهزّ رأسه بهدوء. وبدا أن جسدَهُ الضخم كلَّه، وليس عيناه القاتمتان فحسب، ممتلئاً بالشوق والحنين. مثلُ تعبيرِ هاتين العينين يوجَدُ عند مرضى السرطان الذين لا أملَ في شفائهم - مُحدِّقين في مثل هاتين العينين، حتى أقرب الناس إلى الشخص يفكّرون مواسين: ليتَهُ يموتُ بسرعة.

أشار كوتيكوف شاحب الوجه والحاضرُ في كل مكان، إلى كيريلوف، وقال لأوسيبوف هامساً:

- إمّا أنّهُ سيشنق نفسه، أو سيهرع إلى جماعة فلاسوف.

فرك موستوفسكي خدّيه الأشيبين الخشنين وقال:

- اسمعوني أيّها القوزاق[1]. في الحقيقة الوضع جيّد. أيُعقل

---

(1) القوزاق: هم مجموعة إثنية للسلافيين الشرقيين الذين يقطنون بجملتهم

أنّكم لا تدركون ذلك؟ إنّ كلّ يومِ حياةٍ للدولة التي أسّسها لينين، هو يومٌ لا يطاقُ بالنسبة للفاشيّة. وليس للفاشيّة من خيار- إمّا أن تبتلعنا، وتقضي علينا، أو تهلك هي نفسها. إنّ في حقد الفاشيّة علينا تحقّقاً من صحّة نهج لينين. هناك أيضاً مسألة خطيرة. افهموا، كلّما كان حقد الفاشيّة علينا أكبر، ينبغي أن نكونَ أكثرَ ثقة بصحّة نهجنا. وبأننا سنتغلّب عليها.

التفت بحدّة نحو كيريلوف وقال:

- ما بك أنت؟ تذكّر غوركي، عندما سار في فناء السجن، صاح به أحد الجورجيين قائلاً: «ما بك تسير مثل الدجاج، امشِ ورأسك مرفوع!».

ضحك الجميع.

- صحيح، صحيح، - قال موستوفسكي - هيّا ارفعوا رؤوسكم. فكّروا - إنَّ الدولةَ السوفييتيَّة العظيمةَ تدافع عن الفكرة الشيوعية! دعوا هتلر يتعامل معها ومع الفكرة. ستالينغراد ثابتة، وصامدة. لقد بدا أحياناً قبل الحرب - أننا بقوةٍ وقسوة شددنا العزقات ؟ لكن الآن بالفعل، أصبح الأمرُ واضحاً حتى للأعمى - الهدف يبرّر الوسيلة.

قال يرشوف:

- نعم لقد شدّوا العزقات جيّداً عندنا. صحيح ما تقوله.

السهوب الجنوبية في شرق أوروبا وروسيا وكازاخستان وسيبيريا. أدّى القوزاق دوراً مهمّاً في الحروب العديدة التي كانت تخوضها الإمبراطورية الروسية في القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، كونهم مدافعين عن الدولة الروسية وأعواناً للحكم القيصري. (المترجمان).

قال الجنرال غودز:

- لم يتمّ شدّها بما فيه الكفاية. كان يجب شدّها أكثر، حينها ما كان باستطاعتهم حتى أن يصلوا إلى نهر الفولغا.

قال أوسيبوف:

- ليس نحن من يعلِّم ستالين.

- حسناً، - قال موستوفسكي - وإذا ما استشهدنا في السجون أو في مناجم المواد الأوليّة، فلن يكون بإمكاننا فعل أيّ شيء. ليس علينا التفكير في ذلك.

وسأل يرشوف بصوت عال:

- فيمَ علينا التفكير إذاً؟

التفتَ الجالسون، ونظروا بعضهم في وجوه بعض.

- آه، كيريلوف، كيريلوف - قال يرشوف فجأة - صحيح ما قاله والدنا: علينا أن نفرح، كون الفاشيين يكرهوننا. نحن نكرههم وهم يكرهوننا. أتفهم؟ وأنت فكّر - تأتي إلى جماعتك في المعسكر، يعني قريبٌ أتى إلى أقربائه. هذه هي المصيبة. ثم ماذا! نحن أناس أقوياء، وسنقدّم الحياة فيما بعد للألماني.

7

ليوم كاملٍ لم يكن لقيادة الجيش 62 اتصالات مع الوحدات. تعطَّل الكثير من الأجهزة اللاسلكية في المقر، وانهارت الاتصالات السلكية في كلّ مكان.

كانت ثمّة لحظات، أحس الناسُ فيها وهم ينظرون إلى الموجة المتدفّقة الصغيرة لنهر الفولغا، أنَّ النهرَ جامدٌ لا يتدفق، عند الضفّة التي ارتطمت بالأرض المرتجفة. المئات من المدافع السوفييتية الثقيلة أطلقت نيرانها من خلف نهر الفولغا. وارتفعت فوق المواقع الألمانية عند منحدر هضبة ماماييف كتلةٌ من الترابِ والطين.

دوامات السحب الترابية، التي مرّت من خلال منخل مُدهش غير مرئي، كوّنتها قوّة الجاذبية، وفَرَزتها على طريقتها - الأحجارُ الثقيلةُ، والكتلُ الكبيرة سرعان ما سقطت على الأرض، أمّا ما خَفَّ وزنهُ فقد ارتفعَ عالياً في السماء.

عدة مرّات في اليوم، واجَهَ جنودُ الجيش الأحمر الدبابات والمشاة الألمان، بعيون ملتهبة صامتة.

بدا النهار بالنسبة للقيادة المنفصلة عن القوات طويلاً وقاتماً.

كم حاول تشويكوف وكريلوف وغوروف ملء هذا اليوم - شكّلوا

إدارة عمليّات، كتبوا رسائل، ناقشوا احتمالات تحرّك العدوّ، مزحوا، وشربوا الفودكا مع المقبلات ومن دونها، وصمتوا، واستمعوا إلى دويّ القذائف. دوّامة حديدية كانت حول المخبأ المموّه، الذي رفع للحظة رأسه فوق مستوى الأرض، قطعت كل شيء حيّ. المقر كان مشلولاً.

- هيّا نلعب لعبة الرمي - قال ذلك تشويكوف ودفع إلى الزاوية طاولة منفضة السجائر الكبيرة، الممتلئة بالأعقاب.

وحتى رئيس أركان الجيش كريلوف خانه الهدوء. قال وهو ينقرُ الطاولة بأصابعه:

- ما من وضعٍ أسوأ مما نحن فيه ؛ ننتظر هكذا، كي لا يأكلوننا.

وزّع تشويكوف ورق اللعب، وأعلن «البطاقة الرابحة»، ثم خلط فجأة الحزمة، وقال:

- ننتظرُ مثل الأرانب، ونلعب الورق. لا، لا أستطيع!

جلس غارقاً في التفكير. بدا وجهُهُ مُخيفاً، يعكسُ تعبيرَ الكرهِ والألم.

كرّر غوروف مُفكّراً، وكأنّه يتنبأُ بمصيره:

- نعم، بعد يومٍ كهذا يمكن أن أموت جرّاء تمزّق القلب.

ثم ضحك قائلاً:

- الخروج إلى المرحاض نهاراً في الفرقة - مسألة مخيفة لا معنى لها! لقد حدّثوني: اندفع رئيس الأركان عند لودنيكوف[1] إلى

---

(1) قائد عسكري حارب في معركة ستالينغراد. (المترجمان).

داخل مخبأ المقرّ المموّه هاتفاً: «أورا، أيّها الشباب، لقد تغوّطت!». التفت، فرأى الدكتورة التي يحبّ تجلس في المخبأ.

توقّف قصف الطيران الألماني مع حلول الظلام. لاشكَ أنَّ شخصاً سيجدُ نفسه ليلاً على ضفّة ستالينغراد المكتئبة من جَرّاءِ الهدير والانفجارات لعبَّرَ عن ذلكَ أن مصيراً مؤسفاً قاده إلى ستالينغراد ساعة الهجوم الحاسم. فبالنسبة للعسكريين القدامى كان هذا وقت الحلاقة، وغسل الثياب، وكتابة الرسائل، وقتٌ يصنعُ فيه فنيّو الميكانيكك والخراطة واللحام وحرّاس الجبهة الولاعاتِ والأبواقَ والمصابيحَ، من فوارغِ القذائف، ومن فتائل المعاطف، ويصلحون المشّايات.

وميضُ نارِ الانفجارات أنارَ ضفة الهضبة، ودمار المدينة، وخزّانات النفط، ومداخن المصانع، وبدت الضفاف والمدينة في هذه الومضات القصيرة مشؤومة ومتجهّمة.

عادت الحياة في الظلمة إلى عقدة الاتصالات العسكرية، وفرقعت الآلات الكاتبة، التي تكاثرت صور تقاريرها العسكريّة المنسوخة، وضجّت الحركة، واهتزّت أجهزة اللاسلكي، وترددت أصوات عاملات المقاسم الهاتفيّة في الخطوط - وصلوا إلى الشبكة خطوطَ هواتفِ مقرّات قيادة الفرقة، والألوية، وبطاريات المدافع، والفصائل... وسعل برزانة المتصلون القادمون إلى المقرّ العسكري، وقدّم ضباط الاتصال تقاريرَهم إلى المناوب التنفيذي.

سارع إلى تقديم تقاريرهم لتشويكوف وكريلوف كلٌّ من العجوز بوجارسكي، وقائد مدفعية الجيش، والمسؤول عن إرسال جثامين القتلى الجنرال المهندس تكاتشينو، والقادم الجديد في المعطف

الأخضر العسكري، وقائد الفرقة السيبيرية كورتييف، ومقدّم ستالينغراد العجوز باتيوك، الذي كان مع فرقته تحت هضبة مامايف. لقد سُمعت في التقارير السياسية لعضو المجلس العسكري غوروف أسماء مشهورة من سكان ستالينغراد - ضابط مدافع الهاون بيزديدكو، والقنّاص فاسيلي زايتسيف وأناتولي تشيخوف، والملازم بافلوف، وذُكرت إلى جانبهم أسماء تُسمَعُ لأوّل مرّة في ستالينغراد - شونين، فلاسوف، بريسين، أولئكَ الذين جلب لهم يومهم الأوّل في ستالينغراد الشُّهرة العسكرية. لقد حَمَّلوا سعاة البريد على الجبهة مثلثاتٍ ورقيَّة متساوية الساقين[1]- «طيري أيّتها الورقة، من الغرب إلى الشرق... طيري مع التحية، وعودي بالجواب... نهاركم سعيد، وربما تكون... مساؤكم...». دفنوا الشهداء على الجبهة، وقضى الموتى ليلتهم الأولى لغفوتهم الأبدية إلى جانب المخابئ والملاجئ حيث كتب رفاقُهم الرسائل، وحلقوا ذقونهم، وأكلوا الخبز، وشربوا الشاي، واستحمّوا في حمامات جُهّزت تجهيزاً مؤقتاً.

---

(1) كانت رسائلُ الجنود إلى ذويهم في الخلف تُطوى على شكل مثلث متساوي الساقين. (المترجمان)

8

حلّت أصعَبُ أيامِ المدافعين عن ستالينغراد.

كان رجحانُ المعركة الفوضوية في المدينة، والهجمات والهجمات المضادة في القتال من أجل «بيت الاختصاصي»، والمطحنة، وبناء البنك الحكومي، والقتال من أجل الأقبية، والساحات، والفناءات، لمصلحة القوات الألمانية من دون شك.

اتّسع الإسفين الألماني الذي دُقّ في الجزء الجنوبي لستالينغراد، عند حديقة لابشين، وكوبوروسنايا بالكا ويلشانكا، وقصفت المدافعُ الألمانيّةُ التي تمركزت قرب الماء نفسه الضفةَ اليسرى لنهر الفولغا، إلى جنوب كراسنايا سلوبودا. حدّد الميدانيون كلّ يوم خط الجبهة على الخرائط، ورأوا كيف تسلّلتِ العلاماتُ الزرقاءُ باستمرار، وذاب كلّ شيء، وضاق الشريطُ بين الخط الأحمر للدفاع السوفييتي، والأزرق لنهر الفولغا.

المبادرةُ وروحُ الحرب في هذه الأيام كانتا بيد الألمان. لقد زحفوا وزحفوا إلى الأمام، ولم تستطعْ شراسةُ الهجماتِ السوفييتيةِ المضادّةِ أن توقفَ حركتَهم البطيئةَ المثيرةَ للاشمئزاز.

وفي السماء، ومن الشروق حتى الغروب، قصفت القاذفاتُ

الألمانيَّةُ الأرضَ الكئيبةَ بالقنابلِ شديدة الانفجار ودمّرتها. وعاشت في رؤوس المئات فكرة واخزةٌ قاسية ومؤلمة؛ ما الذي سيكون عليه الوضع يوم غد، بعد أسبوع، عندما يتحوّل شريطُ الدفاعِ السوفييتيِّ إلى خيط، ثمَّ ينقطع بأسنان الهجوم الألماني الحديدية القاطعة.

9

استلقى الجنرال كريلوف في وقتٍ متأخرٍ من الليل على السرير في مخبأه. ألم في صدغيه، ووخز في حنجرته بسبب عشرات السجائر التي دخّنها. مرّر لسانَه على سقفِ حلقه الجاف واستدار نحو الجدار. خلط النعاسُ في ذاكرة كريلوف معاركَ أوديسا وسيفاستوبول، صراخَ المشاةِ الرومانيين المقتحمين، والحجارةَ المرصوفة، وفناءاتِ أوديسا المغطاة باللبلاب، وجمال بحار سيفاستوبول.

تخيّل، أنّه من جديد في مقرّ القيادة في سيفاستوبول، ولمع في ضباب النعاس زجاجُ نظّارات الجنرال بيتروف؛ تلألؤ الزجاجِ ومضَ بآلافِ الشظايا، والبحرُ أخذ في التموّج، والغبارُ الرماديُّ الناجمُ عن تفتتِ الصخورِ بالقذائفِ الألمانية فوق رؤوسِ البحّارةِ ارتفعَ فوق جبل - سابون.

سُمعت دفقة موجة بلا روحٍ على جسم الزورقِ، وصوتُ غوّاصٍ خشنٌ: «اقفز!». هُيّئ له أنّه قفز إلى الموجة، لكن رجله لامست على الفور جسمَ غوّاصة... ونظرة أخيرة إلى سيفاستوبول، وإلى النجوم في السماء، وإلى حرائق الشواطئ...

غفا كريلوف. استمرّت سلطة الحرب في الحلم. خرجت

الغوّاصة من سيفاستوبول إلى نوفوروسيسك. . . ضغط رجليه المتصلّبتين، وابتلّ صدره وظهره بالعرق، وصوت المحرّك كان يضرب في صدغيه. وتجمّد المحرّك فجأة - استلقت الغوّاصة بهدوء في القاع. انحباس لا يطاق في الهواء، ضغط على قوس معدني، مقسّم إلى مربعات تثبيت مُنقّطة. . .

سمع دويّ انفجارات قويّة متتالية - انفجرت قنبلة ضخمة، ضربته المياه وقذفته عن السرير. فتح كريلوف عينيه: النار في كل مكان، تدفق بجانب باب المخبأ المفتوح تيّارٌ من اللهب نحو الفولغا، وسُمع صراخ الناس، ورشقات الرشاشات.

- غطِّ الرأس بالمعطف، بالمعطف!- صاح جنديّ مجهول من الجيش الأحمر مخاطباً كريلوف. لكن كريلوف دفع الجنديّ جانباً، وصاح:

- أين القائد؟

أدرك فجأة أن الألمان أحرقوا خزانات النفط، وتدفّق النفط الحار إلى نهر الفولغا.

هُيّئَ لهُ أنْ ليسَ هناك من إمكانية للخروج حيّاً من هذه النار السائلة. هدرت النيران، وفرقعت وهي تنفصل مبتعدة عن النفط، مالئة الحفر والأقماع، وهي تتدفّق بطريقها عبر الخطوط. وبدأ كلٌّ من الأرض، والطين، والحجر المُشبع بالنفط يحترق. انسكب النفط جداول سوداء لامعة، من الخزانات المثقوبة برصاصات حارقة، وبدا، وكأنّها تحوّلت إلى لفافات ضخمة من النار والدخان، كانت مضغوطة في الصهاريج.

الحياة التي سادت على الأرض قبل مئات الملايين من السنين،

والحياة الخشنة والمرعبة لوحوش المجتمع البدائي، انتفضت من طبقات المقابر العميقة والسميكة، زأرت من جديد، تسحق بالسكاكين، تعوّي، وتأكل كلّ ما حولها بنهم. ارتفعت النيران مئات الأمتار إلى الأعلى، وحملت الغيوم ، التي انبعثت بشكل متفجّر، البخار الحارّ عالياً في السماء. كانت كتلُ اللهب كبيرةً لدرجة أنّ دوّامةَ الهواءِ لم تتمكّن من تغذية الجزيئات الكربونيّة المحترقة بالأوكسجين، وغطاء أسود كثيف متموّج فصل السماءَ الخريفيةَ المرصّعةَ بالنجوم عن الأرضِ المحترقةِ. لقد كان النظرُ مريعاً من الأسفل إلى هذه السماء المتدفّقة الدهنيّة السوداء.

اتخذت أعمدة الدخان والنار المتصاعدة إلى الأعلى، مرّة شكلَ خطوطٍ عريضة لمخلوقاتٍ حيّة يسيطرُ عليها اليأسُ والغضبُ، ومرّةً أخرى بدتْ شجرَ حورٍ يرتجف. وشابَهَ دورانُ الأحمرِ والأسودِ في اللوحات الناريّة فتيات شعثاواتٍ سوداً وحمراً انشبكنَ في رقصةٍ شعبية.

النفط الحارّ الذي انتشر وتمدد على سطح الماء، اهتزّ ودخّن وتلوّى.

الغريبُ أنَّ الكثيرَ من المحاربين، عرفَ كيفَ يمكنُ الانتقال إلى الضفة. صاحوا: «إلى هنا، أسرع إلى هنا، وامشِ على هذا الدرب!». بعضُ الناسِ تمكّن لمرتين أو ثلاث من الصعود إلى المخابئ المشتعلة، وساعدَ الموظّفينَ في الوصولِ إلى الشاطئ، حيث وقفت مجموعة من الناجين في المفترق الناريّ الذي تدفّق في نهر الفولغا.

ساعد الأشخاصُ ذوو السُّتَرِ المُبطّنةِ قائدَ الجيشِ، وضباطَ

الأركانِ في النزول إلى الشاطئ. أخذَ هؤلاء الأشخاص الجنرالَ كريلوف من النار وحملوه على أيديهم، وقد عدّوهُ ميّتاً، لكن بعد أن حرّك أجفانَه المحترقة، شقوا طريقهم من جديد من خلال دغل من الورد الشائك إلى مخبأ المقرّ الرئيسي.

وقف موظّفو مقرّ الجيش 62 حتى الصباح على قطعة صغيرة من الأرض عند النهر مباشرة، مغطين وجوههم من الهواء الحارّ، نافضين عن ثيابهم شرارات النار، وينظرون إلى قائد الجيش. كان مرتدياً معطف الجيش الأحمر على كتفه، وتبرزُ ذؤابةُ شعرٍ من تحت القبعة فوقَ جبينه. كان غاضباً متجهّماً، لكنّه بدا هادئاً وغارقاً في التفكير.

قال غوروف وهو ينظر إلى الواقفين:

- تبيّن أنّنا لا نحترق حتى داخل النار. . - ثم تحسّس أزرار المعطف الحارّة.

صاح رئيس الشعبة الهندسيّة الجنرال تكاتشينكو:

- إي، أيها الجندي خذ المعول، واحفر قناةً هنا بسرعة، فقد تسيل النار من تلك التلّة!

ثم قال لكريلوف:

- لقد اختلط كلّ شيء، أيّها الرفيق الجنرال، النارُ تسيلُ كالماء، والفولغا يحترقُ باللهب. حظُّنا جيّد، أنْ لا وجودَ لريح قويّة، وإلا فكنا احترقنا جميعاً.

عندما هبّت الريح من الفولغا، تمايلت خيمة الحريق الثقيلة، وانحدرت، ونفرَ الناس من اللهب الحارق.

بعضهم اقترب من الشاطئ، وغسل جزمته بالماء، فتبخّر الماء عن السطح الحارّ. والبعض صمت، وثبّتَ نظره بالأرض، وآخرون حدّقوا في كل شيء، ومنهم من مزح متغلّباً على التوتر: «هنا لسنا بحاجة إلى أعواد الثقاب، يمكننا أن نُشعل السيجارة من الفولغا، ومن الريح»، وآخرون تحسّسوا أنفسهم، وهزّوا رؤوسهم، شاعرين بحرارة الأبازيم المعدنيّة على الأحزمة.

سُمعت عدة انفجارات، أربعُ قنابل يدوية انفجرت في مخابئ كتيبة حرّاس المقرّ. ثم انفجرتْ خراطيش في أحزمة البنادق الرشّاشة. أزّ من خلالِ النارِ لغمٌ ألماني، وانفجر بعيداً في الفولغا. لُمح من خلال الدخان أشخاصٌ بعيدون على الشاطئ - لقد حاول على ما يبدو أحد ما إبعادَ النارِ عن مقرِّ القيادة، وبعد لحظة اختفت من جديد في النار والدخان.

لم يعد كريلوف يتذكّر أو يقارن، وهو يمعن النظر في النار المنسكبة حوله. . . فيما إذا كان الألمانُ يفكرون في القيام بهجومٍ مستغلّين هذا الحريق؟ الألمان لا يعرفون في أيّ وضع قيادة الجيش الآن، وأسير الأمس لم يُصدّق بأن قيادة الجيش تقع على الضفة اليمنى. . . إنها عمليّة خاصّة على ما يبدو، وهذا يعني أن ثمّةَ حظاً، في البقاء على قيد الحياة حتى الصباح. عسى ألا تهبّ الريح فقط.

التفت إلى تشويكوف الواقف إلى جانبه، تشويكوف كان يُحدّق في الحريق الهادر؛ بدا وجهُهُ المُلوّثُ بالسخام نُحاسيّاً حارّاً. نزع قُبّعته، مسد يده على شعره، وأصبح يشبه الحدّاد القرويّ المتعرّق؛ تطاير الشررّ فوق رأسه المتجعّد. ها هو ينظرُ إلى قبّة النار الصاخبة، والتفت إلى نهر الفولغا، حيثُ ظهرتْ فواصلُ مظلمة بين النيران

الممتدة. اعتقد كريلوف أن القائدَ يحلّ بتوتّر تلك الأسئلة، التي تقلقه هو نفسه: ألن يبدأ الألمان ليلاً هجوماً كبيراً... إلى أين يُنقَلُ المقرُّ، إذا بقينا أحياء حتى الصباح...

شعر تشويكوف بنظرة رئيس الأركان، ابتسم وقال له، راسما بيده دائرة واسعة أعلى رأسه:

- جميل، بصورة غريبة، يا للشيطان، أليس كذلك؟

لهبُ النارِ كان مرئيّاً بشكل جيّد من الحديقة الحمراء، من وراء الفولغا، حيث تمركز مقرّ قيادة جبهة ستالينغراد. استلمَ رئيسُ الأركانِ الجنرال - ملازم زاخاروف، الخبر الأوّل عن الحريق، وأبلغ يريمينكو بذلك، فطلب القائد إلى زاخاروف شخصيّاً أن يذهب إلى مقسم الهاتف ويتحدّث إلى تشويكوف. سار زاخاروف على الدرب مُسرعاً، هو يتنهّدُ بصوتٍ عالٍ. كانَ المعاونُ الذي يضيءُ الدربَ بالمصباح اليدوي، يقول من وقت إلى وقت: «احذر، أيّها الجنرال»- ويُبعد بيده أغصان التفاح المتدلّية فوق الدرب. أضاء الوهجُ البعيدُ جذوعَ الأشجارِ، وتَوَضَّعتْ بقعٌ ورديّةٌ على الأرض. هذا الضوء الغامض ملأ روحه بالقلق. إنّ الهدوء المُخيّم في المحيط، الذي خرقته فقط نداءاتُ الحراس الخافتة، أعطى النارَ البكماءَ الشاحبة قوّة قهرٍ خاصّة.

قالت المناوبة في مقسم الهاتف، وهي تنظر إلى زاخاروف الذي يتنفّس بصعوبة، لا يوجد اتصال مع تشويكوف - لا بالهاتف، ولا بالتلغراف، ولا باللاسلكي...

سأل زاخاروف بصوت متقطّع:

- ومع الفِرَق؟

- قبل قليل كان ثمّةَ اتصال مع باتيوك، أيّها الرفيق الجنرال - ملازم.

- هيّا بسرعة!

تهيّبت المناوبة أن تنظر إلى الجنرال، كونها كانت واثقة من أنّ الطبيعة المتوتّرة والصعبة للجنرال سوف تتجلّى الآن، وقالت فجأة بفرح:

- يوجد، تفضّل أيّها الرفيق الجنرال - ومدّت سمّاعة الهاتف لزاخاروف.

تحدّث رئيس أركان الفرقة مع زاخاروف شاعراً بالمهابة كفتاة الهاتف، حالما سمع التنفّس الصعب والصوت السلطوي لرئيس أركان الجبهة.

- ماذا يحدث عندكم هناك، أخبرني. هل يوجد اتصال مع تشويكوف؟

أبلغه رئيس أركان الفرقة بشأن الحريق في خزانات الوقود، وأنّ كتلة النيران وصلت إلى مقرّ أركان قيادة الجيش، وأنْ لا اتصال للفرقة مع القائد، وما استُشهدَ الجميع هناك كما هو واضح، إذ يُشاهد أشخاص من خلال الدخان والنار، يقفون على الشاطئ، لكن الوصولَ إليهم غير ممكن، لا من اليابسة، ولا بالزورق من خلال نهر الفولغا - الفولغا يحترق. مضى باتيوك مع فصيل حراسة المقرّ عن طريق الشاطئ، كي يحاول تغيير مسار التيّار الناري ومساعدة الأشخاص الواقفين على الضفّة للخروج من النار.

قال زاخاروف، بعد أن استمع إلى رئيس الأركان:

- أبلغ تشويكوف، إذا كان حيّاً، أبلغ تشويكوف... - وصمت.

دهشت فتاة - المقسم بسبب الفاصل الطويل وهي تنتظر صدى صوت الجنرال الأجشّ، ونظرت متخوّفة إلى زاخاروف - كان يقف، واضعاً المنديل على عينيه.

لقد استشهد في هذه الليلة أربعون من قادة الأركان وسط النار التي اجتاحت مخابئ المقرّات المموّهة.

10

وصل كريموف إلى ستالينغراد بعد حريق خزّانات الوقود مباشرة.

وضع تشويكوف مقرّ القيادة الجديد للجيش تحت منحدر نهر الفولغا، في مكان تمركز فوجُ المشاة، التابع لفرقة باتيوك. زار تشويكوف مخبأ قائد الفوج الملازم ميخائيلوف، هزّ رأسه بارتياح بعد أن عاين المخبأ الواسع والمبنيّ جيّداً. قال القائد ناظراً إلى وجه الملازم الحزين الأحمر والمُنمّش:

- لم يبنَ هذا المخبأ، أيّها الرفيق الملازم، استناداً إلى الرتبة.

مقرّ الفوج توزّع بأثاثه البسيط على عشرات الأمتار بمحاذاة مجرى النهر - ميخائيلوف الأحمر ضيّق من دون شك على قائد كتيبته.

لم يمسّ قائدُ الكتيبة الذي بقي دون شقة قوّاد سريّاته (فقد كانوا ومن دون ذلك في أماكن شديدة الضيق)، بل أمر بحفر مخبأ جديد على الهضبة نفسها.

عندما وصل كريموف إلى مقرّ قيادة الجيش 62، كانت عملية إزالة الألغام في خضمّها. حيث مدّوا ممرّات اتصال بين فروع

الأركان، دروباً وطرقاً، تَصلُ بين ساكني الفرع السياسي، وفرع العمليّات والمدفعيّة.

شاهد كريموف القائد نفسه مرّتين - لقد خرج يتفقّد موقع البناء.

ربّما، لا يوجد مكان في العالم يتعاملون فيه مع بناء المساكن، بمثل هذا التعامل الجدّي الذي يحدثُ في ستالينغراد. لقد بنوا مخابئ ستالينغراد ليس من أجل الدفء ولا تقليداً للأسلاف. احتمالُ ملاقاة الفجر وساعةُ الغداء وغيرها، أمور اعتمدت بشكل صارم على سماكة الجذوع التي صنعت منها جدران المخبأ، وعلى عمق مسار الطرق، وعلى القرب من المراحيض، وعلى مدى ملاحظة المخبأ من الجوّ.

عندما تحدّثوا عن الشخص؛ تحدّثوا عن مخبأه.

- تعامل باتيوك اليوم بشكل معقول مع قذائف الهاون على هضبة مامايف. . . ومخبأه بالمناسبة: ذو بابٍ من خشب البلوط، سميكٍ، كما في مجلس الشيوخ، إنّه شخص ذكيّ. . .

وحصل أن تحدّثوا عن أحدهم على هذا النحو:

- حسناً، لقد ضايقوه ليلاً، وفقدَ موقعاً رئيسيّاً، لم تكن لديه اتصالات مع الوحدات. يُشاهدُ موقعُ قيادتهِ من الجوّ، وعوضاً عن الباب لديه خيمة - عباءة؛ يمكن القول لمنع الذباب من الدخول. شخصٌ فارغٌ، سمعتُ أن زوجته تركته قبل الحرب.

الكثير من القصص المتنوّعة كانت مرتبطة بمخابئ وخنادق ستالينغراد. كالحديث عن مقرّ روديمتسوفسكي الذي عاش في الأنبوب، ودخلت إليه المياه فجأة وطافت إلى النهر قرطاسيةُ الديوانِ

كلها، وقد حددَ الساخرون على الخريطة مكان سقوط مقرّ روديمتسوفسكي في نهر الفولغا. وكالحديث عن كيف تحطّم الباب المشهور في مخبأ باتيوك. والحديث عن كيف دُفنت جولوديفا في مصنع الجرّارات مع المقرّ في المخبأ.

منحدرُ ستالينغراد الساحلي، المكتظُّ غالباً بالمخابئ، ذكّر كريموف بالباخرة الحربيّة الضخمة - على أحد جانبيها نهرُ الفولغا، وعلى الجانب الآخر جدارٌ سميكٌ من نيران العدوّ.

كُلِّفَ كريموف من قبل الإدارة السياسية بمهمةِ تسويةِ الخلاف الذي حصل بين القائد ومفوّض فوج المشاة في فرقة روديمتسوف.

كان ينوي وهو متّجه إلى روديمتسوف أن يقدّم تقريراً لقائد الأركان، ومن ثم يسعى لحلّ القضية الشائكة.

قادَه مراسلُ الدائرة السياسية إلى الفتحة الحجرية للأنبوب الواسع، الذي كان فيه مقرّ روديمتسوف. أبلغَ الحارسُ مَن في الداخلِ بحضور مفوّض الكتيبة من مقرّ الجبهة، فسُمِعَ صوتٌ سميكٌ يقول:

- نادِهِ إلى هنا، وإلا فإنّهُ سيوسّخ في سرواله، لأنه غير معتاد.

دخل كريموف تحت قبّة منخفضة، وشعر بنظرات موظفي القيادة تنصبُّ عليه، قدّم نفسهُ إلى مفوّض الكتيبة (قوميسار)، العقيد ممتلئ الجسم، الذي يرتدي معطفاً عسكرياً قطنيّاً، ويجلس على صندوق المُعلّبات.

قال مفوّض الكتيبة:

- لقد سررت جداً لسماع التقرير - الأعمال جيّدة. وقد سمعنا

بأنّ مانويلسكي وشخصاً آخر وصلا إلى الشاطئ الأيسر، لكنهما لا ينويان القدوم إلينا؛ إلى ستالينغراد.

- عدا عن ذلك، - قال كريموف - لديّ مهمة من رئيس الإدارة السياسية، لتسوية الوضع بين قائد كتيبة المشاة والمفوّض.

أجاب مفوّض الكتيبة:

- نعم كانت هذه المسألة قائمة، وحُلَّتْ من تلقاء نفسها يوم أمس: سقطت قنبلة تزنُ طنّاً على مقرّ القيادة، واستشهد ثمانية عشر شخصاً، من ضمنهم قائد الكتيبة والمفوّض.

تكلّم ببساطة واثقة:

- كانت أمورُهما مختلفة تماماً، حتى المظهر الخارجي: القائد إنسان بسيط، ابنُ فلاحين، أمّا المفوض فقد كان يرتدي قفازات، ويضع خاتماً في إصبعه. وها هما الآن يرقدان أحدهما إلى جانب الآخر.

وكشخصٍ يستطيع التحكُّمَ بمزاجه ومزاج الآخرين، ولا يخضع للأهواء غيّر نبرته بحدّة، وقال بصوت فرح:

- عندما كانت فرقتنا في ضواحي كوتلوبان، تعيّن عليَّ نقل المحاضر بافل فيودوروفيتش يودين معي في السيّارة إلى الجبهة. قال لي عضو المجلس العسكري: «إذا فقد شعرة، فسأقطع رأسك». تعذبتُ كثيراً معه. ما إن تقترب طائرة - حتى نحجزه في حجرة تصريف المياه إلى جانب الطريق. وصلنا إلى الشاطئ. لم يكن من الجيد أن أفقد رأسي. والحقيقة أنَّ الرفيق يودين كان حذراً بدوره، ومبادراً.

ضحك الأشخاص الذين استمعوا إلى حديثهما، وشعر كريموف من جديد بنبرته المثيرة للحساسيّة ذات السخرية المتسامحة.

عادة تراكمت لدى كريموف علاقات جيّدة بالقادة الميدانيين، وأُخرى مقبولة مع موظفي قيادات الأركان، لكن علاقاته اتسمت بالحساسيّة ولم تكن دائماً صادقة مع زملائه من الموظفين السياسيين. والآن أثار حساسيّته مفوّض الكتيبة: أقلّ من عام بأسبوع على الجبهة، ويقدّم نفسه محارباً قديماً، ولعله انتسبَ إلى الحزب قبيل الحرب، وها هوذا إنجلز لا يروق له.

لكن، وعلى ما يبدو، فقد أثار كريموف بدوره حساسيّة مفوّض الفرقة.

لم يغادر هذا الإحساسُ كريموف عندما رتّب له المعاون المنامَة، وعندما سقوه الشاي.

لكلّ قطعة عسكرية، أسلوب علاقات يُميّزها من غيرها. كانوا دائماً في مقرّ قيادة فرقة روديمتسوف يفخرون بجنرالهم الشاب.

أخذوا يطرحون الأسئلة على كريموف، بعد أن أنهى جلسته:

سأل رئيس المقرّ بيلسكي، الجالس إلى جانب روديمتسوف:

– متى أيّها المحاضر، يفتحُ الحلفاءُ الجبهةَ الثانية؟

مفوّض الفرقة، نصف المستلقي على سرير ضيّق، ملتصق بكسوة الأنبوب الحجرية، جلس وفرك يديه بالقشّ قائلاً:

– لِمَ العجلة. يهمّني قبل كلّ شيء، كيف ستتصرّف قيادتنا.

أغمض كريموف عينيه مستاءً من المفوّض، وقال:

– كون مفوّضكم طرح السؤال على هذا النحو، لست أنا من يجيب، بل الجنرال هو الذي يجيب عن هذا السؤال.

نظر الجميع إلى روديمتسوف، حيث قال:

- الرجلُ الطويلُ لا يُحشَرُ هنا. كلمة واحدة - إنّهُ أنبوب. الدفاع - ماذا يمكن القول، لا خدمة عليا فيه. أما الهجوم فمن المستحيل أن تحققه من هذا الأنبوب. لكنا سعداء، لكن لا يمكنك جمع الاحتياط في الأنبوب.

رنّ الهاتف في هذه الأثناء. فرفع روديمتسوف السماعة.

نظر الجميع إليه.

وضع روديمتسوف السماعة، وانحنى نحو بيلسكي وقال له بضع كلمات بصوت خافت. وبيلسكي بدوره مدّ يده نحو السماعة، لكن روديمتسوف وضع يده على جهاز الهاتف وقال:

- ولماذا؟ ألم تسمع؟

الكثير كان مسموعاً تحت الأقواس الحجرية للمكان، المُنارة بلمعان ضوء المصابيح الدخانيّ، المصنوعة من فوارغ ظروفِ القذائف. رشقات الرشاشات المتكرّرة أزّت فوق رؤوس الجالسين، مثل صوت مرور العربات فوق الجسر. وعلت من حينٍ لآخر انفجاراتُ القنابل اليدويّة. كان صدى الأصوات في الأنابيب عالياً جداً.

استدعى روديمتسوف إليه تارةً هذا الموظّف وتارة أخرى ذاكَ من موظفي المقرّ وقرّب من جديد إلى أذنه سماعة الهاتف المتعجِّلة.

التقط للحظة نظرة كريموف الجالس ليس بعيداً، وابتسم بلطف ابتسامة بيتوتيّة، وقال له:

- الطقسُ في الفولغا صاخب، أيّها الرفيق المحاضر.

أمّا الهاتف فقد رنّ من دون انقطاع. أدرك كريموف، وهو يصغي إلى روديمتسوف، ما الذي يحصل. اقترب نائب قائد الفرقة العقيد الشاب بوريسوف، من الجنرال، وانحنى فوق الصندوق، الذي انبسطَ فوقه مخططُ ستالينغراد، ورسم بحدّة خطاً كثيفاً أزرق عمودياً يقطع خط الدفاع الروسي المُنقّط حتى نهر الفولغا. نظر بوريسوف بصورةٍ مُعَبِّرة وبعينين عاتمتين إلى روديمتسوف. ووقف روديمتسوف فجأة، عندما رأى شخصاً في عباءة مطريّة يتجه نحوه من الظلمة.

وفق مشيتهِ وتعابيرِ وجهه أصبح واضحاً من أين أتى القادمُ – كانت تحيط به سحابة متوهّجة غير مرئية، وبدا أنّهُ خلالَ حركته السريعة، ليست العباءة المطرية هي التي تحفحف، بل هي أصوات فرقعة الكهرباء التي تشبّعَ بها جسد الرجل.

– أيّها الرفيق الجنرال،– صاح شاكياً – ضايقني، الكلب، انسلّ إلى الوادي، يحاول الوصول إلى الفولغا. أحتاج إلى الدعم.

قال روديمتسوف:

– أوقف العدوّ بنفسك وبأيّ ثمن. ليس لديّ احتياطي.

– إيقافهم بأيّ ثمن – أجاب الشخص في العباءة المطرية، وأصبح واضحاً للجميع عندما استدار، وتوجّه إلى المخرج، أنّه يعرف الثمن الذي سيدفعه.

سأل كريموف وأشار على الخريطة إلى الوريد المتعرّج للوادي:

– هنا بالقرب منّا؟

لكن ما كان لدى روديمتسوف الوقت للردّ عليه. سُمعت من فوهة الأنبوب أصوات طلقات مسدّس، وشوهد لمع بريق أحمر جراء القنابل اليدوية.

تعالت صفّارة القائد الحادّة. وهرع إلى روديمتسوف رئيس المقرّ صائحاً:

- أيّها الرفيق الجنرال، اقتحم العدوّ مقرّ القيادة. . . !

اختفى فجأة قائدُ الفرقة، الذي كان يتلاعَبُ قليلاً بصوته الهادئ، ويرسُمُ بقلم رصاصٍ مُلوّنٍ تغيّرَ الوضع الميدانيِّ على الخريطة. لقد اختفى الشعور بأنّ الحرب في الأنقاض الحجريّة والوديان المغطاة بالأعشاب المرتفعة المرتبطة بالفولاذ المعالج بالكروم، ومصابيح الكاثود، والمعدات اللاسلكية. صاح الرجل ذو الشفتين الرقيقتين بعناد:

- هيّا، أنتم في مقر الفرقة! تأكدوا من السلاح الفردي، وخذوا القنابل اليدوية، واتبعوني، نصدّ العدوّ!

شيء ما انزلق بقوّة وسرعةٍ إلى داخل كريموف، لقد كان في صوت هذا الرجل وعينيه، الكثير من الكحول الحربية المتجمّدة والحارقة. لقد بدا للحظة - أنّ قوّته ليست في الخبرة، ولا في معرفة الخرائط، بل كانت القوّة الرئيسية في هذا الرجل هي الروح العنيدة القاسية غير المُقيّدة!

خلالَ بضع دقائق خرجَ من أنبوب المقرّ، ضبّاط المقرّ، والمدوّنون، وموظفو الاتصالات والمقاسم، وتدافعوا بصعوبة وبسرعة، أمامهم ركض روديمتسوف، بخطى خفيفة، مُضاءً ببريق نيران المعركة، متّجهاً إلى الوادي، حيث كانت تدوّي الانفجارات، وإطلاق الرصاص، والصراخ والشتائم.

عندما ضاق تنفّسه جراء الركض، كان كريموف بين أوائلِ

الواصلين إلى حافة الوادي ونظر إلى الأسفل، شعر قلبه المرتجف بشعور يوحّد الخوف والاشمئزاز والكراهيّة. ومضت في قاع الشقّ ظلالٌ غامضة، وشعّت وانطفأت شراراتُ إطلاق النار، وأضاءت فتحات حمراء وأحياناً خضراء، وفي الهواء استمرَّ صوتُ صفيرٍ حديدي. تراءى لكريموف أنّهُ ينظر إلى جحر ثعبان ضخم، حيث المئات من الكائنات السامّة المضطربة، تصفر وتتلألأ عيونها، تزحف بسرعة وتحفحف بين الأعشاب الجافّة.

بدأ كريموف، مع شعوره بالغضب والاشمئزاز والخوف، بإطلاق النار من بندقية، باتجاه الومضات التي انتشرت في الظلمة، والظلال السريعة التي كانت تزحف على طول سفوح الوادي.

على بعد بضعِ عشرات الأمتار منه ظهر الألمان على قمّة سفح الوادي. انفجاراتُ القنابلِ اليدويّةِ المتكرّرةُ هزّت الأرض والهواء - حاولت مجموعةُ الاقتحام الألمانية الوصولَ إلى فوّهة الأنبوب.

ظلالُ الناس، وشرارُ إطلاق الرصاص كانا يومضان في العتمة، صراخُ المئات يُسمع أحياناً، وينطفئ أحياناً أخرى. بدا وكأنّ قِدراً أسودَ كبيراً يغلي، وكان كريموف بكل جسده وروحه مغموراً داخلَ غرغرة الفقاعات التي تغلي، ولم يعد يستطيع التفكير والشعور، كما كان يشعر ويفكر فيما مضى. بدا له أحياناً، أنّه يسيطر على حركة الدوّامة التي أخذته، وأحياناً أخرى سيطرَ عليه شعور بالهلاك، وبدا أنّ غمامة ظلام كثيفة تصبّ في عينيه وأنفه، ولم يعد هناك هواء للتنفّس، وما من سماء صافية مُرصّعة بالنجوم فوق رأسه، بل ثمّةَ فقط ظلمة، وضفاف، وكائنات مُخيفة تحفّ بين الأعشاب.

تراءى له أنْ لا إمكانية لفهم ما يحصل، وازداد في الوقت نفسه

الشعور الذي اتضح نهاراً، شعورُ الارتباط فيما بين الناس الزاحفين على المنحدر، وشعور قوّته، الذي يوحّده بقوة الذين يطلقون النار إلى جانبه، وشعور الفرح بأنّ روديمتسوف في مكان ما قريب منه.

هذا الشعور المذهل، الذي نشأ في معركة الليل، حيث لا يمكنك التمييز من إلى جانبك على بُعد ثلاث خطوات - رفيقٌ، أم عدوّ مستعدّ لقتلك؟ مرتبطاً بالشعور الثاني الذي لا يقل إدهاشاً، والذي لا يمكن تفسيره، وهو مسار المعركة العام، هذا الشعور الذي منحَ الجنود القدرة على الحكم على توازن القوى الحقيقي في المعركة، وتوقع مسارها.

11

إنّ الإحساسَ بالنتيجة العامة للمعركة، المولود في الإنسان، والمعزول عن الأحاسيس الأخرى التي صعقها الدخان والنار، غالباً ما يكون أكثرَ عدلاً من الحكم على نتيجة المعركة، وفق الصورة القادمةِ من خارطة القيادة.

تحدثُ أحياناً في اللحظة المفصلية الحربيّة تغييراتٌ مُذهلة، عندما يلتفت الجندي المهاجمُ، الذي تصوّر أنّه حقق هدفه، وينظر بحيرة حوله فلا يرى أولئك الذين بدأ الحركة معهم إلى الهدف، والعدوّ الذي بدا له دائماً أحاديّاً، وضعيفاً، وغبيّاً، يصبح كثيرَ العدد ومن ثمَّ لا يمكن التغلب عليه. إن اللحظةَ الحربيةَ المفصليّةَ واضحةٌ للذين يعيشونها، وتُحدث تغييراً روحيّاً في الإدراك، وغامضة وغير مُفسّرة لأولئك الذين يحاولون عن بُعد التنبّؤ بها وفهمها: وتتحوّل «نحن» الذكية والحيويّة، إلى «أنا» الخجولة والهشّة، أمّا العدوّ غير الناجح، الذي نُظر إليه ككائن وحيدٍ أو منفردٍ للصيد، فيتحوّل إلى «هم» الرهيبين والهائلين والمتحدين.

كان يُنظر من قبل إلى أحداث المعركة، أنّ المهاجم يتغلّب بنجاح على المقاومة بشكل منفصل: انفجار قنبلة... رشقات مدفع

رشّاش. . . هذا هو، ذلك الشخص يطلق النار من خلف الدشمة، والآن سيركض، إنّهُ لا يستطيع إلّا أن يهرب ، لأنّه وحده، معزول عن ذلك المدفع المنفصل، وعن رشاشه المنفصل، وعن جاره الجندي الذي يطلقُ النارَ منفصلاً، أمّا أنا - فهي نحن، أنا - هي كتلة المشاة المهاجمة كلّها، أنا - هو المدفع الذي يساندني، أنا - هي الدبابة التي تساندني، أنا - هو الصاروخ الذي ينير المعركة العسكرية المشتركة. وفجأة - أنا أبقى وحيداً، وكلّ الذي كان منفصلاً ومن ثمَّ ضعيفاً، يندمج في وحدة معادية ناريّة رهيبة ؛ البندقية، والرشاش، والمدفع، ولم تعد هناك قوّة يمكن أن تساعد في التغلّب على هذه الوحدة. النجاة - هي في هروبي، وإخفاء رأسي، وتغطية كتفيَّ، وجبهتي، وفكّيَّ.

إنّ الذين يتعرّضون في ظلمة الليل لضربة مفاجئة، ويشعرون في البداية بالضعف والانفصال، يبدأون بعد ذلك بتفتيت وحدة عدوّهم المهاجم ويشعرون بوحدتهم الخاصّة، والتي فيها قوة الانتصار.

غالباً يكمن في فهم هذا التحوّل، ما يعطي العمليةَ العسكريةَ الحق في أن تسمّى فنّاً.

إنّ إحساس الفردية والتعددية، وانتقال الوعي من مفهوم الفردية إلى مفهوم التعددية، ليسا مرتبطين فقط بأحداث الاعتداءات الليلية على الألوية والكتائب، لكنّه مؤشر أيضاً على الجهود العسكرية للجيوش والشعوب.

وثمّةَ إحساسٌ واحدٌ أيضاً، يضيّعه كليّاً المشاركون في المعركة - إنّهُ الإحساس بالوقت. إنّ الفتاة التي رقصت ليلة رأس السنة حتى

الصباح، لن تتمكن من الإجابة، ما هو شعورها بالزمن في حفلة الرقص - أكان طويلاً، أم على العكس قصيراً؟

ويقول أحد سكان شليسيلبورغ[1]، وقد أمضى خمسة وعشرين عاماً في السجن: «أعتقد أنّني أمضيتُ الأبديّةَ في القلعة، لكن وفي الوقت نفسه أتصوّر أنّني أمضيت أسابيعَ قصيرة».

كانت ليلةُ القناةِ مليئةً بأحداث عابرة - نظرات، ومقاطع موسيقية، وابتسامات، ولمسات - بدا كلّ حدث سريعاً لدرجة أنّه لم يترك في الوعي إحساساً طويلاً بالزمن. لكنّ مجموع هذه الأحداث القصيرة معاً أعطى شعوراً بالزمن كبيراً، شعوراً احتوى كلّ فرح الحياة البشرية.

عند ساكن شليسيلبورغ كان الأمر عكس ذلك - تشكَّلت فترة سجنه الممتدة خمسةً وعشرين عاماً من فترات طويلة مملّة منفصلة، من التفقّد الصباحي حتى المسائي، ومن الإفطار حتى الغداء. لكنّ مجموع هذه الأحداث السيّئة، كما تبيّن، خلقت إحساساً جديداً - في الرتابة القاتمة لتبدّل الشهور والسنين، تقلّص الزمن، وتجعّد. . . هكذا نشأ الإحساس المتزامن بالقِصَرِ وباللانهاية، وهكذا ظهر التشابه في هذا الإحساس بين الناس في ليلة رأس السنة والناس في عقود السجن. في كلتا الحالتين خلق مجموع الأحداث إحساساً متزامناً بالطول والقصر.

والأكثر تعقيداً هو عملية تشوّه الإحساس بطول الوقت وقصره، بالنسبةِ لشخصٍ يعيشه في المعركة. تذهب الأمور هنا إلى أبعد من

(1) شليسيلبورغ: إحدى مدن روسيا. (المترجمان).

ذلك، تتشوّه هنا الأحاسيس الاعتيادية المنفصلة وتتعرّج. في المعركة تتمدّد الثواني، أمّا الساعات فتتسطّح. الإحساس بطول الزمن يرتبط بالأحداث الخاطفة - صفير القذائف وقنابل الطائرات، طلقات رصاص الرشاشات والمدافع، ودويّ الانفجارات.

الإحساس بالقصر يتعلّق بالأحداث المطوّلة - بالحركة في الأرض المحروثة تحت النار، بالزحف من مخبأ إلى آخر. أمّا المعارك بالسلاح الأبيض فتحصل خارج الزمن. ويظهر عدم التعيين هنا في المكوّنات، وفي النتيجة، هنا يتشوّه المجموع، وكلّ جزئيّة مُكوِّنة.

أمّا المكوّنات هنا فهي كثيرة لا نهاية لها.

الإحساس باستمراريّة المعركة بشكل عام، مشوّه بعمق شديد، لدرجة أنّه يعَدُّ غير محدّدٍ أبداً - ولا يرتبط لا بطول المدة، ولا بقصرها.

وفي الفوضى التي اختلط فيها الضوء المُبهر والظلام الداكن، والصراخ، ودويّ الانفجارات، ورشقات الرشاشات، وفي الفوضى التي مزّقها إلى أجزاء الإحساس بالزمن، فهم كريموف بوضوح مذهل: أنّ الألمان انكسروا، والألمان تلقوا ضربة قاسية. أدرك هو مثله مثل المدوّنين وموظفي الاتصالات، الذين أطلقوا الرصاص إلى جانبه - بشعورهم الداخلي.



12

مرّت الليلة. جثث القتلى متناثرة بين الأعشاب اليابسة. وتنفّست المياهُ الثقيلةُ عند الشواطئ بكآبة وحزن. واستولى الحزن على القلوب عند النظر إلى الأرض المحفورة، وإلى الصناديق الفارغة للبيوت المحترقة.

ابتدأ يوم جديد، واستعدت الحرب بسخاء وملأته - إلى الحافة - بالدخان، والحصى، والحديد، والضمّادات المتّسخة والملطخة بالدماء. وفي الخلفِ كانت الأيّام نفسها. ولم يعد هناك من شيءٍ في العالم، سوى هذه الأرض المحروثة بالحديد، سوى السماء المشتعلة بالنار.

جلس كريموف على الصندوق، أسند رأسه إلى كساء الأنبوب الحجري، وغلب عليه النعاس.

استمع إلى أصوات موظفي المقرّ المبهمة، وسمع طقطقة فناجين - مفوّض الفرقة ورئيس أركانها؛ كانا يشربان الشاي، ويتحدّثان بأصوات ناعسة. وقالا إنّ الأسير الذي أُلقيَ القبض عليه هو من سلاح الهندسة؛ وقد نُقِلت كتيبته بالجو قبل بضعة أيّام من ماغديبورغ. خطرت في بال كريموف صورةٌ من كتاب مدرسي للأطفال - اثنان من الخيول عريضا المؤخّرة، يقودهما اثنان من

الخيّالة، يحاولان نزع نصفي الكرة الأرضيّة بعضهما عن بعض. وعاد إليه الشعور بالملل الذي أثارته تلك الصورة في الصغر.

قال بيلسكي:

- هذا جيّد، يعني أنّنا جمعنا الاحتياط.

وافق فافيلوف قائلاً:

- نعم بالتأكيد، جيّد، قيادة الفرقة ستذهب إلى التقاعد.

وهنا سمع كريموف صوت روديمتسوف الخافت:

- أيتها الورود، أيتها الورود، الثمار ستكون في المصانع.

بدا أنّ كريموف قد استهلك كل قوى روحه ليلة المعركة. لأجل أن يرى روديمتسوف كان عليه أن يدير رأسه، لكن كريموف لم يفعل. وفكّر «ربما، تشعر البئر التي نُضِحَتْ مياهها كلّها، بفراغ كبير». غلب عليه النعاس مرّة أخرى، واندمجت الأصوات الخفيضة، والرشقات الناريّة والانفجارات في طنين رتيب.

لكن إحساساً جديداً سرى في رأس كريموف، وتخيّل أنّه يستلقي في غرفة مُغلقة مصاريعها ويراقب بقعة ضوء الصباح على ورق الجدران. زحفت البقعة إلى حافة مرآة الحائط وفتحت قوسَ قُزح. ارتعد قلب الفتى، والشخص ذو الفودين الأشيبين، والمسدّس الثقيل المعلّق على حزامه، فتح عينيه والتفت.

وسط الأنبوب، وفي سترة رياضيّة قديمة، وقف مُعتَمِراً قبّعة ذات نجمٍ أخضر في مقدمتها، أحنى رأسه، وعزف الموسيقيُّ على الكمان.

رأى فافيلوف أن كريموف قد غفا، فانحنى نحوه قائلاً:

- هذا هو حلّاقنا روبينشك، إنّه اختصاصيّ كبير!

يقاطعُ اللعبةَ أحياناً شخصٌ ما بطريقةٍ غير مهذّبة، بكلمةٍ غبيّة مازحة، وأحياناً يقومُ أحدهم بكتم صوت الموسيقي سائلاً «أتسمحون لي بمخاطبتكم؟»- يبلغُ رئيسَ الأركان، ويطقطقُ صوتُ ملعقةٍ في كأسٍ من القصدير، ويتثاءب أحدٌ ما تثاؤباً طويلاً: «أوهو- هو- هوهو...»- ويأخذ بضرب القشّ.

راقبَ الحلّاقُ بانتباهٍ؛ ألا تُعيقُ لعبتُهُ القائدَ، مُستعدّاً لقطعها في أيّةِ لحظة.

لكن لماذا يتذكَّرُ كريموف في هذه اللحظات يان كوبيلك بالتحديد، الشائب في القبعة السوداء؛ تراجع، وانحنى أمام حلّاق موظفي المقرّ؟ ولماذا كانَ صوتُ الكمان الرقيقُ يعزفُ أغنيةً بسيطة، تترقرقُ كالجدول الصغير، ويعَبّرُ في هذه اللحظات، بصورةٍ أقوى من باخ وموزارت، عن العمق الواسع للروح البشرية؟

شعر كريموف من جديد بألم الوحدة أشدّ ألف مرّة. لقد تركته زوجته...

فكّر مرّة أخرى بمرارة أن رحيل زوجته عبّر عن آليّة حياته كلّها: بقي هو، لكنّه لم يعد موجوداً. لقد غادرت.

فكّر من جديد؛ كان عليه أن يقول لنفسه الكثير من الأشياء المرعبة، والقاسية من دون رحمة... مملوءة بالخجل، ومغطاة بقفازات...

الموسيقى، على ما يبدو، استدعت فيه فهم الزمن.

الزمن- بيئةٌ شفّافة، ينشأ الناسُ فيه، يتحرّكون، ويختفون من دون أثر... في الزمن تنشأ مصفوفات من المدن وتختفي. يجلبها الزمن ويحملها بعيداً.

إلّا أنَّ فهماً آخر للزمن برز لديه، خاصّاً تماماً، ذلك الفهم الذي يقول: «زمنيّ. . . ليس زمننا».

يتدفّق الزمن في الإنسان، وفي المملكة - الدولة، يعشّشُ فيهما، وها هو الزمن يخرج، يختفي، أمّا الإنسان، والمملكة فيبقيان. . . المملكة بقيت، وزمنها رحل. . . الإنسان موجود، أمّا زمنهُ فقد اختفى. أين هو؟ هذا هو الإنسان، يتنفّس، ويفكّر، ويبكي، وهذا هو الشيء الخاص والوحيد المرتبط به، الذي هو الزمن، قد ذهب، سبح، تسرّب. أمّا هو فقد بقي.

الأمرُ الأصعبُ - أن تكونَ ابنَ الزمن. لا يوجدُ أصعبُ من محنة الابن، الذي لا يعيش في زمنه. يمكن التعرّف إلى أبناء الزمان فوراً - في أقسام الكوادر، وفي لجان الحزب المحليّة، وفي الدوائر السياسيّة العسكريّة، وفي إدارات تحرير الصحف والمجلات، وفي الشارع. . . الزمن يحب فقط أولئك الذين أنجبَهم - أبناءَه، أبطاله، وعمّالَه. أبداً، لا يحبّ أبداً أبناء الزمن الماضي، والنساءُ لا تحبُّ أبطالَ الزمن الماضي، وزوجاتُ الآباء لا يحببن أطفال الأخريات.

هذا هو الزمن - كلُّ شيء يذهب، أمّا هو فيبقى. كلّ شيء يبقى، الزمن وحده يغادر. بخفَّةٍ ومن دون ضجيج يغادر الزمن. يوم أمس، كم كنت واثقاً، ومرحاً، وقويّاً: ابن الزمن. أمّا اليوم فقد أتى زمن جديد، لكنّك لم تُدرك ذلك بعد.

الزمن، الذي مزّقته المعركة، ظهر من الكمان الخشبيّ للحلّاق روبينتشك. أبلغَ الكمانُ بعضَهم: بأنّ زمنَهم قد أتى، وآخرين: بأنّ زمنهم قد ولّى.

فكّر كريموف - «قد ولّى، قد ولّى».

نظر إلى الوجه الهادئ، الطيّب، الكبير للمفوّض فافيلوف. كان فافيلوف يشرب من فنجان الشاي، ويمضَغُ جاهداً وببطء الخبز مع المارتديلا، وقد تحوّلت عيناه اللتان لا يمكن اختراقُهما نحو بقعة الضوء في فتحة الأنبوب.

رفع روديمتسوف كتفيه المغطيين بالمعطف، شاعراً بالبرد، ونظر مباشرة إلى الموسيقي، بوجه هادئ وواضح. العقيدُ ذو الشعر الشائب المتجعّد، قائد كتيبة المدفعية، قطّب جبينه، ما جعل وجهَهُ لا يبدو طيّباً، حدّقَ في الخريطة المفتوحة أمامه، وكان واضحاً فقط من عينيه اللطيفتين الحزينتين، أنّه لا يرى الخريطة، بل يستمع. بيلسكي كتبَ بسرعة تقريراً إلى أركان الجيش؛ بدا أنّه كان مشغولاً بعمله فحسب، لكنّه كان يكتب محني الرأس، وقد أدارَ أذنه نحو عازف الكمان. وجلس على مسافةٍ جنودُ الجيشِ الأحمر - جنودُ الاتصالات والهاتف، والكتبة، وقد عَلتْ وجوهَهم المنهكةَ وبدت في عيونهم تعابيرُ الجديّة، كتلكَ التي تظهر على وجه فلّاحٍ يمضغ الخبز.

تذكر كريموف فجأة ليلة صيفية - عينان سوداوان كبيرتان لامرأة شابة قوزاقية، وهمسها الحارّ... الحياة ما تزال جيّدة!

عندما توقف عازف الكمان عن العزف، سُمع خرير ناعم - كانت المياه تسيل تحت الغطاء الخشبيّ، وبدا لكريموف أنّ روحه - هي تلك البئر غير المرئيّة، الفارغة والجافة، وها هي الآن تستوعب المياه بهدوء.

بعد نصف ساعة حَلَقَ عازفُ الكمان لكريموف، ومع خليط اعتيادي من زائري محلّ الحلاقة، سأله بجديّة مبالغٍ فيها: ألا تزعج

كريموف آلة الحلاقة وكان خلال ذلك يتحسس براحة يده - هل حُلقت وجنتا كريموف جيّداً. في مملكة الأرض الحزينة والحديد صارخٌ وحادٌّ الحضور بغرابة، فاحت رائحةُ الكولونيا والبودرة بحزن وسخف.

ضيّق روديمتسوف عينيه، والتفت إلى كريموف المرشوش بالكولونيا والبودرة، هزّ رأسه برضاً وقال:

- لقد حلقت للضيف بإتقان، الآن هيّا احلق لي.

امتلأت عينا عازفِ الكمان السوداوان الكبيرتان بالسعادة. نفض المنديل الأبيض وقال وهو يتفحّص رأس روديمتسوف:

- هل يمكن، أن أقوم بتصحيح الخدين هذه المرّة، أيّها الرفيق الجنرال - رائد الحرس؟

13

قرّر الجنرال - عقيد يريمينكو بعد حريق خزانات الوقود، أن يذهبَ إلى تشويكوف في ستالينغراد.

وهذا سفر خطير لم يكن له أيّ معنى عمليّ، لكن كان فيه ضرورة معنويّة إنسانيّة كبيرة، وقد أضاع يريمينكو ثلاثة أيّام في انتظار العبور.

كانت جدران المخبأ الزاهية في الحديقة الحمراء تبدو هادئة، ولطيف كان ظل شجر التفاح أثناء نزهة القائد الصباحية.

أصوات الدويّ البعيد وإطلاق النار في ستالينغراد انسكبت في ضجيج خشخشةِ الأوراق وشكوى القصب، وكان في هذا الاندماج شيء ما ثقيل لا يوصف، ما جعل القائد يئنّ ويشتم أثناء النزهات الصباحية.

صباحاً أبلغَ يريمينكو زاخاروف قرارَه التوجّه إلى ستالينغراد، وأمره أن يأخذ على عاتقه القيادة.

مازح النادلة التي توضّب المائدة للإفطار، وسمح لنائب رئيس الأركان بأن يطير ليومين إلى ساراتوف، واستجاب لطلب الجنرال تروفانوف؛ قائد أحد جيوش السهوب، ووعده بأن يقصف عقدة المدفعية الرومانية، قائلاً له: «حسناً، حسناً، سأقدّمُ لك طائرات بعيدة المدى».

خمّن المعاونون ما الذي جعل مزاج القائد جيّداً. هل هي أخبار طيّبة من تشويكوف؟ هل هي محادثة جيّدة على خط الهاتف الحكومي الخاصّ؟ أم رسالة من البيت؟

لكن مثل هذه الأخبار عادة لا يمكن أن تمرّ من دون علم المعاونين - موسكو لم تطلب القائد، أمّا الأخبار من تشويكوف فلم تكن مُفرحة.

ارتدى الجنرال - عقيد السترةَ المبطَّنة بعد الإفطار وتوجّه للتنزّه. مشى على بعد خطوات منه المعاون بارخومينكو. سارَ القائدُ متمهّلاً كالمعتاد، وحكّ فخذه عدة مرّات وحدّق باتجاه الفولغا.

اقترب يريمينكو من جنود الكتيبة العاملة، التي كانت تحفر حفرة في الأرض. كانوا أشخاصاً متقدّمين في السنّ، رقابهم بنيّة قاتمة بسبب الشمس. وجوههم كانت كئيبة وحزينة. عملوا بصمت ونظروا بغضب إلى الشخص ذي الجسم الممتلئ في القبعة الخضراء (البيريه)، والواقف من دون عمل على حافة الحفرة.

سأل يريمينكو:

- أخبروني أيّها الشباب، من منكم يعمَل أسوأ من الآخرين جميعاً؟

بدا السؤال لجنود الكتيبة العاملة مناسباً، فقد ملّوا من التلويح بمعاولهم. أشاروا جميعهم إلى الرجل، الذي أخرج من جيبه، غباراً وفتات خبزٍ وأخذ يسكبه في راحة يده.

قال اثنان من الجنود، ونظرا في الآن نفسه إلى الآخرين:

- نعم إنّه هو.

- إذن،- قال يريمينكو بجدّية - يعني هذا. هذا هو الأقل نفعاً.

تنهّد الجندي بكرامة، ونظر من الأسفل إلى يريمينكو بعينين جديّتين لطيفتين، وربّما قرّر أن السائل مهتم بكل ذلك، ليس من أجل العمل نفسه، بل هكذا ببساطة من أجل التاريخ أو لملء أنموذج تعليمي، لذلك لم يتدخّل في الحديث.

سأل يريمينكو:

- ومن منكم يعمل أفضل من الآخرين جميعاً؟

فأشار الجميع إلى الشخص الأشيب؛ ذي الشعر الخفيف الذي ما كان قادراً على حماية رأسه من وهج الشمس، مثلما لا يقدرُ العشبُ السقيمُ على حماية الأرض من أشعة الشمس.

- تروشنيكوف،- قال أحدهم - هذا هو، إنه يعملُ بجدٍّ.

أكدّ الباقون وكأنّهم يعتذرون عن تروشنيكوف:

- تعوَّد على العمل، لا يمكنه أن يفعَلَ أيَّ شيء مع نفسه.

وضع يريمينكو يده في جيبه وأخرج ساعة ذهبية لمعت تحت أشعة الشمس، وانحنى بصعوبة، ومدّها نحو تروشنيكوف.

نظر الرجلُ إلى يريمينكو دون أن يفهم.

- خذها إنّها مكافأة لك - قال يريمينكو، ثمَّ تابعَ وهو ينظر إلى تروشنيكوف:

- بارخومينكو، جهّز شهادة جائزة له.

تابعَ مسيرَه وهو يسمع كيف تعالت الأصوات المنفعلة خلف ظهره، تأوّه حافرو الأرض، وضحكوا للحظ غير المسبوق لتروشنيكوف المعتاد على العمل.

انتظر قائدُ الجبهةِ العبورَ يومين. الاتصال مع ضفة النهر اليمنى كان شبه مقطوع. والزوارق التي تمكّنت من الوصول إلى تشوكوف، تلقّت خلال دقائق معدوداتٍ من خمسين إلى سبعين ثقباً، فوصلت إلى الشاطئ ممتلئة بالدماء.

غضب يريمينكو وتوتّر.

لم تكن القيادة وهي تسمع إطلاق النار الألماني، في العبور الثاني والسبعين، تخشى القنابلَ والقذائفَ، بل غضبَ القائد. اعتقد يريمينكو أنّ الروّاد المُهمِلين والملازمين البطيئين، هم المذنبون فيما تعيثُه قذائف الهاون والمدافع والطائرات الألمانية من دمار.

خرج يريمينكو ليلاً من الخندق، ووقف على تلّة رملية بالقرب من الماء.

خريطةُ الحربِ المبسوطةُ أمام قائد الجبهة في المخبأ في الحديقة الحمراء دوّت هنا، ودخّنت، وتنفّست حياةً وموتاً.

بدا له وكأنّه تعرّف إلى الخط المنقّط الناري الذي رسمه بيده للحدِّ الأمامي، وتعرّف إلى الأوتاد السميكة لاختراقات باوليو إلى نهر الفولغا، التي ميّزها بأقلامِ الرصاصِ الملوّنةِ، مشيراً إلى العقد الدفاعية وأماكن تجمّع الأسلحة الناريّة. لكنه، ناظراً إلى الخريطة المفتوحة على الطاولة، شعر أنّه قادر على أن يحني خط الجبهة ويحرّكه، ويستطيع أن يمطر الضفة اليسرى بهدير القذائف المدفعية الثقيلة. وعندها شعر بنفسه صاحب المكان.

هنا تملّكه شعورٌ مختلفٌ تماماً... وهجٌ في سماء ستالينغراد، رعدٌ بطيء في السماء - كل هذا هزّ حماسه العظيم وقوّته بمعزلٍ عن كونه القائد.

تناهى إلى مسامعه بين أصوات دويّ إطلاق النار والانفجارات، من جهة المعامل صوتٌ يكاد لا يُسمع: آ- ا- ا- ا- ا. . .

لقد كان في هذه الصرخة الطويلة لمشاة ستالينغراد أثناء هجومهم المضاد ليس شيئاً رهيباً فحسب، بل حزيناً، وكئيباً.

- آ- ا- ا- ا- صدحتْ فوق نهر الفولغا. . . وكأنّ «أورا» الصيحة الحربيّة، وهي تمرّ فوق مياه الليل الباردة وتحت السماء الخريفية، فقدت حرارةَ الحماس، وتغيّرت، وانفتحَ فيها فجأة كائنٌ آخر تماماً - ليس الحماس، ولا الحيويّة، بل حزن الروح، وكأنّه يودّع كلّ شيء عزيز، وكأنّه ينادي أحبته أن يستيقظوا وأن يرفعوا رؤوسهم عن الوسائد ويسمعوا للمرة الأخيرة صوتَ الوالد والزوج والابن والأخ. . . .

اعتصرَ الحزنُ العسكري قلبَ الجنرال - عقيد.

الحرب التي اعتاد القائد أن يدفعها، سحبتهُ إليها فجأة، وقف هنا، على الرمل الناعمِ جندياً وحيداً، دهشاً مأخوذاً بضخامة النار والرعود، وقف، كما وقف هنا على الشاطئ آلافُ وعشراتُ آلاف الجنود، وشعر أنّ الحربَ الشعبيّةَ أكبرُ من مهارته، ومن سلطته وإرادته. ربّما، في هذا الإحساس تجلّى ذلك الشيء الأعلى الذي قُدِّرَ للجنرال يريمينكو أن يرتقي إليه في فهم الحرب.

عبر يريمينكو قبيل الصباح إلى الضفة اليمنى. واقترب تشويكوف الذي تمّ إخطاره بالهاتف، من الماء، مُراقباً السير السريع للزورق المصفّح.

خرج يريمينكو ببطء، وحنى ثقله على السلّم الذي قُذِفَ إلى

الشاطئ، ومشى بحرج على الضفّة الصخريّة، مُقترباً من تشويكوف.

قال يريمينكو:

- مرحباً، أيّها الرفيق تشويكوف.

أجاب تشويكوف:

- مرحباً، أيّها الرفيق الجنرال - عقيد.

- جئتُ لأرى كيف تعيشون. كأنّك لم تحترق أثناء اشتعال خزانات النفط. ها أنت أشعث كما كنت من قبل، بل إنَّ جسمك لم يهزل. إذن نحن نُطعمك بشكل جيّد.

- وكيف لي أن أهزل، أجلس ليل نهار في المخبأ - أجاب تشويكوف، وقد بدت له كلمات القائد مزعجة، بشأن إطعامهم له جيّدا، وقال مُعَقِّباً: - ثمَّ إننا نستقبل الضيوف على الشاطئ!

انزعج يريمينكو، في حقيقة الأمر، حين دعاه تشويكوف الضيف الستالينغرادي. وعندما قال له: «تفضّلوا إليّ في البيت»، أجاب يريمينكو: «أنا مرتاح هنا في الهواء الطلق».

تحدَّثت في هذه الأثناء مُكبّراتُ الصوتِ من وراء نهر الفولغا.

كان الشاطئ مضاءً بالحرائق والصواريخ، وومضات الانفجارات، وبدا مهجوراً. يضيء ثم يلمع، وأحياناً يشتعل، ويومض أحياناً بقوّة بيضاء مُبهرة. حدّق يريمينكو في منحدر الشاطئ، المُخَدَّد بطرق الاتصال، والمخابئ، في أثداء الحجارة المتراكمة على طول المياه، التي كانت تبرز من الظلام ثم سرعان ما تختفي فيه بخفّة من جديد.

غنّى صوت عالٍ ببطء وبقوّة:

دع الحماسةَ النبيلةَ تفور، كما الموجة،
إن حرباً شعبيّة تدور، حرباً مقدّسة...

ولأنَّ الناس ما كانوا مرئيين، لا على الضفة ولا على المنحدر، ولأن الأشياء كلّها من حولهم - الأرض، والفولغا، والسماء - كانت مضاءة باللهب، بدا وكأنّ هذه الأغنية البطيئة إنَّما تغنّيها الحرب نفسها، تغنّيها من دون الناس، فتتدحرج بمحاذاتهم كلماتٌ ثقيلةٌ وموزونة.

شعر يريمينكو بالحرج لاهتمامه بالصورة التي افتُتِحت أمامه: في حقيقة الأمر بدا وكأنّه قدم لزيارة مضيفه في ستالينغراد. لقد انزعج أنّ تشويكوف أدركَ، على ما يبدو، حالة القلق الروحي التي دفعتهُ إلى عبور نهر الفولغا، وعرف كم تعب قائد الجبهة، وهو يتمشّى تحت حفيف القصب الجاف في الحديقة الحمراء.

أخذ يريمينكو يسأل المُضيف عن كلّ ما يتعلق بهذه المصيبة النارّية، وعن المناورة بالاحتياط، وتفاعل المشاة والمدفعيّة، وعن تمركز الألمان في منطقة المعامل. كان يطرح الأسئلة، وكان تشويكوف يجيبُ كما ينبغي له أن يفعل عن أسئلة القائد الأعلى.

ثمَّ صمتا. أراد تشويكوف أن يسأل: «إنّهُ أعظم دفاع في التاريخ، لكن ماذا عن الهجوم مع ذلك؟».

لكنّه لم يقرّر طرح السؤال - سيعتقد يريمينكو بأنّ المدافعين عن ستالينغراد فقدوا صبرهم، ويطلبون إزاحة الحمل عن أكتافهم.

سأل يريمينكو فجأة:

- أعتقد أنّ والديكَ في مقاطعة تولسك، يعيشان في القرية؟

- في تولسك، أيّها الرفيق القائد.

- يكتبُ لك العجوز؟

- يكتبُ، أيّها الرفيق القائد. وهو يعمل أيضاً.

نظرَ أحدُهما إلى الآخر، كان زجاج نظّارات يريمينكوف قد أصبَحَ ورديّاً جرّاء نار الحريق.

بدا أنهما على وشك بدء الحديث الوحيد الضروري لكليهما، عن حياة ستالينغراد البسيطة. لكن يريمينكو قال:

- هل أنت مهتم بالسؤال الذي يطرحه دائماً قادة الجبهة - وهو المتعلق بتزويدكم بالقوى الحيّة والذخيرة؟

وهكذا فإنّ الحديث الوحيد ذا المعنى في هذه الساعة، لم يُطرح.

نظر الحارس الذي يقف على قمّة المنحدر إلى الأسفل، ورفعَ تشويكوف نظره إلى الأعلى مُتابعاً صفير القذيفة، وقال:

- يفكّر جندي الجيش الأحمر على الأغلب: ما الذي يفعلهُ غريبا الأطوار هذان وهما يقفان عند الماء؟

تَمَخّطَ يريمينكو، ونظّفَ أنفه.

اقتربت اللحظة التي ينبغي عندها الوداع. ووفقاً للقواعد الأخلاقيّة غير المكتوبة، فإنّ القائد الذي يقف تحت النار، يغادرُ عادة، فقط عندما يبدأ جنودُهُ بطلب ذلك منه. لكن لامبالاة يريمينكو بالخطر كانت طبيعية وشديدة، حتى أنّ هذه القواعد لم تكن تعنيه.

أدار رأسه بذهول وفي الوقت نفسه بحذر، مُتابِعاً صفير قذيفةٍ عابرة.

- حسناً، تشويكوف، حان وقت المغادرة.

وقف تشويكوف بضع لحظات على الشاطئ، مراقباً الزورق المغادر - ذكّرهُ الأثر الرغوي خلف مؤخرة القارب بمنديل أبيض، كما لو أنَّ امرأة تلوّح له مودّعة.

وقفَ يريمينكو على سطح الزورق، ينظر إلى شاطئ الفولغا، الذي تراءى متموّجاً في ضوء غير واضح، قادم من ستالينغراد، كان النهر الذي يقفز فوقه القارب، قد تجمّد كبلاطة حجريّة.

انتقل يريمينكو بانزعاج من ميناء إلى ميناء. عشرات الأفكار المعتادة ظهرت في رأسه. مهام جديدة واجهت الجبهة. الأمرُ الرئيس الآن هو تجميع القوات المدرّعة، فقد كلَّفتهُ القيادةُ بالتجهيز لتوجيه ضربة إلى الجناح الأيسر. لم يقل كلمة واحدة عن ذلك لتشويكوف.

أمّا تشويكوف فقد عاد إلى مكمنه، رامي الرشاش الذي وقف عند المدخل، والملازم على الشرفة، ورئيس أركان فرقة غوربيف - هؤلاء جميعا قفزوا للقاء تشويكوف عندما سمعوا مشيته الثقيلة، وانتبهوا أن القائد كان منزعجاً. نعم فثمَّةَ سبب لذلك.

إنّ الفِرَقَ تذوبُ، وتذوبُ، في خليط من الهجمات والهجمات المضادّة للأسافين الألمانية التي تقتطع باطّراد أمتاراً ثمينة من أراضي ستالينغراد. وصلت فرقتان من المشاة الألمان لتوّهما وبكامل قوامهما من الداخل الألماني، وتركّزتا في منطقة معمل الجرّارات، وكمنتا بشكل خطير من دون حراك.

لا، لم يعرب تشويكوف أمام قائد الجبهة، عن كلّ مخاوفه وقلقه وأفكاره القاتمة.

لكن لم يدرك هو، ولا يريمينكو، سببَ عدم رضاهما عن هذا اللقاء. الأمرُ الرئيسُ في اجتماعهما لم يتحقق، ذلك أنهما لم يتمكنا من الإفصاح عما يرغبان فيه بصوت عال.

14

استيقظ الرائد بيريزكين صبيحةَ يومٍ من أيام تشرين الأول (أكتوبر)، فكّر في زوجته وابنته، وفي القذائف ذات العيار الكبير، واستمع إلى الهدير الستالينغرادي الذي أصبح معتاداً خلال شهر، ونادى رامي الرشاش غلوشكوف وطلب إليهِ أن يجلب له الماء للاغتسال.

- الماءُ باردٌ كما أمرتَ - قال ذلك غلوشكوف، مبتسماً وشاعراً بالمتعة، التي اكتسبها بيريزكين من الاغتسال الصباحي.

قال بيريزكين:

- أظنُّ أن الثلج قد تساقط في الأورال، حيث زوجتي وابنتي، وها هما لا تكتبان لي، أتعرف ذلك...

قال غلوشكوف:

- ستكتبان، أيّها الرفيق الرائد.

حدّث غلوشكوف بيريزكين، في الوقت الذي كان ينشّف فيه الماء بعد الاغتسال، ويرتدي بذلة الرياضة، بأحداث الساعات الصباحيّة.

- أصابت قذيفة «من ذوات الرائحة الكريهة» كتلة المطبخ،

واستشهد أمين المستودع، وفي الكتيبة الثانية مضى مساعد رئيس الأركان للنقاهة، فقد أصيب بشظيّة في كتفه. اصطاد الجنود في كتيبة إزالة الألغام سمكةً كبيرةً بقنبلةٍ صوتية، كانت تزن حوالي خمسة كيلوغرامات، ذهبت لأرى، أخذوها هدية لقائد الكتيبة الرفيق موشوفيتش. جاء إلى هنا الرفيق القوميسار، وطلب أن تتصل به عندما تستيقظ.

قال بيريزكين:

- مفهوم.

شرب فنجاناً من الشاي، واحتسى مرق قوائم العجل، واتصل بالقوميسار ورئيس الأركان، وقال إنّه سيقصد الكتائب، ارتدى السترة المبطّنة واتجه نحو الباب.

نفض غلوشكوف المنشفة، وعلّقها على المسمار، تلمّس القنبلة على خصره، طبطب على جيبه - هل كيس التبغ في مكانه - وأخذ البندقية الرشاشة من الزاوية، وانطلق خلف قائد الفوج.

خرج بيريزكين من المكمن نصف المظلم، فضيَّق عينيه بسبب النور المبهر. امتدّت أمامَه لوحةٌ أصبحت معروفة منذ شهر - ركامٌ طينيّ، ومنحدر بنّي تغطّيه بقعُ الخيم المنصوبة، التي تخفي مخابئ الجنود، ومداخن المدافئ اليدوية التي ينبعث منها الدخان. مباني المعامل المظلمة في الأعلى، وقد أُزيلت أسقفها.

وإلى اليسار، بالقرب من الفولغا، ارتفعت مداخن مصنع «أكتوبر الأحمر»، وهدرت عربات قطارات الشحن، كما لو أنها قطيع مجنون، تحلّقَ حول جثة قائده المقتول والممدّد إلى جانب القطار.

وبدا من بعيد شريط عريض لأطلال مدينة ميّتة، والسماء الخريفية سطعت من خلال فجوات النوافذ بالآلاف من البقع الزرقاء.

ارتفع الدخان بين ورشات المصنع، وومض لهبٌ، والهواء الجليّ كان مليئاً بحفيف لزج وأحياناً جاف، ودويّ مُكسّر. بدا وكأنّ المصانع تعمل بكامل طاقتها.

نظر بيريزكين باهتمام إلى الثلاثمئة متر من أرضه - منطقة دفاع الفوج - فقد كانت تمتد بين بيوت قرية العمّال. ساعده شعوره الداخلي أن يميّز في متاهةِ الدمار والطرق الضيّقة في أيّ بيت يحضّر جنود الجيش الأحمر العصيدة، وفي أيّ بيت يأكل رُماةُ الرشاشات الألمان الشحوم ويشربون الشناس (فودكا ألمانية. م).

حنى بيريزكين رأسه وشتم، فقد أزّت قذيفة في الهواء.

غطى الدخانُ مدخل أحد المخابئ، في المنحدر المقابل من الوادي، وسرعان ما دوّى صوت انفجار. أطلّ قائد اتصالات الفرقة المجاورة برأسه من المخبأ لمعرفة ما حصل - كان من دون سترة، في حمّالات السروال فقط. لم يكد يخطو خطوة واحدة، حتى صفرت قذيفة من جديد، تراجع بسرعة وأقفل الباب خلفه - انفجرت القذيفة على بعد عشرة أمتار منه. وقف باتيوك على باب المخبأ الواقع في زاوية الوادي ومنحدر الفولغا، وراقب ما يحصل.

عندما حاول قائد الاتصالات أن يخطو إلى الأمام، صرخ باتيوك مُحذِّراً: «نار!»- وأطلق الألماني القذيفة، وكأنّه يفعلُ ذلك منصاعاً للأمر.

لاحظ باتيوك بيريزكين وصاح به:

- عافاك اللّه أيّها الجار!

كان هذا المعبر في المسار المهجور عملياً خطراً ومميتاً - الألمان، وبعد أن ناموا جيّداً وتناولوا الفريوشتوك[1]، راقبوا المسار باهتمام خاص، جلسوا، ولم يوفّروا الذخائر، وأطلقوا النار كيفما اتفق. وقف بيريزكين عند أحد المنعطفات جوارَ كومة من الخردة، وقاس بعينيه الفضاء متأمّلاً بمكر:

- هيّا، غلوشكوف، أركض أوّلاً.

قال غلوشكوف:

- كيف ذلك، وهل الأمر ممكن، لديهم هنا قنّاص.

أن تجتاز أوّلاً مكاناً خطراً، فذلكَ ما اعتُبِر امتيازاً للقادة، ففي العادة لا يتمكّن الألمان من إطلاق النار على أوّل المجتازين.

التفت بيريزكين إلى البيوت الألمانية، وغمزَ غلوشكوف ثمَّ ركض.

وعندما وصل إلى خلف الأكوام، التي تحجب النظر عن البيوت الألمانية، سُمعت خلف ظهره أصوات نقر، وقرع - لقد أطلق الألماني رصاصاً متفجّراً.

أخذ بيرزكين يدخّن وهو يقفُ خلف الكومة. ركض غلوشكوف بخطوات طويلة وسريعة. أطلقت رشقة من الطلقات تحت رجليه، فبدا وكأنّ رفّاً من عصافير الدوري طارت من الأرض. اندفع غلوشكوف جانباً، تعثّر، وسقط، ثم نهض من جديد وركض إلى بيريزكين.

---

(1) ثلاث نقانق بافارية مع جبنة توضع مُدّةَ دقيقة في الفرن. (المترجمان).

قال وهو يلتقط أنفاسه موضّحاً:

- كاد يقطّعني، لقد خمّنت أنّه أشعل سيجارة عندما لم يتمكن من إصابتك وأخذ يدخّن ضَجِراً، لكنّه لا يدخّن على ما يبدو.

تحسّس غلوشكوف السترة المبطّنة الممزّقة وشتم الألماني.

عندما وصلا إلى مقرّ قيادة الكتيبة، سأل بيريزكين:

- هل جُرحت رفيق غلوشكوف؟

قال غلوشكوف:

- قضمَ كعب حذائي، شَطرهُ تماماً، الوغد.

كان موقع قيادة الكتيبة في قبوِ المصنعِ التجاري «غاسترانوم»، وكانت تفوح في الهواء الرطب، رائحة مخلّل الملفوف والتفاح.

كان على الطاولة مصباحان عاليان مصنوعان من ظروف القذائف. وثُبّتت فوق الباب لافتة: «أيها البائع والمشتري، كونا لبقين أحدكما مع الآخر».

ثمّة في القبو قيادتا كتيبتي - المشاة، والألغام. وقد جلس كلّ من قائدي الكتيبتين، بودتشوفاروف وموفشوفيتش، إلى الطاولة يتناولان وجبة الإفطار. سمع بيريزكين وهو يفتح الباب، صوت بودتشوفاروف الحيوي يقول:

- أنا لا أحبّ الكحول المخلوط بالماء، وبالنسبة لي كأنّه غير موجود.

نهض القائدان، استويا واقفين. وأخفى قائد الأركان في سترته تحت صدره قنابل يدوية وربع قارورة فودكا، أما الطبّاخ فقد انحنى مغطّياً بجسده السمكة الكبيرة، التي تحدّث عنها موفشوفيتش قبل

دقيقة. والمراسل الذي كان يجلس القرفصاء وعلى وشك أن يضع أسطوانة «السيرينادة الصينية» الموسيقية على الحاكي، بناء على تعليمات قائده، قفز بسرعة كبيرة لدرجة أنّه تمكّن فقط من سحب الأسطوانة، واستمرّ محرّك الحاكي بالصفير: نظر المراسل نظرة صريحة ومباشرة، كما ينبغي إلى الجندي المحارب، والتقط بطرف عينه نظرة بودتشوفاروف الشرّيرة، عندما كان الحاكي ينبح ويقرقر من دون توقّف.

كان قائدا الكتيبتين والآخرون المشاركون في الفطور، يعرفون رأي القادة: الكبار يعتقدون أن القياديين يجب أن يديروا المعركة، أو يراقبوا الأعداء بالمناظير المقرّبة، أو يمعنوا في التأمّل منحنيين فوق الخريطة. لكن لا يمكن للناس أن يطلقوا النار أربعاً وعشرينَ ساعة، أو أن يتحدّثوا بالهاتف مع الرؤساء والمرؤوسين كل الوقت - عليهم أن يأكلوا أيضاً.

حملق بيريزكين بالحاكي المشوّش وابتسم ابتسامة عريضة.

ثم قال:

- هكذا إذاً، اجلسوا أيّها الرفاق، وتابعوا.

هذه الكلمات ربما حَمَلتْ معنىً عكسيّاً، وليس مدلولها المباشر، فظهرت على وجه بودتشوفاروف تعابير الحزن والندم، أمّا على وجه موفشوفيتش قائد كتيبة الألغام المستقلّة والتي لا تتبع مباشرة لقائد الفوج، فقد ظهرت تعابيرُ الحزن فحسب. وهكذا تباينت تقريباً تعابيرُ وجوه مرؤوسيه.

تابع بيريزكين بنبرة غير مريحة مطلقاً:

- أين سمكتك التي تزن خمسة كليوغرامات يا رفيق موفشوفيتش، يتحدّث الجميع في الفرقة عنها.

قال موفشوفيتش، بتعابير الحزن نفسها:

- أيّها الطبّاخ، أرهِ السمكة من فضلك.

قال الطبّاخ بحيويّة، وهو الوحيد الذي كان يمارس التزاماته المباشرة:

- لقد أمر النقيب بحشوها على الطريقة اليهوديّة، فهناك الفلفل وورق الغار، لكن لا وجود للخبز الأبيض، والخردل لن يضاف. . .

قال بيريزكين:

- حسناً، مفهوم، أكلتُ من قبل سمكةً محشوَّة عند امرأة اسمها فيرا أرونوفنا، لكن أقول بصراحة، لم ترقْ لي تماماً.

أدرك الناس في القبو فجأة أنّ قائد الفوج لم يخطر في باله حتى أن يغضب.

لكأنَ بيريزكين قد عرف، أنّ بودتشوفاروف انتصر على الألمان الليليين، وأنه انطمرَ بالتراب عند الصباح، والمراسلُ واضعُ أسطوانة «السيرينادة الصينية» أخرجه من تحت التراب وهو يصيح: «كن واثقاً أيّها النقيب، سأنقذك». . .

وكما لو أن بيريزكين كان يعرف، أنّ موفشوفيتش زحفَ مع خبراء الألغام فوق الدروب الخطرة على الدبابات ونثر التراب والطوب المكسّر وجعلَ الأرض كرقعة الشطرنج، ضد الألغام الخاصةِ بالدبابات. . .

فَرِحَ شبابُهم بصباحٍ آخر، ويمكن مرّة أخرى رفع كوب القصدير

والقول: «آخ، بصحتك، وهلمجرا»، ويمكن مضغ الملفوف، وتدخين التبغ. . . .

لم يحدث شيء في الواقع - وقف مضيفو القبو دقيقة أمام القائد الأعلى، ثم عرضوا عليه أن يأكل معهم، ونظروا بارتياح إليه، وهو يأكل الملفوف.

غالباً ما كان بيريزكين يقارن معركة ستالينغراد بمعارك العام الفائت من الحرب - لقد رأى الكثير منها. وأدرك، أنَّ بإمكانه تحمّل هذا التوتر، فقط لأن في أعماق نفسه يعيشُ الهدوءُ والسكينةُ. يستطيع جنود الجيش الأحمر حسوَ الشوربة، وإصلاح أحذيتهم، وفتح أحاديث عن الزوجات، وعن القادة السيئين والجيدين، ويخترعون الملاعق هذه الأيام والساعات، في الوقت الذي تراءى للجميع أنّ الناس قادرة فقط، على أن تكون مسعورة، خائفة، أو منهكة. لقد شاهد أنّ الذين ليس لديهم عمق روحيّ مسالم، ما استطاعوا التحمّل طويلاً، مهما كانوا يائسين ومتهوّرين في المعركة. بدا لبيريزكين أنّ الرهبةَ والجبنَ في الحرب، هما حالة مؤقتة، مثلها مثل النزلة البرديّة التي يمكن معالجتها.

هو لم يعلم علمَ اليقين ما الشجاعة وما الجبن. اتهمته القيادة ذات مرّة في بداية الحرب بالخوف - لقد سحب اللواء طواعيةً من مرمى نيران الألمان. كما وأمر قبل فترة وجيزة من ستالينغراد قائدَ إحدى الكتائب بأن ينقل الجنود إلى السفح المعاكس للمرتفع، كي لا يقصفهم رماةُ الهاون الألمان عبثاً. يومها قال له قائد الفرقة موبّخاً:

- ما الذي فعلته أيّها الرفيق بيريزكين، لقد قالوا لي عنك إنّك شخص شجاع وهادئ.

صمت بيريزكين، وتنفّس بعمق - لعلَّ الذين تحدَّثوا عنه قد أخطأوا الظن به.

كبح بودتشوفاروف، الأصهب، ذو العينين السماويتين بصعوبة جماح عادته، كان يضحك فجأة ويغضب فجأة. أجاب موفشوفيتش، النحيل، ذو الوجه الطويل المُنمّش، والذي تعلو بقعُ شعرٍ شهباء رأسَه العاتم، بصوت أجشّ عن أسئلة بيريزكين. سحب دفتر ملاحظات وأخذ يرسم له مُخططاً جديداً مقترحاً من قبله لحقلِ الألغام المضادّة للدبابات.

قال بيريزكين، منحنياً إلى الطاولة بصوت خفيض:

- مزّق هذا الرسم للذكرى. استدعاني قائد الفرقة. وحسب معلومات الاستطلاع العسكرية، الألمان يسحبون قواتهم من منطقة المدينة، ويركّزونها في مواجهتنا. عدد الدبابات كبير. مفهوم؟

أنصتَ بيريزكين إلى صوت انفجار قريب، هزّ جدران القبو، وابتسم قائلاً:

- الوضع هادئ عندكم هنا. في الوادي الذي أنا فيه، وخلال فترة كالتي نتحدَّث فيها، كان من الممكن بالتأكيد أن يحضر ثلاثةُ أشخاص من قيادة الجيش، لجان كثيرة تتجوّل.

هزّ المبنى في هذه الأثناء انفجار جديد، وتساقطت من السقف قطع من الطينة.

قال بودتشوفاروف:

- نعم صحيح، هدوء، لا أحد يزعجنا بشكل خاص.

قال بيريزكين:

- هنا تكمن المسألة، بأنّ لا أحد يزعج.

قال ذلك بكل ثقة، وبصوت منخفض، ناسياً بحق، أنّه هو نفسه القيادة، نسي ذلك بسبب عادته أن يكون مرؤوساً، وما كان من قبلُ رئيساً.

- تعلمون كيف هي القيادة؟ لماذا لا تهاجم؟ لماذا لم تحتل المرتفع؟ لماذا الخسائر؟ لماذا من دون خسائر؟ لماذا لم تستهلك للنهاية؟ لماذا أنت نائم؟ لماذا. . .

نهض بيريزكين قائلاً:

- تعالَ رفيق بودتشوفاروف، أريد أن أرى وضعية الدفاع عندكم.

كان ثمّةَ حزن عميق في هذا الشارع الصغير من القرية العمالية، في الجدران الداخلية العارية، المغطاة بورق الجدران الملّون، وفي الحدائق والجنائن التي حرثتها الدبابات، وفي نباتات الأضاليا الخريفية التي بقيت في بعض الأماكن مزهرة، واللّه أعلم لماذا.

قال بيريزكين بشكل مفاجئ لبودتشوفاروف:

- هل تعلم رفيق بودتشوفاروف، لا أتلقى رسائل من زوجتي. انتشلتُها من الشارع، وها هي ذي الآن مرّة أخرى لا تكتب لي رسالة، أعرف فقط أنّها سافرت مع ابنتي إلى الأورال.

قال بودتشوفاروف:

- ستكتبان لك الرسائل أيّها الرفيق الرائد.

استلقى الجرحى تحت النوافذ المغلقةِ بالطوب، في الطابق السفلي، من المبنى ذي طابقين. على الأرض ثمّةَ سطل ماء وكأس معدنيّة ، وثُبّتت بين نافذتين مقابل الباب صورة - بطاقة «خطوبة الرائد».

- هذا هو العمق،- قال بودتشوفاروف - والخط الأمامي أبعد.

قال بيريزكين:

- فلنصل إلى الخط الأمامي.

مرّا من خلال الصالون إلى غرفة سقفها مُهدّم، وسيطر عليهما الشعور الذي يتملَّكُ الناس، القادمين من مكتب المصنع إلى باب الورشة. امتلأ الهواء بروائح غازات البارود الحارقة والمثيرة للقلق، وصرّت قطع المعادن تحت الأقدام، وفوارغ الطلقات. ووضعت الألغام المضادة للدبابات في عربات الأطفال المتحرّكة.

قال بودتشوفاروف، بعد أن اقترب من النافذة:

- هذا ما دمّره الألماني ليلاً. كم هو مؤسف، بيت رائع، نوافذه تُفتَحُ على الجهة الجنوبية الغربية. إنّ حدّي الجنوبي كلّه تحت مرمى النيران.

كان ثمّة مدفع هاون عند النوافذ المستورَةِ بالطوب ذات الشقوق الضيّقة، ورامي رشاش من دون قبعة، يلف شريطاً جديداً فوق ضمادة الشاش المسودّة على رأسه، ظهرت الأسنان البيضاء لصاحب الرقم واحد، وهو يمضغ قطعة لحمٍ مقدَّد، ويستعد لإطلاق النار بعد ثلاثين ثانية.

اقترب الملازمُ قائدُ السرّية، واضعاً في جيب بدلته الرياضيّة وردة أستير بيضاء.

قال بيريزكين مبتسماً:

- نسر.

- جيّد أنّني رأيتكم، أيها الرفيق النقيب،- قال الملازم - مثلما

قلت لكم ليلاً، ما حصل أنّهم ذهبوا إلى البيت رقم ستة على واحد. بدأوا تمام الساعة التاسعة - ثم نظر إلى الساعة.

- يقفُ قائدُ الفوجِ أمامك، قدّم تقريرك له.

سرعان ما قطع الملازم الحديث:

- أخطأت، لم أعرفه.

اقتطع العدوّ منذ ستة أيام عدداً من البيوت في منطقة الفوج، وبدأ يؤهّلها جيداً على الطريقة الألمانية. لقد خمد الدفاع السوفييتي تحت الأنقاض، وخمدت معه أرواح جنود الجيش الأحمر المدافعين. لكن الدفاع السوفييتي صمَد ببسالة، في أحد مباني المصنع ذي الأقبية العميقة؛ تحمّلتِ الجدرانُ القويّةُ الضربات، بالرغم من أن الكثير من الأماكن قد تضرّرَ جرَّاءَ القذائف وانقضَّ بالألغام. حاول الألمان هدم هذا المبنى من الجوّ، فأطلق الطائراتُ حاملاتُ الطوربيداتِ ثلاث مرات طوربيداتها المدمّرة عليه. وانهارت زاوية المبنى كلّها، لكن القبو تحت الركام لم يتأثّر، فَنَظّفَ المدافعون الأنقاضَ، ونصبوا الرشاشات، ومدافع الهاون، والألغام، ولم يسمحوا للألمان بالتقدم. ذلك أنَّ موقعَ المبنى كان مناسباً بحيث لم يستطع الألمان إيجاد مداخل مخفيَّة للوصول إليه.

قال قائد السرّية، وهو يقدّم التقرير إلى بيريزكين:

- حاولنا ليلاً الوصول إليهم - لم نتمكّن. استُشهدَ منا جُنديٌّ، وعاد اثنان جريحين.

- انبطحوا! - علا صوتُ جندي الجيش الأحمر المراقب في هذه الأثناء صارخاً، وانبطَحَ عددٌ منهم على الأرض، أمّا قائد السرّية الذي لم ينه كلامه بعد، فقد لوّح بيديه، وكأنّه يستعد للغوص، ورمى

بنفسه على الأرض. سُمع صفير حاد، ودوّت فجأة انفجارات قذائف ذات رائحة كريهةٍ وخانقة، هزّت الأرضَ والروحَ. سقطت كتلة سوداء ثخينةٌ، قفزت وتدحرجت تحت رجلي بيريزكين، فاعتقد أن الكتلة التي دفعتها قوّة الانفجار ستصيبه في رجله.

ثمَّ رأى فجأة - أنّها كانت قذيفة لم تنفجر. توتّر هذه الثواني كان لا يُطاق.

لكن القذيفة لم تنفجر، وظلّها الأسود، الذي ابتلع الأرض والسماء، وحجب الماضي وقطع المستقبل، اختفى.

وقف قائد السرّية على رجليه.

- إنها العنزة، - قال أحد الأصوات المحبطة، وضحك آخر:

- حسناً، اعتقدت أنّ كل شيء انتهى.

مسح بيريزكين العرق الذي سال فجأة على جبينه، ورفع زهرة الأسترا عن الأرض، نفض عنها غبار الطوب، وثبّتها في جيب بذلة الملازم الرياضيّة، وقال:

- هديّة على ما أعتقد... - وأخذ يوضّح لبودتشوفاروف:

- ومع ذلك لماذا كلُّ هذا الهدوء عندكم؟ القيادة لا تزوركم على ما يبدو!

فالقيادة دائماً تريد شيئاً ما منكم: الطبّاخ جيّد عندك، سآخذ الطباخ إذاً. لديك حلّاق ماهر أو ثمّة خيّاط ممتاز - سنأخذهما منك. منتفعون! لقد حفرت مخبأ جيداً - اخرج منه. لديك مخلّل ملفوف لذيذ - ابعثه إليّ - ثم سأل الملازم فجأة: - لماذا عاد الاثنان، ولم يصلا إلى المحاصرين؟

- لقد جرحا، أيّها الرفيق قائد الفوج.

- مفهوم.

قال بودتشوفاروف، عندما خرجوا من المبنى ومضوا يتجوّلون في الأرض المزروعة، حيث حفرت مخابئ السرّية وخنادقها بين أوراق البطاطا الصفراء:

- أنت سعيد.

قال بيريزكين ونظر إلى قاع الخندق:

- من يعلم، أسعيدٌ أم لا. ونحن في ظروف الميدان - قال ذلك بنبرة، كما لو أنه يقول: «كما في ظروف الاستجمام».

أكّد بودتشوفاروف قائلاً:

- الأرض مُهيأة للحرب على أفضل ما يكون. ثمّ عاد إلى الحديث الذي بدأه قبل قليل: هذه هي العادة - وأضاف: - ليس الطباخ فحسب، فقد حدث أن سحبتِ القيادةُ، امرأةً.

ضجّ الخندق كلّه بالنداءات المتوترة، وصفير طلقات البنادق، ورشقات الرشاشات والمدفعية القصيرة.

قال بودتشوفاروف:

- استشهد قائد السرّية، وتولّى المسؤول السياسي سوشكين القيادة. هذا هو مخبأه.

قال بيريزكين، وهو ينظر إلى باب المخبأ نصف المفتوح:

- واضح، واضح.

التحق بهم بالقرب من مسقط القذائف، المسؤول السياسي سوشكين، أحمر الوجه، أسود الحاجبين، ورفعَ صوته عند نطقه

بعض الكلمات ، وهو يقدم تقريره، بأنّ السرّية تطلق النار على الألمان لتمنعهم من التركيز في إعداد الهجوم على المبنى رقم ستة على واحد.

أخذ منه بيريزكين المنظار المُقرّب، وبحث عن مصدر الرشقات القصيرة، وألسنة لهب فتحات مدافع الهاون.

- هناك، النافذة الثانية في الطابق الثالث، يتمركز القنّاص.

ما إن أنهى قول هذه الكلمات، حتى لمعت النار من النافذة التي أشار إليها، وصفرت الطلقة وضربت جدار الخندق بين رأسي بيريزكين وسوشكين.

قال بودتشوفاروف:

- أنت سعيد.

أجابه بيريزكين:

- من يعلم، أسعيدٌ أنا أم لا.

مشوا في الخندق متجهينَ نحو اختراعٍ محلّيٍ أنجزته السريّة: سلاحٌ مضادٌ للدبابات، ثَبَّتَهُ جنود سوشكين على عربةٍ ذات عجلات.

قال الرقيب بعينين قلقتين وشعرٍ متَّسخ:

- إنّهُ سلاحُ السرّية السمتي.

صاح بيريزكين بصوت تعليمي:

- الدبابة على بعد مئة متر، عند البيت ذي السقف الأخضر!

أدار الرقيب العجلة بسرعة، وانحنت السبطانة الطويلة للسلاح المضاد للدبابات نحو الأرض.

- لدى ديركين مقاتل واحد، - قال بيريزكين - تمكّنَ من توليفِ

مسدِّد قناص على قاذف مضاد للدبّابات، وأطلقَ ثلاثَ قذائف خلال اليوم.

هزّ الرقيب كتفيه قائلاً:

- الوضع جيّد بالنسبة لديركين، إنّه يجلس في مكتب الإدارة.

أكملوا السير في الخندق، وتابع بيريزكين الحديث الذي بدأه بداية الجولة قائلاً:

- جمعت لهما طرداً جيّداً جداً. لكن زوجتي، أتعلم، لا تكتب لي رسائل. لا جواب منها على الإطلاق. حتى أنّي لا أعرف - هل وصلهما الطرد. هل أصابهما مرضٌ ما؟ وهل النزوح إلا المصيبة بعينها!

تذكّر بودتشوفاروف فجأة، كيف عاد في زمن ماضٍ بعيد النجارون، الذي ذهبوا للعمل في موسكو، وهم يحملون الهدايا لزوجاتهم، ولكبار السن، والأطفال. فبالنسبة لهم كان النظام ودفءُ الحياةِ البيتيّة الريفية يعنيان أكثر بكثير، من ضجيج موسكو كثيرة الناس والأنوار الليلية.

رجعوا بعد نصف ساعة إلى مقر قيادة الكتيبة، لكن بيريزكين لم يدخل إلى القبو، فقد توقف مع بودتشوفاروف في الفناء.

قال بيريزكين:

- يجب أن تقدموا كل أنواع المساعدة للمبنى «ستة على واحد». لكن لا تحاولوا الوصول إليه، هذا ما سنفعله نحن ليلاً بقوى الفوج - ثم قال بعد ذلك: - والآن هذه ملاحظاتي... لم يعجبني تعاملكم مع الجرحى. لديكم في مقر القيادة أرائك، بينما يرقدُ الجرحى على

الأرض. لا ترسلوا من يُحضر الخبز الطازج، الناس ستأكل الخبز المحمّص، هذا ثانياً. كان المسؤول السياسي سوشكين ثملاً، هذا ثالثاً. بالإضافة إلى ذلك... - استغرب بودتشوفاروف وهو يستمع، كيف لاحظ قائد الكتيبة كل ذلك وهو يتجوّل على خط الدفاع - يرتدي مساعدُ قائد الفصيل سروالاً ألمانياً... وقائد الفصيل الأوّل يضع ساعتين في معصمه.

ثمَّ تابع بيريزكين وقد اتخذ كلامه صيغة التوجيه:

- الألماني سيهاجم. واضح؟

وتوجّه إلى المصنع، أما غلوشكوف، الذي تمكّن من تثبيت كعب الحذاء وخياطة الثقب في السترة، فقد سأله:

- هل نرجع إلى مَقَرِّنا؟

لم يجبه بيريزكين، وقال لبودتشوفاروف:

- اتصل بقوميسار الكتيبة، وقل له، إنّني متوجّه إلى ديركين، في الورشة الثالثة. وأضاف غامزاً: - أرسل لي ملفوفاً، إنّه لذيذ. فأنا القيادة في جميع الأحوال.

15

لم تصل رسائل من تولا[1]... ودّعت لودميلا نيقولايفنا أمّها وزوجها إلى العمل، وناديا إلى المدرسة. خرجت الأمّ أوّلاً، وهي التي تعملُ كيميائيةً في مخبر مصنع كازان الشهير للصابون. وعندما مرّت بجانب غرفة صهرها، كررت ألكساندرا فلاديميروفنا كعادتها المزحة التي سمعتها من العمّال في المصنع: «أرباب العمل يبدأون الدوام الساعة السادسة، والخدم في التاسعة».

مشت ناديا خلفها إلى المدرسة، وعلى الأصحّ، لم تمش، بل ركضت عَجِلةً، فلم تكن ثمّة إمكانية لإيقاظها في الوقت المناسب من السرير - قفزت في اللحظة الأخيرة، واختطفت جواربها، وبلوزتها، وكتبها، ودفاترها، وغصّت بالشاي وهي تتناول الفطور، ولفّت الوشاح وارتدت المعطف وهي تركض على السُّلَّم.

عندما جلس فيكتور بافلوفيتش لتناول الفطور، كان إبريق الشاي بعد خروج ناديا قد برد، وتعيّن عليه تسخينه.

غضبت ألكساندرا فلاديميروفنا، عندما قالت ناديا: «لنسرع في الخروج من هذا الثقب اللعين». لم تعرف ناديا أنّ ديرجافين عاش

---

(1) تولا: هو ابن لودميلا نيقولايفنا، الجندي في الجيش الأحمر. (المترجمان).

يوماً ما في كازان، وقد عاش أيضاً فيها أكساكوف، وتولستوي، ولينين، وزينين، ولوباتشيفسكي، وأنّ مكسيم غوركي قد عمل لفترة ما في مخبز كازان.

- أي عدم تمييزٍ تاريخي!- قالت ألكساندرا فلاديميروفنا، وكان غريباً أن يُسمع اتهام العجوز هذا، موجّهاً إلى فتاة مراهقة.

رأت لودميلا، كيف أنّ الأم استمرّت بالاهتمام بالناس في عملها الجديد. وفي الوقت نفسه إلى جانب ذلك الإعجاب بقوّة الأم الروحيّة نشأ شعورٌ آخر - كيف أمكنها أن تولي اهتمامها، وهي تعاني من مصيبة، لهدرجة الدهون، ولشوارع ومتاحف كازان.

وذات مرّة عندما قال شتروم لزوجته كلاماً ما عن شباب روح ألكساندرا فلاديميروفنا، لم تتمكن لودميلا من السيطرة على نفسها وأجابت:

- ليس شباباً ما نراه عند أمّي، بل أنانيّة الشيخوخة.

قالت ناديا:

- الجدّة ليست أنانيّة، إنّها شعبيَّة. الشعبيون أناس جيّدون، ولكنّهم ليسوا أذكياء بما فيه الكفاية.

أعربت ناديا عادةً عن رأيها بشكل قاطع، ولعلَّ عدم كفاية الوقت دائماً، جعلها تتحدّث باختصار. وكانت تردد كلمة «ثرثرة» - مع تكرار كثيفٍ لحرف «الراء». وكانت تتابع أخبار مكتب الإعلام السوفييتي، وعلى علم بالأحداث الحربية، ولكم تدخلت في الأحاديث حول السياسة. أوضحت ناديا لأمّها، بعد الزيارة الصيفيّة للكولخوز، سببَ عدمِ إنتاجيّة العمل الكولخوزي.

لم تُطلع أمَّها على علاماتها المدرسيّة، لكنها ذات مرّة أخبرتها مرتبكة:

- تعلمين، ألصقوا بي علامة أربعة[1] في مادة السلوك. تصوّري أنّ معلمة الرياضيات طردتني من الصف. قلت لها وأنا خارجة «غود باي!» - فضحك الجميع.

وكالكثير من أبناء الأسر الميسورة، الذين لم يعرفوا قبل الحرب، هموم المسائل المادية وأمور الطعام والغذاء، تحدَّثت ناديا كثيراً في فترة النزوح عن الحصص، والموزّعين الجديرين وغير الجديرين، وعرفت أفضلية الزبدة الخالية من الدهون، بالمقارنة بزبدة البقر، الجوانب القوية والضعيفة لمكسَّرات الحبوب، وفوائد سكر المكعبات بالمقارنة بالسكر المطحون.

- أتعرفين؟ - قالت لأمّها - لقد قرّرت أن تقدِّمي لي منذ هذا اليوم الشاي مع العسل، بدلاً من الشاي مع الحليب المركّز. أعتقد أن هذا أكثر فائدة لي، وبالنسبة لك الأمر سيّان.

تصبح ناديا أحياناً متشائمة، وتتحدث إلى الكبار بازدراء. قالت لوالدها ذات مرّة بوجود أمّها:

- أنت أحمق - نطقت ذلك بحقدٍ شديد أصاب شتروم بالارتباك.

لاحظت الأمُ أحياناً أن ناديا تبكي، وهي تقرأ كتاباً. اعتبرت

---

(1) العلامات المدرسية في روسيا، توضع من واحد إلى خمسة. علامة اثنان مرسبة، ثلاثة - مقبولة، أربعة - جيدة، خمسة - ممتازة. (المترجمان).

نفسها كائنا متخلّفاً، غير محظوظ، قُدّر له أن يعيش حياة مملّة وصعبة.

قالت ذات مرّة وهي تجلسُ إلى مائدة الطعام:

- لا أحد يريد صداقتي، أنا غبيّة، لا أثير اهتمام أحد. لن يتزوجني أحد، سأنهي دروس الصيدلة وأسافر إلى القرية.

قالت ألكساندرا فلاديميروفنا:

- لا توجد صيدليات في القرى النائية.

وقال شتروم:

- توقعاتك قاتمة جداً فيما يتعلّق بالزواج. لقد أصبحت أكثر جمالاً في الفترة الأخيرة.

أجابت ناديا، وهي تنظر إلى والدها بحقد:

- يا للقرف.

رأت الأمّ ليلاً، كيف كانت ناديا تقرأ الشعر، وهي تمسك كتاباً بيد عارية نحيلة تخرجها من تحت البطانيّة.

قالت ناديا ذات مرّة، وهي تحضر من عندِ الموزّع الأكاديمي حقيبة تحتوي كيلوغرامين من الزبدة وكيساً كبيراً من الأرز:

- إنّ الناس بمن فيهم أنا، أوغاد وتافهون، يستخدمون كلّ هذا. وأبي يبدّل بدناءة عبقريته بالزبدة. وكأنّ على الناس المرضى، وقليلي التعلّم والأطفال الضعفاء تحمّل الجوع كونهم لا يعرفون الفيزياء ولا يستطيعون تنفيذ الخطة ثلاثمئة في المئة... المختارون فحسب يستطيعون التهام الزبدة.

وقالت على العشاء بتحدّ:

- ماما أعطني حصّتي مضاعفة من الزبدة مع العسل، ذلك أنني لم أستيقظ صباحاً.

كانت ناديا تشبه والدها في الكثير من الطبائع. وقد لاحظت لودميلا نيقولايفنا، أنّ أكثر ما يوتّر فيكتور بافلوفيتش في ابنته، هو تلك السمات التي تشبهه فيها بالذات.

كرّرت ناديا ذات مرّة، نغمة والدها عندما قالت عن بوستويف:

- خنفساء، غبيّ، انتهازي!

احتجَّ شتروم ساخطاً:

- كيف تجرؤين أن تهزئي برجلٍ أكاديمي، وأنت لم تنهي المدرسة بعد؟

لكن لودميلا تذكر، أنّ فيكتور، حين كان طالباً، نعتَ الكثير من الأكاديميين المشهورين بـ: «تافه، غبيّ، قنفذ بحريّ، منتفع!».

أدركت لودميلا نيقولايفنا أن حياة ناديا صعبة، ذلك أنها مشوّشة للغاية، ووحيدة وذات طبع صعب.

شرب فيكتور بافلوفيتش الشاي بعد خروج ناديا. نظر مُحدّقاً في الكتاب، بلع دون أن يمضغ، جعل وجهه غبيّاً دَهِشاً، تحسسَ الكأسَ بأصابعه وقال دون أن يرفع نظره عن الكتاب: «اسكبي لي الشاي لو سمحت، حارّاً أكثر». كانت تعرف إشاراته كلّها: أحياناً يحكّ رأسه، وأحياناً يعضُّ شفته، وتارةً يلوي وجهه، وينقّب أسنانه، فقالت له:

- يا إلهي، فيتيا، متى ستعالج أسنانك؟

كانت تعرفُ، بأنّه يحكّ رأسه ويعضُّ شفّته، حين يفكِّرُ بعمله، ولم يكن مطلقاً بسببِ حُكَّةٍ في رأسه أو أنفه. وتعرف أنَّها لو قالت

له: «فيتيا، أنت لا تسمع حتى ما أقوله لك»، فسيجيبُها، متابعاً التحديق في الكتاب: «أسمع كلّ شيء، وبإمكاني أن أكرّر لك: «متى ستذهب فيتيا لعلاج أسنانك»» - ثم يستهجن مرّة أخرى، ويبلع، ويتجهّم عاضاً شفته بفصاميّة، وسيعني هذا كلّه، أنّه وهو يستعرض عملاً فيزيائياً يعرفه، إنما يتفقُ معه أحياناً، وأحياناً يعارضه في بعض الأمور. ويجلس فيما بعد طويلاً دون أن يتحرّك، ثم يبدأ بهزّ رأسه، بشيء من الاحترام أحياناً، وبطريقة العجزة المملّة آونةً أخرى - وتصبح تعابير وجهه وعينيه، تشبه على الأغلب تلك التي تظهرُ عند الناس الذين يعانون من ورم في الدماغ. وستدركُ لودميلا مرّة أخرى: شتروم يفكّر في أمّه.

وعندما كان يشرب الشاي، ويُفكّر في عمله، يئنّ، ويتملّكه الملل، وتنظر لودميلا نيقولايفنا إلى العينين، اللتين قبّلتهما، وإلى شعره الأجعد، الذي سَرَّحته، وإلى الشفتين اللتين قبّلتهما، وإلى الرموش، والجفون، واليدين بأصابعهما الصغيرة الضعيفة، التي قصّت أظافرهما، قائلة: «آه، يا فاسقي أنت».

كانت تعرف عنه كلّ شيء - قراءته كتب الأطفال في السرير قبل النوم، وجهَه، عندما كان يذهب لتنظيف أسنانه، وصوتَه الرنّان، المرتجفَ قليلاً، وتعرفُ عندما يكون في بذلته الرسميّة يُلقي محاضرة عن إشعاعات النترون. تعرف أنّه يحب شوربة الملفوف الأوكرانيّة مع الفاصولياء، وتعرف كيف يتقلّب بهدوء من جنب إلى جنب أثناء النوم. تعرف كيف يهترئ عنده بسرعة كعب فردةِ الحذاء اليُسرى، وكيف يوسّخ كُمّي قميصه؛ وتعرف أنّه يحب النوم على مخدتين؛ وتعرف الخوف الخفي عنده، عندما يجتاز ساحات المدينة، ورائحةَ

جلده، وشكلَ الثقوب في جواربه. وتعرف كيف يغنّي، عندما يكونُ جائعاً وينتظرُ وجبةَ الغداء، وشكلَ أظافر أصابعه الكبيرة في قدميه، وتعرف اسم الدلع الذي كانت أمّه تناديه به، وهو في السنة الثانية من عمره، وتعرف مشيته الهجينة؛ وتعرف أسماء الفتيان الذين تشاجروا معه، عندما درس في الصف التحضيري الأعلى. تعرف سخريته، وعادته إغاظة توليا، وناديا، ورفاقه. وحتى الآن، وقد أصبحَ تقريباً بشكل دائم في مزاج عكر، يغيظها شتروم، ساخراً من أن صديقتها المقرّبة، ماريا إيفانوفنا سوكولوفا، تقرأ قليلاً، وهي لم تميّز ذات مرّة بين بلزاك وفلوبير.

أغاظ لودميلا بمهارة، وهي دائماً كانت تغتاظ. والآن هي غاضبة، وعارضته بجدّية، وهي تدافع عن صديقتها:

- أنت تسخر دائماً من أولئك المقرّبين منّي. لدى ماشا مذاق لا لبس فيه، هي ليست بحاجة لأن تقرأ الكثير، إنها دائماً تحسّ وتشعر بالكتاب.

قال لها:

- طبعاً، طبعاً. هي على ثقة بأنّ «ماكس و موريتس» كتبها أناتول فرانس.

إنّها تعرف حبّه للموسيقى، ووجهات نظره السياسية. رأته ذات مرّة يبكي، ورأته عندما كان مسعوراً ومزّق قميصه الذي يرتديه، وتعثّر في ارتداء السروال الداخلي وأخذ يقفز على رجل واحدة نحوها ملوّحاً بقبضته، وكان مستعداً لأن يضربها. رأته في عناده الصعب والشجاع، ورأت إلهامه؛ رأته يتلو الشعر، ورأته وهو يشرب المليّن.

شعرت أنّ زوجها غاضب عليها الآن، بالرغم من أنّ أيَّ تغيّرٍ لم يبدُ على علاقتهما. لكن مع ذلك كان هناك تغيّر ما، وتم التعبير عنه بأمرٍ واحد - لم يعد يحدثها عن عمله. حدثها عن الرسائل من أصدقائه العلماء، وعن السلع الغذائية والمُصنّعة. حدثها أحياناً عن الأعمال في المعهد، وفي المخبر، وعن مناقشة خطة العمل، وحدثها عن الموظفين: أتى سافوستيانوف إلى العملِ بعد سكرةٍ ليليةٍ وغفا، سلقت موظفاتُ المخبر البطاطا تحت الضغط، وماركوف يحضّر لسلسة اختبارات.

لكن عن عمله، عن ذلك البعد الداخلي، الذي لم يحدّث به أحداً في العالم كله من قبل سوى لودميلا - لم يعد يحدِّثها الآن.

لقد اشتكى ذات مرّة للودميلا نيقولايفنا، بأنّه عندما قرأ حتى لأصدقائه المقرّبين، مُسوَّداته التي ضمَّت تصوّراته غير المنجزة بشكلٍ نهائي، أحسّ في اليوم التالي بشعور غير مريح - بدا له العمل متلاشياً، يصعب عليه لمسه.

كانت لودميلا نيقولايفنا هي الشخص الوحيد، الذي استعرض معه شكوكه، وقرأ له مقاطع مدوّناته، وافتراضاته الخيالية والواثق منها، دون أن يعاني من أية رواسب بعد ذلك.

الآن توقف عن التحدث إليها.

الآن وبشيءٍ من الحنين وجد الراحة ، في اتهام لودميلا. كان يفكر دائماً ومن دون كلل في أمّه. كان يفكر في ما لم يفكر فيه من قبل على الإطلاق، وفي ما أجبرته الفاشيّة الألمانيّة على التفكير فيه - في إثنيّتهِ، وفي كون أمّه يهوديّة.

لام لودميلا في نفسه، لتعاملها البارد مع أمّه. قال لها ذات مرّة:

- لو استطعتِ تحسين علاقتك بأمّي، لكانت تعيش معنا هنا في موسكو.

أمّا هي فقد انتقت في ذاكرتها كل ما هو خشن وغير عادل، مما فعله فيكتور بافلوفيتش في علاقته مع تولا، وطبعاً كان هناك الكثير يمكن تذكره.

قسا قلبُها؛ كم كان غير عادل مع ابنها من زوجها السابق، وكم رأى من أمورٍ سيّئة في تولا، وكان من الصعب عليه أن يغفرَ لها هفواتها. في الوقت الذي غفر فيه لناديا غلاظتها، وكسلها، وفوضاها، وعدم رغبتها مساعدة أمّها في الأعمال المنزلية.

لقد فكرت لودميلا في أم فيكتور بافلوفيتش - مَصيرُها كان مُخيفاً. لكن مع ذلك كيف استطاع فيكتور أن يطلب إليها أن تُصادِقَ آنّا سيمينوفا - في الوقت الذي عاملت فيه آنّا سيمينوفا تولا بصورةٍ سيئة. إنّ كل رسالة من رسائلها، وكل مجيء لها إلى موسكو كان بسبب ذلك السلوك أمراً لا تطيقه لودميلا. ناديا، ناديا، ناديا... لناديا عينا فيكتور... ناديا تمسك بالشوكة كما فيكتور... ناديا شاردة، ناديا ذكيّة، ناديا متأمّلة. حنوُّ آنّا سيمينوفا وحبّها لابنها اتّحدا بحبها حفيدتها وحنوِّها عليها. لكن تولا لم يمسك بالشوكة، هكذا كما يمسكها فيكتور بافلوفيتش.

والغريب - أنَّها أخذت تتذكر في الفترة الأخيرة والد تولا، زوجها الأول، أكثر من ذي قبل. رغبت في البحث عن أقاربه، وأخته الأكبر، فقد كانوا يبتهجون لعيني تولا، ولكانت أخت أبارتشوك قد رأت في عيني تولا، وإبهامه الملتوي، وأنفه العريض- عيني، ويدي، وأنف أخيها.

كما أنّها لم تكن ترغب في تذكّر كلّ ما هو جيّد في علاقة فيكتور بافلوفيتش بتولا ، وسامحت في الوقت نفسه أبارتشوك على كل ما كان سيّئاً فيه، وحتى على تركها وحيدةً مع طفلها الرضيع، وعدم منح تولا اسم عائلة أبارتشوك.

بقيت لودميلا نيقولايفنا في الصباح وحيدة في البيت. لقد انتظرت هذه الساعة، أفراد الأسرة كانوا يعيقونها. إنّ كل أحداث العالم، والحرب، ومصير الأخوات، وعمل الزوج، وطبع ناديا، وصحّة الأم، وأسفها على الجرحى، والألم على الذين قتلوا في الأسر الألماني - كلّ ذلك ولّد ألماً على ابنها، وقلقها عليه.

شعرت، بأنّ أحاسيس الأم، والزوج، والابنة، إنما انصهرت من خامات مختلفة تماماً. بدا لها أنَّ ارتباطهما بتولا وحبّهما له، ليسا عميقين. العالم بالنسبة لها كان داخل تولا ، أما بالنسبة لهم فتولا كان جزءاً من العالم فحسب.

مرّت الأيام، ومرّت الأسابيع، ولم تتلقَّ رسائل من تولا .

كان الراديو يبثُّ كلَ يوم نشرات الأخبار من المكتب الإعلامي السوفييتي، وكل يوم كانت الجرائد مليئة بالحرب. الجيوش السوفييتيّة تراجعت. ونُقل في الأخبار عن سلاح المدفعيّة الكثير وكُتب في الصحف عنه. وتولا يخدم في المدفعيّة. لم تصل رسائل من تولا .

بدا لها : أن الشخص الوحيد الذي فهم حنينها حقاً - هو ماريا إيفانوفنا، زوجة سوكولوف.

ما أحبَّت لودميلا نيقولايفنا صداقة زوجات أساتذة الجامعة،

أحاديثهنَّ عن نجاحات أزواجهن العلميّة، وعن الفساتين، والمستخدمات المنزليّات، كانت تثير قشعريرتها. لكن، على الأغلب، لأن طبع ماريا إيفانوفنا اللطيف والخجول، كان يناقضُ طبعها، ولأن طريقة تعاملها مع تولا قد أثّرت فيها، ولكل ذلك فقد تعلّقت كثيراً بماريا إيفانوفنا.

تحدثت لودميلا إليها عن تولا بحرّية أكثر مما فعلت مع زوجها وأمّها، وأصبح كلّ يوم أكثر هدوءاً، وراحةً لنفسيتها. وبالرغم من أنّ ماريا إيفانوفنا كانت تمرّ كل يوم بشتروم، فقد استغربت لودميلا نيقولايفنا، لماذا تتأخرُ صديقتها زمناً طويلاً حتى تأتي، فأخذت تراقب النافذة، ألن تظهر شخصيّة ماريا إيفانوفنا النحيلة، ووجهها اللطيف.

أمّا الرسائل من تولا فلم تصل.

16

جلست ألكساندرا فلاديميروفنا، ولودميلا ناديا في المطبخ. ورمت ناديا في الموقد من وقت لآخر أوراقاً مجعّدةً من دفترٍ مدرسيٍّ، فأنارت الشعلةُ الحمراء التي كانت توشكُ على الانطفاء، وملأ الموقدَ ركامُ اللهبِ السريع. قالت ألكساندرا فلاديميروفنا وهي تنظرُ من زاويةِ عينها إلى الابنة:

- مررت يوم أمس ببيت إحدى عاملات المخبر؛ يا إلهي، أيُّ ضيق، أيُّ فقر، وجوع، نحن هنا نعيشُ كما القياصرة؛ اجتمعتِ الجارات، ودار حديثٌ، عمّا أحبَّ كلٌّ منهن من أطعمةٍ قبل الحرب: إحداهنّ قالت - لحم العجل، الثانية - الحساء مع الخيار المخلّل. أمّا ابنة عاملة المخبرِ فقالت: «أمّا أنا فكنت أحبّ أكثر من أي شيء إشارة الانتهاء».

صمتت لودميلا نيقولايفنا، أمّا ناديا فقد قالت:

- الجدة، عندكم هنا كَوَّنت أكثر من مليون صديق.

- وأنت ليس لديك أحد.

- حسناً، وهذا جيّد جداً - قالت لودميلا نيقولايفنا - فيتيا أخذ يكثّف زياراته إلى سوكولوف. وهناك يجتمع ما هبّ ودبّ من

التافهين، وأنا لا أفهم كيف يمكن لفيتيا وسوكولوف أن يثرثرا ساعات بأكملها مع هؤلاء الناس... وكيف لا يملّانهم - يسحقون بألسنتهم التبغَ. كيف لا يأسفان لماريا إيفانوفنا، هي تحتاج إلى الراحة، وبوجود هؤلاء الناس لا تستطيع الاستلقاء، ولا الجلوس، زد على ذلك يملؤونَ المكان بالدخان.

قالت ألكساندرا فلاديميروفنا:

- كاريموف، تتريّ، إنّه يعجبني.

- شكله مقرف.

قالت ناديا:

- ماما تشبهني، لا يعجبها أحد، سوى ماريا إيفانوفنا فقط.

- إنّكم شعب غريب، - قالت ألكساندرا فلاديميروفنا - لديكم وسطكم الموسكوفي، الذي أحضرتموه معكم. في القطارات، وفي النادي، وفي المسرح - كل ذلك ليس وسطكم. أمّا وسطكم، فهم أولئك الذين بنوا معكم البيوت الريفية في مكان واحد، هذا ما لاحظته أيضاً عند جينيا... ثمّةَ ميّزات منحطّة، تحدّدون من خلالها أناس وسطكم: «آه، إنّها تافهة، لا تحب بلوك، إنّه بدائيّ، لا يفهم بيكاسو... آه، لقد أهدته مزهريّة من الكريستال. لا ذوق في ذلك...». أمّا فيكتور فهو ديمقراطي، يحتقر اتجاهات الفن المنحط كلها.

قالت لودميلا:

- يا للتفاهة. وما علاقة البيوت الريفية بالموضوع! هناك خلط في الأمر ما بين بيوت ريفية وسواها. يجب عدم الاجتماع بهم، شيء مُقرف.

لاحظت ألكساندرا فلاديميروفنا أنّ الابنة تتحسّس منها أكثر فأكثر.

قدّمت لودميلا النُّصحَ لزوجها، ووضعت ملاحظات على ناديا، حذّرتها من تصرّفاتها، وبرّرت لها تلك التصرّفات، دلّلتها تارةً ورفضت تدليلها أخرى، وشعرت بأنّ الأمّ لها علاقة بأفعالها. ألكساندرا فلاديميروفنا لم تعبّر عن علاقتها بالحفيدة، لكن تلك العلاقة كانت موجودة. لقد حصل أنّ شتروم أمعن النظر بحماته وظهرَ في عينيه تعبير فهمٍ ساخر، وكأنّه ناقش مسبقاً غرابة طبع لودميلا مع ألكساندرا فلاديميروفنا. وهنا لم تكن ثمّة أهميّة، هل ناقشا الأمر أم لا، لكن جوهر الحالة يكمن في أنّ في الأسرة ظهرت قوّة جديدة، غيّرت بوجودها فحسب العلاقاتِ الاعتيادية القائمة.

قال فيكتور بافلوفيتش ذات مرّة للودميلا، إنّه لو كان في مكانها لتنازل لأمّها عن إدارة الأسرة، دعيها تشعر أنّها ربّة البيت، وليست ضيفة.

بدت كلمات الزوج للودميلا نيقولايفنا غير صادقة، واعتقدت أنّه إنما يريد محو علاقتها القلبية الخاصّة بأمّها، وهذا ذكَّرها لاإرادياً بعلاقتها الباردة مع آنّا سيمينوفا.

كان من المخجل والمضحك أن تعترفَ له بذلك، فقد كانت تغار منه في علاقته مع الأبناء، وبخاصّة مع ناديا. لكن الآن لم تكن مسألة غيرة. وكيف لها أن تعترف، حتى أمام نفسها، بأنّ الأم التي فقدت منزلها، ووجدت مكاناً لها في بيتها هي، تثيرُها وتضجرُها. نعم وغريبة كانت هذه الإثارة، فهي موجودة إلى جانب الحبّ، وإلى

جانب الاستعداد لإعطاء ألكساندرا فلاديميروفنا، لو احتاج الأمر، آخر فستان لديها، ولتقاسمها آخر قطعة خبز لديها.

أمّا ألكساندرا فلاديميروفنا فقد شعرت فجأة، أنّها ترغب في البكاء من دون سبب، وحتى أن تموت، على ألّا تعود مساء إلى البيت، بل تبقى فتنام على الأرض عند زميلتها في العمل، أو أن تجمع حاجياتها وتسافر باتجاه ستالينغراد، وتبحث عن سيريوجا، وفيرا، وستيبان فيدوروفيتش.

كانت ألكساندرا فلاديميروفنا تؤيّد تصرّفات صهرها وإيضاحاته في معظمها، أمّا تصرّفات لودميلا وتفسيراتها فما كانت تؤيّدها تقريباً. لاحظت ناديا ذلك وقالت لوالدها:

- اذهب من فضلك إلى جدتي، وأخبرها أنّ ماما تغضبك.

وها هي الآن ألكساندرا فلاديميروفنا تقول:

- تعيشون كطيور البوم. أما فيكتور فهو إنسان جيّد.

قالت لودميلا وهي عابسة:

- هذه كلّها كلمات. وسيأتي يوم السفر إلى موسكو، وستكونان أنت وفيكتور سعيدين.

قالت ألكساندرا فلاديميروفنا فجأة:

- تعرفين يا عزيزتي، عندما يأتي يوم العودة إلى موسكو، لن أسافر معكم، بل سأبقى هنا، لا مكانَ لي في بيتكم. أتفهمين؟ سأقنع جينيا بالانتقال إلى هنا أو سأنتقل للعيش معها في كويبيشيف.

كانت لحظة صعبة في علاقة الأم بالابنة. لقد قالت ألكساندرا فلاديميروفنا كلّ ما كان يثقلُ روحها في رفضها الذهاب إلى موسكو.

وأصبحَ مكشوفاً جرّاءَ ذلك كل الذي تجمّع على صدر لودميلا نيقولايفنا، وكأنّها قالته؛ لكنها انزعجت كما لو أنها لم تكن مخطئة بشيء في حق أمّها.

نظرت ألكساندرا فلاديميروفنا إلى وجه لودميلا المتألِّم، وشعرت بالذنب. لقد كانت ألكساندرا فلاديميروفنا تفكر في الليالي بسيريوجا، أكثر من أي أمرٍ آخر - تتذكر أحياناً انفعالاته، وجداله، وأحياناً تتصوّره في الزيّ العسكري، وتتذكر عينيه، ولا بدّ أنهما قد اتسعتا الآن، لقد هزل جسمه، وانهارت وجنتاه. إحساساً خاصّاً في نفسها استدعى سيريوجا - ابن ابنها التعيس، الذي أحبته أكثر من كلّ ما في العالم... قالت للودميلا:

- لا تتعذّبي بسبب تولا بهذه الطريقة، فأنا قلقة عليه ليس بأقل منك.

شيء ما كان مزيّفاً في هذه الكلمات، أهان حبّها لابنتها، إنّها لم تكن قلقة إلى تلك الدرجة على تولا. وها هما الاثنتان، الصريحتان حتى القسوة، تشعران بالخوف من صراحتهما فتتراجعان عنها.

- الحقيقة جيّدة، لكن الحب أفضل، مسرحية أوستروفسكي الجديدة - قالت ذلك ناديا ببطء، فنظرت ألكساندرا فلاديميروفنا بعداء، بل بنوع من الخوف إلى الفتاة في الصف العاشر، القادرة على فهم أمور هي نفسها ما زالت تجهلها.

سرعان ما وصل فيكتور بافلوفيتش. فتح الباب بمفتاحه وظهر فجأة في المطبخ.

قالت ناديا:

- مفاجأة سارّة. اعتقدنا أنّك ستعلق حتى وقت متأخر عند أسرة سوكولوف.

قال فيكتور وهو يمد يده نحو الموقد:

- آآآآآ الجميع في البيت، الجميع حول الموقد، أنا مسرور جداً، رائع، رائع.

- امسح أنفك،- قالت لودميلا - وما هو الرائع، أنا لا أفهم؟

قفزت ناديا وقالت، مُقلّدة نبرة أمّها:

- حسناً، امسح أنفك، يقولون لك ذلك باللغة الروسية.

- ناديا، ناديا،- قالت لودميلا نيقولايفنا محذّرة - ما كانت لتتقاسم مع أحد حقها في تربية زوجها.

قال فيكتور بافلوفيتش:

- نعم - نعم الهواء بارد جداً.

توجّه إلى الغرفة، وشوهد من خلال الباب المفتوح، كيف جلس على الكرسي.

قالت ناديا:

- بابا يكتب من جديد على ملزمة الكتاب.

- هذا لا يخصّك - قالت لودميلا نيقولايفنا، وأخذت توضح لأمّها لماذا كان زوجها مسروراً إلى هذه الدرجة - أنَّ الجميع في البيت؟ هي حالة نفسيّة، يقلق إذا كان أحدنا خارج البيت. والآن ثمّةَ أمر ما لم ينتهِ من التفكير فيه، شعر بالفرح فما من شيءٍ يقلقه الآن.

قالت ألكساندرا فلاديميروفنا:

- اخفضي صوتك، نحن بالفعل نزعجه.

قالت ناديا:

- بالعكس، لا يعير الانتباه إذا تكلّمت بصوت عال، لكن إذا تكلمت همساً، فسيحضر ويسأل: «لماذا تتهامسون هناك؟».

- ناديا، أنت تتكلمين عن والدك، مثلما يتحدّث المرشد السياحي عن غرائز الحيوانات.

ضحكن ونظرن إحداهنَّ إلى الأخرى.

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- ماما، كيف استطعت إغضابي إلى هذه الدرجة؟

مسّدتِ الأم رأسَها بصمت.

ثم تناولوا طعام العشاء سويّة في المطبخ. بدا لفيكتور بافلوفيتش - أنّ لدفءِ المطبخ سحراً خاصاً هذا المساء.

وما كان أساسَ حياته فقد استمر. شغلته باستمرار في الآونة الأخيرة فكرةُ التفسير المفاجئ للتجارب المتناقضة، التي تراكمت في المختبر.

شعر وهو جالس على طاولة المطبخ بنفاد صبر سعيد وغريب - تشنّجت أصابعُ يده جَرَّاءَ الرغبة المقيّدة في الإمساك بقلم الرصاص.

قال وهو ينقُرُ الصحنَ الفارغ بالملعقة:

- إنّ عصيدة الحنطة السوداء مذهلة اليوم.

سألته لودميلا نيقولايفنا:

- هل هذا تلميح؟

سألَ وهو يدفَعُ الصحن لزوجته:

- لودا، تذكرين بالطبع فرضيّة براوت؟

رفعت لودميلا نيقولايفنا الملعقة وما تذكَّرت.

قالت ألكساندرا فلاديميروفنا:

- هي عن أصل العناصر.

قالت لودميلا:

- آه، أذكر، إنّ كل العناصر من الهيدروجين. لكن ما علاقة العصيدة بالأمر؟

سأل فيكتور بافلوفيتش:

- العصيدة؟ إليكم هذه القصة التي حصلت مع براوت: إنّه أطلق فرضيّة صحيحة إلى درجة كبيرة، فقد وجدت في زمنه أخطاء شنيعة في تحديد الوزن الذري. لو حدّدوا في زمنه وزن الذرّات بدقة، كما توصّل إليه دوما وستاس، لما كان قد اعتقد بأنّ أوزان ذرّات العناصر من مضاعفات الهيدروجين. تبيّن أنّه على حق، كونه أخطأ.

سألت ناديا:

- لكن ما علاقة العصيدة بذلك؟

سأل شتروم مندهشاً:

- عصيدة؟ - ثم تذكر وقال:

- العصيدة ليس لها علاقة... من الصعب التحقق من هذه العصيدة، احتاج الأمر إلى مئة عام، كي يتحققوا.

سألت ألكساندرا فلاديميروفنا:

- هذا موضوع محاضرتك اليوم؟

- لا، أبداً، فأنا لا أقرأ محاضرات لا للقرية ولا للمدينة.

التقطَ نظرةَ زوجته وشعرَ أنّها - أدركت: أن الاهتمام بالعمل وتّره من جديد.

- كيف حالكم؟- سأل شتروم - ألم تأتِ إليكِ ماريا إيفانوفنا. وهل قرأت لك رواية «مدام بوفاري»، من مؤلفات بلزاك؟

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- دعك من هذا.

انتظرت لودميلا نيقولايفنا أن يحدثها زوجها عن عمله ليلاً. لكنّه صمت وهي لم تسأله عن شيء.

17

كم بدت أفكار علماء الفيزياء منتصفَ القرن التاسع عشر ساذجةً بالنسبة لشتروم، وجهات نظر هيلمهولتز التي وجّهت مسائل العلوم الفيزيائيّة لدراسة قوى التجاذب والتنافر، المرتبطة بالمسافة فقط.

حقل القوة - روح المادة! الوحدة التي توحّد موجة الطاقة وماديّة الجسيم... دقة الضوء... هل هو تساقط غزير من قطرات الضوء أو موجة برق سريعة؟

لقد حلّت نظرية الحقل الكمومي، محل القوانين التي تحكم الأفراد الفيزيائيين، القوانين الجديدة - هي قوانين الاحتمالات؛ قوانين الإحصاءات الخاصة، التي تخلصت من فكرة الفردانية، والتي تعترف بالمجموع فقط، الفيزيائيون في القرن الماضي ذكّروا شتروم بالناس ذوي الشوارب اللولبية، في بذلات مع ياقات منزرعة بالأصفاد الصلبة، متجمّعين حول طاولة البلياردو. أزواج عقلاء، مسلحين بالعصيّ المستقيمة وساعات القياس، يُقطّبونَ حواجبهم الكثيفة، ويقيسون السرعة والتسارع، ويحدّدون كتلة الكرات المرنة التي تملأ فضاء القماش العالمي الأخضر.

لكن الفضاء المقاس بالقضبان المعدنية والمساطر، والزمن المقاس بواسطة الساعات عالية التقنيّة، أخذا فجأة ينحنيان ويتمددان

ويتسطَّحان. تبيّن أن متانة تلك المفاهيم ليست أساس العلم، بل قضبان وجدران سجنه. لقد حان يوم القيامة، وأُعلنَ عن آلاف الحقائق، أنّها كانت مغلوطة. لقد نامت الحقيقة في التصوّرات الخاطئة القديمة، كما لو أنّها نامت لقرون داخل الشرانق.

أصبح العالم غير إقليدي، وقد تشكلت طبيعته الهندسية من الكتل وسرعاتها.

لقد سارت الحركة العلمية في العالم بنمو متسارع، وقد حرّرها أينشتاين من أغلال الزمن المطلق وفضائه.

كان ثمّةَ تياران - واحد، انطلقَ باتجاه الكون، والثاني، سعى لاختراق نواة الذرة - تفرّقا دون أن يفقد أحدهما الآخر، بالرغم من أنّ أحدهما سار مسرعاً في عالم الفراسخ، والثاني قِيسَ بالميلّي ميكرون. كلّما كان الفيزيائيون يغوصونَ في أعماق الذرّة أكثر، كانت تصبح بالنسبة لهم القوانين التي تحدّد توهّج النجوم أكثرَ وضوحاً. التحوّل نحو الأحمر في خط النظر على أطياف المجرّات البعيدة أدى إلى نشوء التصوّر حول التشتّت اللانهائي للكون. وحُقَّ الاعتبار أنّ البنية العدسيّة النهائية، منحنية بواسطة سرعات وكتل الفضاء، وكان يمكن التصوّر أنّ التوسّع الذي يحتضنُه الفضاء يجرّ خلفه المجرّات.

لم يكن عند شتروم أدنى شكّ في أنّ لا أحدَ أسعد من العالِم في هذه الدنيا. . يتملّكه أحياناً - في الصباح وهو في طريقه إلى المعهد، وفي فترة المشي المسائي، واليوم في الليل - شعورٌ غامرٌ بالسعادة والتواضع والنشوة.

إنّ القوى التي تملأُ الكونَ بضوءِ النجوم الهادئ، قد تحرّرت عند تحوّل الهيدروجين إلى هيليوم. . .

قبل عامين من الحرب، قام شابان ألمانيّان بشطر النوى الذرّية الثقيلة بالنيترونات، ووصل الفيزيائيون السوفييت إلى نتائج مشابهة بطرق أخرى، وشعروا فجأة بما عاناه رجل الكهف قبل مئة ألف عام لإشعال موقده الأوّل...

الفيزياء طبعاً حدّدت الاتجاه الرئيس في القرن العشرين... كما أنَّ ستالينغراد وبالطريقة نفسها، عام 1942، حددت اتجاه الضربة الرئيسة لجبهات الحرب العالمية الثانية كلِّها.

لكن تبعت ذلك وعلى الأثر مباشرة شكوكٌ ومعاناةٌ وعدمُ ثقةٍ لدى شتروم.



18

«فيتيا، أنا على ثقة أنّ رسالتي ستصلك، بالرغم من أنّني خلف خطوط الجبهة وخلف أسلاك الغيتو اليهودي الشائكة. لن أستلم رسالتك الجوابيّة قط، ذلك أنني لن أكون في عداد الأحياء. أريدك أن تعرف ما حدثَ في أيامي الأخيرة، وبهذه الفكرة سيكون سهلاً عليّ مغادرة الحياة.

من الصعب يا فيتيا أن تفهم الناس على حقيقتهم... اقتحم الألمان في السابع من تموز (يوليو) المدينة. لقد بثّ الراديو في حديقة المدينة آخر الأخبار، كنت عائدة من المستشفى بعد معاينة المرضى فتوقفت أستمع إليها، قرأت المذيعةُ مقالةً عن الحرب باللغة الأوكرانية. سمعتُ إطلاق نار بعيد، ثم ركضَ الناس يعبرونَ الحديقة، توجّهت نحو البيت واستغربت، كيف لم أسمع صفّارة الإنذار. وشاهدت فجّأة دبابة، ثمَّ صاح أحدهم: «الألمان يقتحمون...!».

قلت: «لا تثيروا الهلع»؛ كنت قبل ذلك لتوّي قد راجعت سكرتير مجلس المدينة، وسألت عن الخروج من المدينة، فغضب قائلاً: «من المبكر الحديث عن ذلك، حتى أنّنا لم نعدّ القوائم بعد». باختصار،

كان أولئك هم الألمان. طوال الليل زارَ الجيران بعضُهم بعضاً، كنّا أنا والأطفال الأكثر هدوءاً. حسمتُ أمري - فليحصل لي ما سيحصل للجميع. في البداية خفت كثيراً، فقد أدركتُ أنّني لن أراك بعد اليوم، واشتقتُ كثيراً للنظر إليك مرّة أخرى، وتقبيل جبهتك وعينيك، ثم فكّرت فيما بعد - السعادة هي أنّك في مأمن.

غفوت قبيل الصباح، وعندما استيقظت، شعرت بحزن رهيب. كنت في غرفتي، وعلى سريري، لكنّي شعرت بنفسي غريبة، ضائعة، وحدي.

ذكّروني في هذا الصباح بالذات، بما كنت قد نسيته خلال أعوام السلطة السوفييتية، ذكروني بأنّني يهودية. تجوّل الألمان في سيّارات شحن وهم يصرخون: «فليسقط اليهود!».

ثم ذكّرني بذلك بعضُ جيراني. فقد وقفت زوجة عامل تنظيف الفناء تحت نافذتي وقالت لجارتها: «الحمد للّه، نهاية اليهود». من أين أتت بهذا الكلام؟ ابنها متزوّج من يهوديّة، وكانت هذه العجوز قد زارته، وحدثتني عن أحفادها.

جارتي أرملة، لديها ابنة في السادسة من عمرها، ألينوشكا، عيناها زرقاوان رائعتان، لقد كتبت لك ذات يومٍ عنها، وقد جاءت إليَّ وقالت: «آنّا سيمينوفا، أرجوك أن تحزمي أمتعتك حتى المساء، سأنتقل إلى غرفتك». «حسناً إذاً، وأنا سأنتقل إلى غرفتك». «لا، انتقلي إلى الغرفة الصغيرة خلف المطبخ».

رفضتُ، فهناك ما من نافذة أو موقد.

ومضيتُ إلى المستشفى، وعندما عدت، تبيّن لي: أن باب الغرفة

مخلوع، وحاجياتي وضِعت في الغرفة الصغيرة. بل قالت لي الجارة: «أبقيت الأريكة عندي، لأنّها في الأحوال جميعها لا يمكن إدخالُها إلى الغرفة الصغيرة».

غريب، هذه المرأة كانت قد تخرجت في معهدٍ تقنيّ، وزوجها المتوفى كان رجلاً هادئاً ومحترماً، عمل محاسباً في أوكووبسبيلكا. «أنت خارجة عن القانون» - قالت لي بنبرة خاصة كما لو أن ذلك مربحٌ جداً لها. أمّا ابنتها ألينوشكا فقد جلست عندي طوال المساء، وحكيتُ لها الحكايات. هكذا كان الاحتفال بسكني الجديد، فهي لم ترغب في الذهاب إلى النوم، حملتها أمّها مرغمة. وفيما بعد فيتينكا، فتحوا مستشفانا من جديد، وطردوني مع طبيب يهودي آخر. طلبتُ نقوداً مقابل الشهر الذي عملت فيه، لكن المدير الجديد قال لي: «فليدفع لكِ ستالين لقاء عملك في زمن السلطة السوفييتيّة، اكتبي له إلى موسكو». حضنتني الممرضة ماروسيا وهمست بهدوء: «أيّها الربّ، يا إلهي، ما هو مصيركم، وما هو مصيرنا». وضغط الدكتور تكاتشيف على يدي. أنا لا أعرف ما هو الأصعب: الشماتة أم النظرات الحنونة، التي تنظر إلى قطّة محتضرة. لم أكن أعتقد أنّني سأعاني من ذلك كله.

لقد أدهشني كثيرٌ من الناس. ليس فقط الخبيثون، والغاضبون، والأميّون. إليك مثال العجوز المعلّم، المتقاعد، ذي الخمسة والسبعين عاماً من عمره، كان دائماً يسألني عنك، وطلب إليَّ كثيراً أن أوصل تحياته إليك، وقال عنك: «إنّه فخرنا». وهو في هذه الأيام الملعونة لا يسلّم عندما يلتقيني، ويشيحُ بوجهه عنّي. وحدّثوني فيما بعد أنّه قال في اجتماع ساكني الحي: «لقد نظف الهواء، ما عاد

يفوح برائحة الثوم». لكن لماذا يقول ذلك - هذه الكلمات تُلطّخه. وكم كان في هذا الاجتماع من الافتراءات على اليهود. . . وبالطبع فيتينكا، لم يذهب الجميع إلى هذا الاجتماع. الكثيرون رفضوا الحضور. وتعلم، يتذلّل هؤلاء أمام الألمان، تأسف لخنوعهم، إنهم مستعدون لبيع روسيا بثلاثين فضيّة[1] ألمانيّة. أمّا الجهلة من ضواحي المدينة فيسرقون، ويستولون على الشقق، وينهبون البطانيّات، والألبسة، هؤلاء على الأغلب، هم من قتل الأطباء إبّان انتفاضات الكوليرا. وهناك أناس بلا إرادة، يوافقون على كل شيء سيّء، كي لا يشك أحد فحسب في عدم وفاقهم مع السلطات الحاكمة.

يأتي إليّ ناسٌ من معارفي باستمرار، يحملون أخباراً، عيون الجميع مجنونة ذاهلة، الناس وكأنّهم في حالة هذيان. ظهر تعبير غريب: «إخفاء الأشياء». وكما لو أن ذلكَ أكثر أماناً عند الجار. يذكّرني إخفاء الأشياء بلعبة الصغار.

سرعان ما أعلنوا عن نقلِ سكن اليهود، سامحين لهم بأخذ 15 كغ من الحاجيات. وعلّقت على جدران الأبنية إعلانات صفراء: «يطرح على جميع اليهود الانتقال للسكن في حيّ المدينة القديم قبل الساعة السادسة مساء 15 تمّوز (يوليو) عام 1941». وسيعدمُ الذين يتخلّفون رمياً بالرصاص.

وهكذا فيتينكا، جهزّت نفسي أنا كذلك. أخذت معي مخدّة، وبعض البياضات، والفنجان الذي أهديتني إيّاه ذات مرّة، وملعقة،

(1) إشارة هنا إلى الثمن الذي قبضه يهوذا الأسخريوطي عندما باع يسوع المسيح، وهو ثلاثون قطعة نقدية فضّية. (المترجمان).

وسكين، وصحنين. وهل يحتاج الإنسان إلى الكثير؟ أخذت معي عدداً من الأدوات الطبّية. أخذت رسائلك، وصور والدتي المتوفاة وعمّي دافيد، وتلك الصورة التي أنت فيها مع بابا، ومجلّد بوشكين «رسائل من مطحنتي»، ومجلّد موباسان «الحياة»، وقاموس، أخذت مجلّدات تشيخوف «قصّة مملّة» و«الأساقفة» - وهكذا ملأت سلّتي. كم من الرسائل كتبت لك من تحت هذا السقف، وكم ساعة بكيت ليلاً، والآن سأحدثك عن وحدتي.

ودّعت المبنى، والحديقة، وجلست عدة دقائق تحت الشجرة، ودّعت الجيران. غريبةٌ تركيبة بعض الناس؛ جارتان تجادلتا أمامي، من منهما ستأخذ طاولة الكتابة، ومن منهما ستأخذ الكراسي، وعندما ودّعتهما بكت الاثنتان معاً. طلبتُ من جيراني: عائلة باسانكو، إذا أتيتَ بعد الحرب سائلاً عنّي، أن يحدثوك بما جرى بالتفصيل - وقد وعدوني بذلك. أثّر فيّ الكلب، توبيك كلب الفناء كثيراً - لقد داعبني بشكل خاص آخر مساء.

إذا ما أتيتَ أطعمه جيّداً لقاء علاقته الطيّبة مع العجوز اليهودية.

عندما أصبحتُ مستعدَّةً للانطلاق فكرتُ: كيف سأحمل هذه السلّة إلى المدينة القديمة، حتى حضر فجأة مريضي شوكين، الذي بدا لي من قبل متجهّماً وإنساناً قاسياً. أعطاني ثلاثمئة روبل وحمل أمتعتي، وقال إنّه سيجلب لي الخبز مرّة كلّ أسبوع إلى السياج. إنّه يعمل في المطبعة، لم يأخذوه إلى الجبهة بسبب مرض عينيه. تعالج عندي قبل الحرب، ولو اقترحوا عليَّ من قبل أن أعدَّ قائمةً بأسماء الأشخاص ذوي الروح النقيّة المتعاطفة - لسمّيت عشرات الأسماء، لكن ليس اسمه. تعرف يا فيتينكا، شعرت بعد قدومه إنني إنسانة من

جديد، وهذا يعني أنْ ليس كلب الفناء وحده من يمكن أن يتعامل معي بإنسانيّة.

لقد حدثني أنّهم يطبعونَ في مطبعة المدينة قراراً: يمنع على اليهود السيرَ على الأرصفة، ويجب عليهم أن يعلّقوا على صدورهم درعاً أصفرَ على شكل نجمة سداسيّة، وأنّهم لا يملكون الحق في استخدام المواصلات، وارتياد الحمَّامات، وزيارة العيادات الخارجية، والدخول إلى دور السينما، ويمنع عليهم شراء الزيت، والبيض، والحليب، والثمار، والخبز الأبيض، واللحمة، ما عدا البطاطا؛ ويسمَحُ لهم الشراء من البازار بعد الساعة السادسة مساء فقط (عندما يغادر الفلاحون البازار). وستسيّج المدينةُ القديمةُ بأسلاكٍ شائكة، فيمنع عليهم الخروج خارج ذلك الشريط الشائك، إلّا ضمن قوافلٍ إلى الأعمال القسريّة فحسب. وعند اكتشاف وجودِ يهوديٍّ في بيت روسي - فإنَّ عقوبة الروسيِّ ستكون القتل، كأنهُ يؤوي رجل عصابات.

قدمَ والد زوجة شوكين، وهو فلاحٌ عجوز، من قرية تشودنوفا المجاورة وكان قد رأى بأمّ عينه، كيف اقتادوا اليهودَ المحليين(1) مع أمتعتهم وحقائبهم إلى الغابة، وسُمعت من هناك طوال ذلك اليوم أصواتُ إطلاق النار وصراخ الناس، ولم يعد من هناك أحد. أمّا الألمان الذين وقفوا في الشقة عند عمّه، فكانوا قد وصلوا في وقت

---

(1) «يتناسى الكاتب أن هذا الظلم من قبل الألمان لم يقع على اليهود فحسب بل على أبناء المنطقة التي احتلها الألمان جميعهم، فقد خسِرَ الاتحاد السوفييتي وَحدَهُ نحو 27 مليونَ مواطن في تلك المرحلة جُلّهم من غير اليهود». (م).

متأخر من المساء – سكارى، واستمرّوا في تناول الشراب حتى الصباح، وغنّوا وتقاسموا أمام العجوز فيما بينهم الدبابيس والخواتم والأساور. لا أعرفُ ما إذا كان ذلك عملاً تعسّفيّاً عارضاً أم هو مصيرٌ ينتظرنا؟

كم كان طريقي إلى غيتو القرون الوسطى حزيناً يا بُنيّ. سرتُ في المدينة، التي عملت فيها عشرين عاماً. مشينا بداية في شارع سفيتشنا الخالي، لكن عندما دخلنا شارع نيكولسك، شاهدت مئات الناس، المتوجهين إلى الغيتو الملعون. لقد أصبح الشارع أبيضَ من الأمتعة والوسائد. نقلوا المرضى على الأيدي، وحملوا والد الدكتور ماغوليس المشلول على البطانية. وحمل شابٌ امرأةً عجوزاً على يديه، ومشت خلفه زوجتُه والأطفال، محمّلين بالأمتعة. سار مدير محل البقالية غوردون السمين، المصاب بضيق التنفس، بمعطف له ياقة من الفرو، وكان العرق يسيل على وجهه. وأدهشني شابٌّ، يمشي دونما أمتعة، رافعاً رأسه، ويحمل كتاباً مفتوحاً بين يديه، وجهه متغطرسٌ وهادئ. لكن كم من بشرٍ مصابين بالجنون والرعب كانوا هناك.

سرنا على الجسر، في حين اصطفَّ الناسُ على الأرصفة ونظروا إلينا.

مشيت فترة مع مارغوليس وسمعت تنهّدات النساء المتعاطفة. وضحك الناس من هيئة غوردون في المعطف الشتوي، لكن ثق، كان غوردون مخيفاً وليس مُضحكاً. رأيت كثيراً من الوجوه التي أعرفها. منهم من هزّ رأسه لي مودّعاً، وآخرون استداروا جانباً. هُيّئ لي أنّ في هذه الجمهرة لم يكن ثمّةَ أعين غير مبالية؛ فهناك كانَ

الفضوليون، وثمَّةَ أيضاً عديمو الرحمة، لكنني رأيت أكثرَ من مرّة عيوناً باكية.

رأيتُ حشدين: يهودٌ في المعاطف، والقبعات الشتوية، والنساء يرتدين فساتين دافئة، وحشد ثانٍ على الرصيف؛ يرتدون ثياباً صيفية، بلوزات ألوانها فاتحة، والرجال من دون جاكيتات، وعدد منهم في قمصان أوكرانية مَخيطة. بدا لي، أنّ الشمس رفضت أن تضيء لليهود السائرين في الشارع، وأنّهم يمشون وسط ليلة كانونية باردة.

ودّعت رفيق دربي عند مدخل الغيتو، وأشار لي إلى المكان الذي سنلتقي فيه، عند السياج الشائك.

أتعلم يا فيتينكا بماذا شعرتُ عندما وجدتُ نفسي خلف الأسلاك؟ اعتقدتُ أنّني سأشعرُ بالرعب. لكن تصوّر أصبحت أشعر بالارتياح في زريبة الحيوانات هذه. لا تفكر أن ذلك بسبب روحي المستعبدة. لا. لا. بل لأنّ مصير الناس من حولي واحد، وليس عليَّ في الغيتو أن أسير كالحصان على الجسر، وما من نظراتِ حقد، ومعارفي ينظرون إليّ هنا في عيني، ولا يتجنَّبون اللقاء بي. وفي هذه الزريبة الجميع يحمل ختماً وضعه علينا الفاشيون، ولهذا لا يحرق روحي ذلك الختم هنا. أنا لا أشعر نفسي هنا دابةً من دون حقوق، بل إنسان تعيس، وهذا ما يجعلني أكثر راحةً.

سكنت مع زميلي طبيب الأمراض الداخلية شبيرلينغ، في بيت طينيّ مؤلف من غرفتين. لدى أسرة شبيرلينغ ابنتان يافعتان وصبيّ. الفتى في الثانية عشرة من عمره. أتأمَّلُ طويلاً وجهه النحيل وعينيه الكبيرتين الحزينتين؛ اسمه يورا، وقد ناديته مرة أو مرتين فيتيا، وصحّح لي قائلاً: «أنا يورا ولست فيتيا».

كم هي مختلفة طبائع الناس! شبيرلينغ في عامه الثامن والخمسين طافح بالحيوية. لقد تمكّن من إحضار فرشٍ، وكيروسيناً، وحطباً لتسخين المياه. ليلاً أحضروا إلى البيت كيساً من الطحين ونصف كيسٍ من الفاصولياء. إنّهُ يفرح لأيّ نجاح يحقّقه، كشابٍّ متزوِّج حديثاً. علّق يوم أمس السجاد. كان يكرّرُ دائماً: «لا بأس، لا بأس، سنتحمّل ونبقى على قيد الحياة، المهم هو تخزين المواد الغذائية والحطب».

قال لي، يجب أن نفتتح مدرسة في الغيتو. وحتى أنّه اقترح عليَّ أن أعطي دروساً ليورا في اللغة الفرنسية وسيدفع مقابل الدرس صحناً من الحساء. وأنا وافقت.

زوجة شبيرلينغ فانّي بوريسوفنا سمينة، تتنهد قائلةً: «كل شي انتهى، ونحن انتهينا»- لكنّها في الوقت نفسه تحرص ألا تعطي ابنتُها لوبا، وهي الكائن الطيّب واللطيف، أحداً ما حفنة فاصولياء أو قطعة خبز. أمّا الابنة الأصغر المحبّبة لأمّها آلّا - فهي جحيم لا يطاق: مستبدّة، ومشبوهة، وبخيلة؛ تصرخ في وجه والدها، وأختها. جاءت قبل الحرب من موسكو لزيارتهم ولم تستطع العودة.

يا إلهي، ما هذه الفاقة الشديدة من حولنا! لو أن الذين يتحدَّثون عن غنى اليهود، وعن أنّهم يخزّنون دوماً ليومهم الأسود، يحضرونَ ويرونَ مدينتنا القديمة. ها هو هذا اليوم الأسود قد حلّ، ما من يومٍ أكثر سواداً من هذا اليوم. ففي المدينة القديمة لا يوجدُ المهجّرون ذوي الـ 15 كغ من الأمتعة فحسب، بل عاش هنا دائماً الحرفيّون، والعجزة، والعمال، والممرضات؛ ما ضيَّق المكان المرعب الذي

عاشوا ويعيشون فيه. وكيف يأكلون! لو كان لك أن تنظر إلى أكواخ الصفيح نصف المهدّمة والمغروسة في الأرض.

إنّي يا فيتينكا أرى هنا الكثير من الناس السيّئين - البخلاء، والجبناء، وحتى أولئكَ المستعدين للخيانة. ثمّةَ شخص مخيف هنا، إبشتين، وصل إلينا من إحدى المدن البولونيَّة، عَلَّقَ على كمّه ربطة قماش خاصَّة وهويسير مع الألمان للبحث والتفتيش، ويشارك في التحقيق، ويسكر مع الشرطة الأوكرانيَّة، وهم يرسلونه ليبتزّ البيوت فيحصل منها على الفودكا والنقود والمواد الغذائية. رأيته مرّتين - طويل، وجميل، يرتدي بذلة عسكرية عسليَّة، وحتى أنَّ لديه نجمة صفراء، مخيطة على معطفه، ويبدو كأقحوانة صفراء.

لكنني أريد أن أحدثك عن أمرٍ آخر. أنا لم أشعر نفسي يهودية أبداً، ترعرعت منذ صغري وسط الصديقات الروسيّات، وأكثر ما أحببت من بين الشعراء بوشكين ونيكراسوف، والمسرحية التي بكيت خلالَ مشاهدتها مع المتفرّجين كلهم، الذين كانوا في الصالة، خلالَ مؤتمر أطباء الريف الروس، كانت مسرحية «العم فانيا» في مسرح ستانيسلاف. وأنا ذاتَ يوم، فيتينكا وعندما كنت فتاة في الرابعة عشرة من عمري، نوت عائلتي الهجرة إلى أمريكا الجنوبية. فقلتُ لبابا: «لن أسافر من روسيا إلى أيّ مكان، الأفضل لي أن أُغرق نفسي في الماء». ولم أسافر.

وها هو قلبي في هذه الأيام المرعبة قد امتلأ برقّة الأمومة نحو هذا الشعب من حولي. لم أعرف هذا الحب من قبل. إنّه يذكّرني بحبّي لك، ابني العزيز.

أزور المرضى في البيوت. عشراتُ الناس محشورون في غرف صغيرة: عجزة نصف عميان، وأطفال رُضّع، ونساء حوامل. وقد اعتدتُ أن أبحث في عيون المرضى عن أعراض المرض - المياه الزرقاء والسوداء. أنا الآن لا أستطيع النظر في عيون الناس كما كنت أفعلُ من قبل - أرى في عيونهم انعكاس الروح فحسب. أرواح جيّدة فيتينكا! حزينة وطيّبة، مُبتسمة ومحكومة، هزمها العنف وفي الوقت نفسه منتصرة على العنف. أرواح قويّة يا فيتيا!

لو رأيت، بأي اهتمام يسألُني العجائز نسوةً ورجالاً عنك. كم يواسيني بصدقٍ هؤلاء الناس، الذين لم أشتكِ لهم، الناس الذين هم في وضع مرعبٍ أكثر من وضعي.

يبدو لي أحياناً أنّني لا أزور المرضى فأُعالجهم، بل على العكس؛ الطبيب الشعبي الطيّب يعالج روحي. وكم هو مؤثّر عندما يقدمون لي مقابل العلاج قطعةَ خبز، بصلة، حفنة فاصولياء.

كن واثقا يا فيتينكا، هذا ليس أجر العلاج! عندما يشد عامل عجوز على يدك ويضع حبتين - ثلاث حبات بطاطا في الحقيبة ويقول: «حسناً، حسناً، دكتور، أنا أرجوكِ»، تغرورقُ عيناي بالدمع. إنّ في ذلك شيئاً ما نقيّاً، أبويّاً، وطيّباً، لا أستطيع أن أنقل لك ذلك بالكلمات.

لا أريد أن أُطمئنك وأهدئ نفسك، بأنّني كنت مرتاحة في هذه الفترة، ستدهش، كيف أن قلبي لم يتقطّع من الألم. لكنني لا أريدُ أن تُعذّب نفسك بفكرة أنّني عانيت من الجوع، لا، فأنا طوال هذه الفترة لم أجع ولو مرّة واحدة. زد على ذلك - أنّني لم أشعر بالوحدة أبداً.

ماذا أقول لك فيتيا عن الناس؟ يُدهشني الناس بسيّئاتهم وحسناتهم. إنّهم متمايزون بصورةٍ غير عاديّة، على الرغم من أنّهم يعانون من مصير واحد. تصوّر، فإذا ما حاول معظم الناس أثناء الرعد، الاحتماء من المطر الغزير، فهذا لا يعني، أنّ الناس يماثلون بعضهم بعضاً. نعم فكلّ واحد منهم يحتمي من المطر على طريقته. . .

إنّ الدكتور شبيرلينغ على ثقة بأنّ اضطهاد اليهود مؤقّت، وينتهي مع انتهاء الحرب. ومثله الكثيرون، ولكنّي أرى، أن الناسَ كلّما كانوا أكثر تفاؤلاً، كانوا أكثر اهتماماً بالتوافه والصغائر، وكانوا أكثر أنانيّة. فإذا دخل أحد ما أثناء تناول الأسرة طعام الغداء، تُخفي آلّا وفاني بوريسوفنا الطعام مباشرة.

تتعامل معي أسرة شبيرلينغ بشكل جيّد، وبخاصّة أنّني آكل قليلاً، وأُحضِر مواد غذائية أكثر مما أستهلك. لكنّي قررت تركهم، إنّهم مزعجون بالنسبة لي. أبحث لنفسي عن زاوية أسكن فيها. كلّما كان الحزن أكثر في الإنسان، كان أمله أقل في أن يبقى على قيد الحياة، وأصبحَ أوسع صدراً، وأفضل، وأكثر طيباً.

إنّ الفقراء، والحدادين، والخياطين، المحكومين بالموت، هم أكثر نبلاً، وأوسع صدراً وأكثر عقلانية، من أولئك الذين تمكّنوا من تخزين المواد الغذائية. المعلِّمات الشابات، والمعلم القديم - غريب الأطوار ولاعب الشطرنج شبيلبيرغ، وعاملات المكتبات الهادئات، والمهندس ريفيتش، الذي هو أكثر عجزاً من الطفل ويحلم بتسليح الغيتو بالقنابل يدوية الصنع، أناس رائعون غير عمليين، لطيفون، وطيّبون.

أرى هنا، أنّ الأملَ ما كانَ أبداً مرتبطاً بالعقل تقريباً ، وهو لا معنى له، وأعتقد أنّ الغريزةَ خلقتهُ.

يعيشُ الناس فيتيا، وكأنّ أعواماً طويلةً تنتظرهم في المستقبل. ويجب ألّا يفهمَ ذلك على أنّه غباء أو ذكاء، هذا هو الواقع. وأنا أطيع هذا القانون. أتت إلى هنا امرأتان من المنطقة وحدثتا بالأمر نفسه، الذي حدّثني به صديقي. الألمان يقضون على كل اليهود في المنطقة، لا يرحمون الأطفال، وكبار السنّ. يصلُ الألمان والشرطة في سيّارات ويأخذون العشرات من الرجال للقيام بالأعمال الميدانية، فيحفرون الخنادق، ومن ثم وبعد يومين - ثلاثة يدفع الألمان السكّان إلى هذه الخنادق ويطلقون النار عليهم جميعاً. بدأت تنمو في كل مكان حول مدينتنا، تلال المدافن اليهودية.

تعيش في المبنى المجاور فتاة من بولونيا. حدثت أن القتل هناك يحصل دائماً، يقطعون رؤوس اليهود من دون استثناء، وبقي الناسُ في عدد من الغيتوات - في وارسو، ولودزا، ورادوم فقط. وعندما فكّرت في كل هذا، أصبح واضحاً بالنسبة لي وضوحاً تامّاً، أنّهم جمعونا هنا، ليس من أجل الحفاظ علينا، كما البيسونات[1] الأوروبية، بل للذبح. وسيصلنا الدور حسب الخطة بعد أسبوعين أو ثلاثة. لكن تصوّر، أنا أتابع علاج الناس وأنا مدركة ذلك كلَّه، وأقول للمرضى: «إذا تابعتم غسلَ العينين بالدواء بشكل منتظم، فسوف تشفون خلال أسبوعين - ثلاثة». وأنا أراقب وضعَ عجوزٍ،

(1) بيسون أوروبي أو ويسنت هو نوع من البيسون الأوراسي. يعتبر أثقل حيوان بري يعيش على اليابسة يشبه الثور، وهو باقٍ على قيد الحياة في أوروبا. (المترجمان).

يمكنُ أن تُسحبَ المياهُ السوداءُ من عينيه بعد نصف عام إلى العام.

أعطي يورا دروساً في اللغة الفرنسية، وأغضب من لفظه غير الصحيح.

ويقتحمُ الألمان هنا الغيتو، يسرقون، ويتسلّى الحراسُ بإطلاق النار على الأطفال من خلف الأسلاك، ويؤكد أناسٌ جدد، وجدد، أنّ مصيرنا سيتقرّر في أيّ يوم.

هذا ما يحدث: يستمرُ الناسُ في العيش. حتى أنّنا أقمنا عرساً منذ فترة. وتتولّد الإشاعات بالعشرات. أحياناً يخبرُ الجارُ مختنقاً من الفرح، بأنّ قواتنا انتقلت إلى الهجوم والألمان يهربون. وتولد إشاعة تقولُ إنّ الحكومة السوفييتية وتشرشل وجّها إنذاراً للألمان، وأمرَ هتلر بعدم قتلِ اليهود. ويخبرون أحياناً بأنّ مُبادلتنا ستتمُّ بالأسرى الألمان.

واتَّضحَ أنّه ما من آمال في الخارج إلى تلك الدرجة، كما هي عليه في الغيتو. العالم مليءٌ بالأحداث، وفكرة هذه الأحداث وسببها واحد - هو إنقاذنا. يا لهذه الثروة من الآمال!

مصدرُ هذه الآمال واحد - غريزة البقاء، من دون أيّ منطق يقاوم ضرورة القتل المخيفة، التي لن تبقي لنا جميعاً من أثر. وها أنا ذي أنظر ولا أصدّق: أيعقل أن نكون نحن جميعاً محكومين، وننتظر الإعدام؟ الجميع يعمل - الحلاقون، والإسكافيون، والخياطون، والأطباء، وصانعو الفخار. وحتى أنَّ دار ولادة صغيرة افتتِحَتْ، والأصح، ما يشبه ذلك. تُنشّف أغطية الأسرّة، وتُغسل الثياب، ويُحضّر الغداء، ويذهب الأطفال في الأوّل من أيلول (سبتمبر) إلى المدارس، والأمّهات يسألن المعلّمين عن درجات أبنائهنّ.

وضع العجوز شبيلبيرغ عدة كتب للتجليد. وآليا شبيرلينغ تمارس الرياضة البدنية كل يوم صباحاً، وتلفُّ شعرها بلفافة الشعر قبل النوم، وتتشاجر مع والدها، طالبة قطعتي ثياب صيفية.

وأنا مشغولة منذ الصباح حتى المساء - أزور المرضى، وأعطي دروساً، وأرتقُ الثيابَ وأغسِلها، أحضِّرُ للامتحان، أخيط بطانة قطن للمعطف الخريفي. أستمع إلى الأحاديث عن العقوبات التي حلّت على بني جنسنا - لقد ضربوا إحدى معارفي، زوجة المستشار القانوني، حتى أغمي عليها، لأنَّها اشترت بيضة بط لطفلها، الصبي، وأطلقوا النار على كتف ابن الصيدلانيَّة سيروتا، عندما حاول الزحف تحت الشريط الشائك ليعيد الكرة التي سقطت خارجه، ومن ثمَّ إشاعات من جديد، وإشاعات، وإشاعات.

اليوم، وهذه ليست شائعة، اقتاد الألمان سبعين شاباً إلى العمل، زاعمين أنّهم سيقتلعون البطاطا، وفرحَ بعض الناس - فهؤلاء الشبان سيتمكنون من إحضار القليل منها لأهاليهم. لكنّني أدركت عن أيِّ بطاطا يدور الحديث.

الليل في الغيتو - هو وقت خاص، يا فيتيا. تعلم يا صديقي أنّني كنت أعلّمك أن تقول لي الحقيقة، على الابن دائماً أن يقولَ لأمّه الحقيقة. لكن وعلى الأمّ أيضاً أن تقول الحقيقة لابنها. لا تعتقد فيتيا، أن أمّك شخصٌ قويٌّ. أنا ضعيفة. أخاف الألم وأتجابن، عندما أجلسُ على كرسي طبيب الأسنان. كنت أخاف الرعدَ في صغري، والظلمة. وأخاف المرضَ والوحدةَ وأنا عجوز، وأخاف أن أصبح غير قادرة على العمل عندما أمرض، وسأصبح عبئاً عليك، وستشعرني أنت بذلك. كنت أخافُ الحربَ. ينتابني في الليالي الآن

يا فيتيا الرعب، الذي يتجمّد قلبي منه. ينتظرني الموت. وأرغب في مناداتك للمساعدة.

كنتَ يوماً ما طفلاً وتهرع إليّ باحثاً عن الحماية. وأرغب الآن في لحظات الضعف، أن أخفي رأسي على ركبتيك، كي تتمكن وأنت الذكي، والقويّ، أن تغطّيه وتحميه. فيتيا ليست معنوياتي عالية كما تبدو، فأنا ضعيفة أيضاً. غالباً ما أفكر في الانتحار، لكن لا أدري ما يعيقني عن ذلك، هل هو الضعف أم القوّة، أم الأمل عديم الجدوى.

لكن يكفي. أنا أغفو وأرى أحلاماً. غالباً ما أرى والدتي المتوفاة، وأتحدّث إليها. رأيت ليلة البارحة في حلمي ساشينكا شابوشنيوف، عندما عشنا سويّة في باريس. لكنّي لم أرَكَ أبداً في الحلم، مع أنّني أفكر فيك دائماً، وحتى في أوقات التوتر المرعبة. أصحو وأرى فجأة السقف، وأتذكر أنّ الألمان على أرضنا، وأنا مصابة بمرض الجذام، ويُهيّأُ لي أنّني لم أستيقظ، بل على العكس، غفوتُ وأرى حلما.

لكن تمرّ بضعُ دقائق، وأسمع كيف تُجادل آليا لوبا، حول من دورها الآن للذهاب إلى البئر وإحضار الماء، وأسمع حديثاً عن أنَّ الألمان كسَرَوا ليلاً رأسَ عجوزٍ في الشارع المجاور.

جاءت إليَّ فتاةٌ أعرِفها، وهي طالبة في المعهد التقني، وطلبت إليَّ مُعاينة مريض. اتضحَ لي أنّها تخفي ملازماً في الجيش، جريحاً مصاباً في كتفه، وعينُه محروقة. كان رقيقاً مرهقاً، له لكنة أوكاي من منطقة الفولغا. تسلل ليلاً من خلف الشريط الشائك ووجدَ ملجأً له في الغيتو. تبيّنتُ أنّ عينه تضرّرتْ قليلاً، وتمكنتُ من وقف القيح.

تحدّث كثيراً عن المعارك، وعن هروب قوّاتنا، فأوصلني إلى الكآبة. كان يريد أن يأخذ قسطاً من الراحة ثمَّ يغادرُ من خلال خط الجبهة. سيذهب معه عدة شبّان، أحدهم كان طالبي. آه يا فيتيا، لو كان بإمكاني أن أرافقهم! كم كنت مسرورة بمساعدة هذا الشخص، وهُيّئَ لي أنّني أشاركُ أيضاً في الحرب ضد الفاشيّة.

أحضروا له بطاطا وخبزاً وفاصولياء، وحاكت له إحدى الجدَّات جوارب صوفية.

كان اليوم حافلاً بالمآسي. حصلت آليا قبيل ذلك، عن طريق صديقتها الروسية، على جواز سفرٍ لفتاة روسية توفيت في المستشفى، وستغادر آليا ليلاً. وقد علموا اليوم عن طريق فلاح يعرفونه، كان مارّاً بجانب الشريط الشائك للغيتو، بأنّ اليهود الذينَ أُرسلوا لاقتلاع البطاطا، كانوا يحفرون خنادق عميقة على بعد أربعة أميال من المدينة، بالقرب من المطار، على الطريق إلى رومانوف. تذكر فيتيا هذا الاسم؛ حيث ستجد مقبرةً جماعية، وستكون أمّك مدفونة هناك.

حتى شبيرلينغ فهم كلّ ذلك، وكان شاحباً طوال اليوم، وشفتاه ترتجفان، وسألني حائراً: «هل ثمَّةَ أمل، بأن يتركوا الاختصاصيين على قيد الحياة؟». يحدثون بالفعل، بأنَّ الألمان وفي عدد من الأماكن لم يعدموا أفضل خياطي الأحذية والأطباء.

ومع ذلك استدعى شبيرلينغ صانعَ المواقدِ العجوز في المساء، وذلك الرجل جهّز له مخبأً للدقيق والملح في الجدار. وأنا قرأت مع يوري في المساء «رسائل من مطحنة بلدي». أتذكر، عندما قرأنا سويّة قصّتنا المفضلة «القديمة» بصوت عال، وتبادلنا النظرات، وضحكنا، وسالت دموعنا من أعيننا. ثم أعطيت دروساً ليوري ليوم

بعد غد. كان يحتاج إليها. لكن كم كان شعوري مؤلماً، عندما نظرت إلى وجه طالبي الحزين، وإلى أصابعه، التي تكتب في الدفتر أرقام الفصول النحوية المعطاة له.

وكم من هؤلاء الأطفال: عيونهم رائعة، وشعورهم مجعّدة داكنة، ومن المحتمل أن يكون من بينهم علماءُ مستقبليون، فيزيائيون، وأساتذةٌ في الطب، وموسيقيون، وربّما شعراء.

أنا أنظر إليهم، كيف يسرعون في الصباحات إلى المدرسة، جديين ليس كالأطفال، بعيون مأساوية واسعة. ويبدأون أحياناً بخلق الفوضى، يتشاجرون ويضحكون، وهذا لا يجلب السرور إلى أرواحهم ، بل يتملّكهم الرعب.

يقولون إنّ الأطفال هم مستقبلنا، لكن ماذا تقول عن هؤلاء الأطفال؟ إنّهم لن يصبحوا موسيقيين، ولا صانعي أحذية، ولا مصمّمي أزياء. لقد تخيّلت بوضوح هذه الليلة، كيف أنّ العالم الصاخب هذا من الآباء الملتحين المشغولين، والجدّات المتذمّرات، صانعات كعك العسل، وطاهيات رقاب الإوز، وعالم الأمثال، والأعراس التقليدية، واحتفاليّات أيام السبت، سيختفي إلى الأبد تحت الأرض، كما اختفى الأزتيك[1].

قال الفلاح، الذي جلب خبر إعداد المقابر، إن زوجته بكت في

---

(1) الأزتيك هم من الشعوب الأصلية في الأمريكيتين، وقد أطلقوا على أنفسهم Mexica، أو Tenochca، وبوجه أعم، هم المجموعات العرقية الناطقة بلغة ناهواتل التي كانت تعيش في منطقة وادي المكسيك إبان الغزو الإسباني، من أهم كياناتهم السياسية إمبراطورية الأزتيك وكونفدرالية التحالف الثلاثي المكسيكي. (المترجمان).

الليل، ناحبة تقول: «إنهم يخيطون، ويصنعون الأحذية، ويصنعون الجلد، ويصلحون الساعات، ويبيعون الأدوية إلى الصيدلية. . . ماذا سيحصل عندما يقتلونهم جميعاً؟».

وهكذا رأيتُ بوضوحٍ كيف سيمرُّ أحدهم في قادم الأيام بجانب الخراب ويقول: «أتذكر، هنا عاش ذات يوم مجموعةٌ من الناس: معلّم المواقد بوروخ؛ كانت عجوزته تجلس في أمسيات السبت، على المقعد، وبجانبها كان الأطفال يلعبون». ويقول محدِّثٌ ثان: «وهنا تحت شجرة الكمثرى - الحامضة، عادة ما كانت تجلس طبيبة، نسيت اسم عائلتها، عالجت عندها ذات يوم عينيَّ، وكانت تُحضرُ دائماً بعد العملِ كرسيّاً مجدولاً وتجلس مع الكتاب». هذا ما سيحصل يا فيتيا.

وكأنّ نفحة هواء مخيفة مرّت على الوجوه، شعر الجميع بأن الأجل يقترب أكثر فأكثر.

فيتيا، أريد أن أقول لك. . . لا، ليس هذا، وليس ذاك.

فيتيا، بعد أن أنهي رسالتي، سآخذها إلى سياج الغيتو، وأعطيها لصديقي. ليس من السهل تمزيق هذه الرسالة، إنّها محادثتي الأخيرة معك، بعد إرسال الرسالة، أتركك نهائياً، ولن تعرف أبداً ساعاتي الأخيرة. هذا هو فراقنا الأخير. ماذا أقول لك في الوداع، قبيل الانفصال الأبديّ؟ أنت فرحي في هذه الأيام، كما كنت طوال الحياة. أتذكرك في الليالي، وأتذكر ثياب طفولتك، وكتبك الأولى، تذكرت رسالتك الأولى، ويوم المدرسة الأوّل، أتذكر كل شيء، كلّ شيء منذ الأيام الأولى في حياتك حتى آخر خبر منك، وبرقيتك التي استلمتها في 30 من حزيران (يونيو). أغمضت عيني يا صديقي، وبدا

لي أنك أبعدتني عن رعب محدق. وعندما تذكرت ما يجري من حولي، كنتُ سعيدةً أنك لم تكن بالقرب مني، فليتجنَّبك المصيرُ الرهيب.

فيتيا، أنا دائماً كنت وحيدة. بكيت من الكرب في الليالي التي لم أرَ النوم فيها. لا أحد يعرف ذلك. عزائي كان في فكرة أنّني سأحدثك عن حياتي. سأخبرك لماذا انفصلت عن والدك، ولماذا عشت وحدي هذه السنوات الطويلة. وغالباً ما كنت أفكّر يا فيتيا، أنّك ستندهش عندما تعلم أن والدتك قد ارتكبت أخطاء، وكانت تشعر بالجنون والغيرة لأنهم كانوا يغارون عليها، وكانت مثلها مثل كل الشباب. ولكن قدري هو أن تنتهي حياتي وحيدة، دون أن تشاركني إياها. بدا لي في بعض الأحيان، أنّني يجب ألّا أعيش بعيدة عنك، لقد أحببتك كثيراً، وأعتقد أنّ هذا يعطيني الحق في أن أكون معك في سنّ الشيخوخة. وبدا لي أحياناً أنّه يجب ألّا أعيش معك، لأنّني أحببتك زيادة عن اللزوم.

حسناً. . . كنّ سعيداً دائماً مع من تحبهم، والذين يحيطون بك، والذين أصبحوا أقرب من أمّك إليك. سامحني.

يُسمع من الشارع بكاء النساء واعتداءات الشرطة، ويبدو لي وأنا أنظر إلى هذه الصفحات، أنّني محميَّة من العالم الرهيب المليء بالمعاناة.

كيف أنهي الرسالة؟ أين يمكن الحصول على القوة يا بني؟ هل هناك كلمات بشرية قادرة على التعبير عن حبي لك؟ أقبِّلك، وأقبّل عينيك، وجبهتك، وشعرك.

تذكّر دائماً في أيام السعادة وأيّام الحزن أنّ حب الأمومة معك،

وما من أحد يستطيع أن يقتله.

فيتيا... هنا هو السطر الأخير من رسالة الأم الأخيرة لك. عش،عش، عش إلى الأبد... ماما».

19

ما فكَّرَ شتروم قبل الحرب على الإطلاق، في أنّه يهودي، وأنّ أمّهُ يهوديّة. وما تحدَّثت أمّه إليهِ بهذا الأمر بتاتاً - لا في الطفولة، ولا في أعوام الدراسة الجامعيَّة. لم يتحدّث إليهِ أيامَ الدراسة في جامعة موسكو عن ذلك أبداً، لا طالب، ولا بروفيسور، ولا رئيس سيمينار.

لم يسبق له البتّة أن سمع حديثاً عن ذلك، لا في المعهد، ولا في أكاديمية العلوم.

لم تظهر لديه رغبة التحدّث عن ذلك مع ناديا إطلاقاً - وأن يشرح لها، أنّ أمّها روسيّة، أمّا الوالد فهو يهودي.

واتَّضحَ أن قرن أينشتاين وبلانك هو قرن هتلر. والنهضة العلمية والغيستابو ولدا في الفترة نفسها. كم كان القرن التاسع عشر إنسانيّاً، مقارنة مع القرن العشرين - القرن العشرين قتل أمّه. هناك تشابه رهيب بين مبادئ الفاشيّة ومبادئ الفيزياء الحديثة.

رفضت الفاشية مفهوم الشخصية المنفصلة، ومفهوم «الإنسان»، وتعمل بالمجاميع الضخمة. وتتحدثُ الفيزياءُ الحديثةُ عن الاحتمالات الكبيرة والصغيرة للظواهر في هذه المجاميع أو تلك من

الأفراد الطبيعيين. لكن أليست الفاشية في آليّتها الرهيبة مؤسّسة على قانون سياسة الكم[1]، والاحتمالات السياسية؟

لقد وصلت الفاشيّة إلى فكرة القضاء على فئات بأكملها من السكان، والجماعات العرقية والقومية، على أساس أن احتمال المعارضة السرّيّة والعلنيّة في هذه الفئات والجماعات أكثر مما لدى غيرها من الفئات والجماعات الأخرى. آليّة الاحتمالات والمجاميع البشرية.

لكن لا، بالطبع! لذلك فإن الفاشية ستفنى، كونها فكرت في تطبيق قوانين الذرة والكتل الكبيرة على الإنسان!

الفاشية والإنسان لا يمكن أن يتعايشا. عندما تنتصر الفاشية، يتوقف وجود الإنسان، وتبقى فحسب كائناتٌ مجازيَّةٌ بشريّةٌ، متحوّلة داخلياً. لكن عندما ينتصر الإنسان الموهوب بالعقل والطيبة والحرّية - تهلك الفاشية ويصبحُ المنصاعونَ لها أناساً من جديد.

أليس هذا اعترافاً بأفكار تشيبزين حول القدر، تلك التي جادل ضدها هذا الصيف؟ بدا له زمن الحديث مع تشيبزين بعيداً جداً إلى

(1) العبارة مأخوذة من مصطلح: «ميكانيكا الكم» الذي هو مجموعة من النظريات الفيزيائية ظهرت في القرن العشرين، وذلك لتفسير الظواهر على مستوى الذرة والجسيمات دون الذرية وقد دمجَ هذا المصطلح بين الخاصية الجسيميَّة والخاصية الموجية ليظهر مصطلح ازدواجيَّة الموجة -الجسيم، وبهذا تصبح ميكانيكا الكم مسؤولة عن التفسير الفيزيائي على المستوى الذري كما أنها أيضاً تطبق على الميكانيكا الكلاسيكية ولكن لا يظهر تأثيرها على هذا المستوى، لذلك ميكانيكا الكم هي تعميم للفيزياء الكلاسيكية لإمكانية تطبيقها على المستويين الذري والعادي. (المترجمان).

ما لا نهاية، وبدا أن عقوداً من السنين قد انقضت بين مساء صيف موسكو واليوم.

بدا وكأنّ شخصاً آخر، وليس شتروم ذاك الذي كان يسير في ساحة تروبنايا، وكان يستمع بقلق، ويجادل بحماس وثقة بالنفس.

الأمّ... ماروسيا... توليا...

كانت هناك لحظات، عندما بدا العلم له خدعة، تعيق رؤية جنون الحياة وقسوتها.

ربّما لم يُصبح العلمُ مصادَفة رفيقاً لقرن مخيف، إنّه حليف له. كم كان يشعر بالوحدة. لم يكن لديه أحد يشاركه أفكاره. تشيبزين كان بعيداً، وكلّ ذلك بالنسبة لبوستويف كان غريباً وغير مهمٍّ.

سوكولوف كان ميّالاً للتصوّف، وإلى طاعة دينية غريبة بصورة ما، أمام القسوة القيصرية والظلم.

كان يعمل معه في المخبر عالمان ممتازان - الفيزيائي التجريبي ماركوف والسكّيرة الذكية سافوستيانوفا. لكن لو تحدث شتروم إليهما عن كلّ ذلك، لكانا اعتبراه مريضاً نفسياً.

أخرج من الطاولة رسالة أمّه وقرأها من جديد.

«أنا واثقة يا فيتيا، بأنّ رسالتي ستصلك، بالرغم من أنّني خلف خطوط الجبهة وخلفَ أسلاك الغيتو الشائكة... من أين أحصل على القوّة، يا بني...».

وضربته شفرة باردة في حنجرته من جديد...

20

سحبت لودميلا نيقولايفنا من صندوق البريد رسالة عسكرية.

دخلت الغرفة بخطوات كبيرة، ومزّقت حافة الظرف الخشن، وهي تقرّبه إلى الضوء.

تخيّلت للحظة، أنّ صور توليا ستنتثر من الظرف - صغيراً، عندما كان لا يستطيع تثبيت رأسه بعد، عارياً على الوسادة مع أرجل الدبّ المنزوعة من الدمية، وشفاهه البارزة.

بدا، وبشكل غير مفهوم، أنّها أدركت، وهي تستوعب السطور المكتوبة بخط جميل لشخص ذكي غير مثقف، دون أن تقرأ كلماتها: إنّه على قيد الحياة، إنّها الحياة!

قرأت أن توليا أصيب بجروح خطيرة في صدره وفي خصره، وفقد الكثير من الدماء، وهو ضعيفٌ، ولا يستطيع أن يكتب بنفسه، وحرارته مرتفعة منذ أربعة أسابيع. . . لكن الدموع السعيدة ملأت عينيها، كم كانت عظيمة لحظة اليأس التي مرّت.

خرجت إلى الدرج، وقرأت الأسطر الأولى للرسالة، وذهبت إلى مستودع الحطب مطمئنّة. هناك وفي لحظة كآبة قرأت وسط ونهاية الرسالة، وفكرت أن هذه الرسالة هي رسالة وداع لها ما قبل الموت.

أخذت لودميلا نيقولايفنا في وضع الحطب في الكيس. على الرغم من أنّ الطبيب الذي عالجها في عيادة اللجنة المركزية لتحسين حياة العلماء، الكائنة في شارع غاغارين الموسكوفي، طلب إليها أن لا ترفع أكثر من ثلاثة كيلوغرامات، وأن تقوم بذلك بحركات بطيئة وسلسة فحسب، رفعت الكيس المملوء بجذوع الأشجار الرطبة دفعة واحدة على طريقة الفلاحين، وصعدت إلى الطابق الثاني. أنزلت الكيس على الأرض، فارتجّت الصحون على المائدة ورنّت جرَّاء ثقله.

ارتدت لودميلا المعطف، ووضعت المنديل على رأسها وخرجت إلى الشارع.

مرّ الناس من حولها، ثم التفتوا إليها.

عبرت الشارع، ورنّ جرس الترامواي (القطار الكهربائي) بحدّة، وهدّدتها سائقة الترامواي بقبضتها.

إذا انعطفت نحو اليمين، فبإمكانها أن تصل إلى المصنع عن طريق الممرّ، حيث تعمل الأم.

إذا مات توليا، لن يعلم والده بالخبر - ففي أيّ معسكر اعتقال يمكن العثور عليه، وربما يكون، قد مات منذ زمن طويل. . .

مضت لودميلا نيقولايفنا إلى فيكتور بافلوفيتش في المعهد. دخلت إلى الفناء بعد أن مرّت بجانب بيت أسرة سوكولوف، وطرقت على النافذة، لكن الستارة بقيت مسدلة - لم تكن ماريا إيفانوفنا في البيت.

- فيكتور بافلوفيتش مرّ للتو إلى مكان عمله - قال لها أحدهم

تلك العبارة ، فشكرته على ذلك، بالرغم من أنّها ما عرفت من تحدَّثَ إليها - تعرفه أم لا تعرفه، وهل كان رجلاً أم امرأة، عبرت صالة المخبر، وبدت كما هي الحال دائماً، قلّة يمارسون عملهم. عادة ما ترى الرجال في المخبر إمّا يثرثرون، أو يدخنون، أو ينظرون إلى كتاب، أمّا النساء، فهنّ مشغولات دائماً: يغلين الشاي في القوارير الزجاجية، أو ينظفن طلاءَ أظافرهنّ بالمحلول، أو يحكن شيئاً ما.

لاحظت أشياء صغيرة، عشرات الأشياء الصغيرة، ورقة يلفّ بها المخبري تبغَ السيجارة.

استُقبِلت في مكتب فيكتور بافلوفيتش بتحيّاتٍ عالية الصوت، وسرعان ما اقترب منها سوكولوف، لقد ركض تقريباً، ملوّحاً بظرف كبير، وقال:

- إنّهم يعطوننا الأمل، هناك خطة للترحيل إلى موسكو، مع المعدات والأجهزة كلها ، ومع أُسرِنا. الأمر ليس سيّئاً، أليس كذلك؟ صحيح أنهم لم يحددوا التاريخ بعد. لكن مع ذلك!

بدا لها وجهه النابض بالحيوية، وعيناه أشياء بغيضة. وهل كان يمكن لماريا إيفانوفنا أن تهرع نحوها فرحةً بهذه الطريقة؟ لا ، لا. لكانت ماريا إيفانوفنا قد فهمت كلّ شيء مباشرة، ولقرأت كلّ شيء على وجهها.

لو علمت أنّها سترى كثيراً من الوجوه السعيدة، طبعاً، لما ذهبت إلى فيكتور. وفيكتور مسرور، وفرحه سيأتي مساء إلى البيت - وناديا ستكون سعيدة، أنّهم سيغادرون مدينة كازان المكروهة.

هل يستحقُ هؤلاء الناس كلهم - كم سيكون عددهم - الدماءَ الشابةَ، التي اشترت هذه البهجة؟

رفعت عينيها إلى زوجها مؤنّبة.

ونظرت عيناه في عينيها القاتمتين - مستوعِبَةً ومليئة بالقلق.

عندما بقيا وحدهما، أخبرها بأنّه فهم مباشرة، ومنذ أن دخلت - أنّ مصيبة قد حصلت.

قرأ الرسالة وكرّر قائلاً:

- ما العمل، يا إلهي، ما العمل؟

ارتدى فيكتور بافلوفيتش معطفه، واتجها إلى المخرج.

قال لسوكولوف، الذي كان يقف إلى جوار رئيس قسم الموظفين المعيَّن حديثاً دوبينكوف، وهو رجل طويل القامة، دائريُّ الرأس، يرتدي معطفاً عريضاً حديث الزيّ، يبدو ضيقاً على كتفيه العريضتين:

- أنا لن آتي اليوم.

قال شتروم، الذي ترك يد لودميلا للحظة، بصوت منخفض لدوبينكوف:

- أردنا أن نبدأ في إعداد قوائم موسكو، ولكن اليوم لا أستطيع، سأوضّح لاحقاً.

قال دوبينكوف بصوت خافت:

- لماذا أنت قلق فيكتور بافلوفيتش. لسنا في عجلة من أمرنا. إنَّما هي خطة مستقبلية، وسوف أتولى جميع الأعمال الصعبة.

لوّح سوكولوف بيده، وأومأ برأسه، وأدرك شتروم أنّه توقَّع المصيبة التي حلّت عليه.

ريح باردة اجتاحت الشوارع، ورفعت الغبار، تلفّه خيوطاً أحياناً، ثم تنثره أحياناً أخرى بشكل مفاجئ سميداً أسودَ لا قيمة له. قسوة لا ترحم كانت في هذا البرد، وفي نقر فروع الأغصان العظمية، وفي سكة الترامواي الجليديَّة الزرقاء.

أدارت الزوجة نحو زوجها وجهاً ازداد فتوّةً بسبب المعاناة، وكان منهكاً، وبارداً، وحدّقت باهتمام في وجه فيكتور بافلوفيتش راجية.

كانت لديهم يوماً ما قطة فتيّة، لم تستطع في ولادتها الأولى أن تضعَ قطاً صغيراً، زحفت نحو شتروم وهي تموت وصرخت، ونظرت إليه بعينين واسعتين مشرقتين. ولكن ممّن تطلب ولمن تشكو، ومن تتوسّل في هذه السماء الضخمة الفارغة، على هذه الأرض المغبرّة التي لا ترحم؟

قالت له:

- هذا هو المستشفى الذي عملت فيه.

قال لها فجأة:

- لودا، مرّي إلى المستشفى، وهم سيفكون شيفرة البريد الميداني. كيف لم نتذكر ذلك من قبل؟

رأى كيف صعدت لودميلا نيقولايفنا على الدرج، وأخذت تستوضح من الحارس.

ذهب شتروم إلى خلف الزاوية، وعاد من جديد إلى المدخل الرئيسي للمستشفى. هرع المارّة بجانبه يحملونَ الأكياس الشبكية، التي تبدو منها الأوعية الزجاجية التي تحتوي حساءً رمادي اللون، تسبح فيه معكرونة رمادية وقطع بطاطا.

نادته زوجته:

- فيتيا.

أدرك من صوتها، أنّها تمالكت نفسها.

قالت:

- إذاً، المستشفى في مدينة ساراتوف. لقد تبيّن أنّ نائب كبير الأطباء كان هناك مؤخراً. وقد كتب لي اسم الشارع ورقم المبنى.

برزت مباشرة الكثير من الأعمال والأسئلة - متى ينطلق المركب، وكيفية الحصول على التذكرة، ويجب جمع الحاجيات، والمواد الغذائية، واقتراض النقود، ويجب الحصول على إذن سفر ما.

غادرت لودميلا نيقولايفنا من دون حاجيَّاتٍ ومواد غذائية، ومن دون نقود تقريباً، وصعدت على سطح المركب، لا تحمل تذكرةً، خلال زحمة وعجلة الصاعدين إلى المركب أثناء توقفه.

نقلت معها فقط ذكرى وداع أمّها وزوجها وناديا في المساء الخريفي المظلم. تلاطمت الأمواج السوداء على جوانب المركب، وضربت الريح السفلية المركبَ، وصفرت، حاملةً رذاذ مياه النهر.

21

عُيِّنَ **ديمينتي تريفونوفيتش غيتمانوف** سكرتيرُ اللجنة الإقليمية لإحدى المناطق التي احتلها الألمان في أوكرانيا، مفوضاً لتشكيل فيلقِ الدبابات في الأورال.

قبل مغادرته إلى مقر العمل، توجه غيتمانوف من «دوغلاس» إلى مدينة أوفا، التي أُجليتْ عائلتُه إليها.

لقد اعتنى الرفاقُ وموظفو أوفا جيداً بأسرته: ولم تكن ظروف المعيشة والسكن سيّئة... زوجة غيتمانوف، غالينا تيرينتييفنا، التي امتازت قبل الحرب بسمنتها، بسبب التمثيل الغذائي السيّئ، لم تنحف، بل حتى أنّ سمنتها ازدادت قليلاً بعد الإجلاء. وبدت ابنتاه وطفلُه الصغير، الذي لم يدخل المدرسة بعد، بصحة جيّدة.

أمضى غيتمانوف في أوفا خمسة أيام. جاء لوداعه قبيل السفر أقرباؤه: أخ زوجته الأصغر، نائب مدير المجلس الأوكراني لمفوضي الشعب؛ ورفيق غيتمانوف القديم ماشوك من كييف - موظف في أجهزة الأمن؛ وصهره ديمينتيا تريفونوفيتش، والموظف المسؤول في قسم الدعاية للجنة المركزيَّة الأوكرانيَّة ساغايداك.

وصل ساغايداك في الساعة الحادية عشرة، عندما نام الأطفال، وجرى الحديث بصوت خافت. قال غيتمانوف مُفكّراً:

- ألا نشرب أيّها الرفاق، رشفة من الفودكا الموسكوفيّة؟

كان كلّ شيء عند غيتمانوف كبيراً بشكل منفصل - رأسٌ أشيب أشعث، وجبهة عريضة واسعة، وأنفٌ غنيٌّ باللحم، والكفّان، والأصابع، والكتفان، والعنقُ القويُّ والثخين. لكنَّه هو نفسه، المزيجُ من الأجزاءِ الكبيرة والضخمة، كان قصيرَ القامة. والغريب أنّ في وجهه الكبير، تلفت الانتباه وتبقى في الذاكرة عيناه الصغيرتان: كانتا ضيّقتين، تراهما بصعوبةٍ من تحت الجفون المنتفخة. وكان لونهما غير واضح - لا يمكنك أن تحدد فيهما: هل اللون الرمادي هو الطاغي أم الأزرق. ولكن كان فيهما الكثير من البصيرة القويَّة والنابضة بالحيوية.

رفعت غالينا تيرينتييفنا، جسدها الثقيل بخفّة، وخرجت من الغرفة، وصمت الرجال، كما يحدث غالباً في الكوخ الريفي وفي مجتمع المدينة، عندما يجب أن تظهر المشروبات الكحولية على المائدة. عادت غالينا تيرينتييفنا بسرعة، تحمل صينية. بدا مدهشاً كيف تمكنت يداها الثخينتان من فتح هذا العدد من المعلبات وجمع الأواني خلال دقائق معدودة.

نظر ماشوك إلى الجدران، التي عُلِّقت عليها قطعُ القماش الأوكراني الحروفي المخطط، ونظر إلى الأريكة الواسعة، وإلى الزجاجات المضيافة والمعلبات البيتيَّة، وقال:

- وأنا أذكر هذه الأريكة في شقتكم يا غالينا تيرينتييفنا، أحييك أنَّكِ تمكَّنت من نقلها، إن لديك عبقرية منظمة خاصة.

قال غيتمانوف:

- يجب أن تأخذ في الحساب، أنّه عندما تم إجلاؤهم، لم أكنْ موجوداً في البيت - كل شيء قامت به بنفسها!

قالت غالينا تيرينتييفنا:

- لن أتركَها يا أبناء بلدي للألمان. وديما قد اعتادَ عليها، يأتي من مكتب اللجنة الإقليمية ويلقي نفسه مباشرة عليها، ويقرأ موادَّ ما.

قال ساغايداك:

- طبعاً، يقرأ! وينام عليها أيضاً.

ذهبتْ إلى المطبخ من جديد، وقال ماشوك متوجهاً بالحديث إلى غيتمانوف، باحتيال وبصوت خافت:

- أو، أتصوّر الدكتورة، الطبيبة العسكرية، التي تعرّف إليها صاحبُنا ديمينتي تريفونوفيتش.

قال ساغايداك:

- نعم، وهو مستعد لتقديم حياته.

لوّح غيتمانوف بيده قائلاً:

- دعك من هذا، ما بك، إنّها معوَّقة!

- كيف لا، - قال ماشوك - ومن عاد إلى الخيمة في كيسلوفودسك في الساعة الثالثة ليلاً؟

ضحك الضيوف، ونظر غيتمانوف سريعاً، لكن باهتمام إلى أخ زوجته.

دخلت غالينا تيرينتييفنا وهي تنظرُ إلى الرجال الضاحكين، وتقول:

– ما إن خرجت الزوجة، حتى راحوا يعلمون عزيزي ديما المسكين ما لا يعرفه إلا الشيطان.

أخذ غيتمانوف يسكب الفودكا في الأقداح، وبدأ الجميع يختارون المازا بعناية.

نظر غيتمانوف إلى صورة ستالين المعلّقة على الجدار، رفع الكأس وقال:

– إذاً أيّها الرفاق، النخب الأوّل بصحة والدنا، فليبقَ لنا بصحة جيدة.

قال هذه الكلمات بخشونة بعض الشيء، وبصوت رفاقيّ. ويكمن جوهر في هذه النبرة البسيطة، في أن الجميع كان يعرف عظمة ستالين، لكن الناس الذين تجمّعوا هنا حول المائدة شربوا من أجله، أولاً وقبل كل شيء، لأنّهم أحبوا فيه الشخص البسيط والمتواضع والمتجاوب. بدا ستالين في الصورة، وهو يحدّق ناظراً إلى المائدة وإلى صدر غالينا تيرينتييفنا الغني، كما لو أنَّهُ يقول: «إذاً، يا شباب، سأدخّن غليوناً وأجلس بالقرب منكم».

هتفَ أخو صاحبة المنزل، نيقولاي تيرينتييفيتش:

– حقاً يحيا والدُنا، ماذا كنّا جميعاً سنفعلُ من دونه؟

والتفت إلى ساغايداك، ممسكاً الكأس بالقرب من فمه، ألا يقول قولاً ما، لكن ساغايداك نظر إلى الصورة وقال: «ماذا نضيفُ أيضاً أيها الأب، إنّك تعرف كلّ شيء»، وشربَ. وشرب الجميع.

كان ديمينتي تريفونوفيتش غيتمانوف من ليفين في منطقة فورونيج، ولكنه كان يملكُ صلاتٍ عميقة ولمدة طويلة مع الرفاق الأوكرانيين،

ذلكَ أنَّهُ كان يقومُ بعمل حزبي في أوكرانيا لسنوات عديدة. تعززت علاقاتُه مع كييف من خلال زواجه من غالينا تيرينتييفنا، فقد احتل أقاربُها عديداً من الأماكن البارزة في الحزب والنظام السوفييتي في أوكرانيا.

كانت حياة ديمينتي تريفونوفيتش، فقيرة بما فيه الكفاية بالأحداث الخارجيَّة. فهو لم يشارك في الحرب الأهلية. ولم يلاحقه رجال الشرطة، ولم ينفِهِ الديوان القيصري البتّة إلى سيبيريا. وعادة ما كان يقرأ التقارير في الندوات والمؤتمرات مكتوبةً. قرأ جيداً وبلهجةٍ معبّرةٍ ومن دون تردد، بالرغم من أنه لم يكتب تلكَ التقارير بنفسه. صحيح أنَّ قراءتها كانت أمراً يسيراً، فقد طُبِعتْ بحروفٍ كبيرةٍ، وكلماتٍ متباعدة، ومُيِّزَ اسم ستالين على صفحاتها بخط أحمر خاص. لقد كان ذات يوم فتىً ذكياً منضبطاً، وكان يرغب في الدراسة في معهد تقنيٍّ لهندسة الميكانيك، لكن ما حدثَ أنَّهُ عُبِّئَ للعمل في الأجهزة الأمنية، وسرعان ما أصبح ضمن الحرس الشخصي لسكرتير اللجنة الإقليمية. ثم لُحِظَ نشاطُهُ وأوفِدَ إلى الدراسة الحزبية، ثم عُيِّنَ من قبل جهاز الحزب - أولاً في قسم التنظيم والهندسة في اللجنة الإقليمية، ثم في قسم شؤون الموظفين باللجنة المركزية. وبعد عام أصبحَ مدرساً في قسم الموظفين القياديين، وبعد فترة وجيزة، ما بعد عام سبعةٍ وثلاثين، أصبح أميناً للجنة الحزب الإقليميَّة، وكما يقال، سيداً للمنطقة.

كلمتُه كان يمكن أن تقرّر مصيرَ رئيسِ قسمٍ في الجامعة، ومهندسٍ، ومديرِ البنك، ورئيسِ اتحادِ العمال، ورئيسِ المزرعة التعاونية الفلّاحية، ومديرِ الإنتاج المسرحي.

إنّها ثقةُ الحزب! عرفَ غيتمانوف المعنى العظيم لهذه الكلمات. ثقةُ الحزب به! كان عملُهُ طوالَ حياته، حيث لم تكن هناك كتبٌ عظيمةٌ، ولا اكتشافات مشهورة، ولا ربح معارك، كان عملاً هائلاً، وعنيداً، وهادفاً، وخاصاً، ودائمَ التوتّر، وبلا نوم. المعنى الرئيسي والأعلى لهذا العمل هو أنه نشأ بناءً على طلب الحزب ولمصلحة الحزب. وكانت المكافأةُ الرئيسيَةُ والعليا لهذا العمل تكمنُ في أمرٍ واحدٍ فقط - في ثقةِ الحزب.

روحُ الحزب، ومصالحُ الحزب كان ينبغي أن تخترقَ قراراتِه في أي ظرف من الظروف - سواء كان الأمرُ يتعلَّقُ بمصيرِ الطفلِ ، الذي تقرّره دار الأيتام، أو بإعادة تنظيم قسم البيولوجيا في الجامعة، أو بإخلاء بعض المباني التابعة للمكتبة، أو المواد التي تنتج منتجات بلاستيكية. روحُ الحزب يجب أن تنغرس في موقف القائد تجاه العمل، تجاه الكِتَاب، تجاه اللوحة، وبالتالي، بغض النظر عن مدى صعوبة ذلك، يجب ألا يتردد في التخلي عن عمله المعتاد، وكتابه المفضل، إذا تعارضت مصالح الحزب مع ميوله الشخصيَّة. لكن غيتمانوف يعلم: أنّ هناك درجة أعلى من الحزبيَّة؛ جوهرها هو أن الشخص بشكل عام ليس لديه ميول أو تعاطف بإمكانه أن يتعارض مع روح الحزب - كل شيء قريب وعزيز من القائد الحزبي هو قريب منه بالضرورة، وبالتالي فهو عزيز عليه، لأنه يعبِّر عن روح الحزبِ فحسب.

كانت ثمَّةَ تضحيات قاسية وشديدة، قدمها غيتمانوف في بعض الأحيان باسم روح الحزب. هنا لا يوجد أبناء بلد واحد، ولا مدرسون، يدين لهم بالكثير في فترة شبابه، هنا لا يمكن للحب أو

للشفقة أن يؤخذا بالحسبان. هنا لا ينبغي أن تؤرِّقكَ كلمات مثل «رَفضَ»، «لم يدعمْ»، «دمّرَ»، «خانَ»... لكن الروح الحزبيّة تتجلى في حقيقة أن التضحية ليس لها حاجة - ليسَ لها حاجة فحسب كون المشاعر الشخصيّة: الحب والصداقة والإخاء لا يمكن أن تبقى - إذا ما تعارضت مع روح الحزبية.

عملُ الناس الذي يحضونَ بثقة الحزب غيرُ ملاحظ. ولكنَّ هذا العملَ هائلٌ - يحتاج إلى إنفاقِ العقل والروح بسخاء، حتى نهايتهما. إنّ قوّة القائد الحزبي لا تتطلّب عبقريّةَ العالِم ولا موهبةَ الأديبِ، تبيّن أنّها فوق العبقرية والموهبة. لقد استمع بشوقٍ إلى كلمة غيتمانوف التوجيهيَّة والحاسمة مئاتُ من الناس، الذين يمتلكون موهبة البحث العلمي، والغناء، وكتابة الكتب، معَ أن غيتمانوف لم يكن فحسب غير قادرٍ على الغناء، والعزف على البيانو، وإنشاء عروض مسرحية، ولكنّه ما كان يستطيع أن يفهمَ بعمقٍ وذوقٍ الأعمال العلميَّة والشعر والموسيقى، والرسم... قوّةُ كلمته الحاسمة كانت تكمن في أنّ الحزبَ عهد إليه مصالحَه في مجال الثقافة والفن.

من الصعب على سكرتير المنظمة الحزبية الإقليمية، وهو بهذا القدر من السلطات التي كان يتمتع بها، وهو الخطيب الشعبي، أن يكون مفكراً.

بدا لغيتمانوف أنّ أعمق جوهرٍ لمفهوم «ثقة الحزب» انعكسَ في رأي ستالين، وإحساسه، وعلاقتهِ. وفي ثقته بزملائه، ومفوضي الشعب، والمارشالات، وهو ما يمثِّلُ جوهرَ الخط الحزبي.

تحدث الضيوف بشكل رئيسي عن العمل العسكري الجديد، الذي ينتظرُ غيتمانوف. لقد فهموا أن غيتمانوف يمكن أن يعوّل على

ترقياتٍ أكبر مستقبلاً، ذلكَ أنَّ الناس الذين في مثلِ منصبهِ الحزبي، وينتقلون إلى العمل العسكري، يصبحون أعضاءً في المجالس العسكرية للجيوش وأحياناً للجبهات.

شعر غيتمانوف بالقلق والانزعاج، عندما تم تعيينه قائداً للفيلق، وحاول أن يعرف من خلال أحدِ أصدقائِه، عضوِ المكتبِ التنظيمي للجنةِ المركزية، ما إذا كان هناك أيّ استياء منه عند القيادة. لكن تبيّن أنّه ما من أمرٍ يثير القلق.

حينها أخذ غيتمانوف يهدّئُ نفسه في العثور على الجوانب الإيجابية في تَقلُّدهِ منصبه - يُنتَظَرُ من جيوش الدبابات أن تقرّرَ مصيرَ الحرب، وعليها أن تقاتِلَ على الخطوط الحاسمة. لا يُرسلونَ أيَّ شخصٍ إلى فيلق الدبابات، وهم يرسلون على الأغلب عضو المجلس العسكري إلى جيش رديء السمعة في قطاعٍ ثانوي، وليس إلى فيلق الدبابات. وبهذا عبّر الحزب عن ثقته به. لم يكن منزعجاً من كلّ شيء - فقد أعجبه كثيراً أن يقول وهو ينظر في المرآة وقد ارتدى زيّه العسكري: «عضو المجلس العسكري، اللواء المفوّض غيتمانوف».

أكثر ما كان يزعجه، لسببٍ ما، قائدُ الفيلق العميد نوفيكوف. لم يسبق له أن رأى العميد، لكنَّ كل ما استفسرَ عنه غيتمانوف وما عرفه بخصوصهِ، لم يعجبه.

فهمَ الأصدقاءُ الذين جالسوه حولَ المائدة مزاجَه، وكان كل ما قالوه عن تعيينه الجديد، ممتعاً له.

قال ساغايداك إنه من المرجح أن يُرسَلَ الفيلقُ إلى ستالينغراد، وإن الرفيق ستالين يعرف قائد جبهة ستالينغراد الجنرال يريمينكو منذ

زمن الحرب الأهلية، ومنذ زمن جيش سلاح الفرسان الأول، وغالباً ما يتحدث إليه عبر الهاتف اللاسلكي، وعندما يكون في موسكو يستقبله الرفيق ستالين. . . مؤخّراً كان القائدُ في بيت الرفيق ستالين الريفي بالقرب من موسكو، واستغرقت محادثاته معه ساعتين. من الجيد القتال تحت إمرَةِ شخص يحظى بهذه الثقة كلِّها من قبل الرفيق ستالين.

ثم قالوا إنّ نيكيتا سيرغييفيتش[1] يذكر غيتمانوف أثناء عمله في أوكرانيا، وأن غيتمانوف سيكون محظوظاً جداً بالوصول إلى الجبهة، التي فيها نيكيتا سيرغييفيتش عضواً في المجلس العسكري.

قال نيقولاي تيرينتييفيتش:

- لم تكن مصادفة، أن يرسل الرفيق ستالين نيكيتا سيرغييفيتش إلى ستالينغراد، فالجبهة هناك يمكن أن تحسم المعركة، من يرسل إذاً؟

قالت غالينا تيرينتييفنا بحرارة:

- وهل مصادفة يرسل الرفيق ستالين، زوجي ديمينتي تريفونوفيتش إلى فيلق الدبابات؟

- نعم كيف إذاً، - قال غيتمانوف بصراحة - تعيني في الفيلق، مثل الترقي من سكرتيرٍ أول للجنة الإقليمية، إلى سكرتيرِ لجنة المقاطعة، البهجة صغيرة.

---

(1) المقصود هنا: نيكيتا سيرغييفيتش خورتشوف، الذي أصبح أواخرَ الخمسينيّات أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوفييتي بعد وفاة ستالين. (المترجمان).

قال ساغايداك بجدية:

- لا، لا، هذا التعيين يعبّر عن ثقة الحزب. لجنة المقاطعة ليست بسيطة، وليست ريفية، إليك مثلاً مقاطعة ماغنيتوغوسك، ودنيبرودجيرجينسكي. والفيلق ليس بسيطاً - إنّهُ فيلق الدبابات.

وقال ماشوك إنّ قائد الفيلق، الذي تم تعيين المفوّض غيتمانوف فيه منذ فترة قريبة، لم يَقُدِ الوحداتِ من قبل. قال له ذلك موظفٌ في الدائرة الخاصة للجبهة، كان قد جاء مؤخّراً إلى مدينة أوفا.

- أخبرني أيضاً بأمرٍ آخر - أضاف ماشوك مقاطعاً نفسه - ما الذي يمكنني أن أخبرك به، يا ديمينتي تريفونوفيتش، ربما تعرفُ أنت عنه، أكثر مما يعرف عن نفسه.

ضيّق غيتمانوف عينيه الذكيتين الثاقبتين الضيقتين أصلاً، وحرّك أنفه السمين قائلاً:

- طبعاً، أكثر بكثير.

ابتسم ماشوك ابتسامة بالكاد يمكن ملاحظتُها، ولكنَّ الجالسين جميعاً إلى المائدة لاحظوها. شيء غريب ومثير للدهشة - فبالرغم من أنّ ماشوك ابن عمّ عائلة غيتمانوف وصهرها، وبالرغم من أنَّه كان أثناء اللقاءات العائلية رجلاً متواضعاً ولطيفاً، يحب المزاح، إلّا أنّ أسرة غيتمانوف شعرت بنوع من التوتر، وهي تستمع إلى صوته الناعم الممتع، وهي تنظُرُ إلى عينيه الداكنتين الشاحبتين والهادئتين، وإلى وجهه الطويل. ولم يتفاجأ غيتمانوف وهو يُحسُّ بذلك، كونه يفهم القوّة التي تقف خلف ماشوك، الذي كان يعرف أموراً، لا يعرفها غيتمانوف أحياناً.

سأل ساغايداك:

- ومن هو هذا الرجل؟

أجابه غيتمانوف مباشرة:

- رجل اشتُهرَ زمنَ الحرب، ولم يكن يتميّز بشيء قبل الحرب.

قال شقيقُ صاحبة المنزل مبتسماً:

- لم يكن من النخبة؟

- أيّ نخبة - لوّح غيتمانوف بيده قائلاً - لكنَّ الرجلَ مفيدٌ، قائد دبابة، يقولون إنّه جيّد. كان رئيساً لأركان الفيلق - الجنرال نيودوبنوف. تعرّفت إليهِ في المؤتمر الثامن عشر للحزب. إنّه رجل ذكي.

قال ماشوك:

- نيودوبنوف، إيلاريون إنوكينتيفيتش؟ بالتأكيد. لقد بدأتُ العملَ عنده، ثم فرّقتنا الحياة. التقيتهُ قبل الحرب في قاعة استقبال لافرينتي بافلوفيتش[1].

- حسناً، كفى - قالَ ساغايداك مُبتَسِماً - تعامل أنت مع الأمر بطريقة ديالكتيكية، وابحث عن التشابه والوحدة، وليس عن التناقض.

---

(1) لاَفْرِنْتِيْ بَافْلُوفِيْتْشْ بِيرِيَا هو سياسي سوفييتي (29 مارس 1899 - 23 ديسمبر 1953) وكان رئيساً للأمن السوفييتي وجهازِ الشرطة السرية في عهد ستالين. في نهاية التصفية الكبرى وهي الحملة التي نظمها ستالين لتطهير الحزب الشيوعي والمؤسسات الحكومية (1937-1938) أصبح بيريا رئيساً للبرلمان، ولاحقاً رئيساً للمفوضية الشعبية للشؤون الداخلية. (المترجمان).

قال ماشوك:

- يا للعجب كلّ ذلك أثناء الحرب - عقيد ما قائد فيلق، ونيودوبنوف يُعيّن تحت إمرته!

قال غيتمانوف:

- لا توجد خبرة عسكرية. من الضروري أن تؤخذ هذه المسألة بعين الاعتبار.

ثم أدهش ماشوك الجميع قائلاً:

- هذه نكتة، نيودوبنوف، كم من أمورٍ تتعلَّقُ بكلمة واحدة منه! إنّه عضو في الحزب وذو خبرةٍ منذ ما قبل الثورة، خبرة هائلة في العمل العسكري والحكومي! وقد اعتقدوا لفترةٍ أنّه سيصبح عضواً في المجلس.

أيّده بقية الضيوف.

كان تعاطفهم مع غيتمانوف الآن، مناسباً للتعبير عن تعازيهم بنيودوبنوف.

قال شقيقُ صاحبة المنزل:

- لقد خلطت الحرب الأوراق، ليتها تنتهي بأقصى سرعة.

رفع غيتمانوف يده بأصابع مفتوحة نحو ساغايداك قائلاً:

- هل عرفت كريموف، الموسكوفي، قدّم ذات يوم تقريراً في كييف عن الوضع الدولي ضمن مجموعة محاضرات في اللجنة المركزية؟

- أتى قبل الحرب؟ ذلك الأحدب؟ لقد عمل يوماً ما في الكومنترن؟

- تماما، إنَّهُ هو. وقائد فيلقي هذا ينوي الزواج من زوجته السابقة.

أضحك الخبر ولسبب ما الجميع، على الرغم من أن أحداً لا يعرف زوجة كريموف السابقة، ولا قائد الفيلق الذي ينوي الزواج منها.

قال ماشوك:

- نعم، ليس عبثاً أنّ ابن العمّ تلقّى تدريبه الأول في أجهزتنا. وهو يعرف عن الزواج.

قال نيقولاي تيرينتييفيتش:

- لنقل صراحة: يوجد ما يكفي منهم!

- بالطبع... لا تشكو القيادة العليا من قلّة المغفلين.

قال ساغايداك:

- نعم، صاحبنا غيتمانوف ليس مغفّلاً.

قال ماشوك بجدّية وكالعادة، وكأنّه انتقل إلى مكتبه في العمل:

- أذكر كريموف هذا، عندما أتى إلى كييف، هو غير واضح. لديه صلات مع اليمينيين والتروتسكيين منذ زمن بعيد. يجب التأكد إذاً، صحيح...

تحدّث بكل بساطة وصراحة، وبدا كلامه بسيطاً مثلما يستطيع التحدّث عن عمله مديرُ معملِ نسيجٍ أو مدرّس في معد تقني. لكن الجميع يدرك، أنّ البساطة والحريّة، التي تحدّث بها، كانت موهومة فحسب - فهو وحدهُ يعرفُ كما لا يعرفُ أحد غيره عن ماذا يمكن أن يتحدّث، وعن ماذا يجب أن لا يتحدّث. أمّا غيتمانوف الذي كان

يحبّ أن يفاجئ المُحاورَ بالشجاعة والبساطة والصدق، فيدركُ جيّداً الأعماق الخفيّة، الصامتة تحت سطح الحديث الحيّ والمباشر.

لم يرغب ساغايداك، الذي يكون عادة مشغولاً ومهتماً، وأكثر جديّة من الضيوف الآخرين، في أن يتخلّى عن المزاج الخفيف وأوضح لغيتمانوف بمرح:

- أن تكون زوجته قد رمته، فهذا غيرُ مؤكدٍ بما فيه الكفاية.

- من الجيدِ أن يكون هذا هو السبب - قال غيتمانوف - لكن يناسبني، أن قائدي هذا يتزوّج من شخص غريب تماماً.

قالت غالينا تيرينتييفنا:

- حسناً وليكن، ليس لديَّ مخاوفك. المهم أن يحبّا بعضهما بعضاً.

قال غيتمانوف:

- الحبُّ، طبعاً، أساسيٌّ- الجميع يعرف ذلك ويذكره، لكن عدا ذلك، ثمّةَ أشياء ينساها بعض الناس السوفييت.

قال ماشوك:

- هذا صحيح، وليس من المفترض أن ننسى أي شيء.

- ثم يندهشون، لماذا لم توافق اللجنة المركزية، لماذا، لماذا لا توافق على ذلك. وهم أنفسهم لا يقدرون الثقة.

وفجأة قالت غالينا تيرينتييفنا بصوت رخيم:

- من المستغرب حتى الاستماع إلى حديثكم، لكأن الحرب ليست موجودة، مشاغلكم فقط، من سيتزوج هذا القائد ومن هو الزوج السابق لزوجته المستقبلية. ديما، من قرَّرتَ أن تحارب أنت؟

نظرت إلى الرجال بسخرية، وبدت عيناها الجميلتان البنيّتان، تشبهان إلى حد ما عيني زوجها الضيّقتين - ويجب أن تكونا مشابهتين أيضاً ببصيرتهما.

قال ساغايداك بصوت حزين:

- وكيف لنا أن ننسى الحرب... وإخواننا وأبناؤنا يذهبون من كل مكان إلى الحرب - من آخر كوخ كولخوزي إلى الكرملين. الحرب - عظمى ووطنيّة.

- إنَّ ابنَ الرفيق ستالين - فاسيلي، طيارٌ مقاتلٌ، وابن ميكويان يحارب في القوى الجوِّيّة[1]، وسمعت أن ابن لافرينتي بافلوفيتش أيضاً على الجبهة، لكن لا أعرف تماماً في أيّ نوع من القوات العسكريّة. ثم تيمور فرونزي[2] ملازم، أعتقد في المشاة... ثم لدى هذه دولوريس إيباروري[3]، ابن استشهد في ضواحي ستالينغراد.

---

(1) أنستاس إيفانوفيتش ميكويان، عاش بين (25 نوفمبر 1895 - 21 أكتوبر 1978 م). ولد في قرية سانيان، مقاطعة تيفليسي،من الإمبراطورية الروسية، أرمينيا حالياً - ثوري روسي، رجل حزب ودولة سوفييتي، أصبحَ عضواً في اللجنة المركزية للحزب منذ عام 1923، ومنذ عام 1935 حتى عام 1966 عضواً في المكتب السياسي للحزب. ورئيس مجلس السوفييت الأعلى خلال عامي 1964- 1965. (المترجمان).

(2) تيمور ميخائيلوفتش فرونزي (5 نيسان (أبريل) 1923، مدينة خاركوف- 19 كانون الثاني (يناير) 1942) بطل الاتحاد السوفييتي بعد استشهاده، طيار مقاتل، شارك في الحرب الوطنية العظمى، ابن مفوض الشعب للشؤون العسكرية م. ف. فرونزي. (المترجمان).

(3) دولوريس إيباروري وتسمى أيضاً لاباسيوناريا هي مناضلة شيوعية إسبانية ولدت في الباسك من أسرة فقيرة يعمل أعضاؤها في المناجم. أصبحت في العام 1931 عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الإسباني. في 6

قال شقيق صاحبة البيت:

- عند الرفيق ستالين ولدان على الجبهة. الثاني ياكوف آمر بطارية مدفعيّة. والأصح أن نقول هو الابن الأوّل. فاسكا - الأصغر. ياكوف - الأكبر. شاب بائس وقع في الأسر.

ثمَّ التزمَ الصمت، شاعراً أنه لامس موضوعاً، يرى الرفاقُ الكبارُ أنّهُ لا ينبغي لأحد أن يتحدث فيه.

وقال نيقولاي تيرينتييفيتش، الذي كان يرغب في إزالة الصمت، بصراحة وبلا مبالاة:

- بالمناسبة، يرمي الألمان إلى النهاية منشورات مزيَّفة، يشيرون فيها كما لو أن ياكوف ستالين يدلي لهم باعترافاتٍ عن طيب خاطر.

لكن الفراغ من حوله أصبح أكثر كرهاً. لقد تحدث عما لم يكن ينبغي ذكره على سبيل المُزاحِ أو الجد، والذي كان من المفترض أن يسكت الجميع عن ذكره. فإذا قام أي شخص بالتمرد على الشائعات حول علاقة يوسف فيساريونوفيتش بزوجته، فإن هذا الناكر الصادق للشائعات كان من شأنه أن يرتكب خطأً أفدَحَ من مروّج الشائعات نفسه، إن الحديث بحدِّ ذاته في هذا الشأن كان ممنوعاً.

قال غيتمانوف ، الذي تحول فجأة إلى زوجته:

- قلبي هناك، حيث يمسك الرفيق ستالين الأمور في يديه، يأخذها بحزم، فليشعر الألمان بالقلق هناك.

مارس 1939 بعد هزيمة الجمهوريين تركت دولوريس إيباروري إسبانيا إلى موسكو وبقيت مبعدة عن بلادها مدة 38 عاماً. وفي العام 1942، وبعد موت خوسه دياز، انتخبت أمينة عامة للحزب الشيوعي الإسباني، وهي أول امرأة تضطلع بمثل هذه المسؤولية. (المترجمان).

أمّا نيقولاي تيرينتييفيتش فقد التقط إشارةَ غيتمانوف بنظرته المذنبة.

لكن، بالطبع، لم يجلس إلى الطاولة أناسٌ حمقى، ولم يلتقوا لأجل خلق قصة خطيرة من حالةِ الإحراج التي حدثت.

تحدث ساغايداك بلهجة رفاقية وودّية، داعماً نيقولاي تيرينتييفيتش أمام غيتمانوف:

- هذا صحيح، ولكن دعونا نهتمُّ بألّا نرتكبَ أيّةَ حماقاتٍ في أماكن خدمتنا.

وأضاف غيتمانوف:

- وبألّا نثرثرَ بكلامٍ زائدٍ عن اللزوم.

إن في تقديمهِ عتبهِ بشكل شبه مباشر، ودونَ أن يلتزم الصمت، إنما أعربَ عن غفران ما فعله نيقولاي تيرينتييفيتش، وهزّ ساغايداك وماشوك رأسيهما بالموافقة.

كان نيقولاي تيرينتييفيتش يعلم أن هذا الحادث غير المتعمّد سوف يُنسى، لكنه عرف أنه لن ينسى تماماً. في وقت ما، وفجأة سيكون هناك حديث حول الكوادر، وحول الترشيح، وحول مهمة فائقة المسؤولية، وسيُترَكُ جانباً اسم نيقولاي تيرينتييفيتش وغيتمانوف، أما ساغايداك وماشوك فسيهزان رأسيهما، لكن في الوقت نفسه سوف يبتسمان قليلاً وسيجيبان عن سؤال محاور دقيق: «كان الأمر تافهاً ولعلَّهُ ساذج».

أدرك الجميع في أعماق قلوبهم، أن الألمان لم يكذبوا لهذه الدرجة عن ياكوف. لكن لهذا السبب بالذات، لا ينبغي التطرق إلى هذا الموضوع.

كان ساغايداك ضليعاً بشكل خاص بمثل هذه الأمور. فقد كان يعمل لفترة طويلة في صحيفةٍ، ترأس أولاً قسم المعلومات، ثم قسم الزراعة، ثم كان لنحو عامين رئيسَ تحرير الصحيفة الجمهورية. كان يرى أن الهدف الرئيسي لصحيفتهِ هو تربية القارئ، وعدم إعطاء معلومات فوضويَّة من دون تمييز، حول الأحداث المختلفة، العشوائية في كثير من الأحيان. إذا اعتقد المحرر ساغايداك أن من المفيد المرور من جانب حدث ما، والصمت حيال الفشل القاسي، أو حيال قصيدة ضعيفة فكريّاً، أو لوحةٍ شكلية، أو طاعون ماشية، أو زلزال، أو تدمير سفينة حربية، أو عدم رؤية قوّة موجةِ المحيط، أو مسح آلاف الأشخاص عن الأرض، بسبب حريق هائل في المنجم - هذه الأحداث لم تكن مهمة بالنسبةِ له، رأى أنه لا ينبغي أن يشغلوا عقول القراء والصحفيين والكتّاب بها. كان عليه في بعض الأحيان أن يشرح هذا الحدث أو ذاك في الحياة بطريقة خاصة - لقد حدث أن هذا التفسير كان جريئاً جداً، وغير عادي، يناقض التصوّرات الحياتية. بدا له أنّ قوته التحريريَّة وخبرَته وقدرَته تجلَّت في أنّه تمكن من دفعِ الآراء الضرورية، التي تخدم الهدف التربوي، إلى وعي القراء.

عندما حدثت تجاوزاتٌ جسيمةٌ غبية، أثناء عملية تجميع أراضي الفلاحين الخاصة في مزارع تعاونية، وحوّلوا أراضي الملّاكين إلى مزارع حكومية، كتب ساغايداك، قبل أن تظهر مقالة ستالين «دوار بسبب النجاحات»، أن المجاعة حصلت خلال فترة التجميع، لأن ملّاكي الأراضي دفنوا الحبوب انتقاماً وحقداً، ولم يأكلوا الخبز انتقاماً فتورّموا بسبب ذلك، وماتت قرى بأكملها مع الأطفال الصغار والرجال المسنين والنساء المسنات، حقداً على الدولة.

وفي الآن نفسه مَرَّرَ موادَّ صحفية تقولُ إنّهم يطعمون الأطفالَ في رياض المزارع التعاونية مرقَ الدجاج والفطائرَ وشرائح الأرز، لكنَّ الأطفال يتجفّفون ويتورّمون.

بدأت الحرب، وكانت واحدة من أكثر الحروب التي شهدتها روسيا قسوة وفظاعة خلالَ 1000 عام من وجودها. وخلال التجارب القاسية كثيراً في الأسابيع والأشهر الأولى للحرب، وضعت نيرانُها المُدمِّرة مجرياتِ الأحداث الحقيقيةَ والواقعيةَ القاتلة في المقام الأول، وحددت هذه الحرب المصائر جميعها، حتى مصير الحزب. ومرَّ هذا الوقت المشؤوم. وعلى الفور أوضح الكاتب المسرحي كارينتشوك في مسرحيته «الجبهة» أن إخفاقات الحرب كانت مرتبطة بجنرالات أغبياء لم يتمكنوا من اتّباع تعليمات القيادة العليا، التي لم تخطئ أبداً.

لم يكن نيقولاي تيرينتييفيتش هو الوحيد الذي قُدِّرَ له أن يعيش لحظات غير سارّة في هذا المساء. فقد قام ماشوك، وهو يقلّب ألبوماً كبيراً مُجلّداً، صورُه ملصقةٌ على أوراقِ كرتون سميكة، برفع حاجبيه فجأة بشكل مُعبّر، لدرجة جعلتِ الجميع يمدُّونَ أجسادهم لاإرادياً نحو الألبوم. في صورة التقطها غيتمانوف في مكتبه في لجنة المقاطعة ما قبل الحرب - كان يجلس خلف مكتب واسع، مثل السهوب، يرتدي قميصاً شبهَ عسكريٍّ، وقد عُلِّقت فوقه صورةٌ ضخمةٌ لستالين، لا مثيلَ لها إلّا في مكتب السكرتير الإقليمي. لكن وجه ستالين في الصورة كان ملوَّناً بأقلام تلوين رصاصية، ورُسمت على ذقنه لحية صغيرة، وعُلِّقَ قرطٌ أزرق في أذنيه.

صرخ غيتمانوف وضرب كالنساء بكفَّيه قائلاً:

- يا له من صبي!

اضطربت غالينا تيرينتييفنا وهي تنظر إلى الضيوف قائلة:

- تعرفون، لقد قال يوم أمس قبل النوم «أنا أحب العم ستالين، مثل أبي».

قال ساغايداك:

- حسناً، إنّها مزحة صبيانية.

تنهّد غيتمانوف قائلاً:

- لا، ليست مزحة صبيانية، إنّه سلوك شريرٌ مخلّ بالنظام.

نظر إلى ماشوك بعينين فضوليتين. وتذكّر كلاهما في هذه اللحظة الحادث نفسه الذي حدثَ قبل الحرب - حيث قام ابن أخت واحدٍ من أبناء بلدتهم، وهو طالب في المعهد التقني، بتصويب بندقيَّة ضغط هوائية على صورة ستالين في السكن الطلابي الداخلي.

كانا يعرفان أنّ الطالب الأبله مجرّد أحمق، وليست لديه أهدافٌ سياسية أو إرهابيَّة. وطلب ابن البلد، وهو رجلٌ طيّب، مدير قسم الهاتف، من غيتمانوف مساعدة ابن أخته.

تحدّث غيتمانوف بعد اجتماع لجنة المقاطعة مع ماشوك حول هذه القضيّة.

قال ماشوك:

- ديمينتي تريفونوفيتش، نحن لسنا أطفالاً - مخطئٌ، غيرُ مخطئٍ، أي أهمية لذلك... ولكن لو أوقفت هذه القضية، فغداً سيخبرون ربّما لافرينتي بافلوفيتش نفسه في موسكو: «تعامل ماشوك بطريقة ليبرالية، فيما يتعلّق بإطلاق النار على صورة ستالين العظيم». اليوم أنا في هذا المكتب، وغداً أنا غبار مخيم الاعتقال. تريد أنت

تحمّل المسؤولية؟ وعندها سيقولون عنك: اليوم مشكلةُ الصورة، وغداً مشكلةُ سواها، ثمَّ لماذا يرى غيتمانوف هذا الشاب لطيفاً، أم لعلَّهُ أحبَّ هذا الفعل؟ ها؟ هل تتحمّل المسؤولية؟

سأل غيتمانوف بعد شهر أو شهرين ماشوك قائلاً:

- وكيف حال مطلق النار؟

أجاب ماشوك، وهو ينظر بعينين هادئتين:

- لا يستحق أن تسأل عنه، فقد تبيّن أنّه وغد، ولقيط مُلّاك الأراضي، لقد اعترف أثناء التحقيق.

والآن نظر غيتمانوف بفضول إلى ماشوك، وكرّر قائلاً:

- لا، ليست هذهِ مزحة.

قال ماشوك:

- ليس الأمر هكذا، الفتى في الخامسة من عمره، يجب مراعاة السنّ.

وقال ساغايداك بكثيرٍ من الود حتى أنَّ الجميع شعروا بدفء كلماته:

- سأقول لكم مباشرة، ليست لديَّ القوَّة الكافية لأكون مبدئيّاً في تعاملي مع الأطفال... أتمنّى لو أكون، لكن ليس هناك ما يكفي من الروح. أنا أنظر وأقول: المهم أن يكونوا بصحة جيّدة...

نظر الجميع بتعاطف إلى ساغايداك. كان أباً غير سعيد. ابنه الأكبر فيتالي، وهو بعدُ في الصف التاسع، عاشَ حياة سيئة - ذات مرّة احتجزته الشرطة لمشاركته في شجار في مطعم، وكان على والده الاتصال بنائب مفوض الشؤون الداخلية لإخماد قصة فاضحة شارك فيها أبناءُ شخصياتٍ بارزةٍ؛ جنرالاتٍ وأكاديميين، وابنةُ كاتبٍ،

وابنةُ مفوض الشعب للزراعة. زمنَ الحربَ أراد ساغايداك الشاب الابن التطوُّع في الجيش، فاستطاعَ والده وضعه في مدرسة مدفعية مدَّتها عامان. لكنَّ فيتالي طُرِدَ منها بسبب عدم الانضباط، وهُدّد بإرساله ضمنَ فرقة مسيّرة إلى الجبهة.

والآن يدرس ساغايداك الشاب ومنذ شهر في مدرسة مدفعية الهاون، ولم تحصل له أيّة حوادث - ما بعثَ الفرح في نفسَي الأب والأم ويأملان خيراً، لكن القلقَ يعيش في روحيهما.

الابن الثاني لساغايداك، إيغور، أصيب بشلل الأطفال في سن الثانية، وتحولت عواقب هذا المرض إلى شلل - إنّه يتحرّك على عكازين، وكانت ساقاه الجافتانِ الرقيقتان بلا حول ولا قوة. لم يستطع إيغور الدراسة في المدرسة، فجاء المعلمون إلى منزله، وهو يدرس عن طيب خاطر وباجتهاد.

لم يكن ثمّةَ طبيبُ أعصاب مشهور، يمكن لأسرة ساغايداك استشارته، ليس فقط في أوكرانيا، ولكن أيضاً في موسكو، ولينينغراد وتومسك. وما كان ثمّةَ دواء أجنبي جديد، كان باستطاعة ساغايداك الحصول عليه باللجوءِ إلى الممثليّات التجارية أو السفارات. كان يعرف أنّه ينبغي لومُه بسبب الإفراط في محبة الأولاد، لكن في الوقت نفسه يعرف أن خطيئته ليست خطيئة مميتة. كما أنَّهَ عرفَ مشاعر أبوية قوية عند بعض موظفي المقاطعة، وأخذ في الاعتبار أن الناس من النوع الجديد يحبون أطفالهم بشدّة. كان يعلم - وسيغفرُ له العِلاجُ الذي وصلَ بالطائرة من أوديسا إلى إيغور، ووصلتْ أعشابٌ بمغلّف بريدي من قبل جدّ مُقدّس ما من الشرق الأقصى.

وقال ساغايداك:

- إن زعماءنا أناس مميزون، لا أتحدث عن الرفيق ستالين، فهذا أمرٌ مفروغٌ منه، لكن عن أقرب مساعديه. . . إنهم قادرون على وضع الحزب دائماً أعلى من الشعور الأبوي في هذه المسألة.

- نعم إنّهم يفهمون، لكن لا يمكنك أن تطلب ذلك من الجميع.

قال ذلك غيتمانوف ملمِّحاً إلى مدى القسوة التي أظهرها أحد أمناء اللجنة المركزية تجاه ابنه المخطئ.

جرى الحديث عن الأطفال بطريقة جديدة، بصدق وببساطة.

يبدو أن القوة الداخلية كلها لهؤلاء الأشخاص، وقدرتهم الكاملة على الابتهاج، مرتبطة فحسب بما إذا كان فيتاليك وتانيشكا مرتبطين، وبالعلامات التي يجلبونها من المدرسة هل هي جيدة، وما إذا ترفّع فلاديمير ولودميلا من سنة دراسية إلى سنة دراسية أعلى.

تحدثت غالينا تيرينتييفنا عن بناتها:

- كانت حالة سفيتلانا الصحيّة لأربع سنوات سيّئة - التهاب قولون، قولون، وكانت الفتاة منهكة. وعالجناها فقط بشيء واحد - تفاح طازج مبشور.

وقال غيتمانوف:

- لقد قالت لي اليوم قبل أن تذهب إلى المدرسة: «يسمّوننا أنا وزويا في الصف - بنات الجنرالات». وتضحَكُ زويا الوقحة قائلة: «أتعتقدين أنّه شرفٌ كبيرٌ أن أكون ابنة جنرال! عندنا في الصف ابنة مارشال - وهذه حقيقة!».

- ترون، - قال ساغايداك مرحاً - لا يمكنك إرضاؤهم. يقول لي إيغور منذ أيام: «سكرتير ثالث - تعتقد، ليس هذا طيراً عظيماً».

كان باستطاعة ميكول أن يروي كثيراً من الأشياء المضحكة والمفرحة عن أطفاله، لكنّه يعرف أنّه لم يكن مسموحاً له أن يتحدث عن ذكاء أطفاله، عندما يتكلمون عن ذكاء إيغور ساغايداك، وبنات غيتمانوف.

قال ماشوك مفكّراً:

- كان آباؤنا في القرية يتعاملون ببساطة مع الأطفال.

قال شقيقُ صاحبة البيت:

- مع ذلك فقد أحبّوا الأطفال.

- أحبّوهم، طبعاً، أحبّوهم، لكن كانوا يجلدونهم أيضاً، وهذا ما حدث لي على الأقل.

قال غيتمانوف:

- أذكرُ كيفَ مضى أبي الراحل إلى الحرب عام 1915. لا تمزحوا، لقد خدم حتى رتبة صف ضابط، وحصلَ على وسامَي جيورجي. جمعت له الأم حاجياته: وضعت في كيس الرحَّال قميصاً، ووضعت بيضاً كبيراً، وخبزاً، وأنا وأختي كنّا مستلقيين على السرير ونراقب، كيف كان يجلس عند الفجر آخر مرّة إلى المائدة. أحضر الماء إلى الحوض الذي كان في الممر، وقطّع الحطب. وقد تذكرت أمي كلّ ذلك فيما بعد.

نظر إلى ساعته وقال:

- أو...

قال ساغايداك وهو ينهض:

- غداً، إذاً.

– موعد الطائرة في الساعة السابعة.

سأل ماشوك:

– طائرة مدنية؟

أومأ غيتمانوف برأسه.

قال نيقولاي تيرينتييفيتش ونهضَ أيضاً:

– هذا أفضل، فالمطار العسكري يبعد خمسة عشر كيلومترا.

قال غيتمانوف:

– ما الفرق بالنسبة للعسكري.

بدؤوا الوداع، وضجّوا من جديد، وضحكوا، وتعانقوا، وفي الممر عندما وقفوا في معطفهم وقبعاتهم، قال غيتمانوف:

– يمكن للجندي أن يعتادَ كلّ شيء، يتدفأ الجندي بالدخان، ويحلق بالمخرز. لكن أن يعيش بعيداً عن الأطفال، فهذا ما لا يمكنه أن يعتاد عليه.

كان من الواضح، من صوته، وتعابير وجهه، ومن كيفيّة نظر المغادرين إليه، أن هذا ليس مزاحاً.

22

ليلاً، جلس ديمينتي تريفونوفيتش، وهو يرتدي الزيّ العسكري إلى الطاولة يكتب. جلست زوجته إلى جواره في ثوبها المنزلي، تتابع يده. طوى الرسالة قائلاً:

- هذه إلى رئيس لجنة الصحة في المقاطعة، إذا كانت هناك حاجة إلى علاج خاصّ والسفر للاستشارة. سيؤمّن لك بطاقة، وهو سيعطيك إحالة طبّية فحسب.

سألت الزوجة:

- هل كتبت توكيلاً قانونياً بشأن الإقامة المؤقتة؟

أجاب قائلاً:

- ليس هذا ضروريّاً، اتصلي بمدير الأعمال في اللجنة الإقليمية، أو من الأفضل أن تتصلي مباشرة ببوزيتشينكو، وهو سيفعل ذلك.

فرز حزمة من الرسائل المكتوبة، والتوكيلات، والملاحظات قائلاً:

- حسناً، أعتقد أنّ هذا كلّ شيء.

وصمتا معاً.

- أخاف عليك يا حبيبي،- قالت - أنت ذاهب إلى الحرب.

أجابَ وهو ينهض:

- اعتني بنفسك، اعتني بالأطفال، هل وضعت الكونياك في الحقيبة؟

- وضعتُ، وضعتُ. أتذكر، قبل عامين، كتبتَ لي وعند الفجر أيضاً توكيلاً قانونياً، وسافرت إلى كيسلوفودسك؟

قال:

- الألمان الآن في كيسلوفودسك.

جال غيتمانوف في أنحاء الغرفة وأنصتَ قائلاً:

- هل هم نائمون؟

قالت غالينا تيرينتييفنا:

- بالطبع نائمون.

دخلا إلى غرفة الأطفال. كان غريباً، كيف يتحرّك هذا الشخصان السمينان الضخمان من دون ضجيجٍ في شبهِ ظلمةٍ. كان رأسا الطفلين النائمين يفرشان عتمةً على القماش الأبيض للوسائد...

استمع غيتمانوف إلى أنفاسهما.

ضغط بكفه على صدره، حتى لا يزعجهما بصوت ضربات قلبهِ الصادحة. شعر هنا في شبهِ الظلمة، بشعور مزعج وثاقب من الحنان والقلق والشفقة على الطفلين. كان يتوق إلى معانقة ابنه، وابنته، ويقبِّل وجهيهما. أحسَّ بحنانٍ عاجز، وبحبٍّ لاعقلاني، وتاه لحظتها، ووقفَ محرجاً وضعيفاً.

لم تُخفهُ ولم تقلقه الأفكار حول العمل القادم، الجديد بالنسبة

له. فقد حدثَ أن تولّى وظائف جديدة في كثير من الأحيان، ووجد دوماً وبسهولة ذلك الخط الصحيح، الذي كان هو الخط الرئيسي. ويعلم الآن- أنّه وفي حالة فيلق الدبابات سيكون قادراً على تنفيذ هذا التَوجُّه.

لكن هنا - كيف يمكن ربط الصلابةِ الحديديّةِ والجنانِ الثابتِ، بالحنان والحب، اللذين لا يعرفان القانون ولا الخطوط والتوجُّهات.

التفتَ إلى زوجته. كانت واقفة، على الطريقة الريفيَّة، واضعةً كفّها على خدّها. بدا وجهها في شبه العتمة فتيّاً وقد نَحُلَ، هكذا كانت عندما سافرا لأوّل مرّة بعد الزواج إلى البحر، وعاشا في مصحّ «أوكرانيا» فوق أكثر الجروف الساحلية انحداراً.

تحت النافذة تناهى هديرُ سيارة خفيف - لقد وصلت سيّارةُ لجنة المقاطعة. استدار غيتمانوف من جديد نحو الأطفال وفتح يديه، وقد عبّرت هذه الحركة عن عجزه أمام شعوره، فهو لم يستطع أن يتمالك نفسه.

وقف في الممر بعد كلمات الوداع والقُبل، وبعد أن ارتدى معطفاً من الفرو، وقبعة، بانتظار أن يحمل السائق حقائب السفر.

حسناً - قال ونزع قبعته عن رأسه فجأة، وخطا نحو زوجته، فعانقها مرّة أخرى. وفي هذا الوداع الجديد الأخير، وعندما اختلطَ من خلال فُرجةِ الباب نصف المفتوح، الدفءُ المنزلي، مع هواء الشارع البارد والرطب، وعندما لامس الجلد الخشن المدبوغ من معطف الفرو حريرَ الثوبِ المعطّر، شعر كلاهما أن حياتهما التي بدت واحدة، انفصلت فجأة وأحرق الشوق قلبيهما.

23

انتقلت يفغينيا نيقولايفنا شابوشنيكوفا للسكن في مدينة كويبيشيف عندَ العجوز الألمانية جيني هينريخوفنا هينريكسون، التي عملت في الزمن القديم خادمةً مربيةً في بيت شابوشنيكوف.

بدا غريباً ليفغينيا نيقولايفنا أن تجد نفسها بعد ستالينغراد في غرفة هادئة بجوار المرأة العجوز، ودهشَ الجميع أنّ الطفلة الصغيرة ذات الضفيرتين قد أصبحت امرأة بالغة.

عاشت جيني هينريخوفنا في غرفة شبه مظلمة، كانت ذاتَ يوم مخصّصة للخدم في شقة تاجر كبيرة. الآن تعيش في كل غرفةٍ أسرةٌ، وقُسّمت كل غرفة باستخدام السواتر، والستائر، والسجاد، وظهور الأرائك في الزوايا، حيث كانوا ينامون، ويتناولون الطعام، ويستقبلون الضيوف، وحيث كانت الممرضة تعطي الحقن للعجوز المشلول.

في المساءات كانت غمغمة أصوات السكان تملأ المطبخ.

أُعجبت يفغينيا نيقولايفنا بهذا المطبخ بخزائنه المدخّنة ونار الكيروسين السوداء - الحمراء.

من بين البياضات التي تُجفّف على الحبال، كان يتعالى صخب

المستأجرين الذين يرتدون الملابس المنزليّة، والسترات المبطنة والبلوزات، وتلمع السكاكين. وتُثيرُ البخارَ النساءُ الغسَّالات، المنحنيات فوق الأحواض والأواني. لم يشعل الموقد الفسيح على الإطلاق؛ فظلَّت جوانبه المبلَّطة بيضاء وباردة، مثل المنحدرات الثلجية البركانية التي أطفئت في العصر الجيولوجي الماضي.

عاشت في الشقة أسرُ: عاملٍ حمّال ذهب إلى الجبهة، وطبيبٍ نسائي، ومهندسٍ من مصنع الترقيم، وأمّ وحيدة - أمينة صندوق في مركز توزيع، وأرملة حلّاق استشهد على الجبهة، ومدير بريد، وفي أكبر الغرف، وكانت صالون الاستقبال سابقاً، عاشَ مدير مستوصف.

كانت الشقة واسعة، كالمدينة، وفيها حصلَ على شقةٍ حتى مجنون السكن - وهو عجوز هادئ له عينا جرو لطيف.

عاش الناسُ مُتلاصقين، لكنّهم كانوا متباعدين، ولا تربطهم الصداقاتُ كثيراً، يتخاصمون، ويتصالحون، ويختبئون في حيواتهم بعضهم عن بعض، وفي اللحظة نفسها يتقاسمون بصوت عالٍ وبسخاء مع جيرانهم ظروف حياتهم كلّها.

أرادت يفغينيا نيقولايفنا أن ترسم لا الأشياء، ولا المستأجرين، بل الشعور الذي أثاروه فيها.

كان هذا الشعور صعباً وشاقاً، وبدا أنّ فناناً كبيراً قد لا يستطيع أن يعبّر عنه. لقد نشأ من الجمع بين القوة الحربيَّة الجبارة للشعب والدولة مع فقر هذا المطبخ المظلم والقيل والقال، من الجمع بين حُطام الفولاذ الحربي وأواني المطبخ وقشور البطاطا.

التعبير عن هذا الشعور كسرَ الخط، وشوّه الحدود، وصبّ في اتصال ظاهري لا معنى له على ما يبدو للعيّنات المُقطّعة والبقع الضوئية.

كانت العجوزُ هينريخوفنا مخلوقاً خجولاً وديعاً وخدوماً. ترتدي فستاناً أسود له ياقة بيضاء، وخدّاها دائماً ورديّان، معَ أنها كانت تسيرُ شبه جائعة على الأغلب.

لقد كانت مسكونةً بذكرياتٍ عن حيل لودميلا في الصف الأول، والكلمات المضحكة التي كانت تقولها ماروسيا الصغيرة، وكيف كان يدخل ميتيا ذو العامين من عمره إلى غرفة الطعام بالمئزر، ويصيح نافضاً يديه: «سنتغزّا، سنتغزّا!» أي (سنتناول طعام الغداء).

تعمل جيني هينريخوفنا حالياً مدبّرةَ منزلٍ في أسرة طبيبةِ أسنان، وتعتني بأمّ صاحبة المنزل المريضة. سافرت صاحبة المنزل لمدة 5–6 أيام إلى المنطقة بمهمة من مديرية صحة المدينة، وحينذاك نامت جيني هينريخوفنا في بيتها، كي تساعد المرأة المُسنَّة العاجزة، التي لا تكاد تحرّك رجليها بعد الجلطة التي أصابتها منذ فترة قريبة.

لقد غابَ لديها الشعور بالملكيّة تماماً؛ اعتذرت طوال الوقت إلى يفغينيا نيقولايفنا، وطلبت منها الإذن بفتح النافذة كلما تعلق الأمرُ بتبدلات وضعِ قطّها العجوز ذي الألوان الثلاثة. ارتبطت اهتماماتها الرئيسية وقلقها بالقط، وخشيتها من أن يغضبه الجيران.

جارها في الشقة، المهندس دراغين، وهو رئيس قسم في مصنع، نظرَ بسخرية غاضبة إلى وجهها المتغَضِّن، وإلى جسمها الممشوق بعذريّة ، وإلى نظارتها الأنفية، المعلّقة بسلك أسود. طبيعته المبتذلة كانت ساخطة، من أن العجوز بقيت وفيّة لذكريات الماضي، وحدّثت

وهي تبتسمُ ابتسامةً غبية مبتهجة، كيف أخذت تلاميذها قبل الثورة للنزهةِ في عربة تجرّها الخيول، وكيف رافقت «المدام» إلى البندقيَّة وباريس وفيينا. كانت تعتز بالكثير من «الفتات» الدينكنيين[1] والرنجليين[2]، الذين قتلهم الفتيانُ الحُمر، لكن أكثر ما كان يهم العجوز، هي تلك الذكريات عن الحمّى القرمزيَّة، والدفتيريا، والتهاب القولون التي كان يعاني منها الصغار.

قالت يفغينيا نيقولايفنا لدراغين:

- أنا لم أقابل شخصاً أكثرَ لطفاً ووداعةً. صدقني إنّها ألطف من يسكن هذه الشقة جميعاً.

حدَّقَ دراغين في عيني يفغينيا نيقولايفنا، وأجابها على طريقة الرجال بصراحة ووقاحة:

- غنّي أيتها السنونو غنّي، لقد باعوكم، أنتم والرفيق شابوشنيكوف، إلى الألمان لقاء مكان للسكن.

ما أحبّت جيني هينريخوفنا على ما يبدو الأطفال الأصحّاء. غالباً ما كانت تُحدّث يفغينيا نيقولايفنا عن أضعف تلميذ لها، وهو ابن

---

(1) نسبة إلى: أنطون إيفانوفيتش دينكين الذي كان فريقاً في الجيش الإمبراطوري الروسي (1916م)، وواحداً من أول جنرالات الحركة البيضاء في الحرب الأهلية الروسية. (المترجمان)

(2) نسبة إلى: بيوتر نيقولايفيتش رنجل، وكان ضابطاً في الجيش القيصري الروسي أثناء الحرب العالمية الأولى، وقائدَ القوات الروسية المناوئة للشيوعيين أثناء الحرب الأهلية في روسيا 1917 التي كانت تعرف باسم الجيش الأبيض. هزم في شبه جزيرة القرم عام 1923، وهناك اعتُقِلَ وسُجِنَ لأربعة أشهر في دونيتسك، ليُعدَم بالرصاص على يد ستالين نفسه. (المترجمان).

صاحب مصنع، واحتفظت برسوماته ودفاتره، وكانت تشرَعُ بالبكاء في كل مرة تصل فيها القصة إلى الموضع الذي وصِفَ فيه موت هذا الطفل الهادئ.

لقد عاشت عند أسرة شابوشنيكوف سنوات عديدة، وتذكر أسماء جميع الأطفال وألقابهم، وبكت عندما علمت بموت ماروسيا؛ كتبت رسالة مسوَّدة كثيرة التشطيبات إلى ألكساندرا فلاديميروفنا في كازان، لكنّها لم تستطع إكمالها.

كانت تسمّي بيضَ السمك «كافياراً» وحدّثت جيني، كيف كانَ التلاميذ يحصلون على الفطور قبل الثورة، فنجانَ حساءٍ ثقيلٍ وقطعةً من لحم الأيّل.

حصتها من الفطور كانت تقدمها إلى قطها الذي أسمته: «عزيزي، الابن الفضّي». القط لم يُشغَف بها، وكان وقحاً ومتجهّماً، ويحسد العجوز، لكنَّهُ تحوّل داخلياً، وأصبحَ حنوناً ومرحاً.

دائماً كان دراغين يسألها عن موقفها من هتلر: «لعلَّكِ، ربّما سعيدة؟»، لكن العجوز الماكرة أعلنت دوماً أنّها معادية للفاشية وسمّت هتلر آكل لحوم البشر.

إضافة إلى ذلك، فقد كانت لا تتقن شيئاً على الإطلاق - لم تتقن الغسيل، ولا الطبخ، وعندما كانت تذهب إلى المتجر لشراء أعواد الثقاب، كانت البائع يقتطع من بطاقتها على عجل حصتها الشهريَّة من اللحم أو السكر.

لا يشبه الأطفالُ هذه الأيام البتّة، تلاميذها في ذلك الوقت،

الذي سمّته «سلمياً». كل شيء تغيّر، وحتى الألعاب - فقد لعبت فتيات الزمن «السلمي» سيرسو[1]، بعصي مُلمّعة بسلك وكنَّ يقذفن الديابلو[2] المطاطية، ولعبن بكرة ملوّنة حملوها في حقيبة شبكيّة بيضاء. أمّا أطفال اليوم فيلعبون بالكرة الطائرة، ويسبحون، وفي الشتاء يلعبون الهوكي على الثلج بسراويل التزلّج، ويصيحون ويصفّرون.

وهم يعرفون أكثر من جيني هينريخوفنا قصصاً عن نفقات طفل المرأة المطلّقة، والإجهاض، وعن بطاقات العمل المزوّرة، وعن الملازمين الأولين والعقداء الذين كانوا يجلبون الشحوم والمعلبات الغذائية لزوجات رجال آخرين.

أحبّت يفغينيا نيقولايفنا الاستماع إلى العجوز الألمانية، عندما كانت تتذكر سنوات الطفولة، ووالدها وأخاها ديميتري، الذي كانت جيني هينريخوفنا تتذكره جيّداً - لقد عانى أمامها من مرض السعال الديكي والديفتريا.

قالت جيني هينريخوفنا ذات مرّة:

- أتذكّرُ آخر من عملت عندهم عام سبعة عشر، كان السيّد هو الرفيق وزير المالية - مشى في غرفة الطعام وقال: «هَلكَ كلّ شيء، يحرقون الممتلكات، توقفت المصانع، وانهارت العملة، وسُرقت الخزائن». والآن كما هي الحال عندكم، تفرّقت الأسرة بأكملها. المسيو، والمدام، والمادموازيل؛ سافروا إلى السويد، وتلميذي

---

(1) لعبة بطوق يُرمى من قبل أحد اللاعبين ويتلقاهُ الآخرُ بعصا. (المترجمان).

(2) الديابلو مخروطان متماثلان ملتصقان برأسيهما. (المترجمان).

مضى من تلقاء نفسه ليتطوَّع عند الجنرال كورنيلوف، وبكت المدام: «أيّاماً بأكملها استمرَّ الوداع، كانت قد حلَّت النهاية».

ابتسمت يفغينيا نيقولايفنا بحزن ولم تُحر جواباً.

ظهر في إحدى الليالي شرطي الحيّ وسلّم جيني هينريخوفنا استدعاءً. ارتدت العجوز الألمانية قبعتها المزيّنة بوردة بيضاء، وطلبت من يفغينيا إطعام القط - وتوجّهت إلى مركز الشرطة، ومن هناك إلى العمل عندَ أمِّ طبيبة الأسنان، ووعدت أن تعود بعد يومين. وعندما رجعت يفغينيا نيقولايفنا إلى المنزل من العمل، وجدت أنقاضاً في الغرفة، وقال لها الجيران إن الشرطة أخذت جيني هينريخوفنا.

مضت يفغينيا نيقولايفنا للاستفسار عنها. فقالوا لها في مركز الشرطة، إنّ العجوز ستسافر مع قافلة الألمان إلى الشمال.

بعد يوم أتى شرطي الحيّ والمسؤول عن المبنى، وأخذا السلّة المختومة، الممتلئة بالخرق القديمة، والصور والرسائل المُصفرّة.

ذهبت يفغينيا إلى اللجنة الشعبية للشؤون الداخلية، كي تستفسر عن كيفية إرسال غطاءٍ دافئ للعجوز. سألها الشخص الجالس في النافذة:

- من أنت، ألمانية؟

- لا ، أنا روسية.

- اذهبي إلى البيت ولا تزعجي الناس باستفساراتك.

- أنا أتحدّث عن حاجيات شتوية.

- أليس واضحاً ما قلته؟ - سألها الشخص في النافذة هذا السؤال بصوت هادئ، لدرجة أن يفغينيا نيقولايفنا تملّكها الخوف.

في الليلة نفسها سمعت حديث ساكني الشقة في المطبخ، وكان الكلامُ عنها.

قال أحد الأصوات:

- تصرّفت بطريقة غير لائقة.

أجابه الصوت الثاني:

- برأيي، أنّها ذكيّة. وضعت رجلها في الغرفةِ أوّلاً، ثم أخبرت الجهات المعنية عن العجوز، طردتها، والآن هي صاحبة الغرفة.

قال صوت رجل:

- أيّة غرفة: إنَّها غُريفة!!

وقال صوت رابع:

- نعم، مثلها لا يضيع، ومع مثلها لن تضيع.

كان مصيرُ القط بائساً. جلس ناعساً ومكتئباً في المطبخ، بينما كان الناس يتجادلون، ماذا يفعلون به.

قالت امرأة:

- فلتذهب إلى الجحيم هذه الألمانية.

أعلن دراغين فجأة أنّه مستعد للمشاركة في إطعام القط. لكن القط لم يعش طويلاً من دون جيني هينريخوفنا - لقد سكبت إحدى الجارات إمّا عن غير قصد، أو عامدةً، ماء يغلي عليه، فمات القط على الفور.

24

أُعجَبتْ يفغينيا نيقولايفنا حياةُ الوحدةِ في كويبيشيف.

ما كانت من قبلُ حرّة كما هي الآن. ظهر عندها الإحساس بالخفّة والحرّية، بغضّ النظر عن الحياة الصعبة. ظلَّت لفترة طويلة، قبل أن تسجّل إقامتها وتستلم البطاقات التموينية، تأكلُ مرّة واحدة في اليوم في المطعم بموجب بطاقةِ الغداء التي تحصل عليها من العمل. ومنذ الصباح كانت تفكر في الساعة التي ستدخل فيها إلى المطعم وتحصل على صحن الحساء.

قليلاً ما كانت تفكر في هذه الأثناء بنوفيكوف. ولكنَّها فكَّرت أكثر بكريموف، غالباً، ودائماً تقريباً، إلّا أنَّ قوّة الإنارة القلبية العميقة لهذه الأفكار لم تكن كبيرة.

كانت الذكرى عن نوفيكوف تومض وتختفي، ولم تعذّبها.

لكنها رأت ذات مرّة في الشارع من بعيد رجلاً عسكرياً فارعَ القامةِ يرتدي معطفاً طويلاً، وبدا لها للحظة، أنّ ذلك الشخص هو نوفيكوف. اضطربَ تنفّسها وغدا أصعب، وضَعُفتْ رجلاها، وأصابتها الحيرة من الشعور السعيد الذي انتابها. ثمَّ أدركت بعد دقيقة أنّها أخطأت، وسرعان ما نسيت توترها.

في الليلِ استيقظت فجأة وفكّرت:

«لماذا لا يكتب، فهو يعرف العنوان؟».

عاشت بمفردها، ولم يكن بجانبها لا كريموف ولا نوفيكوف، وما من أقارب. وهُيّئَ لها أنّ السعادة في هذه الوحدة الحرّة. لكن ذلك كان مجرَّد ظن.

كان كثيرٌ من مفوضيّات موسكو ومؤسساتها، ورئاسات تحرير الصُّحف الموسكوفية في كويبيشيف في هذه الفترة. إنَّها عاصمة مؤقتة أُجليَ إليها الناسُ من موسكو، مع السلك الدبلوماسي، وباليه مسرح البولشوي، والكتّاب المشهورين، والمؤتمرات الموسكوفية، مع الصحفيين الأجانب.

هؤلاء الآلاف من سكان موسكو جميعاً نزلوا في الغرف الصغيرة، وغرف الفنادق، والمساكن الجماعية يمارسون أعمالهم المعتادة - رؤساء الأقسام، ومديرو الإدارات والإدارات الرئيسية، والمفوضون الذين قادوا الأشخاص الخاضعين لإداراتهم والاقتصاد الوطني، والسفراء فوق العادة وكاملو الصلاحية؛ وأبهجَ أولانوفا وليميشيف وميخائيلوف مشاهدي الباليه والأوبرا؛ وطرح السيّد شابيرو - ممثل وكالة «يونايتد بريس» أسئلة صعبة على رئيس المكتب الإعلامي السوفييتي سولومون أبراموفيتش لوزوفسكي؛ وكتبَ الكتّابُ ملاحظاتٍ في الصحف المحلية والأجنبية؛ وكتب الصحفيون في المواضيع العسكرية من خلال المواد التي جمعوها في المستشفيات.

لكن حياة الناس المسكوفيين أصبحت هنا مختلفة تماماً - لفّت ليدي كريبس، زوجة السفير البريطاني فوق العادة وكامل الصلاحيات، وهي خارجة من العشاء الذي تناولته في مطعم الفندق بالبطاقة، باقي

الخبز الذي لم تأكله، وقطع السكر بورق صحيفة، وأخذت اللفافة معها إلى الغرفة؛ وذهب ممثلو الصحف العالمية إلى البازار، وناقشوا مطوّلاً وهم يتجوّلون بين الجرحى، الخضار المنتج محلياً، ودوّروا السجائر الملفوفة يدوياً، ووقفوا أحياناً، مبدّلين وقفتهم من رجل إلى رجل، في الطابور إلى الحمام. وناقش الكتّابُ المشهورون بكرم ضيافتهم، القضايا العالمية، ومصيرَ الأدبِ حول كأس من الفودكا محليّة الصنع، وتناولوا بعدها حصص الإعاشة من الخبز.

حُشِرت مؤسّساتٌ ضخمةٌ في طوابق كويبيشيفيَّة ضيّقة؛ واستقبلَ رؤساءُ الصحفِ السوفييتية الرئيسية الزوّارَ، حولَ الطاولات التي حضّرَ الأطفال فوقها دروسهم بعد الدوام الرسمي، ومارست النساء خياطتهنّ عليها.

لا يوجد شيء جذّاب في هذا المزيج من الكتلة الحكومية الضخمة مع البوهيمية[1] التي أُجلِيت.

اضطرّت يفغينيا نيقولايفنا أن تعاني كثيراً من التوترات فيما يتعلّق بتسجيل إقامتها.

منذ الأيام الأولى مضى رئيس مكتب التصميم، الذي بدأت

---

(1) البوهيمي أساساً هو مواطن منطقة بوهيميا التشيكيّة، وقد استُخدِمَ لوصف أولئك المهاجرين الغجر الذين جاؤوا من رومانيا مارّين بمنطقة بوهيميا، إلا أن المصطلح انتشر بمعنى آخر في فرنسا، أولاً في القرن التاسع عشر الميلادي، حيث أصبح يدلّ على أي كاتب أو فنان يميل إلى اتخاذ سلوك خاص، أو العيش بنمط حياتي غير مألوف، سواء كان هذا سلوكاً واعياً أو غير واعٍ منه. ومن ثم فنمط الحياة الغجرية آنذاك كان بمثابة الشرارة الأولى لبداية ما يعرف بالبوهيمية في الأدب والفن في فرنسا وأوروبا. (المترجمان).

العمل فيه، العقيد ريزين، الرجل الطويل القامة ذو الصوت الهادئ والمتفجر، يزفرُ، حول مسؤولية المدير، الذي يقبل موظفاً لم يسجّل إقامته. وأمرها أن تذهب إلى مركز الشرطة، وأعطاها وثيقةً تثبتُ قبولها في العمل.

أخذ الموظف في مركز شرطة المنطقة جواز السفر والوثيقة من يفغينيا نيقولايفنا، وأمرها بالحضور بعد ثلاثة أيام لأخذ النتيجة.

دخلت يفغينيا نيقولايفنا في اليوم المحدّد ممرّاً نصف مظلم، وهو المكان الذي جلس فيه الناس، الذين ينتظرون استقبالهم، بتعابير وجه خاصّة، يمكن أن تجدها فحسب عند أولئك الذين أتوا إلى مراكز الشرطة بشأن قضايا الإقامة وجوازات السفر. وصلت إلى النافذة. مدت لها جواز السفر يدُ أنثى، ذات أظافر مغطاة بطلاء ذي لونين أسود وأحمر، وقالت لها بصوت هادئ:

- رُفِضَ طلبك.

أخذت مكاناً في الطابور للتحدّث إلى رئيس قسم الجوازات. تكلّمَ الناس في الطابور همساً، وهم ينظرون إلى الفتيات الموظفات ذوات الشفاه المغطّاةِ بالطلاء، اللاتي يجتزنَ الممرَّ، ويرتدين أحذية وسترات مبطَّنة. مرّ شخص غير مستعجل، مطقطقاً بحذائه، يرتدي معطفاً موسمياً وقبعة، مع طوق سترة عسكرية تطل من تحت الوشاح، وفتح بمفتاح إنكليزي أو فرنسي قفل الباب - كان ذلك هو غريشين، رئيس قسم الجوازات. بدأ الاستقبال. لاحظت يفغينيا نيقولايفنا، بأنّ الناس الذين ينتظرون دورهم، لم يفرحوا، كما يحصل عادة بعد انتظار طويل، لكنهم عندما يقتربون من الباب يتلفَّتون حولهم، وكأنّهم على وشك الفرار في اللحظة الأخيرة.

سمعت يفغينيا نيقولايفنا أثناء انتظارها، الكثير من القصص عن البنات اللواتي لم يتم تسجيل إقامتهنّ مع أمّهاتهنّ، وعن المشلولة التي تم رفض تسجيلها عند أخيها، وعن المرأة التي جاءت لرعاية معاق حرب ولم تحصل على إقامة.

دخلت يفغينيا نيقولايفنا إلى مكتب غريشين. وأشار لها صامتاً إلى الكرسي، وقال بعد أن نظر إلى الأوراق:

- أوراقك مرفوضة، ماذا تريدين؟

قالت وصوتها يرتجف:

- رفيق غريشين، افهمني، فأنا لم أحصل على البطاقات التموينية طوال هذه الفترة.

نظر إليها بعينين لا تتحرّكان، وعبّر وجهه الفتي الواسع عن لامبالاة مدروسة.

قالت يفغينيا:

- رفيق غريشين، فكّر بنفسك، ما الحاصل. يوجد في كويبيشيف شارع باسم شابوشنيكوف. هذا أبي، وهو أحد المبادرين للحركة الثورية في سامارة، وأنتم ترفضون الإقامة لابنته...

نظرت عينا غريشين الهادئتان إليها، واستمع إلى ما قالته. وأجاب:

- أنت بحاجة إلى دعوة، لن أسجّل إقامتك من دون دعوة مرسلة لك.

قالت يفغينيا:

- أنا أعمل في مؤسّسة عسكرية.

- لم أرَ ذلك في وثائقك.

- وهل يساعد ذلك؟

أجابها على مضض:

- من الممكن.

عندما وصلت يفغينيا نيقولايفنا في الصباح إلى العمل، قالت لريزين إنّهم رفضوا تسجيل إقامتها. فتح يديه وتذمّر قائلاً:

- أوه، حماقة، ألم يفهموا أنّك أصبحت عاملاً ضرورياً منذ الأيام الأولى، وأنّك تنفّذين عملاً ذا طابع دفاعي.

قالت يفغينيا:

- هذا كلّ شيء، لقد قال إنّي أحتاج إلى وثيقة تثبت أنّ مؤسستنا تابعة لمفوضية الدفاع الشعبية. أتوسّل إليكم، اكتب لي هذه الوثيقة، وسأذهب بها إلى الشرطة مساء.

اقترب ريزين بعد مرور بعض الوقت من يفغينيا، وقال بصوت مذنب:

- من الضروري أن ترسل السلطات أو الشرطة طلباً إليّ بذلك. يمنع عليّ كتابة مثل هذه الوثيقة، من دون طلب.

ذهبت إلى مركز الشرطة مساء، وبعد أن انتظرت في الطابور، كارهة نفسها بسبب الابتسامة المتملّقة، رجت غريشين أن يطلب وثيقة من ريزين.

قال غريشين:

- لن أكتب أيّ طلب.

عندما سمع ريزين برفض غريشين، زفر وهو يقولُ مفكّراً:

- تعرفين ماذا، اطلبي منه، ولو بالهاتف أن يطلب منّي الوثيقة.

كان في مساء اليوم التالي، عند يفغينيا لقاء مع الأديب الموسكوفي ليمونوف، الذي كان يعرف والدها ذات يوم. وذهبت بعد الدوام مباشرة إلى الشرطة، وأخذت تطلب من الجالسين في الطابور السماح لها بالدخول إلى رئيس قسم الجوازات «لمدة دقيقة بالضبط»، لطرح سؤال. هزّ الناس أكتافهم، وأبعدوا نظراتهم عنها. قالت بغضب:

- أخ، حسناً، مَن الأخير؟...

كانت انطباعات يفغينيا اليوم في قسم الشرطة صعبة للغاية. أصيب امرأة بساقين متورّمتين في الغرفة عند رئيس قسم الجوازات بنوبة - كانت تصرخ بصوت عال: «أتوسّل إليك، أتوسّل إليك». كان بيزروكي يشتم عند غريشين في الغرفة بكلمات سيّئة، وكان التالي بعده يصرخ، وسُمعت كلمات: «لن أخرج». لكنّه خرج بسرعة كبيرة. لم تُسمع أثناء هذا الضجيج، ولا كلمة واحدة من غريشين، بدا وكأنّه غير موجود - كان الناس وحدهم، يصرخون ويهدّدون أنفسهم.

جلست في الطابور لمدة ساعة ونصف، وكرهت وجهها اللطيف وتعجّلها بالقول «شكراً جزيلاً» إجابةً على الإيماءة الصغيرة «اجلسي»، أخذت تطلب من غريشين الاتصال برئيسها بالهاتف - بداية كان ريزين يشك، هل لديه الحق بأنّ يعطي وثيقة من دون طلب رسمي، عليه رقم وتاريخ، لكنّه وافق فيما بعد - سيكتب وثيقة تفيد: «استجابة لطلبكم الشفهي بهذا التاريخ، وبهذا الشهر».

وضعت يفغينيا نيقولايفنا أمام غريشين ورقة جهّزتها مسبقاً، حيث

كتبت بخط كبير مُحدّب رقم هاتف، واسم، واسم عائلة ريزين، ورتبته، ووظيفته، وكتبت بخط صغير ضمن قوسين: «استراحة الغداء من و إلى». لكن غريشين لم ينظر إلى الورقة، الموضوعة أمامه، وقال:

- لن أقدم أيّ طلب.

سألته:

- لكن لماذا؟

- غير مسموح.

- لقد قال العقيد ريزين، إنّه من دون طلب، ولو شفهي، لا يملك الحق بإعطاء وثيقة.

- ما دام لا يملك الحق، فلا يكتب إذاً.

- لكن ماذا أفعل أنا؟

- ومن أين لي أن أعرف.

فقدت يفغينيا صوابها من هدوئه - لو أنّه غضب، أو انزعج من غبائها، لبدا الأمر أسهل. لكنّه كان جالساً ومُزوراً عنها جانباً، لا يحرّك جفنه، ولم يكن في عجلة من أمره.

كان الرجال دائماً، عندما يتحدثون إلى يفغينيا نيقولايفنا، يلاحظون جمالها، وقد شعرت بذلك دائماً. لكن غريشين نظر إليها، مثلما ينظر إلى العجائز ذوات العيون الدامعة وإلى المعاقين - عندما دخلت غرفته، ما عادت إنسانة، وامرأة شابّة، بل حاملة طلب فحسب.

فقدت صوابها بسبب ضعفها، وقوّته الخرسانيّة الضخمة. حَثَّت

يفغينيا نيقولايفنا الخُطى في الشارع ، ذلك أنَّها تأخّرت عن ليمونوف لأكثر من ساعة، ولم تعد فرحة وهي مستعجلة للاجتماع القادم. كانت تشعر برائحة ممرّ قسم الشرطة، وكانت وجوه المنتظرين ماثلةً في عينيها، وصورة ستالين المضاءة بمصباح خافت، إلى جانب غريشين. غريشين، الهادئ، البسيط، الذي جمعَ في روحه البشريَّة كلّ قوّة صخرة الدولة.

استقبلها ليمونوف، السمينُ الطويلُ، كبيرُ الرأس، ذو الذؤاباتِ الشبابيَّة الجعداء حول صلعته الكبيرة، بفرح.

قال لها وهو يساعدها في نزع المعطف:

- خفت أنّك، لن تأتي.

وأخذ يسألها عن ألكساندرا فلاديميروفنا:

- لقد كانت أمّك منذ زمن الجامعة بالنسبة لي أنموذجاً للمرأة الروسية ذات الروح الرجولية. وأنا أكتب عنها دائماً في كتبي، أي ليس عنها بالتحديد، بل بشكل عام، باختصار أنت تعرفين.

خفّض صوته ونظر إلى الباب وسألها:

- هل هناك من أخبار عن ديميتري؟

ثم أخذا يتحدَّثان عن الفن التشكيلي، وبدأ الاثنان معاً تأنيبَ ريبين[1]. أخذ ليمونوف يقلي البيض على الموقد الكهربائي، وقال إنه أفضل اختصاصي عجّة في البلاد - طبّاخ مطعم «ناتسيونال» تعلّم عنده.

---

(1) هو إيليّا ريبين المولود في تشوغويفو من مدن الإمبراطوريّة الروسيّة عام 1844، والمتوفى في ريبينو في فنلندا 1930، وهو رسام ونحات روسي شهير. (المترجمان).

- حسناً كيف؟- سألها بقلق وهو يقدِّمُ لها الطعام، تنهّد وأضاف
- خاطئٌ أنا، أحبّ الأكل.

كم كان كبيراً قهر انطباعات الشرطة! عندما دخلت إلى غرفة ليمونوف الدافئة، الممتلئة بالكتب والمجلات، حيث سرعان ما جاء شخصان مسنّان، ذكيّان، من الناس المحبّين للفن، كانت طوال الوقت تشعر بغريشين بقلب بارد.

عظيمةٌ قوّة الكلمة الحرّة الذكية، وما هي إلّا دقائق حتى نسيت يفغينيا أمرَ غريشين، والوجوه الحزينة في الطابور. وبدا أنّه لا يوجد شيء في الحياة سوى الحديث عن روبليوف[1]، وعن بيكاسو، وعن شعر أخماتوفا وباسترناك، وعن دراما بولغاكوف.

خرجت إلى الشارع ونسيت على الفور الأحاديث الذكيّة.

غريشين، غريشين... ما سألها أحدٌ في الشقة عن أنّها سجّلت إقامتها أم لا، وما طلب أحد إليها إبراز جواز السفر مع ختم الإقامة. لكن بدا لها منذ بضعة أيام، أنّها مراقبة من قبل المرأة الأكبر سنّاً في الشقة غلافيرا ديميترييفنا، ذات الأنف الطويل، المرأة المتوددة واللطيفة دائماً، ذات الصوت المتملّق إلى أبعد حدود. كانت يفغينيا وفي كل مرّة تواجه فيها غلافيرا ديميترييفنا وتنظر في عينيها القاتمتين، وفي الوقت نفسه اللطيفتين والكئيبتين، تشعرُ بالخوف. وبدا لها أنّ غلافيرا ديميترييفنا في غيابها تفتح غرفتها بمفتاح منتقى، وتدخل وتفتش في أوراقها، وتصوّر نسخة من طلباتها إلى الشرطة، وتقرأ رسائلها.

(1) هو أندريه روبليوف، رسَّام الأيقونات الروسي الشهير. ولد عام 1360، وتوفي عام 1428.

حاولت يفغينيا نيقولايفنا أن تفتح الباب من دون ضجّة، وسارت في الممر على رؤوس أصابعها، خائفة من أن تصادف المرأة الأكبر في الشقة. والتي ستقول مباشرة: «لماذا تنتهكين القوانين، وأنا التي سأكون مسؤولة عنك؟».

دخلت يفغينيا نيقولايفنا صباحاً إلى مكتب ريزين، وأخبرته عن فشلها التالي في قسم الجوازات.

- ساعدني في الحصول على تذكرة في المركب إلى كازان، وإلّا ربما يقودونني إلى منجم الفحم النباتي لانتهاكي نظام الإقامة.

ما عادت تسألهُ بشأن الوثيقة، وتحدثت بغضب وسخرية.

نظر إليها الرجل الوسيم الضخم بصوت هادئ، وهو خَجلٌ من الخفر الذي انتابه. كانت تُحسُّ دائماً على جسدها بنظرته اللطيفة المشتاقة، نظر إلى كتفيها، ورجليها، وعُنُقها، وقفاها، وقد شعرت بكتفيها، وقذالها بتلك النظرة الثابتة والمُعجبة. لكن قوّة القانون التي تُحدّد حركةَ الأوراق الصادرة والواردة، كانت على ما يبدو قوّةً لا يستهانُ بها.

اقترب ريزين عند الظهر من يفغينيا ووضع بصمتٍ على ورقة الرسم الوثيقةَ المنشودةَ.

ونظرت يفغينيا إليه بصمت كذلك، وانهمرت الدموع من عينيها.

- طلبتها من خلال القسم السرّي،- قال ريزين - لكنّني لم أكن آمل، وفجأة تلقيت موافقة المدير.

هنّأها الموظفون قائلين: «وأخيراً انتهت معاناتك».

ذهبت إلى الشرطة. هزّ لها المراجعون في الطابور رؤوسهم، لقد أصبح بعضهم من معارفها، وسألوها:

- هل الأمور على ما يرام؟...

قالت لها بعض الأصوات:

- ادخلي من دون طابور... قضيتك لا تحتاج إلى أكثر من دقيقة، لماذا ستنتظرين ساعتين مرّة أخرى.

لم تبدُ لها طاولة المكتب، والصندوق المقاوم للحريق، والبقع البنية المزخرفة بشكل غير متقنٍ على الخشب، مثلما كانت كئيبة وبيروقراطيَّةً.

نظر غريشين، كيف وضعت أصابعُ يفغينيا العجولةُ الورقةَ المطلوبة أمامه، فأومأ إيماءة موافقة، لا تكادُ ترى، وقال:

- حسناً، اتركي جواز السفر والوثائق، وستستلمين الوثائق بعد ثلاثة أيّام أثناء الدوام الرسمي من مكتب التسجيل.

صوتُ غريشين كان كالمعتاد، لكنّ عينيه فاتحتي اللون، بدتا ليفغينيا كما لو أنهما ابتسمتا بدماثة.

سارت إلى المنزل وفكرت، أنّ غريشين على ما يبدو شخص مثل الجميع- استطاع أن يفعل الخير وابتسم. وتبيّن أنّه ليس بلا قلب - وشعرت بالحرج لظنونها السيّئة التي جالت في خاطرها حول رئيس قسم الجوازات.

بعد ثلاثة أيّام، مدت لها اليد النسائية الكبيرة ذات الأظافر المطلية بالأسود والأحمر، من النافذة، جوازَ السفر مع الأوراق المطوية بداخله بعناية. قرأت يفغينيا القرار المكتوب بخط واضح: «رفض الإقامة، ذلك أنّها لا تمتُّ بصلةٍ إلى المسكن».

- يا ابن العاهرة - صاحت يفغينيا بصوت عال، وما استطاعت أن تكبحَ جماح نفسها فتابعت - إنّه مستهزئ، ومعذِّب، بلا روح!

تحدّثت بصوت عال، وهي تهزّ جواز السفر غير المسجّل في الهواء، متوجّهة إلى الأشخاص الجالسين في الطابور، أرادت مساندتهم، لكنها رأتْ كيف يستديرون عنها. ومَضتْ فيها للحظة روحُ التمرّد، روح اليأس والغضب. هكذا كانت تصيح أحياناً النساء المذهولات جرَّاء اليأس في طوابير عام سبعة وثلاثين، وهنّ يقفن طلباً لوثائق عن المدانين، دون أن يملكن حق المراسلة، في صالة الاستقبال نصف المظلمة من سجن بوتيرسكايا، في شارع ماتروفسكايا تيشينا في حي سوكولنيكي.

أمسك الشرطيُّ الواقف في الممر يفغينيا من مرفقها، وأخذ يدفعها نحو الباب.

سحبت يدها ودفعته عنها قائلة:

- اتركني، لا تلمسني!

- توقَّفي أيّتها المواطنة،- قال بصوت أجش - لا تجبرينا على إرسالك إلى السجن لعشر سنوات!

بدا لها أنّها رأت في عيني الشرطي وميض تعبير من التعاطف والرحمة.

مضت بسرعة نحو المخرج. سار الناس في الشارع، يدفعونها، جميعهم كانت لديهم إقامة، ويملكون بطاقات تموينية...

في الليل شاهدتْ في الحلمِ حريقاً، وانحنت فوق شخصٍ جريحٍ مستلقٍ، دافنٍ وجهه في الأَرض، حاولت سحبه وأدركت أنّه كريموف، على الرغم من أنّها لم ترَ وجهه.

استيقظت معذّبةً ومكتئبةً.

- لو أنّه يأتي بسرعة، - فكرت وتمتمت وهي ترتدي ثيابها - ساعدني، ساعدني.

وأرادت بشغف، حتى الألم أن ترى، ليس كريموف الذي أنقذته ليلاً، بل نوفيكوف نفسه ، بالصورة نفسها التي رأته فيها صيفاً في ستالينغراد.

كانت هذه الحياة غير العادلة من دون إقامة، ومن دون بطاقات تموينية، وفي خوف أبديّ أمام البواب، ومدير المبنى، وأمام المرأة الأقدم في الشقة غلافيرا ديميترييفنا، كل ذلك كان صعباً جداً، وعذّبَها بشكل لا يطاق. دخلت يفغينيا إلى المطبخ، عندما كان الجميع نائمين، وحاولت الاغتسال صباحاً، قبل أن يستيقظ الساكنون معها. وعندما تحدّثوا إليها أصبحَ صوتُها لطيفاً بصورةٍ مثيرةٍ للاشمئزاز، ولم يكن صوتها هي، بل أشبه بأصوات المعمدانيين.

قدمت يفغينيا في النهار طلب استقالتها من العمل.

سَمِعتْ، أنّه بعد رفض إقامتها في قسم الشرطة يحضرُ شرطي الحيّ ويأخذُ عليها تعهّداً بمغادرة كويبيشيف خلال ثلاثة أيّام. ويقول نصّ التعهّد: «إنّ الشخص المخالف لنظام الإقامة، يخضع ل. . .». لم ترد يفغينيا «أن تخضع ل. . .». لقد استسلمتْ لفكرةٍ مفادُها، أنّ عليها مغادرةَ كويبيشيف. وتملّكَ قلبُها الهدوء على الفور، وأصبحَ تفكيرها بغريشين، وبغلافيرا ديميترييفنا، وعينيها الناعمتين، مثل الزيتون المتعفّن، لا يثيرُ الخوفَ في نفسها. وتخلّت عن الخروج على القانون، والتزمت به.

عندما كتبت طلبَ الاستقالة وجهّزت نفسها لتقديمهِ إلى ريزين، نادوها إلى الهاتف - ليمونوف كان المتصل.

سألها، فيما إذا كانت غير مشغولة غداً مساء، فقد وصلَ شخصٌ من طشقند وهو يروي حكاياتٍ مضحكةً عن الحياة هناك، وحملَ إلى ليمونوف، تحيَّةً من ألكسي تولستوي. ومن جديد فاحت رائحةُ حياةٍ أخرى.

وعلى الرغم من أنّ جينيا[1] لم تكن ترغب في أن تفعل ذلك، لكنّها حدّثته بما حصل معها بالنسبة للإقامة.

استمع إليها، دون أن يقاطعها، ثم قال:

- يا لها من قصّة، حتى إنها مثيرة للفضول: للأب شارعه الخاصّ في كويبيشيف، وابنته يطردونها منه، ويرفضون تسجيل إقامتها فيه. هذا مثير للاهتمام، مثير للاهتمام.

فكّر قليلاً وقال:

- اسمعي يفغينيا نيقولايفنا، لا تقدمي طلبك اليوم، لديّ اجتماعٌ اليوم مساء مع سكرتير لجنة المقاطعة وسأحدّثه عن وضعك.

شكرته جينيا، لكنها فكرت، أنّ ليمونوف سينساها، بعد أن يضع سمّاعة الهاتف. لكن مع ذلك لم تعطِ الطلب لريزين، سألته فقط، هل بإمكانه أن يحصل لها على تذكرة في المركب إلى مدينة كازان من خلال مقر المنطقة العسكري.

- هذا أسهل من السهل - قال ريزين فاتحاً يديه - لكن المصيبة مع أجهزة الشرطة. ثمَّ ما الذي يمكن فعله، إنّ كويبيشيف تخضع لنظام خاصّ، ولدى تلك الأجهزة تعليمات خاصّة.

سألها:

---

(1) تصغير لاسم يفغينيا. (المترجمان).

- هل أنت مشغولة اليوم مساء؟

أجابته جينيا بغضب:

- نعم مشغولة.

سارت إلى البيت وهي تفكر، أنّها سترى أمّها وأختها، وفيكتور بافلوفيتش، وناديا قريباً، وسيكون الوضع في كازان أفضل من كويبيشيف. وتساءلت، لماذا غضبت كل ذلكَ الغضب، وتجمّدت خوفاً، وهي تدخل إلى مركز الشرطة. إذا رفضوا - لا يهمّ... وإذا ما أرسل نوفيكوف رسالةً، فيمكنني أن أطلب من الجيران - إعادة إرسالها إلى كازان.

صباحاً، ما إن وصلت إلى العمل، حتى تم استدعاؤها إلى الهاتف، وطلب إليها صوتٌ لطيفٌ أن تمرّ بقسم الجوازات في شرطة المدينة لتسجيل إقامتها.

25

تعرّفت يفغينيا إلى أحد ساكني الشقة، شاروغورودسكي. كان شاروغورودسكي إذا ما استدار بحدّة، بدا أنّ الرأس المرمري الأشيب الكبير سينفصل عن الرقبة الرقيقة ويسقط مدوّياً على الأرض. وقد لاحظت جينيا أنّ الجلد الشاحب على وجه العجوز يومض بزرقة خفيفة. شغل هذا المزيج من زرقة الجلد وزرقة العين الباردة جينيا كثيراً؛ إنّ هذا الرجل العجوز ينحدرُ من طبقة نبلاء عالية، وأضحكتها فكرة أنّ من الضروري أن يُرسم الرجل العجوز باللون الأزرق.

عاشَ فلاديمير أندرييفيتش شاروغورودسكي قبلَ الحرب أسوأ من عيشته في أثناء الحرب. ظهر عنده الآن عملٌ ما. فقد طلب إليهِ مكتبُ الإعلام السوفييتي أن يكتبَ ملاحظاتٍ حول ديميتري دونسكوي، وزسوفوروف، وأوشاكوف، وحول تقاليد الضباط الروس، وعن شعراء القرن التاسع عشر تيوتشيف، وباراتينسكي...

قال فلاديمير أندرييفيتش لجينيا، بأنّ أصولَه القديمة من جهة الأم، أقدم من عائلة رومانوف الأميرية.

خدم عندما كان شاباً في مقاطعة زيمستفو الإقليمية معلّماً بين

أبناء ملّاك الأراضي والمعلمين الريفيين والقساوسة الشباب الأكثر تطوّراً من الفولتريين[1] والتشادايفيين[2].

أخبر فلاديمير أندرييفيتش يفغينيا عن حديثه مع زعيم نبلاء المقاطعة - كان ذلك قبل أربعة وأربعين عاماً. حيث قال له الزعيم: «أنت ممثل إحدى عشائر روسيا القديمة، تحاول أن تثبت للفلاحين أنّك تنحدر من قرد. وسيسألك فلاح: والأمراء العظام؟ وولي العهد؟ والسادة؟ والإمبراطورة؟ والإمبراطور نفسه؟...».

استمرّ فلاديمير أندرييفيتش بتشويش العقول، وانتهى به الأمرُ أن نفوه إلى طشقند. ثمَّ عفوا عنه بعد عام، وسافر إلى سويسرا. التقى هناك كثيراً من الشخصيات الثوريّة والبلاشفة، والمناشفة، والحرس الأبيض، والفوضويين. ذهب إلى النقاشات والحفلات، وكان بعضها لطيفاً، لكنّه لم يتفق مع أحد. صادق في تلك الفترة طالباً يهودياً، بونديّاً[3] ذا لحية سوداء، ليبيتس[4].

---

(1) الفولتريّة (voltairianisme بالفرنسية): تيار اجتماعي وسياسي ظهر أيضاً في الإمبراطورية الروسية، يتبنّى أفكار التنوير، ويعتمدُ أفكار وإبداع الفيلسوف الفرنسي فولتير (1694-1778). (المترجمان).

(2) نسبة إلى الفيلسوف الروسي الشهير ب. يا. تشادايف (1794-1856)، الذي كان ذا رؤيا خاصّة حول تاريخ روسيا ودورها ومكانتها في العالم، من وجهة نظر الفلسفة الدينية. (المترجمان).

(3) البوندية: الجبهة اليهودية العامة - وهي حزب سياسي يهودي علماني اشتراكي نشأ في روسيا القيصرية في سنة 1897 وكانت له فروعٌ أيضاً في ليتوانيا وبولندا، دعم الحزب بقاء اليهود في أوروبا وعدم الهجرة إلى فلسطين، ويلقّبُ أعضاء هذا الحزب بالبونديين. (المترجمان).

(4) لعل الكاتب أراد هنا أن ينسبَ هذا الشاب إلى منطقة جغرافيّة معينة، في نواحي خاركوف من أوكرانيا. كانت تتبع للإمبراطوريّة الروسيّة. (المترجمان).

عاد إلى روسيا قبل فترة وجيزة من الحرب العالمية الأولى، واستقرّ في مزرعته، ونشر قليلاً من المقالات في الموضوعات التاريخية والأدبية في «نشرة نيجني نوفغورود».

لم يمارس العمل الزراعي، وكانت أمّه هي من يدير المزرعة. كان شاروغورودسكي المالك الوحيد، الذي لم يمسّ الفلاحون مزرعته. وخصّصت له لجنة الفقر إمدادات من الحطب، وأعطوه أربعين رأساً من الملفوف. جلس فلاديمير أندرييفيتش في الغرفة الزجاجية المُدفّأة، وقرأ وكتب الشعر. قرأ لجينيا قصيدة. عنوانها «روسيا»:

جنون الإهمال
يتراءى في الجهات الأربع جميعاً.
سهل. لا نهاية.
تنعق غربان الشؤم.
حفلة. حرائق. أسرار.
لامبالاة غبيَّة.
والإحساسُ بالذات في كل مكان،
والعظمة المريعة.

لقد قرأ بعناية وهو يلفظ الكلمات ويضع النقاط، والفواصل، ورفع حاجبيه الطويلين عالياً، وحتى مع ذلك، فإن الأمرَ لم يجعل جبهته الواسعة أصغر.

فكّر شاروغورودسكي عام 1926 بإلقاء محاضرات في تاريخ

الأدب الروسي، فأزرى بديميان بيدني[1] ومجّدَ فيت[2]، ودخل في نقاشات عن جمال الحياة وحقيقتها، وهي من الموضوعات الدارجة حينذاك، وأعلن نفسه معادياً لأيّ دولة، وأعلن أنّ الماركسية تعاليم محدودة، وتحدّث عن المصير المأساوي للروح الروسية، واتفقَ وجادلَ؛ لدرجةٍ أنّه سَافرَ من جديد على نفقة الدولة إلى طشقند. عاش هناك مندهشاً من قوّة الحجج الجغرافية في النقاش النظري، وحصل في نهاية عام 1933 فحسب على موافقةٍ بالانتقال إلى مدينة سامارا ، للعيش مع أخته الأكبر يلينا أندرييفنا. وقد ماتت قبل الحرب بفترة قصيرة.

لم يدعُ شاروغورودسكي أحداً إلى غرفته البتّة. لكن جينيا ألقت ذات مرّة نظرة على الغرفة الأميريّة: أكوامٌ من الكتب والصحف القديمة تراكمت تلالاً في الزوايا، والكراسي القديمة تكدّست بعضها فوق بعض وبلغت السقف تقريباً، واضطجعت على الأرض صورٌ في إطارات مذهّبة. ووضِعَتْ على الأريكة المغطاة بالمخمل الأحمر بطانيّة تخرجُ منها حشوات مجعّدة من القطن.

كانَ شخصاً طَريّاً، عاجزاً في شؤون الحياة العمليَّة. يقال عادة عن أمثاله - شخص ذو روح طفوليَّة، طيّبة ملائكيّة. لكنه يستطيع أن يمرَّ لامبالياً، ويغمغم بقصائده المفضّلة، متجاوزاً طفلاً جائعاً أو امرأة عجوزاً مهترئة الثياب، تمدّ يدها طالبة قطعة خبز.

---

(1) هو يفيم أليكسيفيتش بريدفوروف المشهور بلقب: ديميان بيدني (ديميان الفقير)، شاعر أوكراني سوفييتي بلشفي، توفي عام 1945. (المترجمان).

(2) هو أفاناسي فيت، شاعر وأديب ومترجم روسي (1820-1892). (المترجمان).

غالباً ما كانت جينيا تتذكر عند الاستماع إلى شاروغورودسكي، زوجَها الأوّل، ويبدو أن المعجب القديم بفيت وفلاديمير سولوفيوف، ليس مثل رجل الكومنترن كريموف.

أدهشها أنّ كريموف غير المبالي بسحرِ المناظر الطبيعيّة الروسيّة والحكاية الروسية، وبشعر فيت وتيوتشيف، كان أيضاً روسيّاً ، كالعجوز شاروغورودسكي. وكل ما كان غالياً عند كريموف في شبابه في الحياة الروسية، والأسماء، التي لم يكن يتخيّل روسيا من دونها، كان سيّان بالنسبة لشاروغورودسكي، وأحياناً معادياً له.

كان فيت بالنسبة لشاروغوردسكي إلهاً، وقبل كل شيء إلهاً روسيّاً. وكذلك كانت إلهيّة بالنسبة له الحكاياتُ عن فينيست الصقر الواضح، و«الشك» لغلينكا. ومهما كان إعجابه كبيراً بدانتي، فإنّه رآهُ محروماً من ألوهيّة الموسيقى الروسيّة، والشعر الروسي.

أمّا كريموف فلم يكن يرى فرقاً بين دوبروليوبوف ولاسال، وتشرنيشيفسكي وإنجلز. بالنسبة له كان ماركس أسمى من العباقرة الروس جميعاً؛ وبالنسبة له انتصرت سيمفونيات بيتهوفن البطولية بلا شك على الموسيقى الروسية. ربما كان نيكراسوف فحسب استثناءً عنده، إنَّهُ أول شاعر في العالم. بدا ليفغينيا نيقولايفنا لدقائق، أنّ شاروغورودسكي قد ساعدها على فهم ليس كريموف فحسب، ولكن أيضاً مصير علاقتها مع نيقولاي غريغوريفيتش.

أحبّت يفغينيا التحدّث إلى شاروغورودسكي. عادة ما كان الحديث يبدأ بشواهد مثيرة للقلق، ثم يندفع شاروغورودسكي في الجدال عن مصير روسيا.

قال:

- النبلاء الروس هم المذنبون أمام روسيا، يفغينيا نيقولايفنا، لكنهم كانوا قادرين على حبّها. لم يسامحونا في تلك الحرب الأولى على الإطلاق، ووضعوا كلّ حلقة في سلسلة - حمقانا، ومتخلفونا، والنهمون النائمون، وراسبوتين، والعقيد مياسويدوف، والأزقة الكلسية، والإهمال، والأكواخ السوداء، والصنادل... لقد استشهد أبناء أختي الستة في غاليسيان في بروسيا الشرقية، وقُتل أخي الرجل المسن المريض في المعركة - لكن التاريخ لم يسجِّل ذلك... و كان يجب أن يفعل.

استمعت يفغينيا غالباً لنقاشاته التي لا تشبه أبداً النقاشات المعاصرة حول الأدب. لقد وضع فيت أعلى مرتبة من بوشكين وتيوتشيف. عرفَ فيت طبعاً أكثرَ من أيِّ إنسانٍ في روسيا، نعم وعلى الأغلب، فيت نفسه لم يذكر قبيل نهاية حياته عن نفسه ذلكَ الذي كان يعرفه عنه فلاديمير أندرييفيتش.

لقد اعتبر ليف تولستوي واقعياً أكثر مما ينبغي، ومع اعترافهِ بشعريَّتهِ، لم يقدره. قدّر تورغينيف، لكن اعتبر عبقريته غير عميقة بما فيه الكفاية. أكثر ما أعجبه في القصّةِ الروسيَّة غوغول وليسكوف.

كان يعتقد أنّ بيلينسكي وتشيرنيشيفسكي أوّل مدمّرين للشعر الروسي. وقال ليفغينيا، إنّه إلى جانب الشعر الروسي، أحبَّ ثلاثة أشياء تبدأ بحرف «س» - السكر والشمس والحلم[1]. وسأل:

- هل سأموت قبل أن أرى قصيدة واحدة منشورة لي؟

التقت يفغينيا نيقولايفنا، عند عودتها من العمل ليمونوف. كان

---

(1) مفردات تبدأ باللغةِ الروسيَّة بالحرف (س): ساخار، سولنتسي، سون.

يمشي في الشارع وهو يرتدي معطفاً مفتوحاً، يتأرجحُ على عنقه وشاحٌ ساطع اللون ذو مربعات، وهو يتكئ على عصا كثيرة العقد. وبدا غريباً وسطَ الحشد الكويبيشفي هذا الشخص الضخم الذي يرتدي قبعة القندس.

رافق ليمونوف يفغينيا إلى المبنى. دعته كي يدخلَ لتناول الشاي، نظر إليها باهتمام وقال: «حسناً، شكراً، أنت مدينة لي بشكل عام، بنصف ليتر من الفودكا، لقاء تسجيل الإقامة»، - أخذ يصعد الدرج، وهو يتنفّس بصعوبة.

دخل ليمونوف غرفة يفغينيا الصغيرة وقال: «نعم المكان ضيّق هنا على جثّتي، وربما سيكون واسعاً لأفكاري».

تحدّث إليها فجأة بصوتٍ ليس طبيعياً تماماً، وبدأ يشرح لها نظريته في الحب، وعلاقات الحبّ.

- نقص الفيتامينات، نقص الفيتامينات الروحي!- قال بضيقِ نَفَس - تفهمين، هذا الجوع العظيم، كما عند الثيران، والأبقار، والأيائل المتعطّشة للملح. وهو ما ليس موجوداً عندي، وغير موجود عند المقربين مني، وفي زوجتي، أنا أبحث في موضوع حبّي. زوجتي - هي سبب نقص الفيتامينات! والرجل يتعطّش لأن يجد في حبيبته، ذلك الذي لم يجده منذ أعوام، وعقود في زوجته. هل تفهمين؟

أخذ يدها وبدأ يمسّد كفّها، ثم أخذ يمسّد كتفها، لمس عُنقها، ومؤخرة رأسها.

سألها بتملّق:

- هل تفهمينني. المسألة بسيطة جداً. نقص فيتامينات روحيّ!

راقبت يفغينيا الضاحكة والمحرجة، بعينيها، كيف تجوّلت اليد الكبيرة البيضاء ذات الأظافر المصقولة من كتفها إلى صدرها وقالت:

- على ما يبدو، فإنّ نقص الفيتامينات قد لا يكونُ روحياً فحسب، بل جسديّاً أيضاً، - وأضافت بصوت تعليمي لمعلم من الدرجة الأولى - لا حاجة لأنّ تُمسّدني، في الحقيقة، لا حاجة لذلك.

نظر إليها مصعوقاً، وبدل أن يُحرجَ أخذ يضحك. وهي أيضاً أخذت تضحك معه.

شربا الشاي وتحدثا عن الفنان ساريان. طرق الباب العجوز شاروغورودسكي.

واتضح أنَّ ليمونوف عرف اسم شاروغورودسكي من ملاحظات مكتوبة بخط أحدهم ومن رسائل مؤرشفة لأحدٍ ما. لم يقرأ شاروغورودسكي كتب ليمونوف، لكنّه سمع باسمه، وهو اسمٌ يذكر عادة في قوائم الصحف التي تكتب حول المواضيع العسكرية التاريخية.

تحدّثا، وتوتَّرا، وفرحا، بعد أن شعرا أن شيئاً ما يجمعهما، ومضت في حديثهما أسماء سولوفييف، ميريجكوفسكي، وروزانوف، غيبييوس، وبيلي، وبيرديايف، وأوستريالوف، وبالمونت، ميليوكوف، ويفريينوف، وريميزوف، وفيتشسلاف إيفانوف.

فكرت يفغينيا، أنّ هذين الشخصين وكأنّهما رفعا من القاع العالمَ الغارقَ من الكتب، واللوحاتِ، والمنظوماتِ الفلسفيةِ، والإنتاجِ المسرحيِّ. . .

وكرّر ليمونوف ما فكرت فيه بصوت عال:

- لكأننا أنا وأنت، قد رفعنا أطلانتس[1] من قاع البحر.

هزّ شاروغورودسكي رأسه حزيناً:

- نعم، نعم، أنت مجرّد باحث في أطلانتس الروسية، أمّا أنا فساكنها، وسقطت معها إلى قاع المحيط.

قال ليمونوف:

- حسناً، الحرب رفعت أشخاصاً ما من أطلانتس إلى السطح.

وقال شاروغورودسكي:

- نعم، يبدو أنّ مؤسّسي الكومنترن لم يفكروا في ساعة الحرب، بأمرٍ أفضل من أن يكرّروا: الأرض الروسية المقدّسة.

ابتسم ليمونوف قائلاً:

- انتظر، ستنتهي الحرب بالنصر، وبعد ذلك سيعلن الأمميون: «أمّنا الغالية روسيا رأسٌ للعالم كلّه».

شيء غريب، شعرت يفغينيا نيقولايفنا أنهما كانا يتحدثان بحيويّة وبإسهابٍ وبذكاءٍ لمَّاح، ليس لأنهما كانا سعيدين بلقائهما فحسب، ووجدا موضوعاً قريباً منهما. بل فهمت أن كليهما - كبيران في السن - وكانا يشعران طوال الوقت أنها تستمع إليهما، وقد أُعجبا بها هما الاثنان. كم هذا غريب؟ والغريب أيضاً أنها غير مبالية تماماً، وحتى

---

(1) أطلانْتِس (باليونانية، ἀτλαντὶς νῆσος) أو أطلانطس أو جزيرة أطلس، قارة افتراضية أسطورية لم يثبت وجودها حتى الآن بدليل قاطع، ذكرها أفلاطون في محاورتين مسجلتين له. (المترجمان).

أنّها ترى الأمر مضحكاً، وفي الوقت نفسه هي ليست غير مبالية تماماً، إنّه لأمرٌ لطيف.

نظرت يفغينيا إليهما وفكرت: «لكن من المستحيل أن أفهم نفسي. . . لماذا تؤلمني إلى هذه الدرجة حياتي الماضية، لماذا أشعر بالأسف الشديد على كريموف، ولماذا أفكر فيه باستمرار؟».

ومثلما بدا لها ذات يوم ألمانُ وإنكليزُ كريموف الكومنتريون غرباء، استمعت الآن بعداء وحزن إلى شاروغورودسكي، عندما تحدَّثَ بسخرية عن أنصار الكومنترن. وها هي نظرية ليمونوف عن نقص الفيتامينات لا تساعد على الفهم. نعم وما في هذهِ الأمور من نظريّة. . .

وفجأة بدا لها، أنّها تفكر في كريموف وتقلق بشأنه طوال الوقت، لأنّها تشتاق إلى شخص آخر، بدا أنّها لا تتذكره تقريباً البتّة.

دُهشت يفغينيا - «أتراني أحبُّهُ في حقيقة الأمر؟».

26

تطهّرت السماء ليلاً فوق الفولغا من الغيوم. وسبحت التلالُ والوديان المقطعة بظلام دامس ببطءٍ تحت النجوم.

وومضت النيازك من حين لآخر، وقالت لودميلا نيقولايفنا هامسةً: «فلتبقَ يا توليا حيّاً».

كانت هذه رغبتها الوحيدة، ولم تطلب من السماء أيّ شيء آخر...

عندما كانت ما تزال تدرس في قسم الفيزياء والرياضيات، عملت موظفة حوسبة في المعهد الفلكي. وعندها علمت أن النيازك تتحرّك في تيارات تلتقي بالأرض في شهور مختلفة - البرشاويّات[1]، والجباريّات[2]، وأعتقد التوأميّات[3] والأسديّات[4] أيضاً. لقد

(1) شهب البرشاويّات: زخّات كثيفة من الشُّهُب تبلغ ذروتها في 12 أغسطس من كل عام، يمكن رؤيتها بالعين المجردة، من دون الحاجة إلى استخدام تلسكوبات أو أدوات للرصد. ويُعتبر المذنب سويفت تتل والذي اكتُشف عام 1862 مصدرَ هذه الشُّهُب. (المترجمان).

(2) شهب الجباريّات: زخة شهب تحدث في بدايات شهر أكتوبر وسميت باسمها نسبة إلى كوكبة الجبار ترتبط مع المذنب هالي، وهي تُعَدّ منذ سنة 2006 إحدى أفضل زخات الشهب السنوية، حيث تصل أحياناً إلى معدل

نسيت أيّ تيار من النيازك يلتقي بالأرض في شهر تشرين الأوّل (أكتوبر)، وفي تشرين الثاني (نوفمبر)... ولكن فليبقَ توليا على قيد الحياة!

يلومها فيكتور بأنّها لا تحب مساعدة الناس، وتعاملُ أقاربه بشكلٍ سيّئ. هو يرى أنَّ لودميلا لو أرادت لعاشت آنّا سيمينوفا معهما، ولما بقيت في أوكرانيا.

عندما أُطلِقَ سراحُ ابن عم فيكتور من المعسكر وأرسلَ إلى المنفى، لم تكن ترغبُ أن يقضي الليلة في المنزل، وكانت تخشى أن تعلم إدارة السكن بذلك. كانت تعرف: الأم تذكر أن لودميلا كانت تعيش في جاسبرا عندما مات الوالد، وأن لودميلا لم تقطع عطلتها، ووصلت إلى موسكو في اليوم الثاني بعد الدفن.

حدَّثتها الأم في بعض الأحيان عن ديميتري، وروَّعها ما حصل له.

---

60 شهاباً في الساعة. تصل الزخة ذروتها عادةً بين يومي 20 و22 من أكتوبر، ومعدَّلها المعتاد هو 20 شهاباً في الساعة لنصف الأرض الشمالي و40 شهاباً لنصف الأرض الجنوبي. (المترجمان).

(3) شهب التوأميّات: زخة شهب يعود مصدرها إلى كويكب من كويكبات أبولو وهو 3200 فايثون؛ والذي لديه مدار كويكب مذنبي. يبدو للناظر أن حركة الشهب قادمة من كوكبة التوأمين، ومن هنا أتت التسمية. ويمكن رؤية تلك الشهب في شهر ديسمبر، وخاصة في الفترة ما بين 7-14. (المترجمان).

(4) الأسديّات هو تيار دوري من الشهب مركزه برج الأسد، يرى في الفترة من 14 إلى 20 نوفمبر ويبلغ أقصى شدته في 17 نوفمبر، نشأ هذا التيار من (المذنب 1866)، وقد أنتج التيار على فترات زمنية تتراوح بين 33، 34 سنة أكبر عدد من الشهب، وهذه الفترات تناظر دورة المذنب. (المترجمان).

«كان صبياً صادقاً ومباشراً، هكذا كان، وبقي كذلك طوال حياته. وفجأة: تَجسّسٌ، التحضير لقتل كاغانوفيتش وفوروشيلوف... كذبة فظيعة وحشيَّة، من يحتاج إليها؟ من يحتاج إلى تحطيم الصادقين، والشرفاء؟...».

ذات مرّة قالت لوالدتها: «لا تستطيعين الاعتماد بشكل كامل على ميتيا. إنّهم لا يسجنون الأبرياء». والآن تذكَّرتِ النظرةَ التي شيَّعتها بها والدتها.

ذاتَ مرة قالت لوالدتها عن زوجة ديميتري:

- ما استطعتُ تحمّلها طوال حياتي، أقولُ لكِ بصراحة، والآن لا أستطيع تحمّلها.

والآن تذكرت إجابة والدتها:

- أنت تفهمين ماذا يعني: أن تُسجن زوجةٌ عشرةَ أعوامٍ لعدم إبلاغها عن زوجها!

ثم تذكرت أنها أحضرت ذات مرّة إلى المنزل جرواً عثرت عليه في الشارع، ولم يرغب فيكتور في أخذ هذا الجرو، فصرخت فيه قائلة:

- أنت رجلٌ قاسٍ!

فأجابها:

- أوه، لودا، لا أريدك أن تكوني فتيّةً وجميلةً، أريد أمراً واحداً: أن يكون لديك قلبٌ طيّبٌ، ليس فيما يتعلّقُ بالقطط والكلاب فحسب.

تذكرت الآن وهي تجلس على سطح المركب، ولأول مرّة تكرهُ

نفسها، ولا ترغب في إلقاء اللوم على الآخرين، تذكرت الكلمات المريرة التي كان عليها أن تستمع إليها في حياتها. . . ذات مرّة، قال زوجها، ضاحكاً، على الهاتف: «منذ أن أحضرنا قِطّاً إلى البيت، وأنا أسمَعُ صوت زوجتي اللطيف».

قالت لها والدتها ذات مرة: «لودا، كيف يمكنك طرد المتسولين؟ فكّري في الأمر: جائع يطلب منك، وأنت مُتخمة. . . ».

لكنها لم تكن بخيلة. أحبّت الضيوف، وكانت وجبات الغداءِ التي تقدِّمها مشهورة بين الأصدقاء.

لم يرها أحد تبكي وهي جالسة ليلاً على سطح المركب. فلتكن قاسية، فهي نسيت كل ما تعلمته، إنّها الآن غير صالحة لأيِّ أمر، ما عادت تعجبُ أحداً، فقد أصبحت سمينة، وشعرها حالَ إلى اللون الرمادي بسبب الشيب، وضغط دمها مرتفع، وزوجها لا يحبها، ولهذا يَظُنُّها بلا قلب. لكن لو أنَّ توليا ما زالَ على قيد الحياة! فإنّها مستعدة للاعتراف بكل شيء، والتوبة عن كل أمرٍ سيّئ ينسبه إليها أقرباؤها - لو كان على قيد الحياة فحسب!

لماذا تتذكر دائماً زوجَها الأول؟ أين هو، كيف يمكن العثور عليه؟ لماذا لم تكتب لأخته في روستوف، الآن لن تكتب بالتأكيد - الألمان هناك. لكانت أخته أخبرته عن توليا.

ضجيج محرّك المركب، واهتزاز سطح المركب، ورذاذ الماء، وتلألؤ النجوم في السماء - اختلط كل شيء واندمج، وغفت لودميلا نيقولايفنا.

اقتربَ وقت الفجر. وتمايل الضبابُ فوق نهر الفولغا، وبدا أن

جميع الكائنات الحيّة قد غرقت فيه. وفجأة ارتفعت الشمس - مثل انفجار الأمل! وانعكستِ السماء في الماء، وتنفَّست مياه الخريف المظلمة، وكأنّ الشمس كانت تصرخ على موجة النهر.

تملّح المنحدرُ الساحلي فجأة بسبب الصقيع الليلي، وبدت الأشجار الحمراء كما لو أنها تنظُرُ مرحة بشكل خاص، وسطَ قشرة الصقيع. هبّت الريح، واختفى الضباب، وأصبح العالم زجاجياً، وشفافاً تماماً، ولم يكن ثمَّة دفء سواء في الشمس الصافية أو في زرقة الماء والسماء.

كانت الأرض واسعة، وحتى الغابة التي فوقها لم تكن بلا حدود، كانت البداية والنهاية مرئيتين، والأرض استمرّت بالامتداد والاتساع.

وكذلك كان الحزن، واسعاً وأبديّاً مثل الأرض.

رأت أناساً من رؤساء المفوضيّات مسافرين إلى كويبيشيف في كابينات الدرجة الأولى، يرتدون معاطف ذات لون واقٍ، وقبعات مصنوعة من فرو أستراخان الرمادي. وفي كابينات الدرجة الثانية، كانت زوجات المسؤولين وحمواتهم، يرتدين حسب الرتبة الموافقة، وكأنّ ثمَّةَ زيّاً خاصاً بالزوجات والحموات وزوجات الأعمام. الزوجات - في معاطف فرو، وشالات بيضاء ناعمة، والحموات والأمهات - في معاطف صوف زرقاء مع ياقات من الفراء الأسود، وشالات بنية اللون. سافرَ معهم الأطفال بعيون غير سعيدة تشعرُ بالملل. كان يمكن من خلال نوافذ الكبائن، رؤية المواد الغذائية المنقولة مع هؤلاء الركاب - تمكنت عين لودميلا الخبيرة من تحديد محتويات الأكياس بسهولة؛ والمحافظ، والجرار المختومة،

والزجاجات الكبيرة الداكنة ذات الرقاب المغلقة المليئة بالعسل والسمن، تسبح إلى الأسفل في نهر الفولغا. لقد كان واضحاً من خلال مقاطع الأحاديث المنتشرة على سطح المركب لركاب الدرجة الأولى، أنّ ما يشغل اهتمامهم ويقلقهم هو قطار موسكو المنطلق من كويبيشيف.

بدا للودميلا أن النساء ينظرن بلا مبالاة إلى رجال الجيش الأحمر وملازميه الذين يجلسون في الممرات، وكأنَّهنَّ لم يكن لديهنَّ أبناء وإخوان في الحرب.

لم يقفنَ، عندما كانوا ينقلون الرسالة الصباحية «من مكتب المعلومات السوفييتي»، تحت مكبرات الصوت مع رجال الجيش الأحمر، والبحارة، بل حوّلنَ عيونهنَ الناعسة عنها شاقين طريقهن نحو أعمالهن.

علمت لودميلا من البحارة أن المركب بأكمله قد أُعطيَ لعائلات الموظفين المسؤولين العائدين إلى موسكو عبر كويبيشيف، وأن الفرق العسكرية والمدنيين قد صعدوا إليه في كازان بأمر من السلطات العسكرية. افتعل الركاب القانونيون فضيحة، ورفضوا السماح للعسكريين بالصعود، واتصلوا هاتفياً بمفوّض لجنة الدولة للدفاع.

كان هناك شيء غريب لا يمكن نقله في الوجوه المذنبة لجنود الجيش الأحمر، المسافرين إلى ضواحي ستالينغراد، والشاعرين بأنّهم ضيّقوا على المسافرين الشرعيين.

بدا للودميلا نيقولايفنا أنّ هذه العيون الأنثوية الهادئة لا تطاق. نادت الجدات أحفادهنّ، وتابعن أحاديثهنَّ، وبحركاتهنّ المعتادة، وهنّ يحشينّ البسكويت في أفواه أحفادهنّ. وعندما خرجت سيدة

عجوز حانية الظهر، ترتدي معطفاً من فرو من الحجرة التي أمامهن لتنزِّه حفيديها، انحنت النساء على عجل، وابتسمن، وظهر تعبير قلق ولطيف على وجوه رجال الدولة.

لو يعلنُ الراديو الآن عن افتتاح الجبهة الثانية، وأن الحصار المفروض على لينينغراد قد كسر، فلن تهتزّ أيٌّ منهنَّ، لكن لو أنَّ شخصاً ما أخبرهنَّ أن العربة الدولية قد تم إلغاؤها في قطار موسكو، لابتُلِعت أحداث الحرب كلّها، بالمشاعر الكبيرة للتذاكر المريحة والعادية المحجوزة.

مدهش! إنّ لودميلا نيقولايفنا بملابسها - معطف الفرو الرمادي، ووشاحها الريشيّ، تخطو بين ركاب الدرجة الأولى والثانية، وهي التي عانت منذ فترة قصيرة من مشاعر التذاكر الحماسيَّة، وغضبت لأنّهم لم يعطوا فيكتور تذكرة في العربة المريحة.

لقد حدّثت ملازم المدفعية، بأنّ ابنها ملازم مدفعية أيضاً، وهو مصاب بجروح خطيرة، ويرقد في مستشفى ساراتوف. تحدثت إلى عجوز مريضة عن ماروسا وعن فيرا، وعن حماتها المفقودة في الأراضي المحتلة. كان حزنها هو الحزن نفسه، الذي كان يزفر على سطح المركب هذا، الحزن الذي كان يجد طريقه دائماً من المستشفيات، ومن مقابر الجبهة إلى الأكواخ الريفية، إلى الثكنات غير المرقَّمة، الواقفة على الأرض القاحلة غير المسماة.

لم تأخذ معها وهي خارجة من البيت كوباً، ولم تأخذ خبزاً؛ هُيِّئَ لها أنّها لن تأكل ولن تشرب طوال الطريق.

لكن على متن القارب، شعرت لودميلا نيقولايفنا منذ الصباح بجوع شديد، وأدركت أنّها ستعاني جرّاء ذلك. وفي اليوم التالي اتفق

جنود الجيش الأحمر مع الوقّادين بغلي حساءٍ مع الدُّخن[1] في غرفة المحركات، نادوا لودميلا وسكبوا لها الحساء في قدر.

جلست لودميلا على صندوق فارغ، وتناولت الحساء الساخن، من قِدرِ شخصٍ آخر وبملعقة شخص آخر.

قال لها أحد الطهاة:

- حساء جيّد!

وبما أنّ لودميلا نيقولايفنا كانت صامتة، سألها بطريقة استفزازية:

- أليس كذلك؟ أليس مغذيّاً؟

وتحديداً في طلب المديح هذا بالذات، الموجّه إلى الشخص الذي أطعمه الجندي، بدت السذاجة بوضوح.

ساعدت لودميلا الجندي في إصلاح اللولب وإدخاله في الرشاش المعطل، الأمر الذي لم يستطع فعله حتى الرقيب الحاصل على وسام النجمة الحمراء.

استمعت لودميلا نيقولايفنا إلى جدال ملازمي المدفعية، وتناولت قلم الرصاص وساعدتهم في استخراج المعادلة المثلّثية.

فجأة بعد هذه الحادثة سألها الملازم الذي كان يناديها «بالمواطنة»، عن اسمها واسم عائلتها. وفي الليل تجوّلت لودميلا على سطح المركب.

---

(1) الدُّخن أو الجاوَرْس أو البشنة تسميات تطلق على حبوب بعض الأنواع النباتية من أجناس تنتمي إلى الفصيلة النجيلية هي الثمام، والثيوم، وذيل الثعلب، ويضم كل منها عدداً من الأنواع. ينتج حبوباً دقيقةً. (المترجمان).

تنفّس النهرُ برداً جليدياً، وهبّت من الظلام ريح مُنخفضةٌ قاسية. وكانت النجوم تضيء فوق رأسها، ولم يكن ثمَّة عزاء وراحة في هذه السماء القاسية، المكونة من النار والجليد، التي تقف فوق رأسها البائس.

27

تلقّى القبطان قبل وصول السفينة إلى العاصمة العسكرية المؤقتة أمراً بتمديد الرحلة إلى ساراتوف، لتحميل الجرحى من مستشفيات ساراتوف.

أخذ الركاب المسافرون في حُجُراتهم بالتحضير للنزول، وحملوا حقائبهم وحزمهم ووضعوها على ظهر المركب.

تراءت ظلالُ المصانع، والبيوت تحت الأسقف المعدنية، والبراكيّات، وبدا أن صوت المياه خلف مؤخّرة المركب أصبحَ مُختلفاً، وتغيَّرَ وأصبح مقلقاً أكثر من ذي قبل هديرُ محرّك المركب.

ثم أخذت كتلة سامارا تظهر ببطء، وأخذت تتلألأ بالألوان الرمادية، والحمراء، والسوداء، في تموّجات دخان المصانع ومحرّك المركب.

وقف الركاب الذين سينزلونَ في كويبيشيف، عند الجدار الجانبي للمركب.

نازلينَ إلى الشاطئ لم يودِّعوا أحداً، ولم يومئوا برؤوسهم للباقين على متن القارب - ولم يتعرّفوا في الطريق إلى أحد.

انتظرت العجوز في المعطف القصير وحفيديها الاثنين سيّارة

ز. ي. س. 101[1]. حيّا الشخصُ ذو الوجه الأصفر الذي يرتدي معطف جنرال السيّدة العجوز، وصافحَ الصبيين.

مرت بضع دقائق، واختفى الركاب مع الأطفال، والحقائب، والأكياس، تماماً وكأنّهم لم يكونوا هناك.

ولم يبق على متن السفينة سوى المعاطف والسترات المبطنة لجنود الجيش الأحمر.

اعتقدت لودميلا نيقولايفنا أنّه الآن سيكون من الأسهل والأفضل لها أن تتنفس بين الناس الذين يوحدهم المصير الواحد، والعمل، والحزن.

لكنها كانت مخطئة.

(1) سيارة رسمية سوفييتية، ذات سبعة مقاعد لها هيكل «ليموزين»، أُنتجت في مصنع ستالين (موسكو). (المترجمان).

28

استقبلت مدينة ساراتوف لودميلا نيقولايفنا بقساوة ووحشية.

ما إن نزلت على الرصيف حتى اصطدمت بأحد الأشخاصِ، في معطفٍ، وقد تعتعه السكر؛ دفعها عندما تعثّر وشتمها بكلمات قذرة.

أخذت لودميلا نيقولايفنا تتسلّق منحدراً مرصوفاً بالحصى، وتوقفت وهي تتنفّسُ بصعوبة، ونظرت حولها. المركب سار راسماً أثراً أبيضَ إلى الأسفل بين أرصفة عنابر المرفأ الرمادية، وكما لو أنَّهُ فهمها، أخذَ ينفخُ بشكلٍ مُتقطّع وبصوت خافت في البوق: «تابعي السير، تابعي». وتابعت سيرها.

شقّت عند الصعود إلى الترامواي (الحافلة الكهربائيّة) شاباتٌ بعناية الطريق للمسنين والضعفاء. كان ثمّةَ أعمى يرتدي قبّعة الجيش الأحمر، ويبدو أنّه خرج منذ فترة قريبة من المستشفى، ولم يعتد بعد السيرَ كأعمى، فاقد البصر، نقّل رجليه بخطوات صغيرة صعبة، وهو يطرق الأرضَ بالعصا بتقطّع أمامه. تمسّك بشغف طفولي بكمِّ امرأةٍ كهلةٍ. فخطت وهي تسحب يدها بعنف مطقطقةً بحذائها على الحصى، وكان يوضّح على عجل وهو ما يزال متمسّكاً بكمّها:

- ساعدوني على الصعود إلى الترامواي، فأنا خارج لتوّي من المستشفى.

شتمت المرأة، ودفعت الأعمى، ففقد توازنه وجلس على الرصيف.

نظرت لودميلا في وجه المرأة.

من أين يأتي هذا التعبير غير الإنساني، وما الذي ولّدَهُ - هل هي مجاعة عام 1921، التي عاشتها في طفولتها، أم وباء عام 1930؟ أم هي الحياة المليئة بالاحتياجات حتى الجمام؟

تجمّد الأعمى للحظة، ثم قفز وصاح بصوت طائر. ربما رأى نفسه بحدة لا تطاق بعينيه العمياوين في القبّعة التي انزلقت جانباً، وهو يلوّح سدى بعصاه.

ضرب الأعمى الهواء بعصاه، وعبَّرَ بتلكَ الموجات الدائرية عن كراهيته للعالم المُبصر، والذي لا يرحم. صعد الناس إلى الترامواي وهم يتزاحمون، بينما وقف جانباً يبكي ويصرخ. لكأنّ الناس الذين وحّدتهم لودميلا حبّاً وأملاً في أسرة العمل، والحاجةِ، والطيبةِ والحزنِ، اتفقوا على أن يتصرّفوا بطريقةٍ لاإنسانيّةٍ. لقد اتفقوا بدقة على دحض الرأي القائل، بأن الخير يمكن مباشرةً وبثقة أن يُرى في قلوب أولئك الذين يرتدون ملابسَ ملوّثة بالزيوت، والذين اسمرّت أياديهم في العمل.

شيءٌ ما غامضٌ ومؤلمٌ مسّ لودميلا نيقولايفنا، ولمسة واحدة منه ملأتها ببردِ وظلامِ آلاف الفراسخ من المساحات الروسيَّة الفقيرة، وملأتها شعوراً بالعجز في حياة التندرا[1].

---

(1) التندرا أو التيندرا في الجغرافيا الطبيعية هي نوع من الحيومات، حيث يمتنع نمو الأشجار بسبب درجات الحرارة المنخفضة جداً وقصر طول مدة النمو. هناك ثلاثة أنواع من التندرا: تندرا القطب الشمالي، تندرا

أعادت لودميلا طرح السؤال على قاطعة التذاكر، أين يجب أن تنزل من الترامواي، فأجابتها تلك بهدوء:

- لقد أعلنتُ عن المحطة، هل أنتِ صمَّاء؟

ولم يجبها الركابُ الواقفون في ممر الترامواي، عن سؤالها: هل سينزلونَ في المحطة التالية أم لا، وكأنّهم تحجّروا، ولم يرغبوا في إفساح المجال لها بالمرور.

درست لودميلا ذات مرّة في الصف «الأولي» التحضيري في مدرسة ساراتوف الثانويّة النسائية. جلست في صباح شتوي إلى المائدة، تُطوِّحُ بساقيها وتشرب الشاي، ووضعَ لها والدها، الذي كانت تحبّه حباً جمّاً، الزبدةَ فوق قطعة خبز دافئ... انعكس ضوء المصباح الكهربائي على عنقِ السماور، ولم تكن ترغب في الابتعاد عن يد والدها الدافئة، وعن الخبز الدافئ، وعن السماور الدافئ.

وبدا أنّه في تلك الفترة من الزمن، ما كانت ثمَّة رياح تشرين الثاني (نوفمبر) في هذه المدينة، ولا الجوع، ولا الانتحار، ولا أطفال يموتون في المستشفيات، بل كان في هذه المدينة الدفء، الدفء، الدفء وحده فحسب.

دُفنت هنا في المقبرة أختها الأكبر منها سونيا، التي ماتت بسبب الخانوق[1]- وقد سمّتها ألكساندرا فلاديميروفنا سونيا على شرف

المرتفعات، و تندرا القطب الجنوبي. في التندرا، يتكون الغطاء النباتي من شجيرات قصيرة، سعديات، نجيليات، حزازيات وأشنة، وقد تنمو بعض الأشجار المتفرقة في بعض مناطقها. (المترجمان).

(1) الخانوق (بالإنجليزية: croup) أو التهاب الحَنْجَرَةِ والرُّغامَة والقَصَبات. (المترجمان).

صوفيّا لفوفنا بيروفسكايا[1]. ويعتقد أن جدّها مدفون في المقبرة نفسها.

اقتربت من المبنى المدرسي ذي الطوابق الثلاثة، حيث كان المستشفى، الذي رقدَ فيه توليا.

ما من حارس عند الباب، واعتقدت أنّ هذا فأل حسن. شعرتْ بهواء المستشفى الكثيف واللزج، لدرجة أن الناس الذين عذّبهم الصقيع في الخارج لم يفرحوا بدفئه، بل أرادوا الخروج إلى الصقيع من جديد. مرّت بجوار غرف تبديل الثياب، فرأت ألواحَ ألعابٍ «للأولاد» و«البنات» بقيت هناك. سارت في الممر، فعبأت أنفها روائحُ المطبخ، تابعت سيرها وشاهدت من خلال نافذة تكاثف عليها البخار، صناديق مستطيلة - توابيت في الفناء، وفكرت من جديد، كما حصل لها في صالون شقتها مع الرسالة المختومة: «يا إلهي، لو أسقط الآن ميتة». لكنها تابعت سيرها بخطى طويلة، داست على سجادة ممر رمادية، ومرّت بجوار خزانات خشبية صغيرة عليها نباتات منزلية مألوفة، واقتربت من بابٍ، عُلّقت لوحة خشبية بجانبه، كتب عليها «السجلات».

أدارت لودميلا مقبض الباب، وضربَ النافذةَ ضوءُ الشمس، الذي اخترق الغيوم فتوهَّجّ كلّ شيء من حولها.

قال لها الكاتب المهذار، وهو يُقلّب الاستمارات في صندوق طويلٍ تُضيئهُ أشعة الشمس:

---

(1) صوفيّا لفوفنا بيروفسكايا (1853-1881) من مدينة بطرسبورغ. واحدة من قادة حزب «الإرادة الشعبية» الذي قاد عملية اغتيال القيصر الروسي ألكساندر الثاني. (المترجمان).

- حسناً - حسناً، يعني، شابوشنيكوف أ. ف... أناتولي ف... إذاً... لحسن حظّك لم تصادفي مسؤولنا الذي لم ينزع ثيابه، ويظلُّ في المعطف، لكان أعطى الحياة... حسناً - هكذا... حسناً، يعني شابوشنيكوف... نعم - نعم، هو نفسه، الملازم، صحيح.

نظرت لودميلا إلى الأصابع التي تسحب الاستمارة من الصندوق الخشبي الرقائقي الطويل، وهُيّئَ لها أنّها تقف أمام الربّ، وسيقول لها وفقَ إرادته الآن كلمة حياة أو كلمة موت، وها هو للحظة يتردّد، ولم يقرّر بعد، هل سيعيش ابنها أم أنّه سيموت.

29

وصلت لودميلا نيقولايفنا إلى ساراتوف بعد أسبوع من إجراء العملية الجراحية الثالثة لتوليا. أجرى العمليةَ الطبيبُ العسكري من الدرجة الثانية مايزيل. كانت العملية معقدة وطويلة، وظلَّ توليا تحت التخدير العام لأكثر من خمس ساعات، وكان لا بد من حقنه مرتين في الوريد. لم يقم أيٌّ من مراكز البحوث الجامعيّة والعسكريّة في المستشفيات بإجراء عمليّةٍ مماثلة في ساراتوف. عُرفت العملية من مصادر أدبية فحسب، فقد كتبَ الأمريكيون في المجلة الطبيّة العسكريّة لعام 1941 وصفها التفصيلي.

ونظراً للصعوبة الخاصّة والقصوى للعملية، فقد تحدث الدكتور مايزيل إلى الملازم بعد دراسة صورٍ دوريّةٍ بالأشعة السينيّة، لفترة طويلة وبصراحة. وأوضح للملازم طبيعة التغيّرات المرضية التي حدثت في جسده بعد إصابته البالغة. وفي الوقت نفسه، تحدث الجرّاح بصراحة عن المخاطر المرتبطة بالعمليّة. لقد قال إن الأطباء الذين شاورهم حول العملية، لم يُجمعوا على إجرائها - الطبيب القديم، البروفيسور روديونوف، كان ضد العملية. سأل الملازم شابوشنيكوف الدكتور مايزيل سؤالين أو ثلاثة وفوراً في غرفة الأشعة

السينيَّة، وبعد تفكير قصير، وافق على إجراء العمليّة الجراحيّة. استغرق التحضيرُ للعمليّة خمسة أيام.

بدأت العملية في الساعة الحادية عشرة صباحاً وانتهت فقط بعد الثالثة. حضرها مديرُ المستشفى الطبيب العسكري ديميتروك. وفقاً لتعليقات الأطباء الذين شاهدوا العملية، فقد تمت ببراعة.

حلّ مايزيل مباشرة، وهو واقف على طاولة العمليّات، الصعوبات غير المتوقعة، وغير المنصوص عليها في المراجع العلمية.

كانت حالة المريض أثناء العملية لا بأس بها، ونبضه جيّد، من دون انخفاضات.

شعر الدكتور مايزيل حوالي الساعة الثانية ظهراً بأنّه ليس على ما يرام، وهو شخص غير فتيّ يعاني من زيادة في الوزن، واضطرّ للتوقف عن العملِ لبضع ثوان. أعطته الدكتورة - الداخلية فاليدول[1]، وبعد ذلك لم يسترح مايزيل حتى نهاية العملية.

إلّا أنّ الدكتور مايزيل، و بعد وقت قصير من نهاية العملية، عندما نُقل الملازم شابوشنيكوف إلى غرفة العناية المشدّدة، تعرَّضَ لذبحة صدرية. وبعد حقنه بالكافور[2] مرّتين وإعطائه سائل

---

(1) فاليدول (بالإنجليزية: Menthyl isovalerate) هو دواء يُستعمل في علاج: قصور القلب. (المترجمان).

(2) الكافور (باللاتينية: Camphora) هو مادة شمعية بيضاء أو شفافة صلبة، ذات رائحة عطرية قوية. يستخدم الكافور في حالات مرضية عديدة، منها عدم توازن الجملة العصبية للقلب، وعدم انتظام وتناسق دقات القلب. (المترجمان).

النيتروغليسرين[1] فحسب، تخلّص في الليل من تشنج الأوعية الدموية. من الواضح أن سبب هذه النوبة هو الإثارة العصبية، والإرهاق الزائد الذي لا يطاق لقلب مريض.

كانت الممرضة تيرينتييفنا المناوبة بالقرب من شابوشنيكوف، تراقب حالة الملازم وفقاً للتعليمات. جاءت الدكتورة كليستوفا إلى غرفة العناية المشدّدة وفحصت نبض الملازم الذي كان يرقد منسيّاً. كانت حالُ شابوشنيكوف مقبولة، قالت الدكتورة كليستوفا للممرّضة تيرينتييفنا:

- أعطى مايزيل الملازم تذكرة إلى الحياة، وهو نفسه كاد يموت.

أجابت الممرضةُ تيرينتييفنا:

- أوه، لو أن هذا الملازمُ توليا ينجو فقط من هذه الحالة!

تنفس شابوشنيكوف بصوت غير مسموع تقريباً. كان وجهه لا يتحرّك، يداه النحيلتان وعنقه الهزيل بدت كما لو أنها لطفلٍ، وكانت على جلده الشاحب بقايا ظلّ لسُمرةٍ تكادُ لا تُلحظ، هي ما تبقّى جرّاء العمليات الميدانية وممرات السهوب. كانت حالُ شابوشنيكوف متوسطة بين اللاوعي والنوم - الغيبوبة الشديدة من التأثير الذي لا يمكن تجاوزه للتخدير واستنفاد قواه النفسيّة والجسديّة.

---

(1) نيتروغلسرين ويسمى أيضاً ثلاثي نترات الغليسرين، وهو دواء يستخدم في حالات قصور القلب، وارتفاع ضغط الدم، وفي علاج ومقاومة آلام الصدر الناجمة عن نقص التروية الدموية للقلب (الذبحة الصدرية) أو بسبب الكوكايين. وهذا يشمل آلام الصدر من النوبة القلبية. يتم أخذ الدواء عن طريق الفم، بوضعه تحت اللسان، أو عن طريق الجلد، أو الوريد. (المترجمان).

لفظ المريضُ في بعض الأحيان كلماتٍ منفصلةً، وأحياناً جملاً بأكملها. بدا لتيرينتييفنا أنّه قال على عجل: «جيّد، أنّكِ لم تري كيف كانت حالتي». رقد بعد ذلك بهدوء، وتدلّت زاويتا شفتيه، وبدا أنّه في غيبوبة، وبكى.

فتح المريض في حوالي الساعة الثامنة مساء عينيه بوضوح - دُهشت الممرّضة تيرينتييفنا - وطلب الماء. قالت تيرينتييفنا للمريض، بأنّ شرب الماء ممنوع عليه، وأضافت بأنّ العملية جرت بنجاح رائع، وأنّ المريض يتماثلُ للشفاء. سألته عن وضعه الصحّي، فأجابها إنّ هناك ألماً قليلاً في الخصر والظهر.

فحصت نبضه من جديد ومرّرت منشفة مبلّلة على شفتيه وجبهته.

دخل إلى العنبر في هذه الأثناء الممرض ميدفيديف وقال للممرضة تيرينتييفنا إنّ رئيس قسم الجراحة الطبيب العسكري بلاتونوف يطلبها إلى الهاتف. مرّت الممرضة تيرينتييفنا إلى غرفة المناوب على الطابق، وأخذت سماعة الهاتف، وأبلغت الطبيب العسكري بلاتونوف، بأنّ المريض استيقظ، وحالته اعتيادية بالنسبة لمريض خضع لعملية جراحية صعبة.

طلبت الممرضةُ تيرينتييفنا تبديلها - فمن الضروري أن تذهبَ إلى مفوضيّة المدينة العسكريّة فيما يتعلق بالالتباس الذي حصل عندما أعادت توجيه شهادة مالية مرسلة من زوجها إليها. وعد الضابط الطبي بلاتونوف أن يسمحَ لها بالذهاب، لكنه أمر حاليّاً بمراقبة شابوشينكوف حتى يفحصه بلاتونوف بنفسه.

عادت الممرضة تيرينتييفنا إلى العنبر. المريض كان يستلقي في الوضعية نفسها التي تركته فيها، لكن التعبير عن المعاناة لم يظهر

بشكل حاد على وجهه- زوايتا شفتيه ارتفعتا، وبدا وجهه هادئاً ومبتسماً. من الواضح أن التعبير المستمر عن المعاناة جعلَ وجه شابوشنيكوف يبدو أكبر سناً، أما الآن وهو مبتسم، فقد أدهشَ الممرضة تيرينتييفنا - الخدان النحيفان، والشفتان الشاحبتان الممتلئتان، والجبهة المرتفعة الخالية تماماً من التجاعيد، والتي لا تبدو أنها تعود إلى شخص بالغ، ولا حتى إلى شاب، بل هي جبهة طفل. سألته الممرضة تيرينتييفنا عن حالهِ الصحّية، لكنه لم يرد، يبدو أنه نائم.

ما أقلق الممرضة تيرينتييفنا قليلاً هو تعبير وجهه. أمسكت بيد الملازم شابوشنيكوف - النبض اختفى، واليد كانت أدفأ قليلا من حرارة ذلك الموقد والتي احتفظ بها حتى الصباح بعد فترة طويلة من إخماده.

بالرغم من أنّ الممرضة تيرينتييفنا عاشت طوال حياتها في المدينة، فقد ركعت على ركبتيها، وقالت على الطريقة الريفية بهدوء كي لا تزعج الأحياء:

- يا غالي، يا وردتنا، إلى أين رحلت وتركتنا؟

30

أصبح معروفاً في المستشفى خبر وصول والدة الملازم الراحل شابوشنيكوف. استقبلها مفوّضُ المستشفى، مفوّض الكتيبة شيمانسكي. شيمانسكي رجل جميل، تشهد لكنته على أصوله البولونيّة. كان عابساً وهو ينتظرُ لودميلا نيقولايفنا - بدا له أن انهمارَ دموعها وربّما دخولها في غيبوبة أمرٌ حتمي. لحس بلسانه شاربيه حديثي النمو، أسف على الملازم شابوشنيكوف، وأسف على والدته، ولذلك كان غاضباً عليهما - فإذا قام بترتيب استقبال لأمّ كل ملازم يتوفى، فمن أين له بالأعصاب اللازمة لذلك؟

قدّم شيمانسكي، بعد أن أجلس لودميلا نيقولايفنا، وقبل أن يبدأ الحديث، إبريقاً من الماء، فقالت له:

- شكراً لك، أنا لا أريد أن أشرب.

استمعت إلى حديثه عن الجلسة الاستشارية التي سبقت العملية (لم يرَ مفوّض الكتيبة أنّ ثمّةَ ضرورة لإخبارها بأنّ صوتاً واحداً كان ضد إجراء العملية)، وعن صعوبات العملية وأنها سارت على ما يرام؛ ويعتقد الجراحون أنّ هذه العملية يجب استخدامها عند الجراحات الخطرة، مثل تلك التي أُصيبَ بها الملازم شابوشنيكوف.

وقال إنّ الوفاة حصلت بسبب شلل في عضلة القلب، وكما هو مبيّن في تقرير الطبيب الشرعي، الطبيب العسكري من المرتبة الثالثة بولديريف، فإنّ توقّع هذه الإصابة وإقصاءها ليسا في قدرة الأطباء.

ثم تحدث مفوض الكتيبة عن مئات المرضى الذين يمرون عبر المستشفى، ولكن نادراً ما كان طاقم المستشفى يحب شخصاً مثلما أحبَّ الملازم شابوشنيكوف، وهو المريض الواعي والمثقف والخجول، الذي كان دائماً يخجلُ في طلب أي شيء، كي لا يزعج الطاقم الطبّي.

قال شيمانسكي إنّ الأم يجب أن تفخر، بأنها ربّت ابناً قدّم حياته بتفان وإخلاص من أجل الوطن.

ثم سألها شيمانسكي ما إذا كانت لديها أيّ طلبات من إدارة المستشفى.

اعتذرت لودميلا نيقولايفنا، لأخذها من وقت المفوّض، وأخرجت من حقيبتها ورقة وأخذت تقرأ طلباتها.

طلبت معرفةَ مكان دفن ابنها.

هزّ مفوّض الكتيبة رأسه ودوّن في دفتر ملاحظاته.

أرادت التحدّث إلى الدكتور مايزيل.

قال لها مفوّض الكتيبة إنّ الدكتور مايزيل يريد مقابلتها بعد معرفته بوصولها.

ثم طلبت مقابلة الممرضة تيرينتييفنا.

أومأ المفوّض برأسه ودوّن ذلك في دفتر ملاحظاته، وطلبت السماح باستلام حاجيات ابنها للذكرى.

دوّن المفوّض من جديد ذلك في دفتره.

ثم طلبت إعطاء الجرحى الهدايا التي أحضرتها لابنها، ووضعت على الطاولة علبتين من السمك المدخّن، وكيساً من الحلوى.

التقت عيناها بعيني المفوّض، فضيَّقَ عينيهِ لاإراديّاً أمامَ لمعان عينيها الزرقاوين الكبيرتين.

طلب شيمانسكي إلى لودميلا الحضور إلى المستشفى في اليوم التالي في الساعة التاسعة والنصف صباحاً، وسَتُلبّى طلباتُها.

نظر مفوّض الكتيبة إلى الباب المغلق ونظر إلى الهدايا التي قدمتها شابوشنيكوفا للجرحى، وتَحَسَّسَ نبضه على ذراعه، فلم يجد نبضاً، لوَّحَ بيده وأخذ يشربُ الماءَ الذي عرضه على لودميلا نيقولايفنا في بداية الجلسة.

31

بدا أنّه ما من دقيقة فراغ عند لودميلا نيقولايفنا. جالت ليلاً في الشوارع، وجلست على مقعد في حديقة المدينة، ودخلت إلى محطة القطار لتتدفّأ، ومشت مرّة أخرى في الشوارع بخطوات عمليّة سريعة.

نفّذ شيمانسكي كلّ ما طلبته.

استقبلت الممرّضة تيرينتييفنا في الساعة التاسعة والنصف لودميلا نيقولايفنا.

طلبت إليها لودميلا نيقولايفنا أن تخبرها بكلّ ما تعرفه عن توليا.

ارتدت المريلة البيضاء كما فعلت تيرينتييفنا، وصعدت معها إلى الطابق الثاني، ومشت على طول الممر الذي نقل عبره ابنها إلى غرفة العمليات، وقفت عند باب غرفة العناية المشدّدة الفردية، ونظرت إلى السرير الفارغ في ذلك الصباح. كانت الممرضة تيرينتييفنا تسير بجانبها وتمسح دائماً أنفها بمنديل ورقي. نزلتا من جديد إلى الطابق الأوّل، وودّعتها تيرينتييفنا. وسرعان ما وصل إلى غرفة الاستقبال، شخصٌ سمينٌ، أبيضُ الشعر له دوائر عاتمة تحت عينيه الداكنتين، يتنفّس بصعوبة. وبدت مريلةُ الجرّاح مايزيل المنشّاة المبهرة أكثر بياضاً مقارنة بوجهه الداكن، وعينيه الغامقتين المنتفختين.

أخبر مايزيل لودميلا نيقولايفنا، لماذا كان البروفيسور روديونوف ضد العملية. بدا، وكأنّه توقَّع كلّ ما ترغب لودميلا نيقولايفنا أن تسألَ عنه. أخبرها عن أحاديثه مع الملازم توليا قبل العملية. حدّثها وهو يدرك حالة لودميلا، بقسوة ومباشرة عن مجرى العملية.

ثم قال لها إنّ نوعاً من الحنان الأبوي كان يتملَّكه تجاه الملازم توليا، وجرّاء صوت الجرّاح الجهوري، اهتزّ الزجاج برقّة ورثاء. نظرت لودميلا لأوّل مرّة إلى يدي الجرّاح، كانتا مُميّزتين، وتعيشان منفصلتين عن الشخص ذي العينين الكئيبتين - القاسيتين، والثقيلتين، كانتا بأصابع غامقة قويّة وكبيرة.

سحب مايزيل يديه عن الطاولة، وقال وكأنّه قرأ فكرتها:

- بذلت قصارى جهدي، لكن ما حصل هو أنّ يديَّ قرّبتا موته، ولم تتغلّبا عليه - ثم وضع يديه من جديد على الطاولة.

لقد فهمت أنّ كل ما قاله مايزيل كان صحيحاً.

كانت كلّ كلمة من كلماته عن توليا، تلك التي رغبت بشغف أن تسمعها، تحرقها وتعذّبها. لكن كانَ في الحديثِ عبءٌ مرهق آخر - فقد شعرت أنّ الجرّاح أراد مقابلتها ليس من أجلها، بل من أجل هو نفسه. وهذا ما أثار فيها شعوراً سيئاً نحو مايزيل.

قالت للجرّاح وهي تودّعه إنّها واثقة من أنّه فعل كل ما بوسعه من أجل إنقاذ ابنها. تنفّس مايزيل بعمق، وشعرت بأنّ كلماتها أراحته، وأدركت من جديد، أنّه أراد مقابلتها، لشعوره بأن له الحق أن يسمع منها هذه الكلمات، وها هو قد قابلها.

وفكرت بعتب: «أيعقل أنّه يحتاج إلى تلقّي العزاء منها؟».

غادر الجرّاح، وذهبت لودميلا إلى مدير المبنى، الشخص في قبّعة الفرو. حيّاها، وأبلغها بصراحة، أن المفوّض أمره بأن ينقلها إلى مكان الدفن بسيّارة خفيفة، والسيّارة تأخرت لعشر دقائق، بسبب نقلها قائمة بأسماء المياومين المدنيين إلى مكتب البطاقات. وحاجيات الملازم تم توضيبها، وسيكون ملائماً أكثر أخذها بعد العودة من المقبرة.

لقد تم تنفيذ كل ما طلبته لودميلا نيقولايفنا بطريقة عسكرية، بشكل واضح ودقيق. لكن شعوراً خالجها فيما يتعلق بالمفوّض، والممرضة، ومدير المبنى، مفادهُ أنَّ هؤلاء الناس يريدون أيضاً الحصول على نوع من التهدئة والغفران والعزاء منها.

شعر المفوّض بذنبه في موت الناس في المستشفى. لم يقلقه ذلك قبل مجيء شابوشنيكوفا - فالمستشفى افتُتِحَ أثناء الحرب. ووضع الخدمة الطبّية لم يستدع التأنيب من قبل القيادة. لكنَّهم وبّخوه بسبب عدم كفايةِ تنظيم العمل السياسي، وبسبب المعلومات السيّئة حول أمزجة الجرحى.

فهو لم يناضل بما فيه الكفاية ضد عدم الثقة بالنصر لدى قسمٍ من الجرحى، ضد التوغّل المعادي وسط الجزء المتخلّف من الجرحى، ذوي المزاج المعادي لنظام المزارع التعاونية. وحدثت في المشفى حالاتُ كشفٍ لبعض الأسرار العسكرية من قبل الجرحى.

استُدعيَ شيمانسكي إلى القسم السياسي للإدارة الصحّية في المنطقة العسكرية ووعدوا بإرساله إلى الجبهة، إذا ما بَلَغتهم من القسم الخاص مرة أخرى معلوماتٌ عن مخالفاتٍ في أيديولوجيا المستشفى.

والآن شعر المفوّض بالذنب أمام والدة الملازم المتوفى، بسبب وفاة ثلاثة مرضى يوم أمس، في حين استحمّ هو يوم أمس، وطلب من الطبّاخ أن يحضّر له وجبته المفضّلة البيغوس[1] من مخلل الملفوف المطبوخ، وشرب سطلاً من البيرة، حصل عليه من قسم التجارة في مدينة ساراتوف.

وكانت الممرضة تيرينتييفنا مذنبة أمام والدة الملازم المتوفى، في أن زوجها، وهو مهندس عسكري، خدم في أركان الجيش ولم يكن في الجبهة، وكان ابنها الذي هو أكبر من شابوشنيكوف بسنة، يعمل في مكتب التصميم داخلَ مصنع للطائرات. وأدركَ مديرُ المبنى ذنبه - هو عسكري محترف، خدم في مستشفى خلفي، وأرسل إلى المنزل قماشَ غبردين الجيّد، وحذاءً من اللبّاد، أمّا من الشهيد الملازم فقد بقي للأم الزيُّ العسكريُّ الورقيُّ فحسب.

وشعر المسؤولُ عن دفن المرضى الموتى، الرجلُ ذو الشفتين الغليظتين والأذنين اللحميتين الممتلئتين، بالذنب أمام المرأة التي ذهب معها إلى المقبرة. فقد صُنعت التوابيتُ من ألواحٍ رقيقة غير صالحة، وسُجِّيَ الموتى في التوابيت بثيابهم الداخلية، والجنود متلاصقين، في مقابر جماعية، وكانتِ كتابةُ أسمائهم بخطٍّ غير جميل، وعلى لوحاتٍ غير مألوفة، وبألوانٍ غير ثابتة. صحيحٌ أن الموتى في المشافي الميدانية في الفرق العسكرية، دُفنوا في حفر من دون توابيت، وكانت اللوحات مكتوبةً بقلم الحبر، يختفي ما عليها

---

(1) بيغوس: (Бигос)- وجبة رئيسية في بولونيا وليتوانية وأوكرانيا، مصنوعة من مخلّل الملفوف المطبوخ مع اللحمة. (المترجمان).

عند أوّل هطول للمطر. وأولئك الذين ماتوا في المعركة، وفي الغابات، والمستنقعات، وفي الوديان، وفي الحقول المفتوحة، - ما وجدوا من يدفنهم، فدفنهم الرمل، وأوراق الشجر الجافة، والعواصف الثلجية.

لكنَّ مسؤول المبنى شعر مع ذلك بالذنب بسبب سوء نوعية الأخشاب أمام المرأة التي جلست بجانبه في السيارة وسألته كيف يُدفَنُ الموتى، وما إذا كانوا يدفنون سويّة، وما هي الثياب التي يلبسونها للجثامين، وهل كانوا يقولون كلمات أخيرة على قبورهم؟؟

وكان الأمر غير مريح له أيضاً لأنه قبل الرحلة ركض إلى صديقه في المخزن وشرب زجاجةً من الكحول الطبي المخفف، وأكل قطعةَ خبزٍ مع البصل. كان خجلاً أنَّ رائحة الكحول مع مزيج من الشوائب تفوح في السيارة من أنفاسه، ولكن بغض النظر عن خجله، فإنَّهُ لم يستطع أن يمتنع عن التنفس.

نظرَ عابساً في المرآة المعلّقة أمام سائق السيارة - وفي هذه المرآة ذات الزوايا الأربع انعكست للمسؤول عن دفن الموتى عينا السائق الساخرة الممتعضة.

قالت عينا السائق الفتيّة المرحة من دون رحمة: «إذاً فقد شرب المسؤول حتى الثمالة».

الناسُ جميعاً مذنبون أمام الأم التي فقدت ابنها في الحرب، وعبثاً يحاولون تبرئة أنفسهم أمامها مدى تاريخ البشرية.

32

أفرغَ جنود الكتيبة العمالية الشاحنةَ من التوابيت. في عملهم الهادئ الصامت تجلَّت مهارتهم العمليّة المعتادة. يدفعُ أحدهم، وقد وقفَ في الجزء الخلفي من الشاحنة، التابوتَ إلى الحافة، فيحملهُ آخر على كتفه ويسحبه في الهواء، حينها يقترب ثالث بصمت ويأخذ الحافة الثانية من التابوت على كتفه. ثم يحملان التابوت وهما يصرّان بأحذيتهما على الأرض المتجمّدة إلى مقبرة جماعية واسعة، ويضعان التابوت على حافة الحفرة، ثم يعودان إلى الشاحنة. عندما غادرت الشاحنة الفارغة إلى المدينة، جلس المقاتلون على التوابيت التي كانت تتوضّع بالقرب من القبر، وأخذوا يلفّون السجائر بكمية كبيرة من الورق وكمية صغيرة من التبغ.

قال أحدهم:

- يبدو أنَّ اليومَ أقلُّ عملاً.

ثم أخذ يشحذ النار من حجر صوان متماسك جيّداً - الفتيل كانَ على شكل سلك له غلاف نحاسي، ووضع حجر القَّداحة ضمن إطار. نقر الجندي الفتيل، وتصاعد الدخان في الهواء.

قال الثاني:

- قال الرقيب: لن يكون هناك أكثر من شاحنة.

وأشعل سيجارة وسحب نفساً ونفخ دخاناً كثيفاً.

- عندها إذاً ننظِّم المقبرة.

قال الثالث الذي لم يدخّن:

- واضح، تصبحُ مباشرةً مُريحةً أكثر، وسيحضر القائمة ويفحصها.

وأخرج من جيبه قطعة خبز، نفضها، ونفخ عليها قليلاً وأخذ يمضغها.

- قل للمسؤول أن يعطينا مُخلاً، لأنّ ربع الأرض تجمّد تقريباً، علينا أنّ نُحضّر مقبرة جديدة غداً، هل بإمكاننا حفر الأرض بالمعول؟

ضرب ذلك الجندي الذي أشعل النار، راحتَي كفيه ببعضهما بشكلٍ مدوٍّ، وأخرج من المبسم الخشبي عقب السيجارة، وطرقه بخفّة على سقف التابوت.

صمت الثلاثة، وكأنّهم ينصتونَ إلى صوتٍ ما. هدوء خيَّمَ من حولهم.

سأل الجندي الذي مضغ الخبز، وخفّض صوته كي لا يزعج الموتى بحديث لا يثير اهتمامهم:

- هل صحيح أنّهم سيقدمون للكتيبة العمّالية وجبة جافة على الغداء؟

نفخ المدخن الثاني، وأخرج عقب السيجارة من مبسم طويل من القصب المُدخّن، ونظر من خلاله إلى النور، وهزّ رأسه.

عمّ الهدوء من جديد...

- يوم لا بأس به، لولا هذه الريح فقط.

- اسمع، وصلت الشاحنة، سننجز العمل ربما قبل الغداء.

- لا ، هذه ليست شاحنتنا ، إنّها سيّارة صغيرة.

خرج مسؤول مألوف لهم من السيارة، وتبعته امرأة في وشاح، وتوجّها نحو السياج الحديدي، حيث كانوا يدفنون القتلى الأسبوع الماضي، وتوقفوا عن ذلك بسبب نقص المساحة.

- إنّهما يخفيان القوّة، لا أحد يرافقهما - قال أحدهم - هنا في وقت السلم، تعرف كيف تكون الحال، تابوت واحد، وخلفه ربما مئة شخص يحملون الزهور.

قال الجندي ذو الأظافر السميكة البيضاويّة، الذي صقله العمل:

- ويبكون أيضاً. لكننا لا نرى هذه الدموع. . . انظر، المسؤول وحده يلف ويدور.

أخذوا يدخنون من جديد، الثلاثة معاً في هذه المرة.

اقترب المسؤول منهم، وقال بلطف:

- كلّنا ندخن، يا شباب، ومن سيعمل عوضاً عنّا؟

قذفوا بصمت ثلاث غيمات دخانيّة، ثم أحدهم، صاحب حجر القداحة:

- إنّك تُدخّن هنا، ثم تسمع، الشاحنة تقترب. أنا أعرفها من صوت محرّكها.

33

صعدت لودميلا نيقولايفنا إلى تلّة القبر وقرأت اسم ابنها ورتبته العسكرية على لوح من الخشب الرقائقي.

أحسَّت بوضوح أن شعرها بدأ يتحرك تحت منديلها، وأصابع شخص ما باردة تمرّ من خلاله.

كانت الهضبات الرمادية نفسها تنتشر بشكل واسع، في الجوار، إلى اليمين وإلى اليسار، وصولاً إلى السياج، بلا عشب، ومن دون أزهار، تخرجُ من كلٍّ منها ساقٌ خشبية مستقيمة فقط، تُطلَقُ من أرض المقبرة. وفي نهاية هذه الساق لوح خشب رقائقي كتب عليه اسم الشخص. كان هناك الكثير من الألواح الخشبية الرقائقيّة، وكان تشابهها وكثافتها يذكِّران بالنظام الذي تظهر فيه بسخاء سوقُ نباتات الحبوب...

وها هي قد وجدت توليا أخيراً. كم حاولت في كثيرٍ من الأحيان تخمين مكانه، وماذا كان يفعل وبماذا كان يفكر - وهل يغفو صغيرها، مُستنداً إلى جدار الخندق، وهل يمشي على الطريق، ويحتسي الشاي، يحمل الكأس في يد، وقطعة السكر في يد أخرى، وهل يركض في الحقل تحت وابل الرصاص... لقد أرادت أن

تكون قريبة منه، وقد كان بحاجة إليها، لكانت سكبت له الشاي في الكأس، وقالت له «كُل المزيد من الخبز»، ولكانت نزعت حذاءَه وغسلت له قدميه المتورمتين، ولفّت وشاحاً حول عنقه. . . وكان في كلّ مرّة يختفي، فلا تستطع أن تجده. ثمَّ ها هي تجد توليا، لكنَّهُ لم يعد بحاجة إليها.

كانت ثمَّة مقابر أخرى أبعد، عليها صلبانٌ من الغرانيت من فترة ما قبل الثورة. وقفت شواهدُ القبور كحشدٍ من كبار السن، لا أحد يحتاج إليهم، ولا يبالي بهم أحد - بعضهم سقطوا على جنبهم، وانحنى بعضهم الآخر بلا حول ولا قوّة، على جذوع الأشجار.

بدا، وكأنّ السماء أصبحت خانقة، وكأنّ الهواء قد ضُخَّ منها، ووقف فوق الرأس فراغ مليء بالغبار. والمضخة الصامتة العظيمة التي أخلت الهواء من السماء، كانت تعمل وتعمل، ولم تعد هناك سماء فحسب بالنسبة للودميلا، بل أيضاً لا إيمان ولا أمل - بقيت فقط تلة صغيرة من الأرض في كتلة رمادية ضخمة خالية من الهواء.

كلّ ما هو حي - الأم، وناديا، وعينا فيكتور، والتقارير العسكرية؛ لم يعدْ موجوداً.

لقد أصبح الحيّ ميّتاً. كان توليا الحيّ الوحيد فقط في العالم كلّه. لكن حلّ نوع من الهدوء في كلّ مكان. أيعلم هو بأنّها وصلت. . .

ركعت لودميلا على ركبتيها بخفّة، كي لا تسبب قلقاً لابنها، ورتّبت اللوحة التي تحمل اسمه، لقد كان يغضب دائماً، عندما تُرتّب له ياقة السترة، وهي تودّعه عند ذهابه إلى المدرسة.

- ها أنا قد أتيت، أكنتَ تفكِّرُ جاداً أنّ ماما لن تأتي. . .؟

قالت ذلك بصوت منخفض، خوفَ أن يسمعها الناس خلف سور المقبرة.

مرّت الشاحنات مسرعة على الطريق السريع، ودَوَّمت ريحٌ ثلجيةٌ بلون الغرانيت الداكن، ودخّنت على الإسفلت وتلوَّت، وتموّجت... وكان الجنود يسيرون، يصرّون بأحذيتهم، وبائعات الحليب يحملن البيدونات، وأناس يحملون أكياساً، وتلاميذ المدارس في سترات مبطنة وقبعات شتوية يركضون.

لكن اليوم المليء بالحركة بدا ضبابيَّ الصورة.

يا لهذا الهدوء.

تحدثت إلى ابنها، وتذكَّرت تفاصيل حياته السابقة، وهذه الذكريات، التي كانت موجودة في ذهنها فقط، ملأت الفراغ بصوتِ طفل، وبدموعِه، وحفيف الكتب المصوَّرة، وطقطقةِ الملعقةِ على حافة الصحن الأبيض، وأزيزِ أجهزة الراديو يدوية الصنع، وصريرِ الزحافات الثلجية، وصريرِ مجاذيف القارب في المستنقعات الريفية، وخشخشةِ أوراق الحلوى، وظهوراتِ وجهه الصبياني والكتفين والصدر.

إنّ دموعه، وحزنه، وأفعاله الجيّدة والسيّئة، التي أحياها يأسها، كانت موجودة، وجليّة وملموسة.

استولت عليها ليسَ الذكريات عن الراحل، بل اضطرابات الحياة الواقعية.

لماذا تقرأ طوال الليل على هذا الضوء الرهيب، ما هذا، تبدأ بارتداء النظارات في سني الشباب هذه..

ها هو يرقد في قميص قطني خشن خفيف، حافي القدمين، كيف لم يعطوه بطانية، الأرض جليدية تماماً، وفي الليالي صقيع قارس.

تدفّق الدم فجأة من أنف لودميلا. وأصبح الشالُ ثقيلاً، فقد ابتلّ تماماً. بدأ رأسها في الدوران، وداخت عيناها، وبدا في لحظة قصيرة أنّها تفقد الوعي. أغلقت عينيها، وعندما فتحتهما، كان قد اختفى العالم الذي أحيته معاناتها، كان يدور في المدافن فحسب الغبارُ الرمادي الذي التقطه الريح: وبدأت يتصاعدُ الدخان أحياناً من هذه المقبرة، وأحياناً تلك.

هرب الماء الحي الذي تدفّق فوق الجليد وحمل توليا من الظلام، واختفى، والعالم الذي أراد للحظة، وهو يكسر الأغلال، أن يصبح الواقع - العالم الذي أوجده يأس الأم، عاد إلى الوراء. لقد رفع يأسُها، كما يفعلُ الربُّ، الملازمَ من القبر، وملأ الفراغ بنجوم جديدة.

في تلك الدقائق الماضية، كان يعيش بمفرده في هذا العالم، وبفضله كان كل شيء آخر.

لكن قوة الأم العظيمة لم تثبِّت حشود الناس الضخمة، والبحار، والطرق، والأرض، والمدن تحت سيطرتها أمام توليا الميّت.

رفعت المنديل إلى عينيها، عيناها كانتا جافتين، وكان منديلها مبتلاً بالدم. شعرت أن وجهها تلطّخ بالدماء اللزجة، جلست، وتراجعت، واستكانت، وقامت بغير إرادتها بحركات أولى صغيرة نحو إدراك أنّ توليا لم يعد على قيد الحياة.

دُهش الناس في المستشفى بهدوئها، وأسئلتها. لم يفهموا أنها

لا تستطيع أن تشعر بما هو واضح لهم - عدم وجود توليا بين الأحياء. كان شعورها تجاه ابنها قوياً لدرجة أن القوة التي انتهت لم تستطع فعل أي شيء بهذا الشعور - فهو قد استمر على قيد الحياة.

كانت مجنونة، لم ير ذلك أحد. وأخيراً وجدت توليا. وهكذا القطة، تفرح عندما تجد قطها الصغير الميّت، وتلعقه بلسانها.

تعاني الروح من عذاب طويل، حتى تنصب تلّةَ قبرِها ببطء، وحجراً على حجر، لأعوام، وأحياناً لعشرات الأعوام، وتصل بنفسها إلى الشعور بالخسارة الأبدية، وتستسلم أمام قوّة ما حصل.

غادر جنود الكتيبة العمالية، بعد أن انتهوا من العمل، كانت الشمس على وشك المغادرة، وامتدت ظلال لوحات الخشب الرقائقي للقبور. وبقيت لودميلا وحدها.

فكرت أنه ينبغي إعلام الأقارب عن وفاة توليا، الأب في معسكر الاعتقال. لا بدّ من إخبار والده. والده الحقيقي. فيمَ كان يفكر قبل العملية؟ وكيف أطعموه، بملعقة؟ هل كان ينام قليلاً، على جنبه، على ظهره؟ هو يحب الماء بالليمون والسكر. كيف هو الآن، هل رأسه محلوق الشعر؟

لا بدَّ وبسبب وجع الروح الذي لا يطاق، أن يكون قد أصبح كلّ ما حولها قاتماً أكثر فأكثر.

لقد أدهشتها فكرة أبدية مصيبتها - سيموت فيكتور، ويموت أحفاد ابنتها، وستستمر في الحزن.

وعندما أصبح شعور الكرب لا يطاق إلى درجة أن القلب لا يستطيع تحمّله، اختفى من جديد الخط الفاصل بين الواقع والعالم الذي عاش في روح لودميلا، وتراجعت الأبدية أمام حبّها.

فكرت، لماذا عليها إبلاغ والده الحقيقي فيكتور، وجميع أقاربه، فما من أحد يعرف بعد عن وفاة توليا. من الأفضل الانتظار، ربما، سيكون كل شيء بطريقة أخرى تماماً.

همست قائلة:

- أنت لا تخبر أحداً، ما من أمرٍ معروف بعد، كل شيء سيكون على ما يرام.

غطت لودميلا بمعطفها رِجلَي توليا. نزعت المنديل عن رأسها وغطت كتفي ابنها.

- يا ربّ، لا يمكن أن يكون الأمر هكذا، لماذا لم يعطوني بطانية. كان يمكن تغطية رجليه بشكل أفضل.

نسيت نفسها، واستمرت في الحديث إلى ابنها وهي نصف نائمة، وعاتبتهُ لأنّ رسائله كانت قصيرة جداً. استيقظت، ورتّبت فوقه شالها، الذي ألقت به الريح جانباً.

كم من الجيد أنهما معاً، لا أحد يزعجهما. لم يحبّه أحد. قال الجميع إنه كان غير جميلٍ - لديه شفتان سميكتان منتفختان، يتصرف بغرابة، سريع الغضب بلا مبرّر، وشديد الحساسية. وهي لم يحبها أحد، فقد رأى أقاربها جميعاً عيوبها فقط... ابني المسكين، الخجول، الأخرق، ابني الجيّد... وحده أحبّها، والآن، في الليل، وفي المقبرة، هو وحده معها، ولن يتركها أبداً، وعندما تصبحُ عجوزاً لا يحتاج إليها أحد، سيحبها... كم هو غير متكيّف مع الحياة. لم يطلب شيئاً أبداً، خجول، مضحك. تقول المعلمة إنه في المدرسة أصبح مضحكاً - إنهم يضايقونه، ويخرجونه عن طوره، وكان يبكي كالطفل. توليا، توليا لا تتركني وحدي.

ثمَّ جاء النهارُ - أحمرَ، صقيعياً توهّجَ كاللهبِ فوق سهوب منطقة الفولغا. مرّت شاحنة هادرة على الطريق السريع.

عادت إلى رشدها. جلست بجانب قبر ابنها. جسدُ توليا تحت التراب. هو غير موجود.

رأت أصابعَها القذرة، والمنديلَ ملقىً على الأرض، كانت ساقاها مخدرتين، شعرت أن وجهها كان قذراً. وحنجرتها مبحوحة.

ما من شيءٍ يعنيها الآن. ولو أنَّ أحداً أخبرها بأن الحرب قد انتهت، وأن ابنتها ماتت، ووجِدَ إلى جانبها كوب من الحليب الساخن، وقطعة من الخبز الدافئ، فإنّها لن تتحرك، ولن تمد يديها. جلست من دون قلق ومن دون أفكار. سيّان عندها كل شيء، وغير ضروريٍّ. هي الآن تُعادلُ العذاب؛ تضغط على القلب وتضغط على صدغيها. أشخاصٌ من المستشفى، وطبيب يرتدي رداءً أبيض. . . يقولون كلاماً ما عن توليا، رأت أفواههم التي تنفتح، لكنها لم تسمع كلماتهم. استلقت على الأرض، رسالة سقطت من جيب معطفها، إنها تلكَ التي تلقّتها من المستشفى، لم تكن ترغب في رفعها، وإزالة الغبار عنها. لم تكن هناك أي فكرة عن كيف أن توليا البالغ من العمر عامين، يتمايل مُعوجَّ الساقين، ويتبَعُ بصبر ومثابرة جندباً يقفزُ من مكان إلى آخر، وأنها لم تسأل الممرضّة كيف كان مستلقياً في الصباح، قبل العملية، في اليوم الأخير من حياته - على جنبه، على ظهره. رأت نور النهار، ما كان باستطاعتها ألّا تراه.

تذكرت فجأة: أكمل توليا الثالثةَ من عمره، وفي المساء شربوا الشاي مع الكاتو الحلو، وتساءل: «أمي، لماذا حلَّ الظلام، فاليوم هو عيد ميلاد؟».

ورأت أغصان أشجارٍ، وحجرَ مقبرة مصقولاً يتلألأ تحت أشعة الشمس، ولوحةً تحمل اسم الابن شابوشنيكوف - كُتب «شابوشن» بأحرف كبيرة، والأحرف الباقية «يكوف» صغيرة أُلصقت لَصقاً. لم تفكر ولم يكن لديها إرادة. ما كان لديها شيء.

نهضت، التقطت الرسالة، وتخلصت من كتل التراب عن معطفها بيديها القاسيتين، ونظّفته، ومسحت حذاءها، ونفَّضت منديلها لفترة طويلة حتى تحوّل إلى اللون الأبيض مرة أخرى. وضعته على رأسها، وأزالت الغبار عن حاجبيها بطرفه، مسحت شفتيها وذقنها من بقع الدم. اتجهت نحو البوابة، لم تنظر حولها، وسارت على رِسلها لا عجولةً ولا مُتمهِّلة.

34

بدأت لودميلا نيقولايفنا بعد عودتها من كازان تهزل، وأخذت تشبه صورها في مرحلة الفتوة أعوامَ الدراسة. حصلت على المواد الغذائية من الموزّع وأعدت طعام الغداء، وأشعلت الموقد، وغسلت الثياب، وأرض الشقة. بدت لها أيامُ الخريف طويلةً جداً، وما من شيء يملأ فراغها.

حدّثت أقرباءَها في يوم وصولها من ساراتوف عن رحلتها، وعن تفكيرها في ذنبها أمامهم، وأخبرتهم عن وصولها إلى المستشفى، وفتحت الكيس الذي يحتوي على الشقف الممزّقة من ثياب ابنها المدمّاة. تنفسّت ألكساندرا فلاديميروفنا بصعوبة أثناء حديثها، وبكت ناديا، وأخذت يدا فيكتور بافلوفيتش ترتجفان، ولم يستطع تناول كأس الشاي عن الطاولة. وشحب وجه ماريا إيفانوفنا التي هرعت لزيارتها، وكان فمها نصف مفتوح، وظهرت على عينيها تعابير العذاب. لودميلا وحدها كانت هادئة، تنظر بعينين زرقاوين واسعتين مفتوحتين ومشرقتين.

لم تجادل أحداً الآن، فهي طوال حياتها كانت مجادلة جداً؛ فما إن يقول أحدهم، كيف يمكن الوصول إلى محطة القطارات، حتى

تبدأ لودميلا غاضبة متوترة بإثبات أن الذهاب ليس من هذا الشارع على الإطلاق، والوصول إلى المحطةِ ليسَ بواسطة تلك الحافلات الكهربائية.

سألها فيكتور ذات مرّة:

- لودميلا، إلى من تتحدثين في الليالي؟

قالت:

- لا أعرف، ربّما تراءى لي شيءٌ ما.

لم يعد يسألها أكثر، لكنّه حدّث ألكساندرا فلاديميروفا، بأنّ لودميلا تفتح الحقيبة كلّ ليلة تقريباً، وتفرش بطانية على الأريكة، الموجودة في الزاوية، وتتحدّث منهمكة، بوضوح وبصوت منخفض.

ثم قال:

- لديّ هذا الإحساس، إنّها نهاراً معي، ومع ناديا، ومعكم وكأنّها في الحلم، أمّا ليلاً فصوتها حيويّ، إنّهُ الصوت نفسه الذي كان لها ما قبل الحرب. أعتقد أنّها مريضة، وتصبح إنساناً آخر.

قالت ألكساندرا فلاديميروفنا:

- لا أدري. إنّنا جميعاً نعاني من المصيبة. الجميع بالتساوي وكلّ واحد على طريقته.

قطع حديثهما قرع الباب. نهض فيكتور بافلوفيتش. لكن لودميلا نيقولايفنا صاحت من المطبخ قائلة:

- أنا سأفتح.

كان السبب غير مفهوم، لكن لاحظ أهل البيت، أنّ لودميلا نيقولايفنا، وبعد عودتها من ساراتوف كانت تتفحّص عدة مرات في اليوم - ما إذا كان ثمّة رسائل في صندوق البريد.

وعندما يطرق أحدهم الباب، تندفع بسرعة نحو ذلكَ الباب.

والآن، عندما سمعَ فيكتور بافلوفيتش وألكساندرا فلاديميروفنا خطواتها المسرعة، وكأنّها تركض، راقباها.

تناهى إليهما صوت لودميلا نيقولايفنا المرتجف يقول:

- لا يوجد، لا يوجد أيّ شيء اليوم، ولا تكثر من مجيئك، لقد أعطيتك منذ يومين نصف كيلوغرام من الخبز.

35

استُدعيَ الملازمُ الأولُ فيكتوروف إلى المقرّ من قبل الرائد زكابلوك، قائد فوج الطيران المقاتل في الاحتياط. وقال الضابط المناوب في المقر، الملازم الأوّل فيليكانوف إن الرائد قد طار على متن طائرة يو -2 إلى مقر الجيش الجوي، في منطقة كالينين، وسيعود في المساء. ورداً على سؤال فيكتوروف حول ماهيّة استدعائه، قال فيليكانوف غمزاً: ربما كان الأمر متعلقاً بالسكر والفضيحة في المطعم.

نظر فيكتوروف خلف الستارة المصنوعة من قماش الخيمة الواقي من المطر والتي ثُبتت عليها بطانية قطنية - إلى المكان الذي كان يتناهى منهُ صوت ضرب الآلة الكاتبة، فقال رئيس الديوان فولونونسكي، عندما رأى فيكتوروف، مستبقاً السؤال:

- لا توجد، أيها الرفيق الملازم الأوّل، لا توجد رسائل.

نظرت ضاربة الآلة الكاتبة، الموظفة المدنيَّة لينوتشكا إلى الملازم الأوّل، ثمَّ إلى المرآة المغتَنمة من طائرة ألمانية تمّ إسقاطها، وهي هدية الطيار ديميديدوف الذي استشهد، ورتّبت وضعَ القبّعة، ونقلت المسطرة الموضوعة على البيانات التي تعيد طباعتها، ثم تابعتِ الضربَ من جديد على لوحة مفاتيح الآلة الكاتبة.

لقد أثار هذا الملازم الأول ذو الوجه الطويل، الذي كان يسأل رئيس الديوان السؤال المحبط نفسه، الكآبَةَ في نفسِ لينوتشكا.

استدار فيكتوروف وهو عائدٌ إلى المطار، باتجاه طرف الغابة.

لقد انقضى شهر على خروج الفوج من المعارك، وقد تزوّد بالعتاد، واستقبل طواقم الطيران الجدد بدل الخارجين من الخدمة.

بدت لفيكتوروف، هذه المنطقة الشمالية المجهولة، قبل شهر غير عاديّة. وأقلقه ليلاً ونهاراً: حياة الغابة، والنهر الصغير، الذي يتدفّق بثبات وسط التلال شديدة الانحدار، ورائحة العفن، والفطر، وطنين الأشجار.

بدا أن الروائح الأرضية كانت تصل إلى قمرة قيادة الطائرة المقاتلة خلال الطلعات الجوية. تتنفس هذه الغابة، والبحيراتُ حياةَ روسيا القديمة، التي قرأ عنها فيكتوروف قبل الحرب. ارتسمت هنا، بين البحيرات والغابات، الطرقُ القديمة، وبُنيت من جذوع هذه الغابة المستقيمة المنازلُ، والكنائس، وصُقلت صواري السفن.

لقد خيَّمَ القِدَم وهدأ وصمت منذ ذلك الزمن، عندما كان الذئب الرمادي يعدو والغزالة الصغيرة تبكي على الضفة، التي يسير عليها فيكتوروف الآن إلى المطعم الحربي المأجور. بدا له أن ذلك الماضي القديم كان نوعاً ما ساذجاً وبسيطاً وفتيّاً - وليس فقط الفتيات اللواتي عشن في القصور، بل أيضاً التجار ذوو اللحى الشائبة، والشمامسة والبطاركة، الأصغر سناً بألف سنة من الشباب الحكماء الدنيويين - الطيارين من عالم الآلات السريعة والأسلحة الآلية ومحركات الديزل والسينما والإذاعة، التي جاءت إلى هذه الغابات مع فوج الرائد زكابلوك للطيران. كان علامةَ ذلك الشباب

القديم نهرُ الفولغا، السريعُ النحيفُ، في ضفاف شديدة الانحدار، وفي خضرة الغابة، وفي زخرفات اللون الأزرق والأحمر. . .

كم هو عدد الملازمين والعرفاء، قل ببساطة الرجال الذين لا يحملون ألقاباً، والذين يسيرون على الطريق العسكري. إنهم يدخنون عدد السجائر المقرر لهم، ويطرقون بملعقة بيضاء على القصعات، ويلعبون في العربة لعبة الرمي، ويأكلون البوظة المثبَّتةَ على الأعواد في المدينة، ويشربون الحصة الصغيرة من الفودكا مقدرةً بمئة غرام، ويكتبون العدد المقرر لهم من الرسائل، ويصرخون في الهاتف الميداني، وبعضهم يطلق النار من مدفع صغير العيار، وبعضهم يطلق من العيار الرئيسي، وهناك من يضغط على المسرّع في الدبابة أربعة وثلاثين، ويصرخ بكلامٍ ما. . .

صرّت الأرض تحت الحذاء وكانت مرنة كفراش قديم - وقد توضعت أوراق الشجر في الطبقة العليا، هشة، وتمايزت فيما بينها حتى في الموت أيضاً، وتحتها الأوراقُ الجافة منذ أعوام مضت، وقد اتّحدت في كتلة بنيّة صلبة متيبِّسة - رماد من تلك الحياة، فجّرتها الآن البراعم، ضجّت في العواصف الرعدية، وأصدرت بريقاً من جرّاءَ الشمس بعد الأمطار. والأغصان المتساقطة، عديمة الوزن تقريباً انهارت تحت الأقدام. ووصل الضوء الهادئ إلى أرض الغابة، ظلّاً ورقيّاً شارداً. وكان الهواء في الغابة متجمّداً وسميكاً - هذا ما شعر به بشكل خاص الطيار المقاتل المعتاد على الدوامات الهوائية. فاحت الشجرة التي اكتسبتِ الدفء والمتعرقة، برائحة عذوبة الخشب الخام. لكن رائحة الأغصان والأشجار الميّتة طردت رائحة الغابة الحيّة. وهناك، حيث انتصبت أشجار الصنوبر،

اخترقت الأوكتافَ[1] نوتةٌ من أشجار صنوبر التربنتين العالية، اصطدمت النوتة الحامية في القرار الموسيقي الثماني. وتنفّس النغت[2] بمرارة، وفاحت من الصفصاف الراجف رائحة حلوة مترفة. عاشت الغابة بمعزل عن بقية العالم، وبدا لفيكتوروف أنه دخل بيتاً، حيث كل شيءٍ مختلف؛ لا شيء كما هو في الشارع: الروائح والضوء من خلال الستائر المُسدلة، والأصوات التي تسمع بشكل مختلف في هذه الجدران، وما دمت لم تخرج من الغابة فإنَّكَ تشعر أن كل شيء ليس كالمعتاد، مثل شعوركَ بالأشخاص غير المألوفين.

طيور الصهيوج السود التي تتململ بين الأغصان، وتحرّك أجنحتها لن ترتفع أبداً فوق الغابة، مثلما لا تستطيع السمكة الارتفاع فوق سطح الماء؛ وإذا حام غراب العقعق فوق شجرة الحور، فإنّه يغوص على الفور بين الأغصان - يلمع جانب السمكة الأبيض للحظة تحت الشمس وتغطسُ فوراً في الماء. وكم تبدو الطحالب غريبة في قطرات الندى، الزرقاء، والخضراء الذابلة في ظلمة قاع الغابة.

جيّد أن تخرج فجأة من نصف الظلمة الهادئة هذه إلى مرج مشرق، وسيصبح كلّ شيء مُختلفاً - الأرض الدافئة، ورائحة العرعر الذي تسخنه الشمس، وحركة الهواء، والأجراس الكبيرة المتدلية،

---

(1) هو مصطلح يُطلَق على ثامن درجة في سُلَّم موسيقي أو مقام. (المترجمان).

(2) النغت أو جار الماء (بالإنجليزية: Alder) جنس شجري يتبع الفصيلة القضبانية في رتبة البلوطيّات من ثنائيات الفلقة من النباتات المزهرة. (عن الويكيبيديا). (المترجمان).

المصبوبة من معدن أرجواني، وزهور القرنفل البرّي على سيقان صمغية لاصقة. تصبح الروح لامبالية، والمرج يشبه يوماً سعيداً في حياة فقيرة. يبدو أن فراشات الليمونيكا، والخنافس المصقولة بالأزرق والأسود، والنمل، التي تحتكُ بالعشب - لا تجتهد وتهتم بنفسها، بل تعمل جميعها لإنجازِ عمل مشترك واحد. ويلامس الوجهَ غصنُ بتولا مرضّع بأوراق صغيرة؛ ويقفز جندبٌ، ويصطدمُ بالإنسان، مثلما يصطدمُ بجذع شجرة، يتشبَّثُ بحزام خصره، ويسحب ببطء فخذيه الأخضرين، ويجلس مُحدِّقاً بعيون جلدية مستديرة، ووجه غنمةٍ مصبوب. دفء، أزهار فراولة متأخرة، وأزرار حزام الخصر ومشبكه الحارّ بسبب الشمس. على الأغلب، لم تطر فوق هذا المرج أبداً، لا طائرة يو-88[1]، ولا «هاينكيل» الليلية[2].

(1) يونكرز يو-88 هي طائرة ألمانية، ذات محركين، متعددة الأدوار. استخدمت بشكل ناجح كقاذفة قنابل وقاذفة قنابل اعتراضية ومقاتلة ليل وقاذفة قنابل طوربيد وطائرة استطلاع ومقاتلة ثقيلة. كانت أحد أفضل ما ملكت القوات الجوية الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية. (المترجمان).

(2) هاينكيل هي 111 (بالألمانية: Heinkel He 111)، هي طائرة حربية ألمانية، أنتجت من قبل شركة هينكيل للصناعة العسكرية في فترة الثلاثينات من القرن العشرين، شاركت في الحرب العالمية الثانية، وانتهى استخدامها قبل سقوط برلين. (المترجمان).

36

غالباً ما كان يتذكر في الليل الأشهرَ التي قضاها في مستشفى ستالينغراد. هو لم يتذكر القميص المبلل بالعرق، والماء المالح المسبّب للغثيان، ولم يتذكر الرائحة العنيفة التي عذبته. بدت له تلكَ الأيام في المستشفى سعيدة. وهنا، في الغابة، فكر وهو يستمع إلى همهمة الأشجار: «هل سمعتُ حقاً صوت خطواتها؟».

أيعقل أن يكون ذلك قد حصل؟ عانقته، ومسّدت شعره، بكت، وقد قبّل عينيها الرطبتين المالحتين.

فكّر فيكتوروف أحياناً في كيفية وصوله إلى ستالينغراد على متن طائرة «ياك»[1]، هي بضع ساعات فقط- ويمكن التزوّد بالوقود في مدينة ريازان، ومن ثم الوصول إلى مدينة إنجلز، هناك لديه شاب يعرفه يعمل مناوباً مسؤولاً. حسناً، ودعهم بعد ذلك يعدمونني رمياً بالرصاص.

لقد تذكّر كل شيء عن قصة قرأها في كتاب قديم: زوّج الأخوان شيريميتيفو الثريّان، ابنا مارشال، أختَهُم البالغة من العمر ستة عشر

---

(1) ياكوفليف ياك-1 طائرة مقاتلة أنتجت في أوائل عام 1940 في الاتحاد السوفييتي خلال الحرب العالمية الثانية. (المترجمان).

عاماً من الأمير دولغوروكي، يبدو أنّ الفتاة قد رأته مرّة واحدة قبل الزفاف. قدّم الأخوان للعروس مهراً ضخماً، وهدايا من الفضة ملأت ثلاث غرف. وبعد يومين من الزواج، توفي بطرس الثاني. ألقوا القبض على دولغوروكي المقرّب منه، واقتادوه إلى الشمال وسجنوهُ في برج خشبي. لم تستمع الزوجة الشابة للنصائحِ - حيث يمكن الانعتاق من هذا الزواج، لأن الفتاة لم تعش معه سوى يومين فقط - والتحقت بزوجها، وسكنت على أطراف غابة نائية، في كوخ قروي. وزارت كلّ يوم وعلى مدى عشر سنوات البرج، حيث يجلس دولغوروكي. ورأت في صباح أحد الأيام: النافذة في البرج مفتوحة على مصراعيها، ولم يكن الباب مغلقاً. ركضت الأميرة الشابة في الشارع، وركعت على ركبتيها أمام كلّ من تصادفه، كان من كان - رجل، ستريليتس[1]، وتوسّلت وسألت، أين زوجها. أخبرها الناس أن دولغوروكي نُقل إلى نيجني نوفغورود. لقد تحملت الكثير في الطريق سيراً على الأقدام. وفي نيجني علمت أنه تم تقطيع أوصال[2] دولغوروكي. ثم قررت دولغوروكايا الذهاب إلى الدير، وسافرت إلى كييف. في اليوم الذي ستحلق[3] فيه شعرها، سارت لفترة طويلة على

---

(1) الستريليتس (بالروسية: **Стрельцы́**، حرفياً «قناصة»؛ والجمع **стрелéц**، قناصون) كانت قوات حراس عسكرية مسلحة بالأعيرة النارية في روسيا ما بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر. (المترجمان).

(2) تقطيع الأوصال هو فعل بتر أطراف كائن حي أو تمزيقه أو سحبه أو انتزاعه أو إزالته بطريقة أخرى. وقد مورست على البشر كشكل من أشكال عقوبة الإعدام، لا سيما فيما يتعلق بقتل الملك. (المترجمان).

(3) الحلاقة: طقس رمزي في الكنائس التاريخية، وهو عبارة عن حلاقة الشعر كعلامة الانتماء إلى الكنيسة. (المترجمان).

ضفة نهر الدنيبر. لكن دولغوروكايا لم تتأسف على إرادتها، فقد كانت مضطرة، كي يتم قبولها راهبة، أن تنزع خاتم زفاف من إصبعها، ولم تتمكن من الانفصال عنه... مشت على طول الشاطئ لعدة ساعات، ثم عندما بدأت الشمس بالغروب، أزالت الخاتم من إصبعها، وألقت به في نهر دنيبر وذهبت إلى بوابات الدير.

وتذكّر ملازم القوات الجوية، وهو تلميذ من دار الأيتام، وميكانيكي في الورشة الميكانيكية لمحطة المنطقة الكهربائية، كل شيء عن حياة الأميرة دولغوروكايا. كان يسير عبر الغابة، وخُيّل له: أنه لم يعد موجوداً، لقد دفنوه، وطائرة الفريتس[1] المحترقة المدخنة، التي انغرس أنفها بالأرض، قد صدئت وتفتتت، ونمت عشباً، وتسير في هذه الأماكن فيرا شابوشنيكوفا - تتوقف، وتنزل في المنحدر إلى نهر الفولغا، وتنظر إلى الماء... وقد مرّت من هنا قبل مئتي عام دولغوروكايا الشابّة - خرجت إلى المرج، ومشت بين الكتان تدفع بيديها الشجيرات المليئة بالتوت الأحمر. لقد شعر بالألم، والمرارة، واليأس، والحلاوة.

يسير الملازم ضيّق الكتفين في الغابة، يرتدي سترة قديمة - كم هم كثر من تم نسيانهم في زمن لا ينسى.

---

(1) اسم الجبهة المستعار المهين للألمان. استخدموه البريطانيون في الحرب العالمية الأولى. واستخدم في الاتحاد السوفييتي أثناء الحرب الوطنية العظمى. (المترجمان).

37

أدرك فيكتوروف، وهو يقترب من المطار، أنّ أحداثاً ما مهمة قد حصلت. كانت سيارات التزويد بالوقود تجول على أرض المطار، والفنيون والميكانيكيون من كتيبة صيانة المطار، منشغلون حول الطائرات، الواقفة تحت شباك الإخفاء. وكالعادة كان محرّكُ اللاسلكي الصامت يطرق بدقّة وبتركيز.

فكّر فيكتوروف وهو يغذُّ الخطى: «واضح».

وهنا تأكد كل شيء، استقبلهُ الملازم سولوماتين ذو البقع الورديّة جراءَ الحروق التي أظهرت عظمة خدّه، وهو يقول:

- إنّنا نخرج من الاحتياطي، هناك أمر.

سأل فيكتوروف:

- إلى الجبهة؟

- وإلى أين إذاً، إلى طشقند؟- سأل سولوماتين وسار نحو القرية.

كان منزعجاً على ما يبدو، فقد حصلت له مشكلة جدّية مع صاحبة الشقة، وعليهِ أن يذهب إليها على جناح السرعة.

- سيقتسمُ سولوماتين الأشياءَ مع صاحبة الشقة: الكوخ للمرأة،

والبقرة له - قال ذلك صوت إلى جوارهِ، صوتٌ معروف لفيكتوروف. إنّه الملازم يريمين، الذي كان يشكِّلُ مع فيكتوروف ثنائياً، إنّه الآن يسير على الدرب.

سأل فيكتوروف:

- إلى أين سينقلوننا، يا يريمين؟

- ربما، ستشن الجبهة الشمالية الغربية هجوماً. وصلَ الآن قائدُ الفرقة على متن طائرة إير-5. عندي طيّارٌ أعرفه في «دوغلاس» في القيادة الجوّية، يمكن أن نسأله، فهو يعرف أموراً كثيرة.

- لماذا نسأل، سيخبروننا بأنفسهم.

شملت حالة القلق ليس القيادة والطيارين في المطار فحسب، بل القرية أيضاً. فقد حمل الملازم كورول الصغير ذو العينين السوداوين، والشفة المنتفخة، وهو أصغر طيّار في الفوج، مفارشَ مغسولةً ومكويّةً في الشارع، وعليها كعك الجنزبيل وعقدة تحتوي ثماراً مجفّفة.

كانوا يسخرونَ من كورول، بأنّ صاحبتي البيت - أرملتان متقدمتان في السن، يدلّلانه بكعك الجنزبيل. وعندما كان يخرج في مهمّة، تستقبلهُ العجوزان في منتصف الطريق - واحدة طويلة ومنتصبة القامة، والأخرى محنيّة الظهر - كان يسير بينهما كصبي مدلل، غاضباً ومرتبكاً، وقال الطيارون إن كورول يدخل في حلقة من علامات التعجّب والاستفهام.

خرج قائد السرب فانيا مارتينوف من البيت في معطفه، حاملا حقيبة في إحدى يديه، والقبعة الرسمية في اليد الأخرى، لم يضعها

في الحقيبة خوفاً من أن تتقصَّف. وشيَّعته وهو يمضي ابنة صاحبة البيت التي لا تضعُ شالاً على الرأس، وذات الضفائر المجدولة بيديها، بنظرة معبرة، لدرجة أنّ حديثاً عنها وعنه، سيبدو زائداً.

أبلغ الصبي الأعرج فيكتوروف أنّ الموجّه السياسي غولوب والملازم فانيا سكوتنوي، اللذين كانا يقيمان معه، قد غادرا مع حاجياتهما.

انتقل فيكتوروف إلى هذه الشقة قبل أيام قليلة، وقبلها كان يعيش مع غولوب عند صاحبة بيّت سيّئة، وهي امرأة ذات جبهة بارزة وعالية وعينين صفراوين منتفختين - تنظرُ إليهما فتشعر بالاشمئزاز.

كانت تُسرِّب الدخان إلى الكوخ، كي تتخلّص من المستأجرين، وسكبت لهما ذات مرّة الملح في الشاي. حاول غولوب إقناع فيكتوروف كتابة تقرير عن هذه المضيفة إلى مفوّض الفوج، لكن فيكتوروف لم يرغب في ذلك.

فوافقَه غولوب الرأي قائلاً:

- فلتخنقها الكوليرا.

وأضاف كلمات كان قد سمعها من أمّه وهو بعدُ طفلاً:

- إذا علق شيء بشاطئنا، فهو إمّا فضلات أو رقائق من الخشب.

انتقلا إلى شقة جديدة، بدت لهما جنّة. لكن ها هو بقاؤهما في هذه الجنّة لا يدومُ طويلاً.

سرعان ما مرّ فيكتوروف مع كيسٍ من القماش الخشن وحقيبة سفر مكسورة بجانب أكواخ عالية رمادية مكونة من طابقين، قفز الصبي الأعرج إلى جانبه، مصوّباً بحافظة المسدس التي أهداه إياها

فيكتوروف نحو الطائرات التي تحلق فوق الغابة. مرّ بجانب الكوخ، الذي كانت تبعث منهُ يفدوكيا ميخييفنا الدخانَ، كي يتنفّسه، ورأى وجهها الجامد خلف الزجاج المعتم. لم يتحدث إليها أحد عندما كانت تحمل دلوين خشبيتين من البئر، وتتوقف لأخذِ قسطٍ من الراحة. لم يكن عندها بقرة ولا غنمة، ولا دجاج تتجول تحت السقف. سأل غولوب عنها، وحاولَ التعرف إلى أسلافها ملّاكي الأراضي، ولكن اتضح أنها كانت من عائلة فقيرة. قالت النساء إنها بدت كالمجنونة بعد وفاة زوجها: التجأت إلى البحيرة خلال فترة الخريف الباردة وجلست هناك يوماً بأكمله. أحضرها الرجال من هناك بالقوة. ولكن وكما تحدثتِ النساء، كانت قليلةَ الكلام قبل موت زوجها وحتى قبل الزواج.

ها هو فيكتوروف يسير على طول طريق غابة القرية، بعد ساعات قليلة سوف يطير من هنا إلى الأبد، وكل هذا - الغابة الصاخبة، القرية التي تدخلُ الغزلان حدائقَ بيوتها، والسرخس، والقطران الأصفر، والنهر، والوقواق - لن يعودَ موجوداً بالنسبة إليه. سوف يختفي كبار السن والفتيات، والأحاديث عن كيفية قيامهم بتجميع ملكياتهم من الأراضي الزراعيّة، وقصص عن الدببة التي استولت على سلال توت العليق من العجائز، والأولاد الذين كانوا يسيرون بكعوب عارية على رؤوس الزواحف... سوف تختفي هذه القرية، الغريبة بالنسبة إليه وغير العادية، وتعامُلُهُ مع الغابة، كما كان من قبلُ يتعامل مع مصنع القرية العمالية، حيث وُلد وترعرع.

ثم ستهبط المقاتلة، وفي لحظة سيبرز سؤالٌ، هل سيكون المطار الجديد في قرية زراعية أم في قرية تابعة لمصنع مع نسائها المسنات

والفتيات، مع دموعهنَّ ونكاتهنَّ، والقطط ذوات الأنوف، الخالية من الوبر بسبب الندوب، وأحاديثهن حول ماضيهن، وحول عملية تجميع الأراضي المكثفة، مع ربات بيوتها السيّئات والجيدات.

وسيعتمرُ سولوماتين الجميل القبّعة في الوضع الجديد، وسيسير في الشارع، ويغنّي مع القيثارة ليثير جنون الفتيات.

قرأ قائد الفوج زكابلوك ذو الوجه البرونزي، والجمجمة البيضاء الحليقة، وهو يُخَشخِشُ بأوسمة الراية الحمراء الخمسة، ويبدّل وضعَ رجليه الملتويتين، على الطيارين أمر خروج من الاحتياط قائلاً، إنّه يأمرهم بالنوم في الهنغارات، وإنّه سيتم الإعلان عن جهة مسار الطيران قبيل الإقلاع من المطار.

ثم قال إنّ القيادة تمنعهم من الابتعاد عن هنغارات المطار ولن تتساهلَ مع المخالفين.

وأوضح: لا أريد أن تناموا في أثناء الطيران، بل عليكم أن تناموا جيداً قبيل الطيران.

وتحدّث مفوّض الفوج بيرمان، الذي لم يحبوه لتكبّره، على الرغم من أنّه كان قادراً على التحدّث بذكاء وجمال حول دقائقِ مهارات الطيران. بدأ بخاصة التعاملُ معه بشكل سيّئ بعد الحادث الذي وقعَ للطيّار موخين. كانت قد نشأت قصّة حبّ له مع عاملة اللاسلكي الجميلة ليدا فوينوفا. قصة حبهما أعجبت الجميع- كانا ما إن يجدا دقيقة فراغ، حتى يلتقيا، فيذهبان ليتنزّها بجوار النهر، دائماً يمسكُ أحدهما بيد الآخر. وما أثارت علاقتهما سخريةَ أحد، فقد كانت واضحة للجميع.

فجأة انتشرت إشاعة، وكان مصدر تلك الإشاعة ليدا نفسها، فقد

حدّثت صديقتها، ومن عند صديقتها انتشرَ الخبر في الفوج كلّه - أنّ موخين اغتصب ليدا، تحتَ تهديد السلاح الناري في أثناء نزهة اعتيادية.

عند سماع بيرمان بهذه القضية، غضب كثيراً وتحرَّكَ بكثيرٍ من الحيويّة، لدرجة جعلت موخين يُحاكمُ خلال عشرة أيام، ويحكم عليه بالإعدام.

وصل عضو المجلس العسكري للجيش الجوي، اللواء الطيَّار أليكسييف، إلى الفوج قبل تنفيذ الحكم، وبدأ يستوضِحُ ملابسات جريمة موخين. وضعت ليدا الجنرال في حيرةٍ شديدة، ركعت أمامه، وتوسلت إليه بأن يكون على ثقةٍ أن الأمر برمّته ضد موخين كان كذبة سخيفة.

روت له القصة بأكملها - كانت هي وموخين مستلقيين في حقل داخل الغابة، وتبادلا القبل، ثم غفت، وأراد موخين أن يُمازحها، أنزل المسدس بهدوء بين ركبتيها وأطلق النار على الأرض. استيقظت وصرخت فأخذ موخين بتقبيلها من جديد.

لكن في أثناء نقل الخبر، من قبل صديقتها، وكانت ليدا قد روت لها ما حصل، بدا الأمر فظيعاً تماماً. والحقيقة أن علاقة حبّها مع موخين كانت قصّة بسيطة غير عادية. حُلَّتِ المشكلةُ بنجاح وأُلغيَ الحكمُ، ونقلوا موخين إلى فوج آخر.

ومنذ ذلك الحين، كره الطيارون بيرمان.

قال سولوماتين بمجرد وصوله إلى المطعم، إنّ الشخص الروسي لن يتصرّف بهذه الطريقة.

أجاب أحد الطيارين، وربما كان مولشانوف، إن ثمّةَ أناساً سيئين بين جميع الأمم.

قال فانيا سكوتنوي:

- إليكم مثلاً كورول، إنّه يهوديّ، لكنكَ ترتاح عندما تخرج معه في مهمّة. تنطلقُ في مهمتكَ وأنت تعرف - أن من يجلس خلفك هو صديق، تستطيعُ أن تثق به.

قال سولوماتين:

- وكيف يمكن أن يكون كورول يهودياً؟ كورول صديقنا، أنا أثق به في أثناء الطيران، أكثر من نفسي. أبعد «ميسِّير[1]» فوق مدينة رجيف، من تحت ذيل طائرتي مباشرة. وأنا قذفت الألماني التعيس مرّتين وأُسقِطَ بفضلِ كورول بوركي. أنت تعرف بنفسك، أنّني أنسى أمّي التي ولدتني وأنا متجه إلى المعركة.

- حينها كيف يستقيمُ الأمر، - قال فيكتوروف - إذا كان اليهوديّ جيّداً، وأنت تقول - إنّه ليس يهودياً.

ضحك الجميع، وقال سولوماتين:

- حسناً، وقصة موخين لم تكن مضحكة، عندما أراد بيرمان إعدامه رمياً بالرصاص.

دخل في هذه الأثناء كورول إلى المطعم، وسأله أحد الطيّارين متعاطفاً:

---

(1) ميسِّيرشميت بي اف 109 (Messerschmitt BF 109) طائرة ألمانية متطورة في جيلها وهي طائرة مطاردة من الطراز الأول، شاركت في الحرب العالمية الثانية. (المترجمان).

- اسمع يا بوريا، هل أنت يهودي؟

أجاب كورول محرجاً:

- نعم، يهودي.

- أنت متأكّد؟

- متأكد تماماً.

- ومُطهّر؟

أجابه كورول:

- فلتذهب إلى الجحيم.

وضحك الجميع من جديد.

وعندما سار الطيارون من المطار إلى القرية، مشى سولوماتين إلى جانب فيكتوروف. وقال:

- أتعرف، لقد تكلمت عبثاً. عندما عملتُ أنا في مصنع الصابون، كان لدينا الكثير من اليهود، وجميعهم من المسؤولين. رأيت ما يكفي من هؤلاء الصموئيليين والأبراموفيتشيين - وبالفعل أحدهم يدافع عن الآخر، والمسؤولية متبادلة فيما بينهم، كن متأكداً.

- لماذا تركّز عليّ،- ضغط فيكتوروف كتفيه مستهجناً - أتريد أن تسجّلني في مجموعتهم؟

تحدث بيرمان عن أن حقبة جديدة انفتحت في حياة طاقم الطيران، وانتهت الحياة في الاحتياط. الجميع فهم ذلك من دونه، لكنهم استمعوا إليه بانتباه، فيما إذا كان سيلمِّح في كلمته، هل سيبقى الفوج على الجبهة الشمالية الغربية ويُنقَل فقط إلى ضواحي رجيف، وهل سيتم نقله غرباً، أم جنوباً؟

قال بيرمان:

- وهكذا، فإن الميّزة الأولى للطيار القتالي هي معرفة العتاد، ومعرفة طريقة استخدامه، والثانية حبّ طائرته، مثل حبه أخته، مثل حبّه أمه؛ والثالثة هي الشجاعة، والشجاعة هي العقل البارد والقلب الحامي. والرابعة هي الشعور بالعلاقةِ الرفاقيّة، التي رَبَّتنا عليها حياتنا السوفييتية بأكملها؛ الخامسة هي نكران الذات في المعركة! النجاح - في تلاحم الأزواج المشكّلة! راقب القائد! الطيار الحقيقي يفكر دائماً عندما يكون على الأرض، ويحلل المعركة الأخيرة، ويقلِّب الأمور: «آه، كان الأفضل لو، وذلك لم يكن ضرورياً!».

نظر الطيارون وقد اكتست وجوههم بتعبيرات توهمُ بالاهتمام بما يقوله المفوض وتحدثوا بهدوء.

قال سولوماتين الذي كانت لديه صديقة في لينينغراد:

- ربما لمرافقة الدوغلاسيين[1]، الذين ينقلون المواد الغذائية إلى لينينغراد؟

قال مولتشانوف، الذي يعيش أقرباؤه في مدينة كونتسوفو القريبة من موسكو:

- باتجاه موسكو؟

قال فيكتوروف:

- أو ربما، إلى ضواحي ستالينغراد؟

---

(1) دوغلاس سي-47 سكاي ترين طائرة نقل عسكريّة من صنع شركة دوغلاس للطائرات الأمريكيّة، وقد استخدمها الحلفاء بكثافة خلال الحرب العالمية. (المترجمان).

- هذا غير محتمل. قال سكوتنوي وكان سيّان بالنسبة له المكان الذي سيتم نقل الفوج إليه - فأقاربه جميعاً كانوا في أوكرانيا المحتلة.

سأل سولوماتين:

- وأنت يا بوريس، إلى أين أنت ستطير؟ إلى عاصمتك اليهودية، بيرديتشيف؟

فجأة، أصبحت عينا كورول داكنتين تماماً بسبب الهيجان، وشتم بشكل واضح.

صرخ المفوض:

- أيّها الملازم كورول!

- نعم، أيّها الرفيق مفوّض الكتيبة. . .

- اصمت. . .

لكن كورول كان قد صمتَ بالفعل.

تميّز الرائد زكابلوك بأنه خبيرٌ بالشتائم وعاشق لها، ولولا أن الطيار المقاتل لم يلعن بحضور رؤسائه، لما كان قد رفع قصَّته. هو نفسهُ كان يصرخ كل صباح بحاجبه: «مازيوكين. . . يا ابن. . .» - وينتهي به المطاف بسلامٍ تمامٍ ليقول: «أعطني منشفة».

ومع ذلك، كان قائد الفوج ولمعرفته بمزاج المفوَّض المثير للاشمئزاز، يخشى من العفو الفوري عن كورول. ووصف بيرمان في التقرير كيف أن زكابلوك شوّه القيادة السياسية أمام طاقم الطيران. وكتب بيرمان بالفعل إلى الدائرة السياسية أن زكابلوك أنشأ مزرعة خاصة في المحمية، وكان يشرب الفودكا مع رئيس الأركان، وكان

على اتصال بخبيرةِ الثروة الحيوانية زينيا بوندريفا من السكان المحليين.

لذلك، بدأ قائد الفوج من بعيد يصرخ مهدّداً وبقسوة:

- كيف تقف أيّها الملازم؟ خطوتين إلى الأمام! ما هذا الانحطاط؟

ثم تابع القضية:

- أيّها المسؤول السياسي، قدّم تقريرك إلى المفوض، لأي سبب أخلّ كورول بالنظام.

- اسمح لي أن أبلغ، أيّها الرفيق الرائد، تشاجر كورول مع سولوماتين، لكن لماذا، أنا لم أسمع.

- الملازم أول سولوماتين!

- نعم، أيّها الرفيق الرائد!

- قدّم تقريرك. ليس لي! بل لمفوّض الكتيبة!

- اسمحوا لي أن أقدّم تقريري، أيّها الرفيق مفوض الكتيبة؟

- هيّا - أومأ بيرمان، دون أن ينظر إلى سولوماتين. شعر أن قائد الفوج كان يطبخ طبخته. لقد كان يعلم أن زكابلوك تميّز بذكاء غير عادي على الأرض وفي الجو - هناك، في الأعلى، كان يعرف قبل كل شيء كيف ينجح في كشف الهدف، وتكتيكات العدو، للتغلب على خدعه. وعلى الأرض كان يعلم أن قوّة القيادة تكمن في الضعف، وكان ضعف المرؤوسين في قوّة القيادة. وكان قادراً، عند الضرورة، على التظاهر، فيبدو بسيطاً، ويضحك بسعادة على الحدّة الغبية، فيما يقولُهُ رجل غبي. وكان يعرف كيف يمسك بيديه الملازمين اليائسين.

أظهر زكابلوك أثناء فترة الاحتياط، ميلاً للزراعة، وبخاصة تربية الحيوانات والدواجن. كان يعمل أيضاً في جني محاصيل الفاكهة، وإعداد الخمر من التوت، وملّح وجفّف الفطر. اشتُهِرتْ ولائم الغداء عنده، وكان قادة كثيرٍ من الأفواج يحبون المجيء في وقت الفراغ على متن طائرات يو-2، ليشربوا ويأكلوا. لكن الرائد لم يعترف بكرم الضيافة غير الهادف.

عرف بيرمان أيضاً ميزةً أخرى للرائد جعلت العلاقة معه صعبة بشكل خاص: كان زكابلوك يحسب بدقة لكل شيء، وحذراً وماكراً، وفي الوقت نفسه كان شخصاً مجنوناً تقريباً يقتحم مجازفاً، غير آسف على حياته.

- أن تجادل القيادة، فذلك أشبه بأن تُبوّل عكس الريح - قال ذلك لبيرمان وارتكب فجأة حماقة جنونية تتعارض مع مصلحته الخاصّة، إلّا أنّ المفوّض تأوّه فقط.

وعندما كان يحدُثُ أن يكونا في مزاج جيّد، كانا يتحدثان ويغمزا بعضهما بعضاً، ويربتان أحدهما على ظهر وبطن الآخر.

يقول زكابلوك:

- آاآخ، مفوَّضنا رجلٌ ماكرٌ أيضاً.

ويقول بيرمان:

- آاآخ، وقويّ أيضاً رائدنا البطل.

ما أحبَّ زكابلوك المفوّض بسبب كلامه المعسول، وحبّه للعمل، وذكرهِ في التقارير التي كان يرفعها كلَّ كلمة غير حذرة يمكن أن تسقُط؛ وسخر من بيرمان بسبب ضعفه أمام الفتيات الجميلات،

وحبه للدجاج المسلوق - «أعطني ساقاً» - وعدم مبالاته بالفودكا، وأدان عدم اهتمامه بظروف حياة الآخرين، وقدرته على تهيئة ظروف معيشية مقبولة لنفسه. ولكنَّه كان يقدِّرُ في بيرمان عقله، والرغبة في خوض صراعٍ مع القيادة من أجل مصلحة القضية، وشجاعته - بدا بيرمان أحياناً وكأنَّه لا يفهم كم من السهلِ أن يفقدَ حياته.

وها هما هذان الشخصان، اللذان يعتزمان قيادة الفوج الجويّ إلى خط المعارك، انحرفا ينظرُ كلٌّ منهما إلى وجه الآخر، واستمعا إلى ما قاله الملازم أول سولوماتين.

- يجب أن أقول بصراحة، أيّها الرفيق مفوض الكتيبة، كان خطأي أن كورول تجاوز حدود الانضباط. سخرتُ منه، وقد تحمَّلني، ثم نسي نفسه بالطبع.

قاطعه زكابلوك قائلاً:

- ماذا قلت له، أجب مفوض الفوج.

- تساءل الشباب إلى أين سيذهب الفوج، إلى أي جبهة، فقلت لكورول: لعلَّكَ تريد أن ينتقل إلى بيرديتشيف، عاصمتك؟

نظر الطيارون إلى بيرمان.

- لا أفهم عن أي عاصمةٍ تتحدّث؟- قال ذلك بيرمان وفجأة أدركَ.

أحسَّ بالحرج، وشعر الجميع بذلك، وفوجئ قائد الفوج بشكلٍ خاص بأن هذا قد حدث لرجل يشبهُ شفرة الحلاقة الخطرة. لكن ما تبعه، كان مفاجئاً أيضاً.

قال بيرمان:

- حسناً، ما الخطأ في ذلك؟ فإذا قلت أنت يا كورول لزميلكَ سولوماتين، الذي هو، كما تعلمون، من قرية دوروخوفا، في مقاطعة نوفوروسك: إنه يريد القتال فوق قريتهِ دوروخوفا، فهل عليهِ أن يضربك في وجهك بسبب ذلك؟ أخلاق ضيّقة غريبة، لا تتوافق مع لقب الكومسومولي.

كان يتحدّثُ بكلمات لا مفرّ منها دائماً، تترافقُ بنوع من القوّة المنوّمة، تؤثِّرُ في الناس. لقد أدرك الجميع أن سولوماتين أراد أن يسيء إلى كورول، وأساء له بالفعل، وقد أوضح بيرمان للطيارين بثقة أن كورول لم يتغلب على التحيّزات القومية وأن سلوكه كان تجاهلاً للصداقة بين الشعوب. ويجب على كورول أن لا ينسى، أن الفاشيين هم الذين يستخدمون الأحكام القومية المسبقة، ويلعبون عليها.

كل ما قاله بيرمان كان عادلاً وصحيحاً في حد ذاته. الثورةُ والديمقراطيةُ ولّدتا الأفكار التي كان يتحدث عنها الآن بصوت متوتر. لكن قوة بيرمان في هذه الدقائق تجلَّت في أنه لم يخدم الفكرة، بل الفكرة خدمته، وخدمت الهدف السيئ الحالي.

قال المفوض:

- رأيتم، أيها الرفاق، هناك حيث لا يوجد وضوح فكريّ لا يوجد انضباطٌ أيضاً. هذا ما يفسر تصرّف كورول اليوم.

فكر ثم أضاف:

- التصرّف القبيح لكورول، هو تصرّف غير سوفييتي شنيع.

طبعاً، هنا لم يستطع زكابلوك التدخل، حيث ربط المفوض تصرّف كورول بمسألة سياسية، وكان زكابلوك يعلم أنه لا يجرؤ أي قائد عملياتي على التدخل في تصرفات الهيئات السياسية.

قال بيرمان:

- إليكم ما هي القضية أيها الرفاق.

وبعد توقف لفترة من الوقت ليزيد من تأثير كلماته، قال يختم ما بدأهُ:

- تقع مسؤولية هذا التصرّف القبيح على المذنب المباشر، ولكنه يقع أيضاً على عاتقي، أنا مفوض الفوج، الذي فشل في مساعدة الطيار كورول على التخلص من النزعة القومية المتخلّفة. المسألة أخطر مما بدت لي في البداية، لذا لن أعاقب كورول الآن على انتهاك الانضباط الذي ارتكبه. لكنني سأتولى مهمة إعادة تثقيف الملازم أول كورول.

تحرّك الجميع، وجلسوا بشكل مريح أكثر، وشعروا بأنّ المسألة انتهت على خير.

نظر كورول إلى بيرمان، وكان في نظراته أمرٌ ما تسبب في أن يعبس بيرمان، ويحرّك كتفه ويبتعد.

وفي المساء قال سولوماتين لفيكتوروف:

- أرأيت يا ليونا، هم هكذا دائماً، - واحدُهم يدافع عن الآخر، هذا هوسرُّهم، لو وقعتَ أنت أو فانيا سكوتنوي في مثل هذه الحالة - كن واثقاً، لحوّلك بيرمان إلى قسم العقوبات.

38

لم ينم الطيارون مساءً في المهجع، دخّنوا وتحدثوا مستلقين على أسرّتهم. شرب سكوتنوي غرامات كحول الوداع على العشاء وغنّى:

الطائرة تسقط وتدور حلزونياً،
تزأر، وتطير على صدر الأرض،
لا تبكي يا حبيبتي، اهدئي،
وانسِني إلى الأبد.

لم يستطع فيليكانوف مع ذلك، التحمّل، ثرثر، فأصبح معروفاً أن الفوج سينتقل إلى ضواحي ستالينغراد.

ارتفع القمر فوق الغابة، وأضيئتْ بقعةٌ مضطربةٌ بين الأشجار. كانت القرية، التي تقع على بُعد كيلومترين من المطار، وكأنها في الرماد، داكنة وهادئة. نظر الطيارون الذين جلسوا عند مدخل الهنغار إلى المعالم الأرضيّة للعالم الرائع. ونظر فيكتوروف إلى الظلال القمرية الخفيفة تحت أجنحة وذيول طائرات «الياك»، وغنّى بهدوء مع المغني:

ويخرجوننا من تحت الطائرة،
والهيكل مرفوعٌ على الأيدي،

وتحلِّقُ البواشقُ في السماء،
تُرافقنا في الرحلة الأخيرة.

تحدثَ أولئك الذين استلقوا على الأسرّة، ولم يكن المتحدثون مرئيين في نصف العتمة، لكنهم عرفوا بعضهم بعضاً جيّداً عن طريق الصوت، وطرحوا أسئلةً وأجابوا عن أخرى، دون أن يسمّي أحدهم الآخرَ باسمه.

- طلب ديميدوف بنفسه المهمة، كانَ جسمه يَنحُل من دون طيران.

- تذكر، بالقرب من رجيف، عندما رافقنا طائرة «بيتلياكوف[1]»، هاجمتها مجتمعةً ثماني طائرات «مسِّير»، فقبلت المعركة، وصمدت سبعَ عشرة دقيقة.

- استبدال تلكَ المقاتلة بمقاتلة «يونكرز»[2]- أمرٌ معقول.

- يطير في الجوّ ويغنّي. أذكر أغانيه كل يوم. وقد غنّى لفيرتينسكي.

- المسكوفي، المتطوّر!

---

(1) قاذفة قنابل انقضاضية سوفييتية عملت في أثناء الحرب العالمية الثانية. وهي قاذفة المواجهة الرئيسية للقوات الجويَّة التابعة للجيش الأحمر، والمهاجِمة السوفييتية الأكثر ضخامة. وتسميتها «بيتلياكوف» نسبة إلى المخترع فلاديمير ميخائيلوفيتش بيتلياكوف. (المترجمان).

(2) يونكرز كانت أكبر مُصنع ومنتج للطائرات في ألمانيا. أنتجت بعض الطائرات الأكثر ابتكاراً وشهرة في العالم على مدار خمسين سنة. أسَّسَها هوغو يونكرز عامَ 1895، في ديساو، ألمانيا. (المترجمان).

- نعم، إنّهُ لا يتخلّى عنك في الجو. وكان دائماً يتتبّع الطائرة المتخلّفة.

- أنت لم تعرفه جيّداً.

- أنا أعرفه. الشريكُ تراه في تحليقِ الطائرة. لقد انكشف لي.

أنهى سكوتنوي المقطع التالي من الأغنية، وصمتَ الجميع، بانتظار أن يغنّي من جديد. لكنّهُ توقف عن الغناء.

كرَّرَ المقولة المعروفة في المطارات العسكرية التي تشبِّه حياة الطيار المقاتل بقميص الأطفال القصير.

- تستطيعُ تحديده على الفور أيضاً، هو قويّ وثابت، يصطادُ السُذَّج، ينقر من الخلف، ويحرس المتخلفين عن الركب.

تحدثوا عن الألمان.

- عند الألمانِ، الأزواجُ ضعيفةٌ، بشكل عام.

- لا تقلْ ذلك.

- الألماني يمسك الجريحَ بأسنانه، لكنّه يبتعد عن النشطِ الحيوي.

- واحد مقابل واحد، أستطيع إسقاطه ولو كانت لديه قطعتان من الحديد!

- لا تغضب، لكنني لن أرضى في الحصول على رتبة عسكرية، مقابل إسقاط طائرة «يونكرز».

- إنّك كبش (مدقّ)[1] - هذه هي الطبيعة الروسيَّة.

---

(1) المدق أو رأس الكبش - آلة تشبه رأس الكبش في بعض صورها - يستخدم

- ولماذا أغضب، ليسَ بإمكانكَ سحب الرتبة العسكرية منّي.

- نعم، وفيما يخص الكبش (المدقّ) لدي فكرة منذ زمن طويل... أنا سأضربه أيضاً بالمسمار!

- كبش في المطاردة - هذا هو الكبش! تدفعه إلى الأرض: مع الدخان والغاز!

- ما يثير الاهتمام، هل يأخذ قائدُ الفوجَ البقرةَ والدجاجاتِ معه في طائرة «دوغلاس»؟

- قرّروا أن يُقَدِّدوها كلَّها!

وعلا صوتُ أحدهم متأمّلاً:

- لو ذهبت إلى نادٍ جيد الآن مع فتاة لشعرت بالخجل، نسيتُ تماماً كيفَ يفعلونَ ذلك.

- ولكن سولوماتين بالمقابل لا يخجل.

- أم أنّك تغار منه، يا لونيا؟

- أنا أغار من الحقيقة، وليس من الموضوع.

- واضح. صادقٌ حتى التابوت.

ثُمَّ بدؤوا جميعاً يتذكرون المعركة بالقرب من رجيف، تلكَ الأخيرة قبيل الخروج إلى الاحتياط، عندما واجهت سبعُ مقاتلات، مجموعة كبيرة من «يونكرز» كانت في طريقها لتقصفَ برفقة طائرات

لضرب الجدران لشقها. والمدق في أبسط صوره هو عمود خشبي يحمله عدد من الرجال، ويدفعونه بقوة لتحطيم عائق ما. سيكون زخم الحركة الذي يولده المدق كافياً لتحطيم الهدف إذا كان العمود الخشبي ضخماً بما فيه الكفاية وإذا تم دفعه بالسرعة الكافية. (المترجمان).

«مسِّير». بدا أن كل واحد منهم كأنما يتحدث عن نفسه، لكنهم مع ذلك - كانوا يتحدثون بشكل عام.

- لم تكن مرئية على خلفية الغابة، لكنَّها انكشفت على الفور عندما ارتفعت. كانت تطير في ثلاث طبقات! عرفتها مباشرة «يو- ثمانية وثمانون»: أرجلها بارزة، أنفها أصفر. هنا أخذت وضعية مريحة: حسناً، سأتصرّف مع الأمر!

- أما أنا فقد اعتقدت في البداية: أنها رشقاتُ المدفعية المضادة للطائرات.

- الشمس، بالطبع، ساهمت في هذا المسألة! سقطتُ مباشرة من الشمس عليه. ذهبت عبر المسار الأيسر. هنا قذفتني حوالي ثلاثين متراً. . . اهتزّت الطائرة - لكن لا مشكلة، الطائرة تستجيب! وقذفتُ الـ «يونكرز» بكل الأسلحة، أصبتها وأخذ الدخان يتصاعد منها، و هنا تبرز طائرة «مسِّير»، طويلة، مثل لقلقٍ أصفر الأنف، اتخذَ مُنعطفاً، لكنه تأخر. أرى - نيراناً تُصوِّبُ نحوي، خطوطاً زرقاءُ تتوجَّهُ إلي.

- وأرى، خطوطَ رمايتي تنتهي عند أسطح طائرته السوداء.

- إنّك تستمتع!

- كنت منذ الطفولة أطلقُ الطائرات الورقية، وأبي كان يمزقها لي! وعندما كنت أعمل في المصنع، كان نادي الطيران يبعد سبعة كيلومترات، مشيت إليهِ بعد الدوام، منهكاً، ولم أغبْ عن درس واحد.

- لا، استمع إليَّ هنا. لقد أشعلَ النار بطائرتي: في خزان

الزيت، وأنابيب البنزين. واشتعلت النيران في الداخل. زوجٌ من الطائرات! ثم ضربني في الواقي، وكسر النظارات، والزجاج طارَ من الواقي، وتدفقت دموعي. حسناً، ماذا فعلت، - اندفعت تحته، نزعت النظارات! كان سولوماتين يحميني. تعرف - كنت أحترق، لكنني لم أخف، - ليس هناك ما يكفي من الوقت! مع ذلك هبطت، أنا لم أحترق، احترق حذائي، واحترقت الطائرة.

- كنت أرى ما يحدث - الآن سيُسقطون صديقنا. وانعطفت مرّتين، لوّح لي: اذهب! لم يكن معي مرافق، اندفعت إلى طرد طائرات الـ«مسِّير» عن أولئكَ الذين يحتاجون إلى ذلك.

- آخ، عدتُ أنا بكثيرٍ من الثقوب، ضربوني مثلما تُضربُ حجلةً عجوز.

- هاجمتُ هذا الفريتس[1] اثنتي عشرة مرة، اندلعَ الدخان في طائرته! أرى - يهز رأسه - إنَّها جائزة مؤكدة! وبطلقة مدفع، على مسافة خمسة وعشرين متراً أسقطته.

- نعم، بشكل عام يجب أن أقول: الألماني لا يحب المعركة الأفقية، وهو يحاول الانتقال إلى معركةٍ عموديّة.

- ها هو يتكلّم!

- ماذا تقصد؟

- ومن لا يعرف ذلك؟ هذا تعرفه الفتيات في القرية: انَّهُ يبتعد عن الانعطافات الحادة.

---

(1) من كلمة fritz وهي اسمٌ ألماني شاع في الحرب العالمية الثانية عند الروس كلقب للألمان، مثلما يُلقَّبُ الروس بـ إيفان، ولعله تصغير لاسم فريدريخ. (المترجمان).

- آخ، أيتها الطائرة «النورس» كان يجب حينها حمايتُها بشكل أفضل، فهناك أشخاص طيبون.

ثم عمّ الهدوء، وقال أحدهم:

- نغادر غداً ما إن يبزغ النور، سيظل ديميدوف هنا وحيداً.

- حسناً يا شباب، لكل منكم وجهتُه، أمّا أنا فإلى بنك الادخار، عليَّ أن أذهب إلى القرية.

- زيارة وداعية - هيّا نذهب!

ليلاً كان كل شيء من حولنا - النهرُ، والمروج، والغابة - هادئاً ورائعاً لدرجة أنّهُ هُيئَ لي أن لا مكان في العالم لا لعداوة، ولا لخيانة، ولا لجوع، ولا لشيخوخة، يوجد الحب السعيد وحده فحسب. الغيوم تتهافت على القمر، وسارَ في دخان رمادي، والدخان غطّى الأرض. قلائل من ناموا هذه الليلة في المهاجع. كانت تومض عند أسوار القرية، على حافة الغابة مناديل بيضاء، ويُسمع ضحك. وكانت الشجرة تهتز في الصمت، خائفة من حلم الليل، وتتمتم مياه النهرأحياناً بشكل غير مفهوم، وتنزلق من جديد بصمت.

لقد حانت ساعة الحب المُرَّة - ساعة الفراق، ساعة القدر - تلك التي تبكي، ستُنسى في اليوم التالي، وآخرونَ سيفرّقهم الموت، وسيمنح القدر أحد ما الإخلاص واللقاء.

وها هو الصباح قد حلّ. وهدرت المحركات، وضغطت رياحُ الطائرات القويّةُ على الأعشاب التي تملّكها الارتباك، آلاف آلاف قطرات الماء بدأت ترفُّ في ضوء الشمس. . . وتسلَّقت الطائرات

المقاتلة الجبلَ الأزرقَ، واحدةً تلو الأخرى، وهي ترفع إلى السماء المدافع والرشاشات الآلية، وتدور، وتنتظر الرفاق، وتنتظمُ حلقات. . .

ويغادر، ذلك الذي بدا في الليل شاسعاً ورحباً، ويغرق في السماء الزرقاء. . .

كانت البيوت - الصناديق، وحدائق البيوت المستطيلة مرئية، وأخذت تنزلق وتغادر تحت جناح الطائرة. . . ولم يعد الدربُ مرئياً، ولا الأعشاب المنتصبة، وغابَ قبر ديميدوف عن الأنظار. . . لقد ذهبوا! وها هي الغابة ترتجف، وتزحف تحت جناح الطائرة.

قال فيكتوروف:

- مرحباً يا فيرا!

39

بدأ المكلفون بالخدمة اليومية في الساعة الخامسة صباحاً إيقاظَ السجناء. كانت ليلةً عميقة؛ كانت الثكناتُ مضاءة بضوء لا يرحم يكشفُ السجون، وعقد محطات السكك الحديدية، وغرف الطوارئ في مستشفيات المدينة.

آلاف من الناس، يبصقون ويسعلون ويشدّون سراويلهم القطنيّة، ويلفون أرجلهم بقطع قماش قبيل ارتداء الحذاء، ويحكّونَ جوانبهم وبطونهم وأعناقهم.

عندما لامست أرجل النازلين من الطبقةِ الثانية للأسرّة الخشبية رؤوسَ المتغطّين في الأسفل، لم يشتموهم، بل أزاحوا رؤوسهم بصمت أو دفعوا بأياديهم أرجل النازلين.

في الاستيقاظ الليلي لكتلة الناس، التماعُ قطع قماش الأرجل، وحركة الظهور والرؤوس، ودخان السجائر الملفوفة يدوياً تحت الضوء الكهربائي الساطع، كان ثمَّةَ ما هو غير طبيعي للغاية: حيث مئات الكيلومترات المربعة من التايغا قد تجمّدت في هدوء الصقيع، أمّا معسكر الاعتقال فكان ممتلئاً بالناس والحركة.

كان الثلج يتساقط طوال النصف الأول من الليل، وغمرت الأكوامُ أبواب الثكنات وغطّت الطريق المؤدي إلى المناجم...

دوّت صفارات إنذار المناجم ببطء، وربما أجابها عواءُ الذئاب في مكان ما في التايغا بصوت واسع غير فرح. ونبحت كلاب الراعي بصوت أجشّ على أرض المعسكر، وسُمعت قعقعة الجرّارات التي تنظف الطرقات إلى مباني المناجم، وصدى قوافل الشاحنات. . .

لمع الثلجُ الجافُ المضاءُ بالكواشف الضوئية، بلطف ورفق. وبدأ التفقّدُ على أرض معسكر الاعتقال الواسعة تحت أصوات نباح الكلاب المستمر. وصدحت أصوات القوافل ببرود وتوتّر. . . وها هو التيار الحيّ الواسع والمنتفخ من الوفرة يسبح باتجاه أبنية المناجم. صرَّتِ الأحذيةُ والجزمات اللباديّة. وحدّق برج الحراسة بكل شيءٍ مصوّباً عينه الواحدة. . .

وكان صوت عويل صفارات الإنذار مستمرّاً، البعيدة منها والقريبة، - إنَّهُ الأوركسترا الموحّدة الشمالية. كان يصدح فوق أراضي كراسنويارسك المتجمدة، وفوق جمهورية كومي المتمتعة بالحكم الذاتي، وفوق ماجادان، وفوق المرفأ السوفييتي، وفوق ثلوج إقليم كوليما، وتوندرا تشوكوتسك، وفوق معسكراتٍ في مورمانسك الشمالية وشمال كازاخستان. . .

تحت أصوات صفارات الإنذار، تحت ضربات المجارفِ على سكة الحديد الممدودة على الخشب، سار عمال مناجم بوتاسيوم سوليكامسك، ونحاس رايدرو بلخاش، ونيكل كوليما، وفحم كوزنيتسك وسخالين، وسار بناة السكة الحديدية فوق السواحل المتجمدة على ساحل المحيط المتجمد الشمالي. وعمال قطع أخشاب سيبيريا ومنطقة الأورال الشمالية، ومورمانسك وأرخانجيلسك. . .

في هذه الساعة الثلجية الليلية بدأ اليومُ في مواقع معسكرات الاعتقال في التايغا، ومهمات عمل كتلة معسكر الاعتقال الضخمة دالستروي.

40

ليلاً أصيب المتهم أبراتشوك بأزمة كآبة. ولم تكن تلك كآبة معسكر الاعتقال القاتمة المعتادة، بل نوبة حارقة مثل الملاريا، جعلته يصرخ، وضرب نفسه بقبضتيهِ على صدغيه، وعلى رأسه.

في الصباح، عندما استعد السجناء على عجل وفي الوقتِ نفسه على مضض للذهاب إلى العمل، سألَ نيومولیموف، جارُ أبارتشوك، رئيس فرقة الغاز، وقائد لواء الفرسان خلال الحرب الأهلية:

- لماذا كنت تترنّح هكذا ليلاً؟ كنت تحلم بامرأة؟ وحتى أنّك ضحكت.

أجابَ أبارتشوك:

- أنت لا تفكر سوى في المرأة.

قال الجار الثاني بالسرير، الأحمق مونيدزي، عضو هيئة رئاسة الشباب الشيوعي الدولي:

- ظننتُ أنّك تبكي أثناء نومك، أردت إيقاظك.

لم يلاحظ صديق السجن الثالث لأبارتشوك، المساعد الطبي أبراش روبين، أي شيء وقال عندما خرجوا إلى ظلمة الصقيع:

- أتعلم، لقد حلمت اليوم بنيقولاي إيفانوفيتش بوخارين[1]، كما لو أنه زارنا في معهد الأساتذة الأحمر فرحاً وحيوياً، وكانت تدورُ ضجة شديدة حول نظرية ينتشمين[2].

وصل أبارتشوك إلى العمل في مستودع الأدوات. بينما كان مساعده، بارخاتوف، الذي قتل ذات مرة أسرة مكونة من ستة أشخاص بغرض السطو، يوقد الموقد بقطع خشب الأرز - الباقية من عملية النَّشْر، كان أبارشوك يوضب الأدوات داخل الصناديق. بدا له أن الحدة الشائكة للأزاميل والقواطع، التي كانت مشبعة بالبرد الشديد، قد نقلت الشعور نفسه الذي عاشه في الليل.

لم يختلف هذا اليوم عن سابقِهِ من الأيام. أرسل المحاسب منذ الصباح، طلبات من معسكرات بعيدة حصلت على موافقة القسم

(1) نيقولاي بوخارين (أكتوبر1888 - مارس 1938) كان ماركسيّاً بلشفيّاً، وهو سياسي سوفييتي نشط في الثورة البلشفية، ثم في الحكومة السوفييتية، حتى أصبح أحد قادتها. شغل عديداً من المناصب لعل أهمها: عضو في المكتب السياسي (1924-1929)، وفي اللجنة المركزية (1917-1937)، والأمين العام للجنة التنفيذية للأممية الشيوعية (الكومنترن)، ورئيس تحرير جريدة برافدا (1918-1929). بعد وفاة لينين، تحالف مع ستالين ضد خصومه من المعارضة المتحدة حتى تفوق عليهم، إلا أنه سرعان ما اختلف مع ستالين وعارض سياسته إلى أن أزيح من المكتب السياسي عام 1929. كان أحد أهم ضحايا التصفيات الجسديّة التي حدثت في الثلاثينيات. (المترجمان).

(2) هو إيمانويل سيمينوفيتش ينتشمين، نشر عام 1919 ثماني عشرةَ أطروحة عن نظرية البيولوجيا الجديدة، ثم كتاب: نظرية الأحياء الجديدة والماركسية. فتنت نظرية ينتشمين الكثير من الشباب. في بعض الجامعات، ورأى ن. أ. بوخارين في كتاب «الإنشمينية» تهديداً لأساسيّات الماركسيّة. (المترجمان).

الفني. كان من الضروري اختيار المواد والأدوات، وتعبئتها في صناديق، وإعداد البيانات المصاحبة لها. وكانت بعض الطرود غير مكتملة، وتطلّبتْ إعدادَ تقارير خاصّة.

إنّ بارخاتوف، كما هي الحال دائماً، لم يفعل شيئاً، وكان من المستحيل إجباره على العمل. فحين يأتي إلى المستودع، يمارس أمور الطعام فقط، اليوم ومنذ الصباح يطهو حساء البطاطا وأوراق الملفوف في قِدر. لدقيقةٍ ركض بروفيسور اللاتيني من معهد خاركوف للصناعات الدوائية إلى بارخاتوف - وهو مسؤولٌ في الجزء الأول من المعهد، بأصابعه الحمراء المرتجفة، نثر بعض القمح الوسخ على الطاولة. كان بارخاتوف يأخذ منه أجراً لقاء بعض الأعمال الخاصّة.

استُدعيَ أبارتشوك نهاراً، إلى المركز المالي - الأرقام لم تتوافق في التقرير. صاح نائب المدير المالي في وجهه، وهدده بكتابة تقرير إلى المدير. هذه التهديدات جعلت أبارشوك كئيباً، ذلكَ أنّه لم يتمكن من القيام بعمله بشكل صحيح وحيداً من دون مساعد،، ولم يجرؤ على الشكوى ضد بارخاتوف. كان متعباً، وخائفاً من فقدان وظيفته كأمين مستودع، وخائفاً أن يعود إلى المنجم مرة أخرى أو إلى موقع قطع الأخشاب. لقد شاب بالفعل، ولم يبقَ لديه إلّا القليل من القوة... ربما كان هذا سبب كآبته - لقد مرّت الحياة تحت الجليد السيبيري.

كان بارخاتوف نائماً، عندما عاد أبارتشوك من القسم المالي. وضعَ حذاءً مصنوعاً من اللباد تحت رأسه، أحضره له على ما يبدو بعض المجرمين. كان ثمَّةَ قدرٌ فارغٌ بجانب رأسه، وبجوارِ خدّه كأس من القمح.

يعرف أبارتشوك أنّ باخاتوف كان يأخذ في بعض الأحيان أدواتٍ من المستودع، وربما ظهر هذا الحذاء نتيجةً لعملياتِ تبادل ممتلكات المستودع. وعندما قال له أبارتشوك ذات مرّة، بعد أن فقد ثلاثة أزاميل: «أليس من العار سرقة معدن نادر أثناء الحرب الوطنية»، أجابه بارخاتوف: «أنت قملة، اصمت، وإلّا فأنت تعرف ماذا سأفعل!».

لم يجرؤ أبارتشوك على إيقاظ بارخاتوف مباشرة، فبدأ يُصدر أصواتاً مرتفعةً، ويعيد ترتيب أنصال المناشير ويسعل، ويُسقط المطرقة على الأرض. استيقظ بارخاتوف، وأخذ يتابعه بهدوء، بعينين حانقتين.

ثم قال بهدوء:

- حدَّثَ صغيرٌ من قافلة الأمس أنّ ثمَّةَ معسكرات أسوأ من أزيورنيخ. المدان في الأغلال، ونصف رأسه حليق. لا توجد أسماء، هي أرقام فحسب موجودة على الصدر، وعلى الركبتين، وهناك لائحة مكتوبة على الظهر.

قال أبارشوك:

- هذا كذب.

قال بارخاتوف حالماً:

- كان يجب جمع الفاشيين السياسيين كلهم هناك، وأنت يا ساقط أولهم، حتى لا توقظني.

قال أبارتشوك:

- آسف أيّها المواطن بارخاتوف، لقد أزعجتك.

كان يخافُ بارخاتوف كثيراً، لكنّه لم يتمالك أعصابه أحياناً.

دخل نيوموليموف المستودعَ في ساعة التبديل، مُسودّاً من غبار الفحم.

سأله أبارتشوك:

- كيف كان السباق؟ هل شارك الناس؟

- إنّنا نتوسع. إنّ الفحم يذهب لاحتياجات الجيش - الجميع يدرك ذلك. لقد أحضروا اللافتات من قسم التربية البدنية: نساعد الوطن بالعمل المنتج.

تنهّد أبارتشوك قائلاً:

- أتعرف، نحتاج إلى كتابة عملٍ حولَ كآبةِ المعسكر. كآبة واحدة تضغط، والثانية تجثم بشدة، والثالثة تخنق، فلا تسمح بالتنفس. وهناك كآبةٌ خاصةٌ لا تخنق، لا تضغط، لا تجثم، بل تُمَزِّقُ أي شخص من الداخل، وهكذا يُفجِّرُ ضغط المحيط الوحوش العميقة.

ابتسم نيوموليموف بحزن، لكن أسنانه لم تلمع بالبياض، لقد كانت خَربةً، اندمجت بلون الفحم.

اقترب منهما بارخاتوف، فقال أبارتشوك:

- دائما تمشي بصمت، إنكَ تفزعني: فجأة تصبح قريباً.

قال بارخاتوف بتوتّر، وهو رجل بلا ابتسامة:

- سأذهب إلى مستودع الطعام، هل تمانع؟

ومضى. أخبر أبارتشوك صديقه:

- تذكرت في الليل ابني من زوجتي الأولى. لعلّه ذهب إلى الجبهة.

وانحنى نحو نيوموليموف قائلاً:

- أريد أن يكبر الشابُ شيوعياً جيداً. كنت أفكر، سأقابله، وسأقولُ لهُ: تذكر أن مصير والدك هو حادث تافه. عمل الحزب هو عمل مقدس! والحتمية العليا للعصر!

- هل يحمل اسم عائلتك؟

قال أبارتشوك:

- لا، اعتقدت أنّه سيكبر ويصبحُ تاجراً.

لقد فكّر مساء أمس والليلة السابقة في لودميلا، ورغبَ في رؤيتها. كان يبحث في مقاطع جرائد موسكو، لعلَّهُ يقرأ فجأة «الملازم أوّل أناتولي أبارتشوك». وسيكون واضحاً له أنّ الابن أراد أن يحمل اسم عائلة الأب.

أَسِفَ ولأوّل مرّة في حياته على نفسه، وتخيّل، كيف سيقترب من ابنه، وتتوقف أنفاسه، وسيشير لهُ بيدهِ إلى حنجرته: «لا أستطيع الكلام».

سيعانقه توليا، وهو سيُسندُ رأس الابن إلى صدره ويبكي، من دون خجل، وبمرارة، بمرارة. وسيقفان طويلاً على هذا الشكل، وابنه أطول منه بمقدار طول الرأس...

فكّرَ الابن دائماً في والده. وبحث عن رفاق الوالد، واكتشف كيف شارك في المعارك من أجل الثورة. سيقول توليا: «يا أبي، يا أبي لقد أصبحت أبيضَ تماماً، يا لهُ من عنقٍ رقيقٍ مجعدٍ لديك... ناضلتَ كل تلك السنوات، مارست جهاداً عظيماً ووحيداً».

خلال التحقيق، أطعموهُ المخللات المالحة مدّة ثلاثة أيام ولم يُقدّموا له الماء، وكانوا يضربونه.

أدرك أن الهدف من ذلك ليس إجباره على توقيع شهادةٍ حول

التخريب والتجسس، وليس للافتراء على الناس. بل الهدف الرئيسي هو أنّ يشكك في صحة العمل الذي وهب له حياته.

عندما كان التحقيق جارياً، بدا له أنه وقع في أيدي قطّاع طرق، وأنه يجب أن يلتقي برئيس القسم - وسيتم القبض على المحقق؛ قاطع الطريق.

ولكن مع مرور الوقت، أدرك أنّ المسألة لم تكن مجرد وجود عدد قليل من الساديين.

كان يعرف قوانين القفل وقوانين سجن الباخرة للمعتقلين. لقد رأى، كيف يخسر المجرمون في لعبة القمار ليس أشياء الآخرين فحسب، بل وحياة الآخرين أيضاً. رأى الفسق البائس، والخيانة. رأى الهند المجرمة، الهسترية، الدموية، الانتقامية، الخرافية، والقاسية بشكل لا يصدّق. رأى مجازر فظيعة بين «العاهرات»- العاملات و«اللصّات»- العنيدات، الرافضات للعمل.

قال: «إنّهم لا يسجنون عبثاً»، واعتقد أن المسجونين عن طريق الخطأ، هم مجموعة قليلة من الناس، بمن فيهم هو، والباقون معاقبون من أجل القضية - سيف العدالة يعاقب أعداء الثورة.

لقد رأى الخنوع والخيانة والإذعان والقسوة. . . وقد وصف هذه الميزات بأنّها من مخلفات الرأسمالية، واعتقد أنّ من يحملها هم أشخاص سابقون وضباط بيض وكولاك[1] وقوميون برجوازيون.

---

(1) كولاك (بالروسية: кула́к) تعني قبضة، وأصبحت تعني فئة من المزارعين الأغنياء نسبياً في أواخر عصر الإمبراطورية الروسية. واندرج الكولاك بعد الثورة تحت مصطلح عدو الشعب بالنسبة للفلاحين الفقراء. يصف فلاديمير إليتش لينين الكولاك بأنهم مصّاصي دماء، ناهبي الأفراد والمُقتاتين الرابحين على حساب مجاعة الآخرين. . (المترجمان)

كان إيمانه لا يتزعزع، وولاؤه للحزب بلا حدود...

وقال نيوموليموف فجأة عندما همَّ بمغادرة المستودع:

- نعم، لقد نسيت، سأل عنك أحدهم.

- وأين سأل عنّي؟

- هو من قافلة يوم أمس. لقد وزّعوهم على العمل. وأحدهم سأل عنك. قلت له: «أعرفه، أنام على سرير مجاور لسريره، بالمصادفة منذ أربع سنوات». عرّف بنفسه، لكن اسم عائلته طار من رأسي.

سأل أبارتشوك:

- وكيف مظهره؟

- شكله قبيح ومثير للشفقة، له ندب على صدغه.

صاح أبارتشوك:

- أوه! أيعقل أن يكون ماغار؟

- نعم، نعم، هو نفسه.

- نعم، إنَّهُ هو رفيقي الأكبر، ومعلّمي، وهو من قدّمني إلى الحزب! عمَّ سأل؟ وماذا قال؟

- سأل عما اعتدنا أن نسأل عنه - كم مدة حكمك؟ قلتُ: لقد طلبَ خمسَ سنوات، وحكموه بعشر. قلت له: إنّه يسعل الآن، وسيُطلَقُ سراحه قبل انتهاء المدّة.

لم يستمع أبارتشوك لنيومويموف، وكرّر قائلاً:

- ماغار، ماغار.. لقد عمل في وقت ما في الشيكا[1]...

---

(1) هيئة الطوارئ الروسية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب، وكانت أول منظّمات الأمن القومي السوفييتي وتسمّى اختصاراً بالشيكا. تأسست بتاريخ

كان شخصاً مميّزاً، تعرف، شخصاً مميّزاً. يعطي كلّ شيء لرفيقه، شتاءً يخلع معطفه عن جسمه ويعطيه لغيره، ويقدّم آخر قطعة خبز عنده لرفيقه. ذكيّ ومتعلّم. ودمه برولتاريّ نقي، ابن صيّاد من كيرتش.

التفت وانحنى نحو نيومولِيموف قائلاً:

- تذكر، لقد تحدثنا، أنه يجب على الشيوعيين في معسكر الاعتقال تأسيس منظمتهم، ومساعدة الحزب، وسأل أبراشك روبين: «من سيكون السكرتير؟»، وها هو ذا السكرتير.

قال نيومولِيموف:

- أنا أصوّت لك، لأنّني لا أعرفه. أين تجده؛ لقد غادرت عشر سيّارات إلى مواقع المعسكر، وأعتقد أنّه غادر معَ من فيها.

- لا يهم، سنجده، آخ، ماغار، ماغار. تقول إنّه سأل عنّي؟

قال نيومولِيموف:

- كدت أنسى، لماذا أتيت إليك. أعطني ورقة بيضاء. يا لذاكرتي هذه الأيام.

- تريد أن تكتب رسالة؟

- لا، طلباً إلى سيما بودينّي. سأطلب منه إرسالي إلى الجبهة.

- لن يسمحوا لك.

- سيما يذكرني.

---

20 كانون الأوّل (ديسمبر) 1917، بعد مرسوم صادر عن فلاديمير لينين، وقادها لاحقاً، فيليكس دزيرجينسكي. (المترجمان).

- لا يأخذون السياسيين إلى الجيش. ها هي مناجمنا تعطي فحماً كثيراً بجهدِهم، وسيقول الجنود شكراً لكم على ذلك، ولك حصّة من ذلك الشكر.

- أرغب في الالتحاق بالقوات العسكرية.

- بوديني هنا لا يساعدك. أنا كتبت طلباً إلى ستالين.

- لن يساعد؟ أنت تمزح - المشكلة في بوديني! أم أنّك تأسف على الورقة؟ ما كنتُ لأطلب منك، لكنّهم لم يعطوني في قسم التربية البدنية. استهلكت مخصّصاتي.

قال أبارتشوك:

- حسناً، سأعطيك ورقة.

كان لديه قليل من الورق، لا يُحاسب عادةً عليه. أمّا في قسم التربية البدنية، فيقدِّمونَ الأوراق بالعدد، وعلى من استلمها أن يبيّن كيف استهلكها.

سارت الحياة مساء في المهجع بشكل طبيعي.

روى الحارس الخيّال[1] القديم تونغوسوف، وهو يغمز بعينيه قصة حب لا نهاية لها: استمع المجرمون باهتمام، وهم يحكّون أجسادهم، ويهزّون رؤوسهم موافقين. نسج تونغوسوف حديثاً فارغاً متشابكاً من وحي خياله، غارسا فيه أسماء راقصات الباليه المعروفات، واسم لورينس المشهور، ووصفاً للقصور، وأحداثاً من

---

(1) الحراس الفرسان: هي وحدة من سلاح الفرسان في الحرس الإمبراطوري الروسي، شكلت فقط من النبلاء، الذين يجندون من أبناء الطبقة الأرستقراطية الروسية. (المترجمان).

حياة الفرسان الثلاثة[1]، وسباحة نوتيلوس[2] لجول فيرن.

قال أحد المستمعين:

- توقف، توقف، كيف اجتازت حدود بلاد فارس، وأنت قلت يوم أمس - إن الشرطة سمّمتها؟

صمت تونغوسوف، ونظر بتواضع إلى الناقد، ثم قال بوداعة:

- حالة نادين الصحية، بدت فقط ميئوساً منها. لكن الجهود التي بذلها الطبيب التيبتي، الذي سكب بضع قطرات من المحلول الثمين المصنوع من أعشاب جبال الألب الزرقاء بين شفتيها نصف المفتوحتين، أعادت إليها الحياة. وبحلول الصباح، تعافت لدرجة أنها تمكنت من التحرّك في أنحاء الغرفة جميعها من دون مساعدة. لقد عادت قواها إليها.

التفسير أرضى المستمعين.

وقالوا:

- واضح... تابع.

ضحكوا في الزاوية، التي كانت تسمّى - قسم الكلخوز، وهم يستمعون إلى الغبي العجوز، العريف الألماني غاسيوتشينكو، وهو يغني بصوتٍ رهيف طرطوقةً شعبية فاحشة ومرحة:

---

(1) الفرسان الثلاثة (بالفرنسية: Les trois mousquetaires) هي رواية من تأليف ألكساندر دوما وتسرد مغامرات شابّ اسمه دارتانيان. (المترجمان).

(2) نوتيلوس (باللاتينية: Nautilus)، غواصة خيالية يقودها القبطان نيمو وردت في روايات جول فيرن مثل «عشرون ألف فرسخ تحت الماء» (1870) و«الجزيرة الغامضة» (1874). أطلق فيرن عليها هذا الاسم كنية بغواصة روبرت فولتون الحقيقية نوتيلوس (1800). (المترجمان).

سيدور فقير لدرجة أنّه يمشي عارياً

ويجلس هذا الجد المسكين على الموقد. . .

ثم تبعتها قوافٍ مضحكة لدرجة أن المستمعين قد استنفدوا أنفسهم من الضحك. وكان الصحفي والكاتب الموسكوفي الذي يعاني من فتق، الإنسان الطيب واللطيف والذكي والخجول في هذه الأثناء يمضغ ببطء قطعة خبز مجفّفة - لقد استلم قبيل ذلك من زوجته طرداً. ذكّره، على ما يبدو، طعم وصوت تكسُّرِ قطعة الخبز المجفّفة بحياته السابقة - حيث شخَصت أمام عينيه.

تجادل نيوموليموف مع سائق الدبابة، الذي دخل السجن لارتكابه جريمة القتل العمد. وكان يسلّي المستمعين، ويسخر من الفرسان، صرخ به نيومولميوف الشاحب جرّاءَ كراهيَّته له:

- أتعرف، ماذا كنّا نفعل بنصال سيوفنا، في سنة العشرين!

- أعرف، كنتم تنحرون الدجاج المسروق. دبابة (كي في[1])، باستطاعتها وحدها أن تعجنَ جيش الفرسان الأوّل كلّه. فلا تقارن الحرب الأهلية بالحرب الوطنية.

تحرّش اللص الشاب كولكا أغاروف بأبراش روبين، وحاول إقناعه استبدال حذائه المُمزّق بحذاء أبراش.

تثائب روبين بعصبية بعد أن اشتمّ رائحة المصيبة، ونظر إلى الجيران، باحثاً عن المساعدة.

---

(1) كليمنت فوروشيلوف (KV) سلسلة دبابات من الاتحاد السوفييتي، وهي دبابات ثقيلة سميت باسم مفوض الدفاع السوفييتي والسياسي كليمنت فوروشيلوف واستُخدمت من قبل الجيش الأحمر خلال الحرب العالمية الثانية. (المترجمان).

قال كولكا، الذي بدا وكأنّه قط برّي رشيق، ذو عينين ملونتين:

- انظر أيّها اليهودي، انظر أيها الوغد، أنت توتِّرُ أعصابي الأخيرة.

ثم قال أوغاروف:

- لماذا لم توقِّع على طلب استراحتي من العمل.

- أنا لا أملك الحق، فأنت بصحّة جيّدة.

- لن توقّع؟

- كوليا، يا عزيزي، أقسم لك، لكان من دواعي سروري، لكن لا أستطيع.

- لن توقّع؟

- حسناً، افهمني. أيعقل أن تعتقد، لو كان باستطاعتي...

- حسناً. انتهى.

- انتظر، انتظر، افهمني.

- أنا فهمت. والآن ستفهم أنت.

انصرف السويدي شتيدينغ الذي حصل على الجنسية الروسية، وقالوا عنه إنّه جاسوسٌ، للحظة عن اللوحة، التي كان يرسمها على قطعة الورق المُقوّى التي أعطيت له من القسم الثقافي- التعليمي، ونظر إلى كولكا وروبين، هزّ رأسه وعاد إلى اللوحة. كان اسم اللوحة: «التندرا- الأم». شتيدينغ لم يخف المجرمين - وهم لسبب ما لم يتعرّضوا له.

قال شتيدينغ لروبين، عندما ابتعد كولكا:

- لقد تصرّفت بجنون، يا أبرام أفيموفيتش.

كما أن البيلاروسي كوناشيفيتش لم يخف المجرمين، كان قد عمل قبل السجن ميكانيكياً في الطيران في الشرق الأقصى، وحصل في أسطول المحيط الهادئ على لقب بطل في الملاكمة للوزن الثقيل. احترم المجرمون كوناشيفيتش، لكنّه لم يدافع أبداً عن أولئك الذين أساء المجرمون إليهم.

مشى أبارتشوك ببطء على طول الممر الضيّق بين تقاطعات الأسرة ذات الطابقين، واستولى عليه الشوق من جديد. كانت النهاية البعيدة للمهجع الذي يبلغ طوله 100 متر تغرق في ضباب دخان التبغ، وبدا له في كلّ مرّة أنّه عندما يصل إلى أفق المهجع، سيرى جديداً، لكن شيئاً لم يتغيّر - بهو المدخل، حيث يغسل السجناء قطع قماش الأرجل تحت الأحواض - المغاسل الخشبية، والمماسح المُسنَدَةُ إلى الجدار المطلي بالجصّ، والدلاء المطليّة، وفرش الأسرّة، ورقائق الخشب الخارجة من الخيش المحشيّ، والطنين السلس للأحاديث، شاحبة كلون بشرة السجناء.

تحدّث معظم المدانين، وهم ينتظرون فسحة المساء، عن الحساء والنساء، وعن عدم الأمانة في قطع الخبز، وعن مصير رسائلهم وطلباتهم المرسلة إلى ستالين والمدعي العام للاتحاد السوفييتي، وعن المعايير الجديدة لحفر الفحم ونقله، وعن صقيع اليوم، وعن صقيع الغد.

سار أبارتشوك ببطء، مستمعاً إلى مقاطع من الأحاديث الدائرة - وبدا أنّ المحادثة نفسها التي لا تنتهي طالت لسنوات بين الناس على مراحل، في القوافل، وفي مهاجع معسكر الاعتقال - عند الشباب الحديثُ عن النساء، وعند كبار السن عن الطعام. ولقد كان الشعور

سيّئاً، ولا سيما عندما تحدّث كبار السن بلهفةٍ عن النساء، والشباب عن الطعام اللذيذ المجاني.

غَذَّ أبارتشوك الخطى، وهو يمرّ بجانب السرير، الذي يجلس عليه غاسيوتشينكو - الرجل العجوز، الذي ينادي أبناءَه وأحفاده، زوجته «ماما»، و«جدّة»، كان يتحمّل عذاباً شديداً، أثّر عليه تأثيراً فظيعاً.

فلتأتي الاستراحة بسرعة - وأستلقي على السرير، وأغطي رأسي بغطاء مبطّن، لا أسمع ولا أرى.

نظر أبارتشوك إلى الباب - ها هو ماغار يدخل. وسيقنع أبارتشوك العريف، أن يضعه إلى جانبه، وسوف يتحدثان في الأمسيات، بصدق وصراحة - شيوعيان اثنان، المعلم والتلميذ، العضوان في الحزب الشيوعي.

نُظّمت وليمةٌ على الأسرّة، حيث كان ينام مسؤولو المهجع - رئيس فريق العمال بيريكريست، وبارخاتوف، وعريف المهجع زاروكوف، والحاجب - خادم بيريكريست، والمخطط جيليابوف. وضع منشفة على طاولة السرير، وشحم خنزير، وسمك مملّح، ومعجنات الزنجبيل - أي ما جمعه بيريكريست من أولئك الذين عملوا في فريقه.

مرّ أبارتشوك بجانب أسرّة المسؤولين، وشعر أنّ قلبه يتجمّد - قد ينادونه، يستدعونه. كان يرغب كثيراً أن يأكل طعاماً لذيذاً. هذا الوغد بارخاتوف! إنّه يفعل كل ما يحلو له في المستودع، وأبارتشوك يعرفُ أنّه يسرق المسامير، وقد سرق ثلاثة أزاميل، لكن لم يخبر الرقابة ولو بكلمة واحدة... كان بإمكانه مناداته: «هي، أيّها

المدير، اجلس معنا». وشعر أبارتشوك، وهو يشعرُ باحتقار نفسه، بأن ما يقلقه ليسَ الرغبة في الأكل، بل شعور آخر - شعور المعسكر الدنيء والوضيع. أن تكون في دائرة أقوياء، وأن تُضطرَّ للحديث ببساطة مع بيريكريست، الذي يرتعش أمامه المعسكر الضخم بأكمله.

وفكّر أبارتشوك في نفسه - باحتقار. وفي الوقت نفسه فكر في بارخاتوف - باحتقار أيضاً.

لم ينادوه، نادوا نيوموليموف، وتوجّه قائد لواء الفرسان إلى تلكَ الأسرّة، مبتسماً بأسنان بنيّة، فارس يحمل وسامَي الراية الحمراء. إنّ الرجل المبتسم، الذي وصل إلى طاولة اللصوص، قاد قبل عشرين عاماً معركة ألوية الفرسان من أجل كومونة عالمية. . .

لماذا تحدّث إلى نيوموليموف اليوم عن توليا، عن أغلى شخص عنده.

لكن هو أيضاً ذهب إلى المعركة من أجل الكومونة، وهو أيضاً من قدم تقريراً إلى ستالين، من مكتبه في موقع كوزباس. قَلِقَ من أن يناديه عندما مرّ بجانب الطاولة المغطاة بمنشفة مطرّزة قذرة، ناظراً في الأرض، ورسمَ على وجهه مسحةً غير مبالية.

وصل أبارتشوك إلى سرير مونيدزي، وكان هذا يرتق جوربه:

- أتعرف بماذا فكرت! أنا أحسد، ليس أولئك الأحرار الذين هم خارج السجن، بل أولئك الذينَ وقعوا في معسكر اعتقال ألماني. هناك الوضع جيّد! تجلس وتعرف أن من يضربك هو عدو فاشي. عندنا هنا الوضع هو الأصعب، والأكثر فظاعة: هنا جماعتك، جماعتك، جماعتك، وأنت مسجون عند جماعتك.

رفع مونيدزي عينيه الحزينتين الكبيرتين وقال:

- قال بيريكريست لي اليوم: «فيلكن في علمك، يا صديقي، سأوجّه لك ضربة بقبضتي على رأسك، وأخبر الرقابة، وسيشكرونني - لأنّك خائن من الدرجة الأولى».

قال أبراشا روبين، الذي يجلس على السرير المجاور:

- وهذا ليس هو الأسوأ.

أجابَ أبارتشوك:

- نعم، نعم، هل رأيتَ قائدَ اللواء كيف كان مسروراً، عندما دعوه؟

قال روبين:

- وأنت مستاء، لأنّهم لم يدعوك؟

قال أبارتشوك بتلك الكراهية الخاصّة التي تولِّد الألمَ بسبب الشك والتأنيب العادل:

- اقرأ نفسك، ولا تتدخل في نفسي.

قال روبين بعينين نصف مفتوحتين كالدجاج:

- أنا؟ أنا لا أجرؤ حتى أن أكون مستاءً. أنا من الفصيل الأدنى، الذي لا يمكنه المساس بأحد. هل سمعت حديثي مع كولكا؟

- ليس هذا، ليس هذا.

لوَّحَ أبارتشوك بيده، وقف وخطا من جديد نحو البهو أمام الباب في الممر بين الأسرّة الخشبية، ووصلت إليه من جديد كلمات طويلة، لحديث ليس له نهاية.

- حساء الملفوف مع لحم الخنزير في الأيام العادية وفي الأعياد.

- لها صدر، لن تصدّق!

- وأنا ببساطة - لحم الغنم مع العصيدة، ولماذا أحتاج إلى مايونيزكم، أيّها المواطنون. . .

عاد من جديد إلى سرير مونيدزي، جلس، واستمع إلى الحديث.

قال روبين:

- أنا لم أفهمه، لماذا قال: «تصبح ملحِّناً». إنّه كان يقصد المخبرين - الذين يكتبون الأوبرا، لضابط الأمن.

قال مونيدزي، متابعاً الرتق:

- فليذهب إلى الجحيم، أن تكون مخبراً - هو آخر عمل.

- كيف تكون مُخبِراً؟- قال أبارتشوك - فأنت شيوعي.

أجاب مونيدزي:

- مثلك تماماً، سابق.

- أنا لست شيوعيّاً سابقاً،- قال أبارتشوك - وأنت لستَ سابقاً.

ومرّة أخرى أغضبه روبين، عندما عبّر عن شك عادل، وهو دائماً أصعب وأكثر إهانة من الشك غير العادل:

- المسألة هنا لا تتعلّق بالشيوعية. لقد سئمت من ماء غسيل الذرة ثلاث مرّات في اليوم. أنا لا أستطيع رؤية هذا الحساء. هذا - مع. ولا أرغب في أن أكون ضد، فيجعلون الليل أكثر حُلكةً، ويجدونك في الصباح، مثل أورلوف، وقد أُنزِلَ في الشق في غرفة تبديل الملابس. هل سمعت حديثي مع كولكا أوغاروف؟

- رأسه إلى الأسفل، ورجلاه إلى الأعلى! قال ذلك مونيدزي

وأخذ يضحك، يجب أن يكون الأمر كذلك، لأنّه لا يوجد ما يدعو للضحك.

سأل أبارتشوك وقد شعر برغبة هستيرية في ضرب روبين:

- ترى أن الغرائز الحيوانيَّة هي من يقودني؟

قفز من مكانه من جديد وانطلقَ يمشي في المهجع.

طبعاً، سئمَ من ثرثرة الذرة. كم من الأيام وهو يتساءل عن الغداء بمناسبة ذكرى ثورة أكتوبر: حساء من الخضار، والمعكرونة على الطريق البحرية، مشوية؟

بالطبع، الكثير مرتبط بضابط الأمن، والمسالك الغامضة، والضبابية المؤدية إلى مراتب الحياة العليا - مسؤول الحمام الجماعي، ومسؤول تقطيع الخبز. إنّ بإمكانه العمل في المخبر - مريلة بيضاء، ومسؤول عن الموظفين المدنيين، وغير مرتبط بالمجرمين، وبإمكانه العمل في قسم التخطيط، ويدير المنجم... لكن روبين مخطئ. روبين يريد الإذلال، روبين يقوض القوة، يبحث في الإنسان عما يمكن أن يسرقه من العقل الباطن. روبين مُخرّب.

كان أبارتشوك طوالَ حياتهِ في غيرِ وفاقٍ مع الانتهازيين، وكان يكره المزدوجين والغرباء اجتماعيّاً.

قوّته الروحية، وإيمانه كانا يكمنان في نزاهة العدالة. شكّ في زوجته فانفصل عنها. لم يثق بأنّها ستربّي ابنه ليكون مقاتلاً لا يتزعزع، ورفض مَنحَ ابنه اسم عائلته. لقد أدانَ أولئك المترددين، واحتقر النائحين، الذين أظهروا الضعف وقلّة الإيمان؛ فقد قدّم للمحاكمة المهندسين التقنيين، الذين اشتاقوا وحنّوا في الكوزباس

للأسر الموسكوفية. ورفع دعوى على أربعين عاملاً يلفّ أصلهم الاجتماعي الغموض، ممن فرّوا من أعمال البناء إلى القرى. وهو شخصياً تخلّى عن أبوّة أبيه التاجر له.

جميل أن تكون ثابتاً على قناعاتك، أكَّد خلالَ محاكمته قوّتَهُ الداخلية، ومثلَه الأعلى، ونزاهته. وفي ذلكَ كان عزاؤه، وإيمانه. ما تَجنَّبَ التعبئة الحزبية ولو لمرَّةٍ واحدة. وتخلّى طوعاً عن مرتّب الحد الأعلى لعضو الحزب. وكان في إنكاره لذاته إنَّما يؤكِّدُ ذاته. ومن ذلكَ أنَّهُ ذهب إلى العمل بسترته الرياضية وحذائه اللذين لم يبدلهما، وإلى اجتماعات مجلس مفوّضية الشعب، وإلى المسرح، وتمشى بهما على شواطئ مدينة يالطا، عندما أرسله الحزب للعلاج. لقد أراد أن يَتَشَبَّهَ بشخصيّة ستالين.

بفقدانه الحق في المحاكمة؛ فقد نفسه. وروبين شعر بذلك. ولمّح كل يوم تقريباً، إلى ضعفه، وجبنه، ورغبته البائسة، المتسلّلة إلى روح معسكر اعتقال الروح.

قال يوم أمس الأوّل:

- بارخاتوف يزوّد المحتالين بخردة المستودع، وصاحبنا روبسبير[1] يصمت. الصيصان تريد أيضاً أن تعيش.

عندما كان أبارتشوك يستعدّ لمحاكمة شخص ما، كان يشعر بأنّه هو المحكوم، ويبدأ بالتردّد، ويسيطر عليه اليأس؛ ويفقد نفسه.

---

(1) نسبة إلى ماكسميليان روبسبير (1758-1794)، وهو محام وزعيم سياسي فرنسي، أصبح أحد أهم الشخصيات المؤثرة في الثورة الفرنسية، وأحد الوجوه الرئيسية لعهد الإرهاب. (المترجمان).

توقف أبارتشوك عند الأسرّة، حيث كان الأمير العجوز دولغوروكي يتحدّث مع ستيبانوف البروفيسور الشاب في معهد الاقتصاد. تصرّف ستيبانوف في المعسكر بغطرسة، ورفض الوقوف عندما تدخل الإدارة إلى المهجع، وكان يعرب علانية عن وجهات نظره غير السوفييتية. كان يفخر بأنّه، وخلافاً لكتلة المعتقلين السياسيين، سُجِنَ من أجل قضية: لقد كتب مقالةً بعنوان: «حكومة لينين- ستالين» وأعطاها للطلاب لقراءتها. وقد وشى به إمّا القارئ الثالث أو الرابع.

عاد دولغوروكي إلى الاتحاد السوفييتي من السويد، وقبل السويد، عاشَ في باريس لفترة طويلة واشتاق إلى الوطن. بعد أسبوع من عودته، ألقي القبض عليه. كان يصلّي في المعسكر، وكان صديقاً للطائفيين[1]، وكتب قصائد ذات محتوى صوفيّ.

الآن كان يقرأ قصيدةً من شعرهِ لستيبانوف.

استمع أبارتشوك إلى القراءة، مستنداً بكتفه إلى الألواح المتقاطعة، المُسمَّرة بين أسرّة الطابقين الأوّل والثاني. قرأ دولغوروكي مغمضاً عينيه نصف إغماضة، وبشفتين مرتجفتينِ ومُطقطقتين. وصوته المنخفض كان مرتجفاً ينشُّ.

أنا لم أختر ساعة الميلاد بنفسي،
لم أخترِ السنة والمنطقة والمملكة والشعب،
كي أعبرَ من خلال العذابات كلها ومعمودية

---

(1) المقصود هنا طائفة من الناس يؤمنون بالحياة السابقة، وبالشهادة في سبيل الرب. (المترجمان).

الضمير، والنار والماء.
أومنُ بالوحش الرهيب[1]
المرمي في الجرفِ الفاغر،
والساقطِ إلى أبعد ما يمكن السقوط إليه،
أنا أؤمن - بالتعفن والتفسّخ!
أنا أؤمن بصوابيّة القوى العليا،
والعناصر التقليدية[2] القديمة،
ومن أعماق روسيا المتفحِّمة
أقول: أنت محق في حُكمكَ ذاك!
فمن الضروري أن تحرق سماكة الوجود
وصولاً إلى صقل الجوهر الماسيِّ
إذا كان ثمّةَ القليل من الحطب في موقد الصهر،
فيا رب، دونكَ جسدي!

واصل دولغوروكي، بعد الانتهاء من القراءة، الجلوسَ وعيناه نصف مغلقتين، واستمرّت شفتاه تتحرّكان بصمت.

قال ستيبانوف:

- هراء، وانحطاط.

أشار دولغوروكي بيد شاحبة، خالية من الدم إلى ما حوله قائلاً:

(1) يستخدمُ الشاعر هنا الوحش الذي يظهرُ في رؤيا يوحنّا اللاهوتي. (المترجمان).

(2) العناصر التقليدية اليونانية: الأرض، والماء، والهواء، والنار، والأثير. (المترجمان).

- أترى إلى أين دفع تشيرنيشيفسكي وغيرتسن الناس الروس. أتذكر ماذا كتب تشادايف[1] في رسالته الفلسفيّة الثالثة؟

وقال ستيبانوف بلهجة المعلم:

- أنت في تقوقعك الفكري الصوفي، مثير للاشمئزاز بالنسبة لي، مثلك مثل منظمي معسكر الاعتقال هذا. تنسى أنت وهم الطريقَ الثالثة والأكثر طبيعيَّة لروسيا: طريق الديمقراطية والحرية.

تجادل أبارتشوك أكثر من مرّة مع ستيبانوف، لكن الآن لم يرغب بالتدخّل في الحديث ووصم ستيبانوف بالعدوّ، والمهاجر الداخلي. مشى باتجاه الزاوية، حيث يصلّي المعمدانيون[2]، واستمع إلى تمتماتهم.

صدح في هذه الأثناء صوت العريف زاروكوف الجهوري:

- وقوف!

- قفز الجميع من أماكنهم - دخلت الإدارة إلى المهجع. رأى أبارتشوك، بعينيه نصف المغمضتين الوجهَ الشاحبَ للفتيل الخافت دولغوروكي، يقف ويداه مسبلتان على جانبيه، وشفتاه تهمسان. ربّما كان يكرّر شعره. وستيبانوف يجلس إلى جانبه، وهو كما هي الحال

(1) أسماء فلاسفة روس اشتهروا في القرن التاسع عشر. (المترجمان).

(2) الكنيسة المعمدانية الإنجيلية هي كنيسة بروتستانتية تؤمن بالكتاب المقدس وبقانون الإيمان النيقاوي الذي تُجمع عليه الكنيسة الأورثوذكسية والكاثوليكية. تؤمن الكنيسة المعمدانية أن المعمودية يجب أن تتم للبالغين فقط وتمارس بالتغطيس وذلك بعد اقتناع الإنسان بالإيمان المسيحي عن حق واعترافه أمام الملأ أن يسوع المسيح هو ابن اللّه وأن يؤمن بعقيدة الثالوث. (المترجمان).

دائماً، وانطلاقاً من دوافع فوضوية، لم يمتثل للقواعد الداخليّة المعقولة.

همس المعتقلون:

- تفتيش، تفتيش.

لكن لم يكن ثمَّةَ تفتيش. سار جنديان شابان يرتديان قبعتين حمراء وزرقاء أحدهما خلف الآخر بين الأسرّة، ينظران إلى المعتقلين.

وعندما أصبحا في محاذاة ستيبانوف، قال أحدهما:

- تجلس، أيّها البروفيسور، تخاف أن تصاب مؤخرتك بنزلة برد.

أدار ستيبانوف رأسه الواسع، ذا الأنف الرفيع، وأجاب بصوت الببغاء العالي مُردِّداً العبارة المحفوظة:

- أيّها المواطن المسؤول، أرجو أن تخاطبني بلغة الجمع، فأنا معتقل سياسيّ.

حصلت حالة طوارئ في المهجع ليلاً - قُتِلَ روبين.

وضعَ القاتلُ مسماراً كبيراً في أذنه أثناء نومه، ثمّ دَفَعَ المسمارَ إلى الدماغ بضربةٍ قويةٍ. استُدعيَ خمسةُ أشخاصٍ إلى ضابط الأمن، بينهم أبارتشوك. كان ما يهمّ ضابط الأمن، على ما يبدو، أن يعرفَ مصدرَ المسمار. لقد وصلت هذه المساميرُ مؤخراً إلى المستودع، وما طُلبتْ للإنتاج بعد.

وقف بارخاتوف أثناء الاغتسال عند الحوض الخشبي إلى جانب أبارتشوك. أدار وجهه المبلل نحوه، وقال بهدوء وهو يلعق قطرات الماء عن شفتيه:

- تذكّر أيّها السافل، إذا أخبرت الضابط - فلن يحدثَ لي شيء. ولكنني سأقتلك هذه الليلة، بطريقة سيرتعش جَراءَها المعسكر كلّه.

حدَّقَ بعينيه المغسولتين بالماء، وهو ينشّف بالمنشفة، في عيني أبارتشوك، وقرأ فيهما ما أراد أن يقرأه، فصافح يد أبارتشوك ومضى.

أعطى أبارتشوك في المطعم زبدية حساء الذرة المخصصة له لنيومووليموف.

قال نيومووليموف وشفتاه ترتجفان:

- هذا وحش، أما صديقنا أبارتشوك! فيا له من رجل! وسحب حساء أبارتشوك نحوه.

نهضَ أبارتشوك عن المائدة بصمت.

تفرّق الحشد عند مخرج المطعم، ودخله بيريكريست. انحنى عندما اجتاز العتبة، فأسقف المعسكر لم يتم تصميمها حسب طوله.

- اليوم عيد ميلادي، تعال نحتفل، ونشرب الفودكا.

شيء فظيع! عشرات الناس سمعوا جريمة الليل، وشاهدوا الشخص، الذي اقترب من سرير روبين.

وما الذي كان سيكلفُ أحدهم القفز، ورفع حالة الإنذار في المهجع. لكانَ باستطاعة مئات الناس الأقوياء، لو اتحدوا أن يتعاملوا مع القاتل خلال دقيقتين، ويُنقذوا رفيقهم. لكن أحداً لم يرفع رأسه، ولم يصرخ. لقد قتلوا الرجل، مثلما يقتل خروف. استلقى الناس متظاهرين بالنوم، ووضعوا ستراتهم المبطنة على

عيونهم، محاولين ألّا يسعلوا، وألّا يسمعوا كيف تقلّب الرجل المحتَضرُ بلا وعي.

يا لها من خساسة، يا لهُ من إذعان قطيع!

لكن هو أيضاً لم يكن نائماً، وقد صمت، غطّى رأسه بسترة مبطنة... كان يعرف جيّداً، أنّ الطاعة ليست من التفاهات، فقد ولّدتها التجربة، ومعرفة قوانين معسكر الاعتقال.

لو أنّهم نهضوا، وأوقفوا القاتل، ففي كل الأحوال، الرجل الذي يحمل سكيناً أقوى من الشخص الأعزل. إنّ قوّة المهجع هي قوّة لدقيقة، أمّا السكين فيبقى سكّيناً.

وأبارتشوك يفكر في الاستجواب القادم: سيطلب ضابط الأمن شهادات بكل بساطة - إنّه لا ينام ليلاً في المهجع، وهو لا يغتسل في غرفة المدخل، مُعرِّضاً ظهره للضرب، ولا يسير في المناجم الطولانية، وهو لا يدخل غرفة تبديل الثياب، المكان الذي قد يرمونَ فيه فجأة كيساً على الرأس.

نعم، نعم، لقد رأى كيف مشى الشخص ليلاً إلى روبين النائم. سمعَ روبينَ كيف كان يشخر، ويضرب برجليه ويديه السرير وهو يحتضر.

استدعى ضابط الأمن، النقيب ميشانين، أبارتشوك إلى مكتبه، أغلق البابَ قائلاً:

- اجلس أيّها السجين.

بدأ بطرح الأسئلة الأولى، تلك التي تلقى أجوبة سريعة عنها من المعتقلين السياسيين.

ثم رفع عينيه المُتعَبَتين نحو أبارتشوك، ونظر للحظات، وهو يعرف مقدماً أنّ المعتقل ذا الخبرة الطويلة لن يقولَ أبداً كيفَ وصلَ المسمارُ إلى يدي القاتل، خوفاً من التنكيل المهجعي الوشيك.

نظر أبارتشوك أيضاً إليه، وتفحّص وجه النقيب الشاب، وشعره وحاجبيه، والنمش على أنفه وفكّر، أن النقيب يكبرُ ابنَه ما لا يزيد عن سنتين أو ثلاث.

طرح النقيب السؤالَ نفسَه الذي استُدعيَ من أجله، والذي لم يُجب عنه ثلاثةٌ ممن حُقِّقَ معهم قبل أبارتشوك.

صمت أبارتشوك لبعض الوقت.

- هل أنت أصمّ؟

استمرّ أبارتشوك في الصمت.

كم كان يرغب، أن يقول له ضابط الأمن، حتى ولو لم يكن صادقاً، ولو فقط من قبيل استخدامِ أسلوب التحقيق المعتمد: «اسمع، أيّها الرفيق أبارتشوك، إنّك شيوعي. اليوم أنت في السجن، وغداً أنا وأنت سندفع رسومَ عضوية الحزب في منظمة واحدة. ساعدني كصديق لصديقه، كعضو في الحزب».

لكن النقيب ميشانين قال:

- أأنت نائم، سأوقظك الآن.

لكن أبارتشوك لم يكن بحاجة إلى الإيقاظ.

قال بصوت أجشّ:

- سرق بارخاتوف المساميرَ من المستودع. عدا ذلك، فقد أخذ ثلاثةَ أزاميل. أما من ارتكب جريمة القتل فهو، في رأيي، نيقولاي

أوغاروف. أنا أعرف أنّ بارخاتوف أعطاه المسمار، هدّد أوغاروف روبينَ بالقتل عدّة مرّات. ووفى بوعده يوم أمس: لأن روبين لم يعطه استراحة مرضية.

ثم أخذ السيجارة الممدودة إليه وقال:

- أنا أعتبر أنّ من واجبي الحزبي إعلامكم بذلك أيها الرفيق ضابط الأمن. إنّ الرفيق روبين عضوٌ قديم في الحزب.

أعطاه النقيب ميشانين ولّاعة وبدأ بسرعة يكتب بصمت، ثم قال بصوت رقيق:

- يجب أن تعرف، أيها السجين - أنّهُ لا يُسمح لك أن تتحدَّث عن أيةِ عضويّةٍ في الحزب. وممنوع عليك مخاطبة الآخر بكلمة رفيق. أنا بالنسبة لك المواطن المسؤول.

قال أبارتشوك:

- مخطئٌ أنا، أيّها المواطن المسؤول.

قال له ميشانين:

- سيكون الوضع على ما يرام، لبضعة أيّام، حتى أنتهي من التحقيق. ومن ثم كن على علم... يمكن نقلك إلى معسكر آخر.

قال أبارتشوك:

- لا، أنا لا أخاف، أيّها المواطن المسؤول.

سار إلى المستودع، وهو يعرف أنّ بارخاتوف لن يسأله عن شيء. سينظر إليه بارخاتوف بلا هوادة ليعرف الحقيقة؛ متابعاً تحرّكاته ونظراته وسعاله.

كان سعيداً، لقد انتصر على نفسه.

استعاد من جديد حق إصدار الأحكام. وأسف أبارتشوك، وهو يتذكر روبين، أنّه لم يستطع إخباره بالأمور السيّئة التي كان يفكر فيها تجاهه.

مرّت ثلاثة أيام، ولم يظهر ماغار. سأل أبارتشوك عنه في إدارة المنجم، ولم يعثر على اسم عائلته في أيّة قائمة عند معارفه من المدوّنين.

مساء، وعندما أدرك أبارتشوك أنّ القدر قد فصلهما، وصل الممرض تريوفيليف إلى المهجع مغطىً بالثلج، نفض الجليد عن رموشه، وقال لأبارتشوك:

- اسمع، وصل إلى القسم الصحي معتقل، ويطلب منك أن تأتي إليه.

ثم أضاف تريوفيليف قائلاً:

- هيّا الأفضل أن أوصلك. استأذن من العريف، وإلّا فأنت تعرف، ما من وعيٍ عند سُجنائنا...

41

أحضر الممرضُ أبارتشوكَ إلى ممرّ المستشفى، الذي تفوح منه رائحته الخاصّة، تلك الرائحة التي تمتازُ من رائحة المهجع بسوئها. سارا فيما يكادُ يكون عتمةً بجانب نقّالات خشبية مكدّسة، وحزم سترات مبطنة مربوطة، تنتظر التعقيم على ما يبدو.

رقدَ ماغار في غرفة معزولة ذات جدران خشبية، حيث وقف سريران من الحديد أحدهما بجوار الآخر. عادة ما يتم هنا عزل المرضى المصابين بالأمراض المعدية، أو الذين على وشك الموت. بدت قوائم الأسرّة الرقيقة كما لو أنها مصنوعة من الأسلاك، لكنّها لم تكن محنيّة، لم يرقد أبداً على هذه الأسرّة أشخاص ممتلئو الأجساد.

- ليس إلى هناك، ليس إلى هناك، تعالَ إلى اليمين - جاء صوت مألوف جداً لدرجة أنّه هُيّئ لأبارتشوك أنّه ما من شعرٍ قد شابَ، وما من أسر، بل ها هوذا أمامه ما عاشَ من أجله وما قدّم حياته فداءً له.

نظر في وجه ماغار، وقال ببطء منفعلاً:

- مرحباً، مرحباً، مرحباً...

قالَ ماغار، خشيةَ ألّا يسيطرَ على توتّره، ما يقالُ كل يوم عمداً:

- هيّا اجلس، اجلس على السرير مقابلي تماماً.

وأضاف، عندما رأى، النظرة التي ألقى بها أبارتشوك على السرير المجاور:

- لن تزعجه، وما عادَ بإمكان أحد أن يزعجه.

انحنى أبارتشوك كي يرى وجه صديقه بشكل أفضل، ثم نظر إلى الوراء يلقي نظرةً على الميت المغطّى:

- منذ متى؟

- منذ نحو ساعتين، لم يزعجه الممرضون، بانتظار الطبيب، وهذا أفضل، لكانوا قد وضعوا شخصاً آخر حيّاً، لن يفسحَ لنا مجالاً في الحديث.

- هذا صحيح.

قال أبارتشوك ذلك ولم يطرح أسئلة تهمّه كثيراً: «هل سُجِنتَ بقضية بوبنوف أم سوكولنيكوف؟ وكم سنة حكموك؟ كنت في سجن العزل السياسي في مدينة فلاديمير أم سوزدال؟ باجتماع خاص أم بمجلس عسكري. هل وقعت تعهداً على نفسك؟».

نظر إلى الجثة المغطاة، وسأل:

- من هو، ما سبب وفاته؟

- مات بسبب معسكر الاعتقال، سجن لمناهضته «الكولاك[1]».

(1) سياسة اتّبعها البلاشفة من 1930 إلى 1954، في التعامل مع الفلاحين، تزامنت مع إجبارهم على تصنيع الخبز وضم أراضيهم إلى جمعيات تعاونية، وأدت إلى استياء واسع النطاق بين الفلاحين، والإخلاء الجماعي لـ«الملاكين» وعائلاتهم إلى مستوطنات خاصة، ومصادرة ممتلكاتهم (ما

كان ينادي فتاة اسمها ناستيا، وأراد أن يخرج إلى مكان ما. . .

ميّز أبارتشوك تدريجياً وجه ماغار في نصف الظلمة. لم يكن ليعرفه، فقد تغيّر كثيراً - العجوز على فراش الموت!

فكر، وهو يشعر بلمسة كوع ذراع الميت الملتوية في ظهره، ويحس بنظرة ماغار نحوه: «يبدو أنّه هو أيضاً يعتقد، أنّه ما كان ليعرفني في حياته لو رآني على حالي الآن».

وقال ماغار:

- فهمت للتوّ - كان يُمَأمئ بلفظةٍ ما: ما. . ما. . ما. . ما. . لعله كان يطلب: «ماء، ماء»، والكأس قريب منه، ليتني نفّذت رغبته الأخيرة.

- أرأيت، الميّت يزعج أيضاً.

- وهذا مفهوم.

قال ماغار ذلك، وسمع أبارتشوك النبرة المألوفة، التي كانت تقلقه دائماً: هكذا عادة يبدأ ماغار حديثاً جدّياً.

- نحن وفي كلامنا عنه، إنّما نتحدّث عن أنفسنا.

- لا، لا! - قال أبارتشوك وقد أمسك كفَّ ماغار الساخن، ضغط عليه، ضمَّ الرجلَ إلى كتفه، اهتز جرَّاءَ شهقات بكائه الصامتة، وضاق تنفّسه، وتمتم قائلاً:

- شكراً لك - شكراً لك - شكراً، أيّها الرفيق، أيّها الصديق.

يسمى بعملية «التأميم»)، وإلى عمليات إعدام واسعة. وبسبب عدم وضوح هذه السياسة، حدثَ تعسّف السلطات المحلية، ووقعَ الكثير من الضحايا، معظمهم من الفلاحين ومتوسطي الدخل من سكان الريف. (المترجمان).

صمت الاثنان، تنفّسا سويّة بصعوبة. واختلط تنفسهما بنفسٍ واحد، وبدا لأبارتشوك أنْ ليس تنفسهما فقط هو الذي اندمج.

كان ماغار أوّل من تكلّم:

- اسمع، اسمع أيّها الصديق، أنا أناديك هكذا للمرّة الأخيرة.

قال أبارتشوك:

- دعك من هذا، أنت ستعيش!

استوى ماغار على السرير قائلاً:

- لا أريد ما يشبه التعذيب، لكن يجب أن أقول - توجّه أيضاً إلى الميّت - واسمع أنت، هذا يخصّك أيضاً ويخصّ ناستيا صديقتك - هذا هو واجبي الثوري الأخير، وأنا سأقوم به! أنت أيّها الرفيق أبارتشوك، شخصيّة خاصّة. نعم ونحن قد التقينا يوماً ما في زمن صعبٍ وخاص- أعتقد، أنّه زمننا الأفضل. اسمع ما سأقوله لك.. لقد أخطأنا. انظر إلى أين أفضى بنا خطؤنا؛ أترى... يجب علينا أنا وأنت أن نطلب المغفرة منه. أعطني سيجارة. عن أيّة توبة يمكن الحديث. لا يمكن أن تفتديه الآن بأيّ توبةٍ كانت. هذا ما أردت أن أقوله لك أوّلاً. والآن، ثانياً: نحن لم نفهم الحرّية. لقد سحقناها، وماركس لم يُقدّرها: إنّها الأساس، والمعنى، والأساس تحت القاعدة. لا توجد ثورة بروليتارية من دون حرّية. اسمع ثالثاً: نحن نمرّ من خلال معسكر الاعتقال، والتايغا[1]، لكنّ إيماننا أقوى

(1) التايغا أو الغابات الشمالية أو التَّيْغَة (بالروسية: тайга́) هي منطقة بيوجغرافية شمالية تحت قطبية متميزة بغطاء نباتي متكون على الخصوص من أشجار الصنوبر وغيرها من الصنوبريات دائمة الخضرة، والمتأقلمة مع المناخ البارد. الغابات الشمالية هي آخر المناطق المشجرة إلى الشمال.

من أيّ شيء. هذه ليست قوّة، بل هي ضعف، وحفاظ على الذات. وهناك خارج الأسلاك الشائكة، يأمر الحفاظُ على الذات الناسَ بالتغيّر، وإلّا فسيقتلون، وسيدخلون السجن - والشيوعيون خلقوا أصناماً، ووضعوا الكتّافيّات، وارتدوا الزيّ الرسمي، ويعتنقون القومية، ويرفعون يدهم على الطبقة العاملة، وإذا احتاج الأمر، سيصلون إلى المئة السوداء[1]... أمّا هنا، وفي معسكر الاعتقال، فإنّ الغريزة نفسها هي التي تأمر بعدم التغيّر - إذا كنت لا تريد أن تتغطى بغطاء خشبي، فلن تتغيّر في عقود معسكر الاعتقال، وهنا يكمن الخلاص... وجهان لعملة نحاسيّة واحدة...

- توقّف! - صاح أبارتشوك وقفز، ورفع قبضة يده المشدودة نحو وجه ماغار قائلاً: - لقد كسروك! أنت لم تتحمّل! ذلك الذي قلته، كذب وهذيان.

- حبّذا لو كان الأمر كذلك، لكنّني لست في حالة هذيان. فأنّا أناديك باسمك من جديد! كما كنت أناديك قبل عشرين عاماً! إذا لم نستطع العيش، كثوريين - فلنمت، العيش هكذا هو أسوأ.

- يكفي، كفى!

تتميز غابات التايغا بأشجارها المقاومة للبرودة وذالك بواسطة الغشاء الصمغي الموجود تحت الطبقة الخارجية للشجرة، تشكل أكثر الأراضي الداخلية لشمال روسيا وشبه الجزيرة الإسكدنافية وكندا. تعد الغابات الشمالية من أهم مصادر الكوكب من الأكسجين. (المترجمان).

(1) المئة السوداء: اسم جمعي لممثلي المنظمات اليمينية المتطرّفة في روسيا في الفترة 1905-1917، الذين دافعوا عن شعارات: السلطة المطلقة، وشوفينية الدولة العظمى، ومعاداة السامية. (المترجمان).

- اعذرني. أنا متفهّم. أنا أشبه المومس العجوز، التي تبكي على الفضيلة الضائعة. لكن أقول لك: تذكّر! واعذرني يا عزيزي...

- أعذرك؟ الأفضل لو أنّي، الأفضل لو وجدتك هكذا، مثل هذا الميّت، مستلقياً، ولم تعش حتى ساعة اللقاء...

قال أبارتشوك، وقد أصبح واقفاً عند الباب:

- سآتي إليك... سأصحّح عقلك، ومن الآن وصاعداً سأكون أنا معلّمك.

التقى الممرّضُ تريوفيليف في الصباح أبارتشوك في فناء المعسكر، وكان يجرّ إناءً كبيراً يحوي حليباً، ملفوفاً بحبل على زلّاجات. والغريبُ أن وجهه كان متعرّقاً، في هذه المنطقة التي تقع خلف الدائرة القطبية. قال له:

- لن يشربَ صديقُك الحليبَ، شنق نفسه ليلة البارحة.

ممتع أن تدهش شخصاً بخبر، ونظر الممرّض إلى أبارتشوك نظرةً ودّيةً جدّية.

- ألم يترك رسالة؟ - سأل أبارتشوك وهو يشهق نفساً جليديّاً. وهُيّئ له أن ماغار قد ترك له رسالةً بالتأكيد - وقد وجدتَها صدفة عليه ليلةَ أمس؟

- لماذا الرسالة؟ فكل ما تكتُبه - يصل إلى يد ضابط الأمن.

كانت هذه الليلة هي الأصعب في حياة أبارتشوك. استلقى بلا حراك، وهو يُحملِقُ، صارّاً بأسنانهِ وموسّعاً عينيه، في الجدار المبقّع بآثار البقّ المهروس.

خاطبَ ابنه، الذي لم يرغب في منحهِ اسم عائلته يوماً ما،

وناداه: «أنت الآن وحدك معي، أنت وحدك - أملي. أرأيت، كيف أراد الصديقُ والمعلمُ أن يخنق عقلي وإرادتي، وقد خنق نفسه. توليا، يا توليا، أنت وحدك، الوحيد عندي في هذا العالم. هل تراني، هل تسمعني؟ هل ستعلم يوماً ما، أن والدك وفي هذه الليلة، لم ينحنِ أو يتردد؟».

أمّا من حوله وإلى جواره فقد نام المعسكر - نام بصعوبة، وبضجيج، وبقبح، في جوٍّ ثقيل وخانق، مع الشخير، والثرثرة، وزعيق الأحلام، وصرير الأسنان، وأنين مطوّل وصراخ.

استوى أبارتشوك فجأة في السرير، وهُيّئ له أن خيال شخص ما تحرّك بسرعة وبلا ضجيجٍ بالقرب منه.

42

في أواخر صيفِ 1942 استولت قوات مجموعة كلايست[1] القوقازية الألمانية على أوّل حقل نفطي سوفييتي بالقرب من مايكوب[2]. كانت القوات الألمانية حينها في رأس الشمال[3] وجزيرة كريت، وفي شمال فنلندة وعلى شواطئ بحر المانش.

---

(1) بول لودفيغ فون كلايست ايوالد (8 آب (أغسطس) 1881- 13 تشرين الثاني (نوفمبر) 1954). مشير ألماني، كان قائد جيوش الدبابات الألمانية على جبهة القوقاز الجنوبية خلال الحرب العالمية الثانية، وهو المارشال الألماني الوحيد الذي مات أسيراً في السجون السوفييتية. (المترجمان).

(2) مايكوب (بالأديغية: Мыекъуапэ مايكواب)، (بالروسية: Майкоп)، وتعني بالأديغية «سهل التفاح»، عاصمة جمهورية أديغيا ذات الحكم الذاتي في الاتحاد الروسي، وهي أكبر مدن هذه الجمهورية، وتعدّ واحدة من الجمهوريات الشركسية. (المترجمان).

(3) رأس الشمال (بالنرويجية: Nordkapp) يقع في أقصى شمال النرويج على شواطئ جزيرة ماغرويا ضمن بلدية نوردكاب في مقاطعة فينمارك، وهو الزاوية الشمالية القصوى في أوروبا. الرأس يتضمن جرفاً عالياً 307 أمتار (1,007 قدم)، مع هضبة مسطحة كبيرة في الأعلى حيث يمكن للزوار الوقوف ومشاهدة الشمس منتصف الليل أو النظر إلى بحر بارنتس في الشمال. وقد شكّل هذا المنحدر المهيب معلماً ملاحياً للبحارة منذ زمن بعيد. (المترجمان).

ووقف المارشال الشعبي الجندي تحت الشمس إرفين روميل[1]، على بعد 80 كيلومتراً من الإسكندرية. وغرسَ الألمان راية الصليب المعقوف على قمّة جبل إلبروس[2].

تلقّى مانشتاين[3] أمراً بنقل المدافع العملاقة والفرفير[4]-

---

(1) إرفين روميل (بالألمانية: Erwin Rommel) ولد في 15 نوفمبر 1891 م في بلدة هايدنهايم قرب شتوتغارت الألمانية كان يلقب بثعلب الصحراء، يعتبر واحداً من أمهر القادة في حرب الصحراء. حصل على رتبة مشير أثناء الحرب العالمية الثانية في شمال أفريقيا. انتحر في 14 تشرين الأوّل (أكتوبر) عام 1944 م. (المترجمان).

(2) جبل إلبروس (Iуашъхьэмафэ باللغة الشركسية)؛ هو بركان خامد يقع في سلسلة جبال القوقاز الغربية في جمهورية قبردينو - بلقاريا، روسيا، بالقرب من الحدود مع جورجيا. قمة إلبروس هي أعلى قمة في جبال القفقاس وفي روسيا وأوروبا، وبارتفاع يبلغ 5,642 م، وهو في المرتبة العاشرة عالمياً. وقد اتخذته قبردينو - بلقاريا رمزاً في علمها وشعارها. ارتبط اسم إلبروز ببعض الأساطير مثل تقييد بروميثيوس في الجبل بالسلاسل لإعطائه النار للبشر. (المترجمان).

(3) إريش فون مانشتاين (بالألمانية: Erich von Manstein)، نوفمبر 1887 في برلين - 10 يونيو1973) (الاسم الكامل عند ولادته فريتز إريش فون ليفنسكي) كان مشيراً ألمانياً. وكان رئيس أركان قوات غيرد فون رونتشتيت خلال غزو بولندا عام 1939 لدى اندلاع الحرب العالمية الثانية. وعندما هاجم أدولف هتلر روسيا عام 1941، أعطى مانشتاين جيشاً مدرعاً قاده ببراعة فائقة رغم أنه لم يكن خبيراً بحرب المدرعات. (المترجمان).

(4) نيبيل فيرفر (باللغة الألمانية: Nebelwerfer) ومعناه (قاذف الدخان) وذلك للتمويه عند دوره الحقيقي الذي كان إطلاق ستة صواريخ خلال ست ثوان من خلال ستة فوهات مدفعية. كان مدفعاً للقنابل الألمانية التي طورت بعد الحرب العالمية الأولى، ثم طور لاحقاً إلى مدفع قاذف لصواريخ متعددة وكان من أهم الأسلحة الميدانية خلال الحرب العالمية الثانية. (المترجمان).

المدفعية الصاروخية الجديدة، إلى قلعة البلشفيّة - في لينينغراد.

أعدَّ موسوليني الشكَّاك خطة لدخول القاهرة، وتدرّب على ركوب الحصان العربي. وديتل[1] الجندي على الثلج، وقف على تلك المناطق الشمالية التي لم يصلها الفاتح الأوروبي من قبل. وأصبحت باريس وفيينا وبراغ وبروكسل مدناً ألمانية إقليمية.

لقد حان الوقت لتنفيذ خطط الفاشيّة الأكثر وحشية، تلك الخطط التي تستهدف الإنسان وحياته وحرّيته. يكذب قادة الفاشية، عندما يزعمون أن توتّر الصراع يجبرهم أن يكونوا وحشيين. إنّ الخطر على العكس من ذلك يجعلهم متيقظين، ويُجبرهم عدم الثقة بقوّتهم على كبح جماحهم.

سيغرق العالم بالدماء في اليوم الذي ستكون فيه الفاشية واثقة تماما من انتصارها النهائي. وإذا لم يبق للفاشية أعداء مسلّحين على الأرض، فلن يكون ثمَّة حدّ للجلّادين الذين يقتلون الأطفال والنساء والمسنّين، لأنّ الإنسانَ هو العدوّ الأساسي للفاشيّة.

تبنّت الحكومة الاستبدادية خريفَ عام 1942 عدداً من القوانين القاسية جداً وغير الإنسانية.

وعُزلَ على وجه الخصوص، في 12 أيلول (سبتمبر) عام 1942، وفي ذروة النجاح العسكري للاشتراكية القومية، اليهودُ

---

(1) إدوارد وولات كريستيان ديتل (الألماني إدوارد فولرات كريستيان ديتل؛ 21 تموز (يوليو) 1890، بافاريا - 23 حزيران (يونيو) 1944، النمسا) - جنرال عقيد ألماني (منذ 1942)، شارك في الحربين العالميتين الأولى والثانية. (المترجمان).

المقيمون في أوروبا تماماً عن سلطة المحاكم ونقلوا إلى الغيستابو[1].

(1) الجيستابو أو الغيستابو هو البوليس السري الألماني Gestapo (والغيستابو هي كلمة مختصرة من Geheime Staatspolizei أي شرطة (Polizei) الدولة (Staat) السرية (geheime)) وهو أكثر أجهزة الأمن الألمانية شهرة وسرية والمسؤول عن عديد من عمليات الاغتيال والتدمير للملايين خلال فترة الحكم النازي، تأسسَ لحماية الدولة الألمانية والحزب النازي. في 26 أبريل 1933 في بروسيا. ويشير الروائي هنا إلى استهداف اليهود فقط من قبل هذا الجهاز مع أنّه ظلمَ الناسَ جميعاً من دون اعتبار لقومياتهم أو أديانهم. (المترجمان).

43

كانت صوفيا أوسيبوفنا ليفينتون تفكر أحياناً في حياتها السابقة - خمس سنوات دراسية في جامعة زيوريخ، ورحلتها الصيفية إلى باريس وإيطاليا، والحفلات الموسيقية في المعهد الموسيقي والبعثات إلى المناطق الجبلية في آسيا الوسطى، والعمل الطبي الذي مارسته منذ اثنين وثلاثين عاماً، والأطعمة المفضَّلة، والأصدقاء الذين تتشابك حيواتهم مع الأيام الصعبة والممتعة في حياتها، والمكالمات الهاتفية المعتادة، والكلمات المألوفة «خوش (تريد). . . بوكيدوفا (مع السلامة). . .»، وألعاب الورق المقوى، وما تبقّى من أشيائها في غرفتها في موسكو.

تذكرت أشهر ستالينغراد - ألكساندرا فلاديميروفنا، جينيا، سيريوجا، فيرا، ماروسيا. كلما كان الناسُ أقرب إليها، بدا لها أنهم ابتعدوا أكثر عنها.

كانت تبحث بطريقة ما، قبيل المساء في عربة شحن في القطار المتوقف على السكَّةِ الاحتياطية، عندَ عقدة سكة حديد معيّنة، ليست بعيدة عن كييف، عن قملٍ في ياقة سترتها، وسمعت اثنتين من النساء المسنّات تتحدّثان بسرعة وصوت خافت باللغة العبريّة. أدركت في

هذه اللحظة بوضوح غير عادي، أنّهما تتحدثان عنها بالذات، مع سونيشكا، سونكا، صوفي، صوفيا أوسيبوفنا ليفينتون - كل ذلك قد حدثَ. . .

كان التغيير الرئيسي في الناس، هو أنّ إحساسهم بطبيعتهم الخاصّة، بشخصيّتهم قد ضعف، وقوي شعورهم بالمصيرِ ونما.

فكرت صوفيا أوسيبوفنا: «من أكون في الحقيقة - أنا، أنا، أنا؟ تلك الصغيرة، التي يسيل مخاطها، وتخاف أباها وجدَّتها، أو تلك السمينة، العصبية، ذات العوارض على ياقتها، أم هذه «المُقمّلة والجرباء؟»».

ولّت الرغبة في السعادة، لكن عديداً من الأحلام قد ظهر: قتلُ القمل. . . الوصولُ إلى الشقوق وتنفّس الهواء. . . والتبوّل. . . وغسل رجل واحدة على الأقل. . . والرغبة، الحيَّةُ في الجسم كلّه - وهي الشرب.

دُفِعَت إلى داخل العربة، ونظرت في شبهِ العتمة، التي بدت لها في البداية ظلاماً، سمعت ضحكةً خفيفةً.

سألت:

- المجانين يضحكون هنا؟

أجابها صوت رجل:

- لا، هنا يقولون نكتة.

قال أحدهم بكآبة:

- امرأة روسيّة أخرى وصلت إلى قطارنا التعيس.

حدّقت صوفيا أوسيبوفنا بعمق، وهي تقف عند الباب، كي تعتادَ العتمة، وتجيب عن الأسئلة.

ابتلعت مباشرة جوّاً من الكلمات والنبرات المنسية منذ الطفولة، بدل البكاء، والأنين، والرائحة الكريهة...

أرادت صوفيا أوسيبوفنا أن تخطو إلى داخل العربة، لكنها لم تستطع. فقد تلمّستْ في الظلمة رِجْلاً نحيلةً في سروال قصير وقالت:

- عفواً أيّها الفتى، هل آذيتك؟

لكن الفتى لم يردّ عليها. قالت صوفيا أوسيبوفنا في الظلام:

- أيّها الأم، بإمكانك إزاحة فتاكِ الأخرس؟ فأنا لا استطيع الوقوف على رجلي طوال الوقت.

وعلا صوتٌ هستيري كما لو كان لممثِّلٍ من الزاوية:

- كان عليك إرسال برقية مسبقاً، لكنّا قد جهّزنا لك غرفة مع حمام.

أجابت سوفيا أوسيبوفنا عليه بشكلٍ خاص:

- معتوه.

قالت المرأة التي كان بالإمكان تمييز وجهها في الضوء الخافت:

- اجلسي بالقرب مني، توجد هنا أمكنة كثيرة.

شعرت صوفيا أوسيبوفنا أن أصابعها ترتعش قليلاً وبسرعة.

كان هذا عالماً مألوفاً لها منذ الطفولة، عالم مدينة يهودية صغيرة، وشعرت كيف تغيّر كل شيء في العالم.

كان في العربة عمال من الحرفيين، واختصاصي لاسلكي، وطالبات معهد تربية، ومدرسو المدارس النقابيّة، ومهندس من مصنع التعليب، واختصاصيّ في الثروة الحيوانية، وفتاة، وطبيب بيطري. لم تعرف المدينة سابقاً مثل هذه المهن. لكن ها هي صوفيا أوسيبوفنا

لم تتغيّر، إنّها هي نفسها التي كانت تخاف والدها وجدّتها. أيمكن أن يكون هذا العالم الجديد هو نفسه ولم يتغيّر؟ ولكن بشكل عام، أليس الأمر سيّان، فسواء كانت هذه المدينة، قديمة أم جديدة، إنّها تنهارُ منزلقةً على المنحدر إلى الهاوية.

سمعت صوت شابة تقول:

- الألمان المعاصرون متوحِّشون، لم يسمعوا حتى عن هاينريش هاينه[1].

قال صوتُ رجل من زاوية أخرى، بسخرية:

- لكن في النتيجة يسوقُنا هؤلاء الهمج مثل الماشية. فبماذا ساعَدَنا هذا الـ«هاينه»؟

سُئلت صوفيا أوسيبوفنا عن الوضع على الجبهات، وبما أنها لم تخبرهم بأي أمرٍ جيّد، فقد قيل لها إن معلوماتها غير صحيحة، وأدركت أن عربة العجول لديها استراتيجيتها الخاصة القائمة على تعطّش عاطفي للحياة على هذه الأرض.

- أيعقل أنّك لا تعرفين، أنّ إنذاراً تم إرساله إلى هتلر كي يطلق سراح اليهود المعتقلين جميعاً وعلى الفور؟

---

(1) هاينرش هاينه Heinrich Heine (1797-1856): شاعر وناقد وصحفي ألماني شهير، ويُعدّ من أهم الشعراء الألمان الرومانسيين. وتعود شهرته لتأليفه الكثير من القصائد في صورة أغانٍ، استعملها لاحقاً في موسيقاهم ملحنون عظماء أمثال روبرت شومان. يعود إليه تأليف منطوق السلام الوطني الألماني الذي استخدمه أيضاً النازيون في عهد الزعيم هتلر، وتستخدم منه الفقرة الثالثة بعد سقوط الدولة الثالثة إثر الحرب العالمية الثانية. كان منطوق الفقرة الأولى «ألمانيا، ألمانيا فوق الجميع». وابتعد الألمان عن هذا المنطوق بعد الحرب العالمية الثانية. (المترجمان).

نعم، نعم، الأمر كذلك بالتأكيد. عندما يتبدّلُ التوق البقريُّ المحتوم، إلى إحساس جارحٍ مرعب، يأتي الأفيون الذي لا معنى له لمساعدة الناس - التفاؤل.

لم يمض وقت طويل حتى انتهى الاهتمام بصوفيا أوسيبوفنا، وتحوّلت إلى رفيقة طريق، لا تعرف إلى أين كانوا ينقلونها ولماذا، مثلها مثل أي شخص آخر. لم يسألها أحد عن اسمها واسم والدها، ولم يحفظ أحد اسم عائلتها.

حتّى أنّ صوفيا أوسيبوفنا دُهشت - لقد احتاج طريق العودة من الإنسان إلى حيوانٍ قذرٍ تعيس محروم من الاسم والحرّية بضعةَ أيام فحسب، في الوقت الذي استغرق فيه طريق الوصول إلى الإنسان ملايين السنين.

ما أدهشها، هو أن يستمر قلق الناس بسبب تفاهات الحياة اليومية، إبّان هذه الكارثة العظيمة التي حلّت بهم، ويتضايقون بعضهم من بعض بسبب تفاهات صغيرة.

همست لها امرأة عجوز قائلة:

- انظري أيتها الدكتورة، إلى تلك السيّدة الكبيرة، إنّها تجلس عند الشق، كما لو أن طفلها هو الوحيد الذي يحتاج إلى التنفّس بالأوكسجين. تعتقد الوقحة أنّها ذاهبة إلى منتجع مائيّ.

توقف القطار ليلاً مرّتين، واستمع الناس إلى صرير خطوات الحرّاس، والتقطوا كلمات روسيَّة وألمانيَّة غامضة.

كان صوتُ لغة غوته فظيعاً في محطات القطار الروسية، لكن الأكثر فظاعة وشرّاً اللغة الروسية الأم، التي كانت يتحدّثُ بها أولئك الذين يعملون مع الحرس الألماني.

عانت صوفيا أوسيبوفنا من الجوع مع الجميع في الصباح، وحلمت برشفة ماء. وحلمها كان خجولاً صغيراً، تخيّلت علبةَ كونسوا مُجعّدة، في قعرها عكر دافئ. حكّت جسدها بحركة سريعة قصيرة، مثل الكلب الذي يحك جسمه من البراغيث.

بدا لصوفيا أوسيبوفنا الآن أنّها فهمت الفرق بين الحياة والبقاء على قيد الحياة. لقد انتهت الحياة، وتمزَّقت، أمّا البقاء على قيد الحياة فقد طال واستمر. ومع أنَّ هذا البقاء كانَ تافهاً ويرثى له، فإنّ فكرة الموت العنفي ملأت روحها رُعباً.

بدأت السماء تمطر، ودخلت بضع قطرات من خلال نافذة صغيرة شَعريّة. مزّقت صوفيا أوسيبوفنا شريطاً رفيعاً من حافة قميصها واقتربت من جدار العربة، وفي المكان الذي يوجد فيه شق صغير، أدخلت قطعة القماش، وانتظرت حتى تتشرّب من رطوبة المطر. ثم سحبتها من الشقّ وبدأت مضغها باردةً ومبللةً بالماء. بدأ الناس أيضاً عند الجدران وعلى زوايا العربة، بتمزيق شرائح قماشيّة، وشعرت صوفيا أوسيبوفنا بالفخر - لقد اخترعت وسيلة لالتقاط المطر.

جلس الصبي، الذي دفعته صوفيا أوسيبوفنا في الليل، ليس بعيداً عنها وشاهد الناس يضعون خرقاً في الفجوة بين الباب والأرض. رأت وجهه النحيل الحاد، في الضوء الخافت. كان يبلغ من العمر على ما يبدو ستَّ سنواتٍ. فكرت صوفيا أوسيبوفنا أنَّ أحداً لم يتحدث مع الصبي خلال وجودها في العربة، وكان يجلس بلا حراك، ولم يقل كلمةً لأحد. مدّت له قطعة القماش المبللة وقالت:

- خذها يا فتى.

بقي صامتاً.

قالت:

- خذها، خذها.

مدّ يده متردّداً.

سألت:

- ما اسمك؟

أجاب بهدوء:

- دافيد.

قالت لها الجارةُ موسيا بوريسوفنا: إنّ دافيد جاء من موسكو لزيارة جدّته والحرب عزلته عن والدته. ماتت الجدّة في معسكر الاعتقال النازي، ولا تسمح قريبة دافيد، ريفكا بوخمان، المسافرةُ مع زوجها المريض، للصبيّ بالجلوس إلى جانبها.

كانت صوفيا أوسيبوفنا بحلول المساء قد سمعت الكثير من الأحاديث والقصص والنقاشات، وهي بدورها تحدّثت وجادلت. وكانت تخاطبُ مُحدِّثيها:

- أيّها الإخوة، اسمعوا ما سأقوله لكم.

انتظر الكثيرون مع الأمل نهاية الطريق، واعتقدوا أنهم سيُنقلون إلى المعسكرات، حيث سيعمل كلّ واحد في تخصّصه، وسيوضَعُ المرضى في مهاجع للمعوَّقين. تحدَّثوا جميعاً عن ذلك بشكل مستمر تقريباً. أمّا الرعب الغامضُ، الأبكمُ، والعواءُ الصامتُ، فلم يخرج إلى العلن، عاش داخل الروح.

علمتْ صوفيا أوسيبوفنا من القصص التي استمعت إليها أن ليس ما هو إنسانيٌّ فقط يعيش داخل الإنسان. حكوا لها عن امرأة وضعت شقيقتها المشلولة في عربة وسحبتها إلى الخارج في ليلة شتوية

صقيعيّة وجمدتها. وقيل لها إن هناك أمهات قتلن أطفالهن، وإن امرأة منهن تسافر معهم في العربة. حدَّثوها عن أشخاصٍ، مثل الفئران، عاشوا سرّاً عدّة شهور في أنابيب الصرف الصحي وتغذوا على مياه الصرف الصحي، وهم على استعداد لأية معاناة، لغايةِ البقاءِ على قيد الحياة فحسب.

كانت حياة اليهود وكثيرينَ غيرهم في ظل الفاشية رهيبة، واليهود لم يكونوا مقدّسين ولا أشراراً، كانوا بشراً فحسب.

الشعور بالشفقة الذي أحسَّت به صوفيا أوسيبوفنا تجاه الناس، ظهر قوياً وبخاصّة عندما نظرت إلى دافيد الصغير.

كان الصبيُّ عادةً يجلس صامتاً بلا حراك. ونادراً ما كان يُخرِجُ علبةَ الثقاب المجعّدة من جيبه وينظر إليها، ثم يخبِّئها في جيبه مرة أخرى.

لم تنم صوفيا أبداً ليالي عديدة، لم تكن ترغب في ذلك. وفي هذه الليلة جلست يقظةً في العتمة ذات الرائحة الكريهة. فكرت فجأة «أين هي الآن جينيا شابوشنيكوفا؟». سمعت تمتمةً وصُراخاً، واعتقدت أنّ رؤىً وصوراً تقف الآن في الرؤوس النائمة الملتهبة، صور بقوّة حيّة مرعبة، لا يمكن نقلها بالكلمات. كيفَ يمكنُ حفظُها وتثبيتُها - إذا ما بقي الشخص حيّاً على هذه الأرض وأراد أن يعرف ما حدث؟

« زلاتا[1]! زلاتا!» - صاحَ صوتٌ رجوليٌّ باكياً.

(1) اسم امرأة عند الشعوب السلافيّة. (المترجمان).

44

. . . أُنْجِزتْ في دماغ نعوم روزنبرغ الذي يبلغ من العمر أربعين عاماً الأعمالُ المحاسبية المعتادة بالنسبة له. مشى على الطريق وحَسَبَ: في يوم أوّل أمس مئة وعشرة - يوم أمس واحد وستون، أضف إليها ستمئة واثني عشرة في خمسة أيام، أي أصبح ما مجموعه سبعمئة وثلاثة وثمانون. . . إنه لأمر مؤسف أنه لم يجري حساب الرجال والأطفال والنساء. . . جثث النساء تحترق بشكل أسهل. يضع حارق الجثث الخبير الأجسادَ بطريقةٍ تحترقُ فيها عظام كبار السن بجانب أجساد النساء. سيعطون الأمر الآن - بإزاحتها من الطريق - هكذا أعطوا الأوامر قبل عام، لأولئك الذين يحفرون ويبدؤون بسحب الخطافات المربوطة بالحبال من الحُفر. وهنا يمكن لحارق الجثث ذي الخبرة تحديدَ عددِ الجثثِ في التلّة غير المحفورة - خمسون، مئة، مئتان، ستمئة، ألف. . . يطلب الشارفيورير[1] إلف، أن نسمّي الجثثَ بالقامات - مئة قامة، مئتا قامة، لكن روزنبرغ يسمّيهم: أناس، شخص مقتول، طفل أُعدِمَ، عجوز أُعدِمَ. يسمّيهم هكذا في نفسه، وإلّا فإنّ شارفيورير سيطلق عليه تسعة

---

(1) رتبة عسكرية في الجيش الألماني. (المترجمان).

غرامات من المعدن، لكنّه يتمتم بإصرار: أنت أيّها الخارج من الحفرة، أيها الشخص المقتول... لا تتمسّك بأمّك بيديك، يا ولدي، ستكونان سويّة، لن تبتعد عنها كثيراً... «بماذا تُتمتم هناك؟» «لا شيء، يُهيّئ لك». ويتابع التمتمة - يناضل، ففي هذا نضاله الصغير... كانت ثمَّةَ حفرة أوّل أمس، استلقى فيها ثمانية أشخاص. صاح شرافيورير: «هذه سخرية، مجموعة مؤلّفة من عشرين حارقاً تحرق ثماني قامات». إنّه مُحق، ولكن ما العمل، إذا لم يكن في القرية كلّها سوى عائلتين يهوديتين. الأمر هو أمر - حفر كلّ المقابر وحرق الجثث جميعها... وها هم يحيدون عن الطريق، ويسيرون على العشب، وها هي للمرّة المئة والخامسة عشرة: تلّ رمادي وسط مرج أخضر - مقبرة. ثمانية منهم يحفرون، وأربعة يقطّعون جذوع البلوط، وينشرونها على طول جسم الإنسان، واثنان يحطمونها بالفؤوس والأوتاد، واثنان يجلبان الواحاً قديمة جافة من الطريق، وأعشاباً جافّة، وعلباً مملوءة بالبنزين، وأربعة يجهزون مكانا للموقد، ويحفرون خندقا للتهوية - يجب التأكد، من أين تهبُّ الريح.

تختفي مباشرة رائحة عفن الغابة، ويضحك الحارس، ويشتم، ويضغط أنفه، ويبصق شرافيورير، ويبتعد عن الحافة. يرمي حارقو الجثث المعاول، ويأخذون الخطافات، ويربطون أفواههم وأنوفهم بقطع قماش... مرحباً أيّها الجدّ، مرّة أخرى قُدِّرَ لك أن تنظرَ إلى الشمس؛ يا لك من ثقيل الوزن... أمّ مقتولة وثلاثة أطفال - صبيّان، أحدهما كان قد دخل المدرسة، أمّا البنت فقد وُلدت عام تسعة وثلاثين، والصبيّ الثاني كان مصاباً بمرض شلل الأطفال - لا

بأس، الآن لم يعد موجوداً... لا تمسك أمّك بيديك، فهي لن تذهب بعيداً، يا بنيّ... صرخ شارفيوريرعن الحافة: «كم عددهم؟». «اثنا عشر» - وقال في نفسه بصمت: «أناس مقتولون». الجميع يشتم - لقد انقضى نصف النهار. في الوقت الذي حفروا فيه في الأسبوع الفائت قبراً ضَمَّ مئتي امرأة، جميعهنّ شابات. عندما أزالوا الطبقة العليا من الأرض، ارتفع بخار رماديّ فوق القبر، ضحك الحارس قائلاً: «نساء ساخنات!». كانوا يضعون الحطبَ اليابسَ فوق الأخاديد التي تسحب الهواء، ثم قطعَ حطب السنديان، فهي تعطي فحماً غنيّاً بالحرارة، ثم يضعون النساءَ المقتولات، ثم حطباً، ثم الرجالَ المقتولين، ثم حطباً من جديد، ثم قطعَ الأجسادِ مجهولةَ الهوية، ثم علبةَ بنزين، ثم حشوةَ قنبلةِ طائراتٍ حارقة، ثم يأمر شارفيورير، والحارس يبتسم مسبقاً - أن يغنّي حارقو الجثث في جوقة واحدة. الموقد يشتعل! ثم يرمون الرماد في الحفرة. هدوء من جديد. كانَ المكانُ هادئاً، وأصبحَ هادئاً. ثم اقتادوهم إلى الغابة، ولم يروا التلّة وسط الخضرة، أمرهم شارفيورير بحفر حفرة بطول أربعة أمتار وعرض مترين؛ فهم الجميع - ونفّذوا المهمّة: تسع وثمانين قرية، إضافة إلى ثماني عشرة مدينة صغيرة، إضافة إلى أربعِ مناطق سكنية صغيرة قريبة من المدن، إضافة حيينِ من المدينة، إضافة إلى ثلاث سفخوزات - اثنان متخصصان في إنتاج الحبوب، وثالث للحليب - والمجموع مئة وستَّ عشرةَ منطقةً سكنيَّة، وحفر حارقو الجثث مئةً وستَّ عشرةَ تلّة... بينما كان المحاسب روزنبرغ يحفر حفرة لنفسه ولحارقي الجثث الآخرين، عدّ: الأسبوع الماضي- سبعمئة وثلاث وثمانين، وقبل ذلك ثلاث عشرات، والمجموع أعطى

أربعة آلاف وثمانمئة وستاً وعشرين جثّةً بشرية أُحرِقتْ، والمجموع العام - خمسة آلاف وستمئة وتسع جثث محترقة. أخذ يعدّ، ويعدّ، ولذلك كان يمر الوقت دون أن يشعر به، ويخرج العدد الوسطي للقطع، لا، ليست قطعاً، بل هي جثث بشريّة، عددها - خمسة آلاف وستمئة وتسع تقسم على عدد القبور - مئة وستة عشر، هذا يعني أنّ ثمانية وأربعين وخمسة وثلاثين في المئة من الجثث البشرية في المقبرة الجماعية، سيكون تقريباً ثمانية وأربعين جثة بشرية في القبر الواحد. وإذا أخذنا في الاعتبار، أنّ هناك عشرين حارقِ جثثٍ عملوا لمدة سبعة وثلاثين يوماً، حينئذ تكون حصة حفَّار القبور الواحد. . . صاح كبير الحرّاس: «انتظموا في الصف»، وأمر الشافيورير إلف صائحاً: «انطلقوا إلى القبر!». لكنّه لا يريد النزول في القبر. هرب، وتعثَّرَ وسقط، وركض من جديد، ركض بكسل، لا يتقن المحاسب الركض، لكنّهم لم يستطيعوا قتله، واستلقى في الغابة على العشب، في الصمت ولم يفكر في السماء فوق رأسه، ولا في زلاتوتشا، التي قتلوها وهي حامل في شهرها السادس، كان مستلقياً ويكملُ حساب ما لم يستطع إكماله في الحفرة: عشرون حفّار قبور، وسبعة وثلاثون يوماً، مجموع أيام حفّار القبور. . .- هذا أولاً؛ ثانياً - يجب الأخذ في الاعتبار، كم عدد مكعبات الحطب للشخص الواحد؛ ثالثاً - يجب الأخذ في الاعتبار، عدد ساعات الاحتراق وسطيّاً للقطعة الواحدة، وكم. . .

ألقت الشرطة القبض عليه بعد أسبوع واقتادوه إلى معسكر الاعتقال.

ويتمتم هنا في العربة طوال الوقت، يحسب، ويُقسّم، ويضرب.

يجب عليه تقديم التقرير السنوي إلى مدير الحسابات! وكبير المحاسبين في البنك الحكومي. وتنفجر فجأة ليلاً في المنام بقعة الجرب، وتغطي دماغه وقلبه، وتبرد الدموع الحارقة.

ينادي: «زلاتا! زلاتا!».



45

تطلّ نافذة غرفتها على السياج الشائك لمعسكر الاعتقال. استيقظت موظفة المكتبة موسيا بوريسوفنا ليلاً، ورفعت حافة الستارة وشاهدت كيف يجرّ جنديّان اثنان مدفعاً رشاشاً؛ كانت تلمع على جسمه المصقول بقعٌ زرقٌ جرّاءَ ضوء القمر، ولمعت نظارات الضابط الذي كان يسير أمامهما. سمعتْ هديرَ محرّكاتٍ خافتاً. اقتربت سيّارات من المعسكر مطفئة الأنوار، وكان غبار الليل الثقيل يتلوّن باللون الفضيّ ويحوم حول عجلاتها؛ وكأنّها إلهيّة، تسبح في الغيوم. وفي هذه الدقائق القمرية الهادئة، عندما اقتربت وحدات قوات الأمن الخاصة والعسكرية ووحدات الشرطة الأوكرانية ووحدات المرافق والقافلة الاحتياطية التابعة لمحمية الأمن الإمبراطوري من أبواب معسكر الاعتقال النائم، شعرت المرأة بالقدر المحتوم السيئ للقرن العشرين.

كل شيء لا يمكن أن يتحدَ، اتحدَ: ضوء القمر، وأبعاد الحركة المهيبة للوحدات المسلحة، والشاحنات الضخمة السوداء، وصوت مشي الأرنب على الجدار، والبلوزة المتجمّدة على الكرسي، والصدريّة، والجوارب اللحميّة، ورائحة السكن الدافئة.

46

حاولت ناتاشا، ابنة الطبيب القديم كاراسيك، الذي اعتُقل وتوفي في عام 1937، الغناء من وقت لآخر في العربة. غنّت في الليل أحياناً، ومع ذلك لم يغضب الناس منها.

كانت خجولة، وتتحدث دائماً بصوت يكاد لا يُسمع، خافضةً عينيها، وكانت تزور أقاربها المقربين فحسب، وتفاجأت بشجاعة الفتيات اللواتي كنّ يرقصن في الأمسيات.

في وقت اختيار الأشخاص الذين سيتم إعدامهم لم تُسَجَّلْ في عداد الحرفيين والأطباء الذين ينبغي الحفاظ على حياتهم المفيدة - فوجودُ هذه الفتاة الباهتة التي اعتلى الشيب رأسها قبل الأوان لم يكن ضرورياً.

دفعها الشرطي إلى تلّة البازار المتربة، التي وقف عليها ثلاثة أشخاص في حالة سكر، أحدهم هو قائد شرطة الآن، وكانت تعرفه قبل الحرب - كان أمينَ مستودعِ إحدى السكك الحديدية. وهي حتى لم تفهم أن هؤلاء الثلاثة كانوا يصدرون قرار الحياة والموت على الشعب؛ دفعها الشرطي إلى داخل حشد ألفيّ، أُقِرَّ بعدم فائدته من الأطفال، والنساء، والرجال.

ثم ساروا إلى المطار تحت حرارة شهر آب (أغسطس) الأخيرة بالنسبة لهم، بجانب أشجار التفاح المغبرّة على جانب الطريق، وهم يصرخون لآخر مرّة، ويمزّقون ملابسهم، ويصلّون. مشت ناتاشا بينهم بصمت.

لم تعتقد أبداً أنّ لونَ الدم أحمر إلى هذه الدرجة تحت الشمس. عندما صمت الصراخ وأزيز الرصاص، والشخير للحظة - سمعت من الحفرة خريرَ الدماء - ركضت على الأجساد البيضاء، كما لو أنّها تركض على الحجارة البيضاء.

ثم كانت اللحظة الأقلّ خوفاً - قعقعة الرشاش الخفيفة والجلّاد بوجهٍ بسيطٍ غير شريرٍ ومتعبٍ من العمل، وهو ينتظرُ بصبر حتى تقترب منه أكثرَ بخجل، وتصبح على حافة الحفرة ذات الخرير.

عصرت القميصَ المبللَ ليلاً، وعادت إلى المدينة - الأموات لا يخرجون من القبر، هذا يعني أنّها كانت على قيد الحياة.

وعندما تمكنت ناتاشا من الوصول إلى معسكر الاعتقال عبر فناءات الأبنية، شاهدت مهرجاناً شعبيّاً في الساحة - أوركسترا وتريَّة ونفخيَّة مختلطة تعزفُ لحناً حزيناً وحالماً من الفالس الذي طالما أحبَّته، وكانت أزواجٌ تدور؛ فتيات وجنود، واختلطت أقدامهم المتشابكة مع الموسيقى، تحت ضوء القمر الخافت ونور الفوانيس الشحيحة في ساحة مُغبرّة. شعرت الفتاة الذابلة بالسعادة والثقة في تلك اللحظة، غنَّت وغنَّت شيئاً فشيئاً تحسباً للسعادة التي تنتظرها، وأحياناً، حينَ لم يكن يراها أحد، جرّبت حتى أن ترقص الفالس.

47

يتذكر دافيد بصورةٍ سيئةٍ كلّ ما كان قبل بداية الحرب. لكن في العربةِ وبطريقة ما ليلاً، ظهرَ بشكل واضح جداً في ذهن الفتى ما عاشه قبل فترة ليست بعيدة من الزمن.

اقتادته جدّته في الظلام إلى أسرة بوخمان. السماء كانت ممتلئة بالنجوم الصغيرة، أمّا حافتها فكانت ذات لون ليمونيّ - أخضر فاتح. ولامست خدّيه أوراقُ الأرقطيون، وكأنّها راحتا كفَّين باردتين ورطبتين لشخصٍ ما.

جلس الناس في السندرة[1] الملجأ، خلف جدار مزيّف من الطوب. ألواح السقف الحديدية السوداء، تسخُن جداً في النهار. ويعبِقُ أحياناً ملجأ السندرة برائحة احتراق زيت المصباح. معسكرُ الاعتقال مضاء. يستلقي الجميعُ في النهار بلا حراك. سفيتلانشكا ابنة بوخمان تبكي بكاء رتيباً. وبوخمان مريض قلب، الجميع في النهار يعتبرونه ميّتاً. لكنّه في الليل يأكل ويتشاجر مع زوجته.

---

(1) تعني: السندرة أو العلية أو السهوة، وهو مكان على سطح الحجرات في المسكن لحفظ ما لا حاجة إليه في الاستعمال اليومي. كلمة اصطكها مجمع اللغة العربية بالقاهرة في مصر. (المترجمان).

وفجأة ينبح الكلب. وتسمعُ أصواتٌ غير روسية، وتزدادُ دمدمة فوق الرؤوس، لقد تسلّق الألمان من خلال القمرة إلى السطح.

ثم هدأ الرعد الألماني الذي ضرب في سماء الصفيح السود. سُمعت تحت الجدار ضربات خبيثة غير قوية - أحدهم يطرقُ الجدار.

حلّ صمتٌ في الملجأ، صمتٌ عاطفي، توتَّرت عضلات الأكتاف والأعناق، العيون منتفخة جراءَ التوتر، والأفواه مُكشّرة.

عبّرت سفيتلانا الصغيرة أثناء طرق الجدار الاستعطافي عن شكواها من دون كلمات. انفجر فجأة بكاء الطفلة، والتفت دافيد نحوها ورأى عيني أم سفيتلانا ريفيكا بوخمان المجنونتين.

ظهرت له بعد ذلك مرّة أو اثنتين وللحظة سريعة هاتان العينان ورأس الطفلة المستلقية، وكأنّها دمية من قماش.

أما ما كان قبل الحرب فقد تذكَّرهُ بالتفصيل، وغالباً ما استعادَهُ. وكان في العربة كما لو أنّهُ عجوز، عاش الماضي، وافتخر به وأحبّه.

48

اشترت الأم في الثاني عشر من كانون الأوّل (ديسمبر)، لدافيد في عيد ميلاده كتاباً - حكاية. وقف في مرج وسط الغابة جديٌ رماديٌّ صغيرٌ، بدا إلى جانبه ظلامُ الغابة شرّيراً. وكان يتراءى من بين الجذوعِ البنيّة المسودَّة، وفطورِ الأمانيت والغاريقون السامّة فمٌ أحمرُ مُكشّر، وعينا ذئبٍ خضراوان.

ما عرفَ أحدٌ سوى دافيد عن جريمة القتل الحتمية. ضرب بقبضته على الطاولة، وحجبَ المرجَ براحة كفّه عن الذئب، لكنَّهُ كان يدرك أنّه لا يستطيع حماية الجدي.

صاح ليلاً:

- ماما، ماما، ماما!

استيقظت الأم، واقتربت منه مثل سحابة في ظلام الليل - فتثاءب بسعادة، شاعراً أنّ أكبر قوّة في العالم تحميه من ظلام الغابة الليلي.

عندما كبر قليلاً، كانت تخيفه الكلاب الحمراء في «كتب الأدغال». في إحدى الليالي كانت الغرفة مليئة بالحيوانات المفترسة الحمراء، وشق دافيد طريقه حافياً عبر خزانة الأدراج إلى سرير والدته.

عندما كانت حرارة دافيد ترتفع كثيراً، تُعاودهُ صور الهذيان نفسها: يرى نفسه مستلقياً على شاطئ البحر الرملي، وأمواجٌ صغيرةٌ بحجمِ الإصبع الأصغر تدغدغ جسمه. ثم يرتفعُ فجأة في الأفق جبلٌ صامتٌ من الماء، يكبرُ وهو يقترب بسرعة. كان دافيد مستلقياً على الرمال الدافئة، وكان الجبل الأسود والأزرق من الماء يتقدم نحوه. كان ذلك أكثر إثارةً للرعبِ من الذئب والكلاب الحمراء.

تذهب والدته في الصباح إلى العمل، ويصعد هو الدرجَ الأسود ويصب كوباً من الحليب في معلبّة سرطعون فارغة، كانت تعرف بذلك فقط قطةٌ ضعيفةٌ متسوِّلة ذات ذيل طويل ورقيق، وأنفٍ شاحب وعينينِ مبتلتينِ بالدموع. وذات مرَّة قالت الجارةُ إنه وعند الفجر، جاء أناس بصندوق وأخذوا القطة المتسولة المثيرة للاشمئزاز أخيراً، والحمد للّه، إلى المعهد.

قالت الأم ونظرت في عينيه المتوسلتين:

- إلى أين سأذهب، وأين يقعُ هذا المعهد؟ إنّ ذلك كلّه لا جدوى منه، انسَ تلكَ القطة المسكينة. كيف ستعيش في هذا العالم؟ عليكَ ألّا تتأثَّرَ إلى هذه الدرجة.

أرادت والدته إرساله إلى معسكر الأطفال الصيفي، بكى، وتوسّل إليها، صرخ نافضاً يديه بيأس:

- أعدك أن أذهب إلى جدتي، لكن ليس إلى هذا المعسكر!

عندما أخذته والدته إلى جدته في أوكرانيا، لم يأكل أي شيء تقريباً في القطار - شعر بالخجلِ إن هو أكلَ بيضةً مسلوقةً أو أخذ كستلاتة ملفوفة بورقة مبتلة بالزيت.

بقيت الأم عند الجدّة مع دافيد خمسة أيام وجهّزت نفسها للعودة إلى العمل. ودّعها من دون دموع، لكنّه عانقها بيديه ضاماً عُنُقها بقوّة، لدرجة أنّها قالت له:

- تخنقني يا غبي. هنا الكثير من الفراولة الرخيصة، وبعد شهرين سوف آتي لآخذك.

بالقرب من منزل جدته روزا كان ثمّة موقف للحافلات، المتنقِّلة من المدينة إلى مصنع الجلود. كان يسمى الموقف بالأوكرانية (زوبينكا).

جدّه الراحل كان بونديّاً[1]، ورجلاً مشهوراً، عاش فترةً من الزمن في باريس. لهذا كانوا يحترمون الجدة ولكنهم غالباً ما طردوها من العمل.

كان صوتُ الراديو يُسمَعُ عبر النوافذ المفتوحة: «انتباه، انتباه، كييف تتحدّث».

كان الشارع مهجوراً، خلال النهار، ويصبحُ حيويّاً عندما يسيرُ فيه طلابُ وطالبات المعهد التقني للجلود، وينادون بعضهم بعضاً عبر الشارع: «بيلا، هل قدمتِ الامتحان؟ ياشكا، تعال إليَّ لنحّضر لامتحان الماركسية!».

يعود في المساء عمّالُ مصنعِ الجلود، والبائعون، والفنيّون من

---

(1) الجبهة اليهودية العامة (بالإنجليزية: General Jewish Labour Bun) وهو حزب سياسي يهودي علماني اشتراكي نشأ في روسيا القيصرية في سنة 1897، وكانت له فروع أيضاً في ليتوانيا وبولندا وقد دعم الحزب بقاء اليهود في أوروبا وعدم الهجرة إلى (إسرائيل)، وينادى أعضاء هذا الحزب بالبونديين. (المترجمان).

المركز الإذاعي (سوروك). وكانت الجدّةُ تعملُ في مستوصف اللجنة المحلّية.

لم يملّ دافيد في غياب جدّته.

كانت عنزة عجوز ترعى بين أشجار التفاح الهرمةِ غير المثمرة بالقرب من المنزل، في بستان فواكه قديم، لا يملكه أحد، وكان ثمّة دجاجٌ مصبوغٌ بالطلاء، ونمل أخرس يطفو على سيقان الأعشاب. كان قاطنو المدينة يتصرفون بصخب وثقة في الحديقة - مثل الغربان والعصافير، وكانت الطيور المهاجرة التي تصل إلى الحديقة، والتي لم يعرف دافيد أسماءها، تشعرُ مثل بنات الريف الخجولات.

لقد سمع الكثير من الكلمات الجديدة باللغة الأوكرانية، وعرف في هذه الكلمات أصداء وانعكاسات لغته الروسية الأم. سمع اللغة العبرية وكان دهشاً عندما رأى والدته وجدّته تتحدثانها. هو لم يكن قد سمعَ أمّه من قبلُ أبداً تتحدّث بلغة غير مفهومة له.

أخذت الجدّة دافيد معها في زيارةِ ابنةِ أختها، ريفيكا بوخمان. دخلَ إلى الغرفةِ التي أدهشت دافيد بوفرة الستائر البيضاء المنسوجة المحاسبُ الرئيسي للبنك الحكومي، إدوارد إسحاقوفيتش بوخمان، يرتدي سترة رياضيّة وحذاء.

قالت ريفيكا:

- حاييم، هذا ضيفنا من موسكو، ابن رايا. - وأضافت على الفور - هيّا، قل مرحباً للعم إدوارد.

سأل دافيد كبيرَ المحاسبين:

- العم إدوارد، لماذا نادتك العمّة ريفيكا حاييم؟

قال إدوارد إسحاقوفيتش:

- أوه، وهذا سؤال. ألا تعلم أن جميع الذين يسمون: إدوارد في إنجلترا، هم حاييم؟

ثم سُمع صوت مخالب القطة على الباب، وعندما تمكنت أخيراً من فتحهِ بمخالبها، رأى الجميع فتاة ذات عينينِ قلقتين تجلس على قدر في وسط الغرفة.

مضى دافيد يوم الأحد، برفقةِ جدته إلى السوق. في الطريق، سارت النساء المسنَّات ناعساتٍ، يرتدين مناديل سوداء، وموظفات السكك الحديدية الكئيبات، وزوجات قادة المقاطعة المتعجرفات وهنَّ يحملن أكياساً زرقاء وحمراء، وكانت النسوة الريفيات يمشين منتعلاتٍ أحذية - قماشية.

صاح المتسولون اليهود بأصوات غاضبة خشنة - ويبدو أنهم تلقوا صدقاتٍ ليس بدافع الشفقة، بل بدافع الخوف. وعلى الرصيف المرصوف بالحصى، مرّت شاحنة مزرعة جماعية محمّلة بأكياسِ البطاطا والنخالة، وأقفاصٍ قاتمةٍ غاصّة بالدجاج، الذي كانَ يصيح فوقَ الحفر مثل النساء اليهوديات المسنّات المريضات.

أكثر ما لفت انتباهه وأرعبه ودفعه إلى اليأس، هو صفُّ بائعي اللحوم. هناكَ رأى دافيد كيف أنَّ ساحبي العربات يجرّون عجلاً مذبوحاً ذا فم شاحب نصف مفتوح، يَلفُّ عنُقَه صوفٌ أبيضُ مجعّدٌ، ملطّخٌ بالدماء.

اشترت الجدة دجاجةً صغيرةً ملونة وحملتها من ساقيها المربوطتين بقطعة قماش بيضاء، ومشى دافيد إلى جانبها مُحاولاً مساعدةَ الدجاجةِ لرفع رأسها العاجز إلى أعلى، وتساءل من أين جاءت هذه القسوة اللاإنسانية التي يراها عند جدّته.

تذكّر دافيد كلمات والدته غير المفهومة والتي مفادها أن أقاربه من جانب جدّه كانوا أشخاصاً مثقفين، وأقاربه جميعاً من جانب جدّته كانوا من التجار والحرفيين. ربما لهذا السبب لم تأسف الجدة على الدجاجة.

دخلوا الفناء، خرج إليه رجل عجوز على رأسه قلنسوة صغيرة، وتحدثت إليه جدّته باللغة العبرية. أخذ الرجل العجوز الدجاجة بين ذراعيه، وبدأ يتمتم، وقرقرت الدجاجة شاعرة بالأمان، ثم قام الرجل العجوز بفعلٍ سريعٍ، غيرَ محسوس، ولكنه يبدو فظيعاً، وألقى الدجاجة فوق كتفه - قرقرت وركضت، ورفعت جناحيها، ورأى الفتى أنها كانت بلا رأس، - ركض جسد الدجاجة وحده بلا رأس، - قتلها الرجل العجوز. سقطت على الطريق بعد أن عَدَت بضع خطوات قليلة، ماتت غارزة مخالبها الصغيرة بقوّة في الأرض.

بدا للطفل ليلاً أن رائحةً رطبةً اخترقت الغرفة، قادمة من أبقار ميتة وعجولها المذبوحة.

إنّ الموت الذي عاش في غابة مرسومة، عندما تسلّل ذئبٌ مرسومٌ ليفترسَ جَدياً مرسوماً، قد غادر ذلك اليوم من صفحات الحكاية الخرافية. شعر الطفلُ لأول مرة أنّه يموت هو أيضاً، ليس في قصةٍ خياليةٍ، وليس في كتابٍ مصوّرٍ، ولكن في الواقع، وبصورةٍ واضحةٍ لا تصدق.

أدرك أن والدته ستموت يوماً ما. سيأتي الموت إليه وإليها، ليس من الغابة الخياليّة، حيث تقف أشجار التنّوب في نصف الظلمة، بل سيأتي من هذا الهواء، من الحياة، من الجدران المألوفةِ، ولن يكون بالإمكان الاختباء منه.

لقد شعر بالموت بوضوح وعمق لا يتوفران إلا للأطفال الصغار، والفلاسفة العظماء الذين تقترب قوتهم الفكرية من بساطة وقوة مشاعر الأطفال.

صدرت من الكراسي ذات المساند الجالسة، التي وضعت عليها ألواح من الخشب الرقائقي، ومن خزانة الملابس السميكة، رائحة هادئة لطيفة، شبيهةٌ برائحة شعر الجدة، وفستانها. ليلةٌ دافئة - كاذبةُ الهدوءِ انتشرت من حوله.

49

خرجتِ الحياةُ هذا الصيفَ، من وجوه المكعبات، ومن الصور المرسومة في الكتب التوضيحية. رأى كيف يضيء بالأزرق الغامق جناح ذكر البطِّ الأسود، وكم من السخريةِ الفرحةِ في ابتسامته وقرقرتِهِ. سطعَ الكرزُ الأبيض بين أوراق الشجر، وتسَّلقَ هو الجذعَ الخشنَ ووصل إلى الثمر، وقطفه. اقترب من العجل المربوط بأرض قاحلة، ومدّ له قطعة من السكر - ومتجمِّداً من السعادة نظرَ إلى العينين اللطيفتين الجامدتين للمولود الضخم.

اقترب بونتشيك الأصهب من دافيد، واقترح بلثغة مبهرة:

- هيا نتعارك!

كان اليهود والأوكرانيون في فناء بيت الجدة يشبهونَ بعضهم بعضاً. زارت السيدة العجوز بارتينسكايا جدّتَه، قالت وهي تَمُطُّ عباراتها:

- أرأيتِ روزا نوسينوفا، سونيا ذهبت إلى كييف، تصالحت مع زوجها مرة أخرى.

أجابت الجدّة، ضاحكة ومُصفّقة بيديها:

- حسناً، هل رأيت الكوميديا.

بدا هذا العالم لدافيد أكثر لطفاً، وأفضل من شارع كيروف، حيث كانت امرأة مسنة اسم عائلتها دراكو - دراكون تتمشّى مع الكلب، على البئر المعبّد بالأسفلت، وحيثُ تقف في الصباح أمام الواجهة الأمامية سيارة ZIS-101، والجارة صاحبةُ النظارة الأنفية ذاتُ السيجارة بين شفتيها المطليتين بأحمر الشفاه، تدمدمُ بشراسة بجوارِ موقد الغاز الجماعي: «أيتها التروتسكية[1]، نقلتِ قهوتي مرة أخرى عن الموقد».

اقتادته أمّه ليلاً من المحطة. سارا في شارع مرصوف بالحجارة مُضاء بنور القمر، بجوار كنيسة بيضاء، وهناكَ وقف رجل نحيلٌ في الأسفل، قامتهُ قامةُ صبيّ يبلغ من العمر اثني عشر عاماً، منحنياً، يرتدي تاجاً من الشوك، إنّه يسوع المسيح، بجوار معهد متوسطٍ تقني، حيث درستِ الأم ذات يوم.

رأى دافيد، بعد بضعة أيام، مساء يوم الجمعة، رجالاً مسنين يمضونَ إلى الكنيس يلفهم غبارٌ ذهبي، رفعه من الأرض القاحلة، لاعبو كرة قدمٍ حفاة.

وُلد الجمال الثاقب من هذا الاتحاد بين الأكواخ الأوكرانية البيضاء، وصرير رافعات المياه على فتحات الآبار، ونقوشٍ وعروقٍ قديمة على أردية الصلاة باللونين الأبيض والأسود، وعصور الكتاب المقدس السحيقة التي تصيبُ الرأس بالدوار. وبالقرب من كل ذلك

(1) التروتسكيّة تيارٌ شيوعي وضع على يد ليون تروتسكي، وكان الاختلاف الرئيسي بين تروتسكي وجوزيف ستالين حول ثلاث نقاط رئيسية. (المترجمان).

«كوبزار[1]»، وبوشكين وتولستوي، وكتب الفيزياء التعليميّة، و«مرض اليسارية (الطفولي) في الشيوعيّة»، مع أبناء الحذّائين والخياطين المهاجرين جراء الحرب الأهلية، وإلى جوارهم مدرّب لجنة المقاطعة، ومثيرو الشغب من مجالس النقابات المحليّة، وسائقو الشاحنات، وعملاء التحقيق الجنائي، ومحاضرون في الماركسية.

عندما وصل دافيد إلى جدّته، علم أنّ والدته كانت غير سعيدة. أوّل من أخبره بذلك العمّة راحيل السمينة، ذات الخدين الأحمرين كما لو أنّها تشعرُ بالخجل دائماً، حين قالت له:

– من يرمي امرأة رائعة، كأمّك، فعسى ألّا يرى السعادة أبداً.

علم دافيد بعد يوم من ذلكَ أن والده قد ترك أمّه ومضى إلى امرأة روسية أكبر منه بثمانية أعوام، وأنه يكسب ألفين وخمسمئة روبل شهرياً في المجتمع الفيلهارموني، وأن والدته رفضت استلام نفقة تربية الطفل، وتعيش على ما تكسبه فحسب؛ ثلاثمئة وعشرة روبلات في الشهر.

عرض دافيد لجدّته ذات مرّة شرنقةً احتفظَ بها في علبة ثقاب. لكن الجدّة قالت له:

– تفو، لماذا تحتفظ بهذا القذارة، ارمها بسرعة.

قصدَ دافيد مرتين محطةَ قطار الشحن، وشاهد كيف تُحَمَّلُ الثيران والكباش والخنازير في العربات. سمع الثورَ يخورُ بصوت عالٍ، ولعلَّهُ كان يشكو أو يطلب الشفقة. طَفحتْ روحُ الصبيِّ بالرعب، وكان عمال السكة الحديدية في ستراتهم الواقية من الزيت

(1) كوبزار– مطرب شعبي أوكراني، يمثل الفن الملحمي، ترافقه آلةٌ موسيقيَّةٌ وتريَّةٌ (المترجمان).

يسيرون عبر العربات ولم يحوّلوا وجوههم الرقيقة المتعبة نحو الثور الذي يخور.

بعد أسبوعٍ من وصول دافيد، أنجبت ديبورا، جارة جدّته، زوجة أحد العمال الميكانيكيين من مصنع الآلات الزراعية الذي يدعى لازار يانكيليفيتش، طفلَها الأول. في العام الماضي مضت ديبورا تزورُ أختَها في كوديما، فأصابها البرقُ خلال عاصفة رعدية؛ قذفها بعيداً وغطاها بالتراب، بقيت مستلقيةً مدةَ ساعتين وكأنّها ميّتة، وفي هذا الصيف ولدت طفلاً. لم يكن لديها أطفال لخمسة عشر عاماً. أخبرت الجدّة دافيد بذلك وأضافت:

- هذا ما يقوله الناس، لكنّها، علاوة على ذلك، خَضعت لعملية جراحيّةٍ في العام الماضي.

ها هي الجدّة ودافيد يدخلان على الجيران.

- حسناً لوزيا، حسناً، ديبا.

قالت الجدة ذلك، وهي تنظر إلى الحيوان الصغير ذي الساقين وهو يرقد في سلة الغسيل. نطقت بهذه الكلمات بصوت رهيب، محذرةً على وجه التحديدِ الأبَ والأمَّ، من أن يتعاملا بطيش مع المعجزة الحاصلة.

عاشت العجوزُ سوروكينا في بيت صغير عند السكة الحديدية، مع ابنين أخرسين وأبكمين؛ حلّاقين. كان الجيران يخشونَهما، وقالت العجوز بارتينسكايا لدافيد:

- ويل لهما، أوه، إنّهما لا يشربان الخمر. ولكن عندما يشربان، يتشبثُ كلٌّ منهما بالآخر، ويشهران السكاكين ويصهلانِ كالخيول!

أرسلت الجدة ذات مرّة علبة قشطة حامضة مع دافيد إلى موظفة المكتبة موسيا بوريسوفنا. . . كانت غرفتها صغيرة. وعلى الطاولة الصغيرة ثمّةَ فنجان، وعلى الجدار عُلّق رف صغير، حملَ كتباً صغيرةً، وعُلّقت فوق السرير صورة صغيرة أيضاً. الصورة كانت للأم مع دافيد ملفوفة بشريطة قماش. وعندما نظر دافيد إلى الصورة، احمرّت موسيا بوريسوفنا وقالت:

- كنّا أنا وأمّك على مقعد واحد.

قرأ لها بصوت عالٍ حكاية عن اليعسوب والنملة، وقرأت له بصوت هادئ بداية القصيدة: «ساشا بكت عندما قطعوا الغابة. . .».

كانت ثمّةَ ضجّة في الفناء صباحاً: فقد سرقوا في الليل معطف فروٍ من سولومون المكفوف، والمعطفُ مرشوشٌ بالنافتالين لحمايته من العثّ في الصيف.

عندما عرفت الجدة بسرقة المعطف من المكفوف قالت:

- الحمد للّه، على معاقبةِ قاطعِ الطريقِ هذا ولو بشيء ما.

عرف دافيد، بأنّ الأعمى كان مُخبراً، وعندما حصل سحب العملات الصعبة والخمسة الذهبية، وشى بالكثير من الناس. وفي عام سبعةٍ وثلاثين وشى من جديد بالناس. وأُعدمَ اثنان ممن وشى بهم رمياً بالرصاص، ومات ثالثهم في مستشفى السجن.

حفيف الليل المرعب، والدم البريء وغناء الطيور - كلّ ذلك اتّحد في فوضى حارقة شديدة الغليان. كان باستطاعة دافيد فهمها بعد عقود كثيرة، لكنّه شعر بقلبه الصغير، بهذا السحر الحارق ورعبه ليلاً ونهاراً.

50

تُتخذ تدابيرُ تحضيريَّة لذبح الماشية المصابة - النقل، والتجميع في نقاط الذبح، وتقديم إرشادات للعمال المهرة، وحفر الخنادق والحُفر.

ولا يفعلُ السكانُ الذين يساعدون السلطات على إيصال الماشية المصابة إلى مواقع الذبح، أو المساعدة في الإمساك بالماشية الهاربة، ذلك بدافع الكراهية للعجول والأبقار، ولكن بدافع الحفاظ على الذات.

لا تتملّك السكانُ أيضاً الكراهيةُ المتعطِّشةُ لدماء كبار السن والأطفال والنساء الذين سيتم القضاء عليهم، أثناء الذبح الجماعي للناس. لذلك من الضروري الإعداد لحملة الذبح الجماعي للناس بطريقة خاصّة. لا يكفي هنا الشعورُ بالحفاظ على الذات، فمن الضروري إثارة نزعة الكراهيّة والاشمئزاز نحو أولئكَ الناس.

حُضِّرَ في جو الكراهية والاشمئزاز هذا بالذات لتنفيذ القضاء على اليهود الأوكرانيين والبيلاروسيين[1]. فقد قام ستالين حينها

(1) يُركِّزُ الروائي على ما عاناهُ اليهودُ بالتحديد من النازيَّة أو من نظام ستالين، في حين يعلمُ الكون كُلُّه أنَّ هذا المكوِّن من الشعب السوفييتي ليس هو

وعلى هذه الأرض بالذات، بتجنيد وتضخيم غضب الجماهير، وشنّ حملةً للقضاء على الكولاك كطبقة، وحملة للقضاء على المهووسين والمخربين من أنصار تروتسكي وبوخارين.

وقد أظهرت التجربة أن معظم السكان أثناء هذه الحملات يصبحون مطيعين لاإرادياً لتعليمات السلطات جميعها. ويوجد في الكتلة السكانيّة جزءٌ صغيرُ، يولّد جوّاً مناسباً للحملة: التعطش للدماء، والفرح والشماتة، وهؤلاء هم الأغبياء الأيديولوجيّون أو المهتمون بتسوية الحسابات الشخصية، في سرقة الأشياء والشقق، في الشواغر المفتوحة. معظم الناس المرعوبين في أعماقهم من المذابح، يخفون حالتهم النفسيّة ليس فقط عن أحبائهم، ولكن أيضاً عن أنفسهم. يملأُ هؤلاء الأشخاص القاعات التي تعقد فيها الاجتماعات حول حملات الإبادة، وبغض النظر عن تواتر هذه الاجتماعات، واتساع تلك القاعات - لم تُلحَظ أيّةُ حادثة تقريباً انتهكَ فيها شخصٌ ما الإجماع الصامت للتصويت. وبالطبع، كان ثمّةَ عددٌ أقل من الحالات عندما نرى شخصاً ليس فقط لا يرفع النظر عن الكلب الذي يشتبه في أنه مسعور، عن عينيه المتوسلتين، ولكنه سيحمي ذلك الكلب المشتبه بأنه مصاب في بيته، حيث يعيش مع زوجته وأطفاله. نعم لقد كانت مثل هذه الحالات.

سَيُعرفُ النصفُ الأول من القرن العشرين بأنّه عصر الاكتشافات

الوحيد الذي وقع عليه الظلم، فمن أصل 27 مليون سوفييتي سقطوا جراء الغزو الألماني النازي للاتحاد السوفييتي، تبدو نسبة اليهود ليست ذات شأن قياساً لنسب غيرهم، وهذا أحد المآخذ على هذه الرواية المتميزة، من الجانب الفكري. (المترجمان).

العلمية العظيمة، والثورات، والتحولات الاجتماعية الكبرى، والحربين العالميتين.

لكن النصف الأول من القرن العشرين سيدخل تاريخ البشرية كعصر إبادة كاملة لفئات ضخمة من السكان الأوروبيين، مؤسّسةٍ على نظرياتٍ اجتماعيّةٍ وعرقيّةٍ. لكن الواقع المعاصر ومن تواضعٍ مفهومٍ يصمت عن ذلك.

إحدى أكثر ميزات الطبيعة البشرية المدهشة، التي اكتُشفت في هذه الفترة، كانت الطاعة. كانت ثمَّةَ حالات أُنشأتْ فيها طوابير ضخمة في مكان الإعدام ونظَّمَ الضحايا أنفسُهم حركةَ الطوابير. وثمَّةَ حالات تعيّن فيها انتظارُ الإعدام من الصباح حتى وقت متأخر من الليل، خلال يوم حار طويل، والأمهات اللاتي عرفن بذلك أحضرن زجاجاتِ المياه والخبز للأطفال. الملايين من الأبرياء، الذين شعروا باقتراب الاعتقال، جهّزوا سلفاً ثيابهم الداخلية، ومنشفة، وودّعوا أحباءَهم مُقدماً. وعاش الملايين في معسكرات عملاقة، لم تُبنَ بأيديهم فحسب، ولكن كانت محروسة أيضاً من قِبلهم هم أنفسهم.

وليسَ عشرات الآلاف، ولا حتى عشرات الملايين من الناس، بل كتلة عملاقة من الجماهير كانت شاهدة مطيعة على إبادةِ الأبرياء. ليس شاهدة مطيعة فحسب؛ بل عندما أُمِرَ بالتصويت على إبادةِ أولئكَ الناسَ، عبّرت تلكَ الجماهير بضجيج الأصوات عن موافقتها على القتل الجماعي. وفي إذعان الناس الهائل هذا انكشف أمرٌ غير متوقع.

بالطبع، كانت ثمَّةَ مقاومة، وكانت ثمّةَ شجاعة وعناد عند المحكومين، وكانت انتفاضاتٌ، وكانت تضحيةٌ بالنفس عندما خاطر

شخصٌ بحياته وحياة أسرته لإنقاذ شخصٍ آخر غريب وبعيد عنه. ومع ذلك تبيّن أن الإذعان الجماعي كان غير قابلٍ للنقاش!

علامَ يدلّ هذا الإذعان الجماعي؟ هل يدلّ على ميّزة جديدة، برزت وظهرت فجأة في الطبيعة البشرية؟ لا - إنما يدلّ هذا الإذعان على أنَّ قوةً جديدةً رهيبةً أثّرت في الناس. اتَّضَحَ أن الإفراطَ في عنف الأنظمة الاجتماعية الشمولية قادرٌ على شلّ الروح الإنسانية على مساحة قارّات بأكملها.

إن الروح الإنسانية التي أصبحت في خدمة الفاشية، تعلن أنّ الشرَّ الذي يحملُ موتَ العبوديّة هو الخير الحقيقي والوحيد. وتعلن الروحُ - الخائنة من دون التخلي عن المشاعر الإنسانية، أنّ الجرائم التي ترتكبها الفاشية هي أعلى أشكال الإنسانيّة، وتوافق على تقسيم الناس إلى نظيفين ذوي كرامة يستحقون الحياة، وغير نظيفينَ لا يستحقونها. لقد تجلّى شغفُ الحفاظِ على النفس في المصالحة بين الغريزة والضمير.

وَتَخفُّ قوّةُ الأفكارِ العالميَّةِ المنوِّمَةُ لمساعدةِ الغريزةِ. وتطالبان بأيّة تضحيات، وبأيّة وسيلةٍ لتحقيقِ الأهدافِ العظيمةِ - عظمةِ الوطن القادم، وتحقيقِ سعادةِ البشريةِ، والأمةِ، والطبقة، وتحقيقِ التقدمِ العالمي.

وتعمل إلى جانب غريزة الحياة، والقوة المنوّمة للأفكار العظيمة، قوةٌ ثالثةٌ - هي الرعب أمام عنفِ الدولةِ القويّةِ غيرِ المحدود، وأمام القتلِ، الذي أصبح أساس الحياة اليوميَّة للدولةِ.

إنّ عنفَ الدولة الشموليّة كبيرٌ لدرجةِ أنَّهُ لا يظلُّ وسيلةً، بل يتحوّل إلى مادة للرضوخ الديني الصوفي، وللإعجاب.

وإلّا فبماذا يمكن تفسير موقف بعض المفكرين والمثقفين اليهود بأن قتلَ بني جلدَتِهم ضروريٌ لسعادة البشريّة، وأنّهم وبمعرفتهم بذلك، مستعدون لاقتياد أطفالهم إلى مراكز الذبح، ومن أجل سعادة الوطن هم على استعداد لتقديم التضحية التي قدّمها إبراهيم يوماً ما.

وبماذا يمكن إذاً تفسير ما كتبه شاعر، فلاح منذ ولادته، يملك عقلاً وعبقرية، ويكتب بشعور صادق قصيدةً يمدح بها الزمنَ الدمويَّ الذي عاشه الفلاحون، وهو الزمن الذي التهمَ والدَه النزيهَ بسيطَ القلب. . .

إنّ إحدى وسائل تأثير الفاشيّة على الشخص هو العماء الكامل أو شبه الكامل. الإنسانُ لا يُصدِّقُ أنّ الهلاك ينتظره. إنه لأمر مدهش كم كان التفاؤل كبيراً عند أولئك الذين كانوا يقفون على حافة القبر. وعلى أرضيّة الأمل، غير النظيف وأحياناً ما كان حقيراً، نشأت الطاعة التي تناسب هذا الأمل - المثير للشفقة، والوضيع أحياناً.

إنّ انتفاضة وارسو، والانتفاضة في تريبلينكا، والانتفاضة في سوبيبور، وأعمال الشغب البسيطة، وانتفاضة حارقي الجثث - نشأت كُلُّها بسبب اليأس الشديد.

لكن، بالطبع، اليأسُ التامُّ والواضحُ لم يولّد الانتفاضات والمقاومة فحسب، بل أدى أيضاً إلى طموحٍ خفيٍّ للشخص العادي في أن يكون مُعرّضاً للإعدام.

تجادَلَ البشرُ في ترتيبِ وصولهم إلى الخندق الدموي، وسُمع في الهواء صوتٌ متحمسٌ، مجنونٌ، وفرحٌ تقريباً يقول:

- أيّها اليهود، لا تخافوا، لا تقلقوا، خمس دقائق - وينتهي كل شيء!

وَلَّدَ ذلكَ كُلُّهُ الطاعةَ واليأسَ والأملَ؛ ذلكَ أنَّ الناسَ ذوي المصيرِ الواحدِ ما كانت لهم طبائعُ واحدة.

يجب التفكير في مسألة، ما الذي يجب أن يعانيه الإنسان ويجرّبه، كي يبلُغَ الشعورَ السعيدَ باقتراب الإعدام. يجب على الكثير من الناس التفكير في هذا الأمر، وبخاصّة أولئك الذين يميلون إلى تعليمِ كيف يجب النضال في الظروف، التي ولحسن حظِّ هذا المعلّم الفارغ ليست لديه أيّة فكرة عنها.

بعد إثبات إذعان الإنسان أمام العنف غير المحدود، يجبُ استخلاص الاستنتاج الأخير الذي سيكون له أهمية في فهم الإنسان ومستقبله.

هل تخضَعُ الطبيعةُ البشريّةُ للتغيير، وتصبح طبيعة أخرى في مرجلِ العنف الشمولي؟ هل يفقدُ الإنسانُ الطموحَ الذي يميّزه في أن يكون حرّاً؟ في الإجابة عن ذلك - يكونُ مصيرُ الإنسانِ ومصيرُ الدولةِ الشموليَّةِ. إنَّ تغييرَ طبيعةِ الإنسانِ يَعدُ بالانتصار العالمي والأبدي لدكتاتورية الدولة، وثباتُ الطموح الإنساني نحو الحرّية - هو قرارُ الحكمُ بإدانةِ الدولة الشموليّة.

وها هي الانتفاضةُ الكبيرةُ في معسكرات اعتقال وارسو وتريبلينكا وسوبيبور، وحركةُ حربِ العصاباتِ الكبيرةُ، التي هبّت في عشرات الدول التي استُعبدت من قبل هتلر، وانتفاضة برلين عام 1953 والانتفاضةُ المجريَّةُ في عام 1956، والانتفاضة التي اجتاحت معسكراتِ اعتقال سيبيريا والشرق الأقصى بعد وفاة ستالين، وحركة احتجاج الطلاب البولونيين في تلك الفترة ضد قمع حرية الفكر، التي اجتاحت كثيراً من المدن، والإضرابات في عديد من المصانع التي

أظهرت استحالةَ زوال الرغبة الإنسانية في الحرية. سُحقت جميعُها، لكنها كانت موجودة. الشخصُ الذي تحول إلى العبودية أصبح عبداً حسبَ قدره وليس بسبب طبيعته.

إنّ طموحَ الطبيعةِ الإنسانيّةِ إلى الحريَّةِ غيرُ قابلٍ للتدمير، يمكن قمعه، لكن لا يمكن تدميره. الشموليّةُ لا يمكن أن تتوقفَ عن ممارسةِ العنف؛ وإذا تخلّت عن العنف تموت. العنف الأبدي، المتواصل، المباشر أو المقنع، هو أساس الشمولية. لن يتخلى الإنسانُ طوعاً عن الحرية. في هذهِ النتيجةِ ضوءُ عصرنا، ونورُ المستقبل.

51

تُجري الآلةُ الكهربائيَّةُ حساباتٍ رياضيةً، وتَحفَظُ الأحداثَ التاريخيَّةَ، وتلعَبُ لعبةَ الشطْرَنج، وتُترجم كتباً من لغة إلى أخرى. إنها متفوقة على الإنسان في القدرة على حل الوظائف الرياضيَّة بسرعة، ذاكرتها خالية من العيوب.

هل هناك حدٌّ للتقدم الذي يبني آلةً على صورةِ الإنسان وأُنموذَجِهِ؟ على ما يبدو لا يوجد حدٌّ لهذا.

يمكنك أن تتخيل آلَةَ القرون القادمة وآلاف السنين المستقبليّة. سوف تستمع تلكَ الآلة إلى الموسيقى، وتقيّمُ لوحةً فنيَّةً، وترسم لوحاتٍ بنفسها، تُبدع الألحانَ، وتكتب الشعرَ.

هل هناك حد لكمالها؟ هل يمكنُ مقارنتُها بالإنسان، هل ستتفوّقُ عليه؟

إنّ التطوّرات الجديدة والجديدة للإلكترونيات والأوزان والمساحات ستتطلبُ إنتاجَ الإنسانِ الآلةِ.

ذكريات الطفولة... دموع السعادة... مرارة الانفصال... حب الحرية... الشفقة على جرو مريض... الوسوسة... حنان الأم... أفكار الموت... الحزن... الصداقة... حب

الضعفاء... الأمل المفاجئ... التوقُّعُ السعيد... المتعة المجهولة... الارتباك المفاجئ...

كل ذلك ستقوم به آلةٌ! لكن مساحة الأرض كلها لا تكفي لاستيعاب آلة تتضَخَّمُ من حيث الحجم والوزن، بحيث تتمكن من أن تُعيد خلق خصائص العقل والروح لشخصٍ متوسِّطٍ عاديٍّ وغير ملاحظٍ.

لقد قضت الفاشية على عشرات الملايين من الناس.

52

أنهى قائدُ سلاح الدبابات نوفيكوف والمفوّض غيتمانوف، في منزل واسع نظيفٍ ومضاءٍ في قرية من قرى الغابات في جبال الأورال، استعراضَ تقاريرِ قادة الألوية الذين تلقوا الأمر بالخروج من الاحتياط.

حلّت ساعةُ هدوء بعدَ العمل بلا نوم في الأيام الأخيرة.

بدا أن نوفيكوف ومرؤوسيه، كما هو الشأنُ دائماً في مثل هذه الحالات، لم يكن لديهم ما يكفي من الوقت ليتقنوا البرامج التدريبية بصورةٍ تامةٍ وكاملة. لكن انتهى عصرُ التدريب، وإتقانِ نظام عمل المحركات والأجزاء المتحرّكة، انتهى زمن تعلّمِ تقنية المدفعية، والبصريات، وأجهزة اللاسلكي؛ والتدريب على إدارة إطلاق النار وتقييمها واختيار وتوزيع الأهداف، واختيار طريقة إطلاق النار، وتحديد لحظة الإطلاق، ومراقبة الثغرات، وتعديلها، وتبديل الأهداف.

المعلّم الجديد - هو الحرب - إنَّها تُعلّم بسرعة، وتشدّ المقصّرين، وتملأ الفجوات.

تمطّى غيتمانوف نحو الخزانة، الواقفة في الفاصل بين نافذتين، وقرعَ بابها بإصبعه قائلاً:

- هيه، أيّها الصديق، اخرج إلى الجبهة الأمامية.

فتح نوفيكوف باب الخزانة وأخرج زجاجة من الكونياك وملأَ كأسينِ سميكينِ أزرقين.

قال مفوَّضُ الفيلق وهو يفكر:

- من الذي يجب أن نمجّده؟

كان نوفيكوف يعرف من الذي كان من المفترض أن يُشرَبَ نخبُ صحَّته، لأن سؤالَ غيتمانوف هو: «بصحّة من نشرب؟»

قال نوفيكوف وقد تردَّدَ لحظةً:

- هيا، أيّها الرفيق المفوض، دعنا نشرب نخب أولئك الذين سنخوضُ المعركة معهم، ولتكن الدماءُ التي سيبذلونها قليلة.

قال غيتمانوف:

- هذا صحيح، الاهتمام أولاً وقبل كل شيء، بالكوادر التي عُهِدَ إلينا بها، دعنا نشرب نخب شبابنا!

قرعا الكأسين وشربا.

عبَّأَ نوفيكوف بسرعةٍ لم يستطع إخفاءها الكأسين مرة أخرى وقال:

- نخب الرفيق ستالين! لنكن عند حسن ظنّه!

رأى ابتسامة خفيَّة في عيني غيتمانوف اللطيفتينِ واليقظتين، وفكَّرَ غاضباً من نفسه: «آه، لقد تسرّعتُ».

قال غيتمانوف بلطف:

- حسناً، حسناً، نخب الرجل العجوز، والدنا. فلنبحر إلى مياه الفولغا تحت قيادته.

نظر نوفيكوف إلى المفوض، ولكن ماذا يمكنك أن تقرأ على الوجه السميك ذي العظام البارزة، المبتسم، لرجلٍ ذكي يبلغ من العمر أربعين عاماً، وذي عينين ضيقتين وفرحتين وغير مريحتين.

بدأ غيتمانوف يتحدث فجأة عن رئيس الأركان نيودوبنوف قائلاً:

- إنّه لطيفٌ، وإنسان جيّد. إنّه بلشفيّ وستالينيّ حقيقيّ. ومُعبّئ نظرياً. لديه خبرة كبيرة في العمل القيادي. وذو قدرة كبيرة على التحمّل. إنّي أذكره في عام سبعة وثلاثين. لقد أرسله يجوف[1] لإجراء عملية تطهير في المنطقة العسكرية، وأنا، أنت تعرف، لم أكن أدير دور حضانة. . . لقد عمل جيّداً. لم يكن رجلاً عادياً، بل فأساً، كان يضرب حسب القائمة، ولم يكن أداؤه أقلّ حزماً من أولريخ فاسيلي فاسيليفيتش[2]، وقد كان عند حسن ظنِّ نيقولاي إيفانوفيتش[3]. يجب دعوته الآن، وإلّا سيغضب.

---

(1) نيقولاي إيفانوفيتش يجوف ولد في 1 مايو 1895 كان مسؤولاً في الشرطة السرية التابعة لستالين، وشغل أيضاً مناصب رفيعة، كان رئيس عملية التطهير الأعظم وعرف العصر الذي كان في فترته رئيساً للشرطة السرية بـ«عصر يجوف»، بعد قيادتِهِ الاعتقالات الجماعية ألقي القبض عليه؛ وقد علم ستالين بأنه كان يقوم بعمليات اعتقال وتعذيب وقتل سرية معادية لمصالح السوفييت، واعترف يجوف بذلك وأصدر أمر بإعدامه عام 1940 بتهمة الخيانة العظمى مع بداية الحرب العالمية الثانية. (المترجمان).

(2) فاسيلي فاسيليفيتش أولريخ (13 يوليو 1889، ريغا، الإمبراطورية الروسية - 7 مايو 1951، موسكو) - رجل دولة سوفييتي، محارب. أحد المنفّذين الرئيسيين للقمع الستاليني بصفته رئيساً للجنة العسكرية بالمحكمة العليا للاتحاد السوفييتي. (المترجمان).

(3) نيقولاي إيفانوفيتش كوزنتسوف (من مواليد نيكانور ؛ 14 تموز (يوليو) 1911 - 9 آذار (مارس) 1944). ضابط في أمن الدولة، ورجل

سُمع في لهجته ما يشبهُ الإدانة للنضال ضد أعداء الشعب، النضال الذي عرفه نوفيكوف، وشارك به غيتمانوف. نظر نوفيكوف من جديد إلى غيتمانوف ولم يستطع فهمه. وقال ببطء وعلى مضض:

- نعم، بعضهم كان يُقطّع الحطب في تلك الفترة.

لوَّحَ غيتمانوف بيده قائلاً:

- جاء اليوم تقريرٌ من الأركان العامة، فظيعٌ: الألمان يقتربون من جبل إلبروس، وفي ستالينغراد يدفعون برجالنا إلى الماء. وأنا سأقولها صراحةً، نحن لنا نصيبنا في هذه الأمور هناك، - لقد أطلقنا النار على جماعتنا، وسحقنا كوادرنا.

شعر نوفيكوف فجأة بالثقة بغيتمانوف فقال:

- نعم، أولئكَ الشباب قضوا على أناس رائعين، أيها الرفيق المفوض، لقد تسببوا بالكثير من المصائب في الجيش. قلعوا عين مفوّض الفرقة كريفوروتشكو أثناء التحقيق معه، وهو حطّم رأس المحققِ بالمحبرة.

أومأ غيتمانوف متعاطفاً وقال:

- إنّ لافرينتي بافلوفيتش يُقدّر عالياً صديقنا نيودوبنوف. ولافرينتي بافلوفيتش لا يخطئ في الناس - يا له من رجل ذكي، آه كم هو ذكي.

- نعم - نعم. وفكّر نوفيكوف طويلاً، ولم يتكلّم.

عصابات، قضى شخصيّاً على 11 جنرالاً ومسؤولينَ رفيعي المستوى في الإدارة المحتلة لألمانيا النازية. بطل الاتحاد السوفييتي (1944). (المترجمان).

صمتا، وتناهت إلى مسامعهما أصوات همس منخفض من الغرفة المجاورة.

- أنت تكذب، هذه جواربي.

- كيف جواربك، أيّها الرفيق الملازم أوّل، هل جننت تماماً؟ - وأضاف الصوت نفسه، متوجّهاً هذه المرة بصيغةِ المفرد «أنت»:

- أين تضعها، لا تلمسها، هذه ياقاتنا.

- انظر، أيّها الرفيق الموجّه السياسي الأصغر، كيف يمكن أن تكون لك - انظر! - إنّهما مساعد نوفيكوف، وحاجب غيتمانوف، هما من قاما بانتقاء الملابس الداخلية لرؤسائهما بعد الغسيل.

قال غيتمانوف:

- راقبت هذين الشيطانين طوال الوقت. مشينا معك، وكانا يسيران خلفنا، في أثناء إطلاق النار، في كتيبة فاتوف. مشيت فوق الحجارة من خلال مجرى النهر، ونَفَضتُ قدميَّ لإسقاط الأوساخ. نظرت - كان حاجبي يسير فوق الحجارة في مجرى النهر، وقفز ملازمك ونفض قدميه.

- هيه، أيّها المحاربان، اشتما بصوت منخفض. - قال ذلك نوفيكوف وسكتت مباشرة الأصوات من الغرفة المجاورة.

دخلَ الغرفةَ الجنرال نيودوبوف، وهو رجل شاحبٌ، جبهته عريضة، وشعرهُ كثيفٌ استفحل الشيب فيه. نظر إلى الكؤوس، والزجاجة، ووضع كومة من الأوراق على الطاولة وسأل نوفيكوف:

- ما العمل، أيّها الرفيق العقيد، مع رئيس الأركان في الكتيبة الثانية؟ سيعود ميخاليف بعد ستة أسابيع، تلقيت تقريراً مسجّلاً من مستشفى المقاطعة.

قال غيتمانوف وسكب الكونياك في الكأس:

- أيّ رئيس أركان هذا بدون أمعاء وبدون جزءٍ من المعدة. اشرب أيّها الرفيق الجنرال، ما دامت أمعاؤنا في مكانها.

رفع نيودوبوف حاجبيه، ناظراً بعينيه الرماديتين الفاتحتين نحو نوفيكوف ومستغرباً.

قال نوفيكوف:

- أرجوك، أيّها الرفيق الجنرال، أرجوك.

أزعجه أسلوب غيتمانوف الذي يشعرُ نفسَهَ دائماً صاحبَ البيت، مقتنعاً بحقه في التحدث طويلاً في الاجتماعات حول المسائل الفنيَّة التي كان يجهلها تماماً. وبالثقةِ نفسها يبدو مُقتنعاً بحقه أن يضيّفَ كونياكَ شخصٍ آخر، وأن يضعَ الضيف في سرير شخص آخر ليرتاح، ويقرأ أوراق الآخرين على الطاولة.

قال نوفيكوف:

- ربما سنعيّن مؤقتاً الرائد باسانغوف، إنه قائد ذكي، وقد شارك في معارك الدبابات بالقرب من نوفوغراد - فولينسك. هل لدى مفوض اللواء أيّة اعتراضات؟

قال غيتمانوف:

- بالطبع، لا اعتراضات، فما هي الاعتراضات التي قد تكون لدي.. لكن هناك بعض الاعتبارات، نائب قائد اللواء الثاني المقدم أولمانيل أرمني، ورئيس الأركان عنده كالميكي، إضافة إلى ذلك - في اللواء الثالث، رئيس الأركان هو العقيد ليفشيتس. ربما نتجاوز الأمر من دون كالميكي؟

نظر إلى نوفيكوف، ثم إلى نيودوبنوف.

قال نيودوبنوف:

- كل هذا صحيح حسب الوضع العام، لكن أقول بصدق، لقد منحتنا الماركسية مقاربة مختلفة لهذه المسألة.

قال نوفيكوف:

- من المهم كيف سيحاربُ هذا الرفيقُ الألمانيَّ - هذه هي ماركسيتي، أما أينَ كان جدّه يصلّي إلى اللّه؛ في الكنيسة، في المسجد. . . - ثمَّ أضاف قائلاً: -أو في الكنيس، سيّان عندي. . . أنا أرى: أنَّ الأمرَ الأكثر أهمية في الحرب هو إطلاق النار.

قال غيتمانوف بمرح:

- هذا هو الأمرُ بالضبط. ما الذي يجعلنا نحن في فرقة الدبابات نبني كنيساً أو أيّ مُصلّى آخر أيضاً؟ إننا جميعاً ندافع عن روسيا - عبس فجأة وتابَعَ غاضباً - أقول لكم الحقيقة، كفى! هذا يسبب الغثيان مباشرة! باسم الصداقة بين الشعوب، دائماً نضحّي بالشعب الروسي. فإذا ما كان ممثلُ الأقليّة القوميَّة بالكاد يفكّ الأحرف الأبجدية، نرشحه لرئاسة لجانِ مفوضي الشعب. وصاحبُنا إيفان حتى لو كان طول جبهته سبعة أشبار، فإننا نضربه مباشرة على قبعتة، ونقول له افتح الطريق لممثل الأقلية القومية! لقد حوّلوا الشعب الروسي العظيم إلى أقليَّة قوميَّة. أنا مع الصداقة بين الشعوب، ولكنني لستُ مع هذه الصداقة. كفى!

فكر نوفيكوف، ونظر إلى الأوراق على الطاولة، ونقر الكأس بأظفره قائلاً:

- هل عليَّ أن أُقَلِّصَ الروس بسبب تعاطفي الخاص مع الأمّة

الكلميكية؟ واستدار نحو نيودوبنوف، قائلاً: حسناً، نصدر أمراً بتعيين الرائد سازونوف قائماً بأعمال رئيس أركان اللواء الثاني.

قال غيتمانوف بصوت خافت:

- سازونوف رئيس أركان ممتاز.

وشعر نوفيكوف، الذي تعلّم أن يكون فظّاً، وصاحب سلطة، وقاسياً، من جديد بعدم الثقة أمام المفوّض... فكّر مهدئاً نفسه: «حسناً، حسناً. أنا لا أفهم في السياسة. أنّا اختصاصيّ عسكري. مسؤوليتنا صغيرة: تحطيم الألمان».

لكن وبالرغم من أنّه كان يضحك بداخله من جهل غيتمانوف بالشؤون العسكرية، فإنَّهَ في الآن نفسه كان ينزعج من اعترافه بشعورهِ بالرهبة أمامه.

كان هذا الرجل ذا رأس كبير، وشعره مُعربس، قصير، ولكنه عريض المنكبين، وكبير البطن، وحركيّ جداً، وذو صوتٍ عالٍ، مُضحك، ونشيط لا يعرفُ الكلل.

ومع أنَّهُ لم يكن من قبلُ في الجبهة، إلا أنّهم كانوا يتحدثون عنه في الألوية: «آخ، يا لمفوَّضِنا من عسكريٍّ!»

كان يحب عقد اجتماعات لجنود الجيش الأحمر: وقد أحبوا خطبه، تحدّث ببساطة، ومزح كثيراً، واستخدم أحياناً كلماتٍ شديدةَ القوّة ووقحة.

وكان يمشي ويتوقف للاستراحة، وعادة ما يتكئ على عصا، وإذا لم ينتبه له جندي الدبابة ولم يحيِّهِ، يتوقف غيتمانوف أمامه، وينزع قبعته متكئاً على العكازة المشهورة وينحني مثل عجوز القرية.

كان سريع الغضب وما أحبَّ الاعتراضات؛ وعندما كانوا يجادلونَه، يئزّ ويعبس. غضب ذات مرّة، رفع يده ولوّح بقبضته في وجه رئيسِ أركانِ الفوجِ الثقيل النقيب غوبينكوف، الرجلِ العنيدِ، «المبدئي بشكل رهيب»؛ كما وصفه رفاقه.

قال حاجب غيتمانوف مُديناً عنادَ النقيب: «أثارَ الشيطانُ غضبَ مفوّضنا».

لم يكن لدى غيتمانوف أي احترام لأولئك الذين شَهدوا الأيام الأولى الصعبة من الحرب. قال ذات مرة عن قائد اللواء الأول ماكاروف، المحبّب لنوفيكوف:

- سأخرِجُ منه فلسفة السنة الحادية والأربعين وأُحطِّمها!

صمت نوفيكوف، على الرغم من أنه كان يحب التحدث مع مكاروف حول ما حدث في الأيام الأولى من الحرب.

بدت شجاعةُ وحِدّةُ أحكام غيتمانوف مناقضةً تماماً لنيودوبنوف.

لكن هذين الشخصين، وبالرغم من كلّ اختلافاتهما، كان يوحّدُهما شيءٌ ما جامعٌ صلبٌ.

كان نوفيكوف يشعر بالاكتئاب، من نظرة نيودوبنوف المهتمَّة ولكن غير المُعبّرة، ومن جمله البيضاويّة، الهادئة دائماً والتي لا تتغيّر.

أمّا غيتمانوف فقد كان يضحك قائلاً:

- سعادتنا، أنّ الألمانَ أثاروا خلال عام اشمئزازَ عددٍ من البشرِ أكبرَ مما أثارَه الشيوعيون في خمسةٍ وعشرينَ عاماً.

وقد يبتسمُ فجأةً ويقول:

- ما الأمر، والدنا يحبّ أن يسمّوه عبقرياً.

ما كانت تلكَ الجرأة تُعدي محادِثَه، بل على العكس من ذلك كانت تثير قلقه.

أدارَ غيتمانوف مقاطعةً قبل الحرب، وخطبَ في مسائلِ إنتاجِ طوب الصلصال، وتنظيم الأعمال البحثيّة في فرع معهد الفحم، وتحدّث عن جودة إنتاج الخبز في مخبز المدينة، وعن القصّة غير الموثوقة «الأضواء الزرقاء» التي نُشرت في المجلّد السنوي المحلّي، وعن إصلاح مرآب الجرّارات، وانخفاض جودة تخزين البضائع في مستودعات فرع التجارة في المقاطعة، وعن وباء طاعون الدجاج في كلخوزات الدواجن.

والآن تحدَّثَ بثقة عن جودة الوقود، ومعايير تآكل المحركات وتكتيكات قتال الدبابات، وتفاعل المشاة والدبابات والمدفعية في اختراق دفاع العدو الطويل الأجل، والدبابات في الهجوم، والخدمات الطبية في المعركة، وعن شيفرات اللاسلكي، وعلم النفس العسكري لجندي الدبابة، وحول خصوصيّة العلاقات عندَ كل عضو في الطاقم وما بين أعضاء الطاقم ككل، وحول الأولوية في الإصلاح العام، وحول إخلاء الآلات التالفة من ساحة المعركة.

توقف نوفيكوف وغيتمانوف ذات مرّة بالصدفة في كتيبة النقيب فاتوف، بجانب الدبابة التي احتلّت المركز الأول في الرمي داخل الفيلق.

داعبَ قائد الدبابة بشكل غير ملحوظ درعَ دبّابتهِ، وهو يجيب عن أسئلة القائد.

سأل غيتمانوف قائدَ الدبابة، هل كانَ صعباً عليه الحصولُ على المركزِ الأوّل. انتعش قائد الدبّابة فجأة وقال:

- لا، ليس صعباً. إنّي أحبّها جداً. رأيتُها ما إن وصلت من القرية إلى المدرسة، وأحببتها مباشرة إلى حد اللامعقول.

قال غيتمانوف ضاحكاً: - الحبُ من أوّل نظرة - وفي ضحكه المتعالي كان هناك شيء من الإدانة لحبّ الفتى المضحك للدبابة.

شعر نوفيكوف في تلك اللحظة بأنّه هو نفسه كان سيّئاً، فهو يمكنه أن يحبها أيضاً بحماقة، لكن حول هذه القدرة على الحب بطريقة غبية لم يكن يرغب في الحديث إلى غيتمانوف، وعندما أصبح جاداً، قال لقائد الدبابة بطريقة تعليميَّة:

- أحسنت، حب الدبابة هو قوة عظيمة. لهذا السبب حققت النجاح، لأنّك أحببت دبابتك. ثم تابعَ نوفيكوف ساخراً:

- وما الذي جعلكَ تحبُّها؟ إنها هدف كبير، وإصابته أسهل من السهل، والدبابة تُحدث ضجيجاً سيّئاً، وتكشف نفسها، والطاقم يكون مذهولاً من ضجيجها. إنّها تهتزّ أثناء الحركة، والرؤيا تكون سيّئة، وعليك أن تسدّد بشكل معقول.

ابتسم غيتمانوف ساعتها ابتسامة عريضة وهو ينظر إلى نوفيكوف. وها هو غيتمانوف يبتسم الابتسامة نفسها وهو يسكب المشروبَ في الكؤوس، نظر إلى نوفيكوف وقال:

- طريق سيرنا سيكون من خلال منطقة كويبيشيف. وسيتمكن قائد فيلقنا من لقاء أحدٍ ما. هيّا نشرب نخب اللقاء المرتقب.

فكّر نوفيكوف، وهو يشعر بخجل شديد صبيانيّ: «هذا ما كان ينقصنا فحسب».

نشبت الحربُ والجنرال نيودوبنوف خارج البلد. وعندما عاد إلى موسكو في بداية عام 1942، إلى اللجنة الشعبية للدفاع، رأى الحواجز في منطقة ما وراء نهر موسكو، والكرات الحديدية الشائكة المضادّة للدبابات، وسمع صفّارات الإنذار.

لم يسأل نيودوبنوفُ نوفيكوفَ عن الحرب أبداً، مثله مثل غيتمانوف، ربّما كان يخجل من جهله القتالَ على خط المواجهة.

أراد نوفيكوف دائماً أن يعرف، مقابل أيّة إنجازات حصل نيودوبنوف على رتبة جنرال، وتصوّر حياة قائد أركان الفيلق، مثل شجرة بتولا في بحيرة، منعكسة في أوراق الاستمارات.

كان نيودوبنوف أكبر سنّاً من نوفيكوف وغيتمانوف، وقد وضِعَ في السجن القيصري عام 1916 بسبب مشاركته في حلقة بلشفية.

عمل بعد الحرب الأهلية، أثناء التعبئة الحزبية في الإدارة السياسية الحكومية المتحدة (الاستخبارات. م)، وخدم حرس الحدود، ثم أُرسِلَ للدراسة في الأكاديمية، وكان في مرحلة الدراسة سكرتيرَ المنظمةِ الحزبيّة لرفاقه في السنة الدراسية... ثم عمل في القسم العسكري للجنة المركزية، في الجهاز المركزي للمفوضية الشعبية للدفاع.

سافر مرّتين إلى الخارج قبل الحرب. لقد كان شخصيّة قيادية، واسمه مقيّد في سجل المسؤولين الخاص، لم يكن واضحاً تماماً لنوفيكوف من قبل، ماذا يعني هذا، وما هي الميّزات التي تتمتعُ بها الشخصيَّاتُ القياديَّة.

كانت سرعةُ ترقّي نيودوبنوف مدهشة، وفي العادة تكون ثمَّةَ مرحلة طويلة بين الترشيح للرتبة والحصول عليها، بدا، وكأنّ اللجنة

الشعبية كانت تنتظر قرار ترشيح نيودوبنوف للرتبة كي توقعه. تحتوي تقاريرُ الاستبيان على خاصيّة غريبة - فقد أوضحت جميع أسرار الحياة البشرية وأسباب النجاح والفشل، ولكن بعد دقيقة واحدة، وفي ظل ظروف جديدة، يتبيّن أنها لم تفسر أي شيء، ولكن على العكس من ذلك، فقد عتّمت على الجوهر.

لقد نقّحت الحرب سجلات الخدمة، والسير الذاتية، والخصائص، وقوائم الجوائز بطريقتها الخاصة... ووجد نيودوبنوف نفسه تحت إمرة العقيد نوفيكوف.

كان واضحا لنيودوبنوف أن الحرب ستنتهي وسينتهي هذا الوضع الشاذ...

أحضر معه بندقية صيد إلى الأورال، تجمّد عشاق الصيد في الفيلق عندما شاهدوا البندقية، وقال نوفيكوف، ربما كان القيصر نيقولكا في زمنه يصطاد بمثل هذا السلاح.

لقد وصلت البندقية إلى نيودوبنوف عام 1938 بأمر ما، تماماً كما وصلت إليه بأمر ما - الموبيليا والسجاد وخزف المطبخ الصيني والبيت الريفي، من المستودعات الخاصّة.

لم ينتهك المعايير أبداً في نقاشاته، سواء كان الحديث يدور عن الحرب، أم عن شؤون الكلخوزات، أم عن كتاب الجنرال دراغوميروف، أم عن الأمة الصينية، أم عن مزايا الجنرال روكوسوفسكي، أم عن مناخ سيبيريا، أم عن صناعة المعاطف الروسية، أم عن تفوّق جمال الشقراوات على جمال السمراوات.

كان من الصعب فهمه - هل هذا ضبطٌ للنفس، أم هو تعبير عن نفسيّته الحقيقية.

أحياناً، بعد العشاء يصبحُ متحدّثاً، فيروي قصصاً عن كشف المسيئين وعمليات التخريب المكشوفة، التي تعمل في أكثر المجالات بُعداً عن التوقّع: في إنتاج الأدوات الطبية، وفي صناعة الأحذية العسكرية، وفي الحلويات، وفي قصور الرواد الإقليمية، وفي إسطبلات ميدان سباق الخيل في موسكو، وفي معرض تريتياكوف للوحات الفنيّة.

تمتَّعَ بذاكرة ممتازة، ويبدو أنه قرأ الكثير، ودرس أعمال لينين وستالين. اعتاد أن يقول خلال النقاشات: «لقد قال الرفيق ستالين في المؤتمر السابع عشر. . .» - ويستشهد بمقاطع من الكلمة.

قال له غيتمانوف ذات مرّة:

- الاقتباس يبقى اقتباساً. وهل قليلٌ ما قيل! لقد قيل: «نحن لا نريد أرضاً غريبة، ولا نعطي بوصةً واحدةً من أرضنا». لكن أين الألماني الآن؟

إلّا أنَّ نيودوبنوف ضمَّ كتفيه إحداهما نحو الأخرى، نعم تماماً فالألمان الذين يقفون على نهر الفولغا، لا يعنونَ شيئاً مقارنةً مع كلمات: لن نعطي بوصة واحدة من أرضنا.

واختفى فجأة كلّ شيء - الدبابات، واللوائح القتالية، وإطلاق النار، والغابة، وغيتمانوف، ونيودوبنوف. . . جينيا! أيعقل أن يراها مرة أخرى؟



53

بدا غريباً لنوفيكوف أن يقولَ غيتمانوف، بعد أن قرأ الرسالة التي استلمها من البيت: «زوجتي تأسف لنا، لقد شرحت لها، في أيّة ظروف نعيش».

إنّ الحياة التي بدت للمفوّض صعبة، حيّرت نوفيكوف برفاهيتها.

فهو لأوّل مرّة يختارُ بيتاً بنفسه. وذات مرّة قالَ عفوَ الخاطر وهو ذاهب إلى اللواء، إنّ أريكة أصحاب البيت لا تعجبه، وعندما عاد كانت بانتظاره أريكة ذات ظهرٍ خشبيٍّ، وقلق حاجبه فيرشكوف من أن لا تكون الأريكةُ مُناسبةً لذوق المفوّض.

سأل الطبّاخ: «كيف حساء البورش، أيّها الرفيق العقيد؟».

لقد أحبّ الحيوانات منذ الطفولة. والآن يعيش قنفذٌ عنده تحت السرير، طرق عقبيه بالأرضِ كصاحب بيت، وركض في أرجاء الغرفة في الليل. وكان يضع المكسّرات في القفص الذي يحملُ شعاراً على شكل دبابة، والذي صنّعه فنّيو الإصلاح للسنجاب الصغير. سرعان ما اعتاد السنجاب على نوفيكوف، وجلسَ في بعض الأحيان على ركبته، وهو ينظر بعينيه الطفوليتين والواثقتينِ والفضوليتين. كان الجميع يبدون الاهتمام به ويتصرفونَ بلطفٍ معه - الحاجب

فيرشوف، والطبّاخ أورلينيف، وسائق سيارة الجيب الأمريكية «فيليسا» خاريتونوف.

لم يبدُ كل هذا لنوفيكوف تافهاً وزهيداً. عندما أحضر جرواً إلى بيت طاقم القيادة قبل الحرب، قضمَ حذاءً للجارةِ، وصبَّ ثلاثَ بُركٍ صغيرةٍ على الأرضيّة خلال نصف ساعة، ودبّت الفوضى في المطبخ المشترك، ممّا دفع نوفيكوف للتخلّي عنه.

حَلَّ يوم المغادرة، وبقي الخلافُ الصعبُ بين قائدِ فوجِ الدبابات ورئيس أركانه من دون حلّ.

لقد حان إذاً يوم المغادرة، ومعه القلق بشأن الوقود، والغذاء على الطريق، وترتيب التحميل في القطارات.

بدأت تثيرُ قلقَهُ الفكرةُ حول جيران المستقبل، الذين خرجت أفواجهم مشاةً و رجالَ مدفعيَّةٍ اليوم من الاحتياط، وتحرَّكت إلى السكة الحديديّة، وأقلقَهُ التفكيرُ في الشخص الذي سيقفُ أمامَه نوفيكوف، عندما يصدِرُ أمرَ «الانتباه»، ويقول له: «أيّها الرفيق العقيد، اسمح لي أن أقدّم. . . ».

لقد حانَ يومُ المغادرة ولم يتمكّن من رؤيةِ أخيه، وابنةَ أخيه. سافر إلى الأورال، واعتقد أنّ أخاه قريب، لكن تبيّن أنّه لم يكن هناك وقت للأخ.

ها هم يبلغون قائدَ الفيلق عن حركة الألوية والمنصات المخصّصة للمركبات الثقيلة، وأنّهم أطلقوا القنفذَ والسنجابَ إلى الغابة، إلى الحرّية.

من الصعب أن تكون سيداً للموقف، وأن تكون مسؤولاً عن كل

تفاهة، وأن تتحقق من كل شيء صغير. حُمِّلتِ الدباباتُ على المنصات. لكن هل نسوا أن توضَعَ تلك الآليات في وضع الفرملة؟، وهل ركَّبوا حركةَ السرعة الأولى، وثبتوا الأبراج والمدافع للأمام، هل أغلقوا فتحات السقف بإحكام؟ هل أعدوا الوسادات الخشبية كي يثبّتوا الدبابات، لمنع اهتزاز العربات؟

قال غيتمانوف:

- أه، لنلعب لعبة ورق الشدّة الوداعية.

قال نيودوبنوف:

- لا أمانع.

لكن نوفيكوف أراد الخروج إلى الهواء الطلق، ليكون وحده.

كان الهواء في هذه الساعةِ الهادئةِ التي تسبق المساءَ، شفّافاً بشكلٍ مُذهل، وبدت أكثرُ الأجسامِ تواضعاً وبُعداً عن إثارةِ الاهتمام، واضحةً وبارزةً. والدخان المتدفق من الأنابيب انبثقَ عمودياً وبشكلٍ مستقيم غير مجعّدٍ. وطقطق الحطب في المطابخ الميدانيّة. ووقف وسط الشارع قائد دبّابة ذو حاجبينِ غامقي اللون، عانقتهُ فتاةٌ وأسندت رأسَه إلى صدرها، وبكت. ونُقلت الصناديقُ والحقائبُ، والآلاتُ الكاتبةُ من المقار الرئيسية في حقائب سوداء. ونزع جنود الاتصالات الإشارة القطبية، الممتدة إلى مقرات الألوية، والأسلاك السوداء الدهنية التي لُفَّت على بكرات. وكانت دبابة المقر الواقفة خلف الأكواخ تنفخ، وتفرقع، وتدخّن، استعدادا للمسير. وسكب السائقون الوقود في شاحنات «الفورد» الجديدة، وسحبوا البطانات من أغطية المحرّكات. والعالم في المحيط قد تجمّد.

كان نوفيكوف يقف على الشرفة، وينظر حوله، بينما تدحرجت كَومَةٌ من المتاعبِ والهمومِ مبتعدةً عنه جانباً.

غادر قبل المساء في سيّارة الجيب «ويلس» على الطريق المؤدي إلى المحطة.

خرجت الدبابات من الغابة. فَرنَّتِ الأرضُ التي برّدها الصقيعُ تحت أوزانها. وأضاءت شمس المساء قممَ غابة التنّوب البعيدة، التي خرج منها لواء المقدم كاربوف. كتائب ماكاروف كانت بين أشجار البتولا الصغيرة. زيَّن سائقو الدبابات الدروعَ بفروعٍ وأغصانِ الأشجار، وبدت أغصانُ التنّوبِ وأوراقُ البتولا وكأنّها ولدتْ جنباً إلى جنب مع دروع الدبابات، وهدير المحركات، وصرير الجنازير الفضّية.

قال العسكريون، وهم ينظرون إلى قوافل الاحتياط المتوجّهة إلى الجبهة: «هناك حفل زفاف!».

نظر نوفيكوف، الذي كان يسير بسيّارته على الطريق، إلى الآليّات المندفعة بجانبه.

كم من الدراما والقصص الغريبة والمضحكة حدثت هنا! وأيّة حالة طوارئ لم يبلّغوه بها... مَرَّةً عُثرَ أثناء الإفطار في كتيبة المقر على ضفدع في الحساء... ومرَّةً كان الملازم روجديستفنسكي، الذي تعلّم حتى الصف العاشر، يُنَظِّفُ البندقية الرشاشة، وأصاب برصاصة طائشةٍ معدة رفيقه، لينتحرَ الملازم روجديستفينسكي بعد ذلك. ورفض جندي الجيش الأحمر من فوج المشاة أداء القسم، وقال: «لن أقسم إلّا في الكنيسة فقط».

الدخان الأزرق والرمادي تشبث بشجيرة على جانب الطريق.

كان ثمَّةَ كثيرٌ من الأفكار المختلفة في الرؤوس تحت هذه الخوذات الجلديَّة. وكان فيها أيضاً ما يجمعُ هؤلاء الجنود مع الشعب كلّه - حزن الحرب، وحبُّ الأرض، ولكن كان هناك أيضاً ذلك الفارق المدهش، الذي من أجله كان ما هو رائعٌ مشتركاً بين الناس.

آه، يا إلهي. يا إلهي... كم عددهم - يرتدون البدلات السوداء، الموثوقة بأحزمة عريضة. لقد اختارت القيادة رجالاً بأكتاف عريضة، وقاماتٍ قصارٍ، لتسهيل التسلّق إلى الفتحة، والنزول إلى جوف الدبابة. كم عدد الإجابات المتطابقة في استبياناتهم؛ وحول الآباء والأمهات، وعن سنة الميلاد، وعن التخرج في المدرسة، وعن دورات سائقي الجرارات. واندمجت الدبابات T-34 المسطَّحة الخضراء مع أغطية الفتحات المفتوحة الموحدة، والقماش المشمَّع الموحّد المربوط بالدرع الخضراء.

أحد قادة الدبابات يغنّي؛ والثاني عيناه نصف مفتوحتين، وممتلئ بالخوف والتوقعات السيّئة من الآتي؛ والثالث يفكر في البيت؛ والرابع يمضغ الخبز مع المرتديلا ويفكر في المرتديلا؛ والخامس فاتحٌ فمه، ويحاول تحديد نوع الطير على الشجرة - أليس طوقاً. والسادس قلقٌ، ألم يغضب رفيقه يوم أمس بكلمة قاسية؛ والسابع ممتلئٌ ماكرٌ وضغينته لم تبرد، يحلم أن يضربَ بقبضتهِ وجهَ خَصمِهِ - قائدَ الدبابة 34، الذي يسير أمامه. الثامن يرتب أبيات شعر في ذهنه - في وداع الغابة الخريفية. والتاسع يفكر في صدر فتاة. والعاشر يأسف للكلب الذي أدرك أنّهم يتركونه بين الأكواخ المهجورة، وقفزَ

على درع الدبابة، محاولاً إقناع سائقها، بائساً محركاً ذيله بسرعة. والعاشر يفكر، كم من الرائع الدخول إلى الغابة والعيش وحيداً في كوخ ويتغذى بالثمار، ويشرب مياه الينابيع، ويمشي حافياً. والثاني عشر يتظاهر، أليسَ من الأفضل أن يتمارَضَ ويعلَق في مكانٍ ما في مستشفى؛ والثالث عشر يكرّر حكاية سمعها في طفولته. والرابع عشر يتذكر حديثاً مع فتاة ولا يحزن بأنّ الفراق أبديّ، وهو سعيد بذلك. والخامس عشر يفكر في المستقبل؛ كم هو جيّد أن يصبح بعد الحرب مديرَ مطعمٍ شعبي.

يفكر نوفيكوف: «آه، يا شباب».

إنّهم ينظرون إليه. لعلَّهُ يتحقق، هل يرتدون الزيّ العسكري حسب الأصول، ويستمع إلى المحرّكات، إنّه يعرف بالسمع خبرة وقلّة خبرة السائقين - الميكانيكيين، ويراقب، هل يلتزمون بمسافةِ الأمان اللازمة للسيّارات والقطعات فيما بينها، ألا يسابق المتهوّرون بعضهم بعضاً.

وهو ينظر إليهم، تماماً كما يفعلون، وما هو في داخلِ كلٍّ منهم، كذلك في داخله: وفكر في زجاجة من الكونياك، يفتحها غيتمانوف بشكل فظ، وكم هو رجل ثقيل نيودوبنوف، وفكَّرَ أنّه لن يعودَ للصيد بعد الآن في جبال الأورال، وأن رحلة الصيد الأخيرة لم تنجح - مع طقطقة الرشاشات، وكمية الفودكا الكبيرة، والنكات الغبيّة... والفكرة بأنّه سيرى المرأة التي أحبّها لسنوات عديدة... والتي عندما علم قبل ست سنوات أنّها تزوّجت، كتب رسالةً - تقريراً: «أغادرُ في إجازة مفتوحة، ملحق - مسدس رقم 10322» كان يخدم حينها في نيكولسك - أوسوريسك، - لكنني حينها لم أضغط على الزناد...

إنّهم خجولون، متجهّمون، مضحكون وباردون، شاردون، عشاق نساء، أنانيون غير مؤذين، متشردون، بخيلون، متأملون، ومهذبون. . . ها هم، يخوضون معركة من أجل قضية عادلة مشتركة. هذه الحقيقة بسيطة للغاية بحيث يبدو من غير المألوف التحدث عنها. ولكن ينسى هذه الحقيقة الأكثر بساطة، على وجه التحديد، أولئك الذين على ما يبدو يجب أن ينطلقوا منها.

في مكان ما هنا حلٌّ لنزاع قديم - هل هناك رجل ليوم السبت؟ [«السبت هو للإنسان، وليس الإنسان ليوم السبت». مرقص الإنجيل، الفصل الثاني، الآية 27].

كم هي قليلة الأفكار عن الأحذية، وعن كلب صغير مهجور، الفكرةُ عن كوخ في قرية نائية، والكراهية لرفيق جذب فتاة صغيرة. . . وهنا يكمُنُ الجوهر.

التجمعاتُ الإنسانيَّةُ، يتم تحديد معانيها من خلال هدف رئيسي واحد فحسب - هو أن يكتسبَ الناسُ الحقَّ في أن يكونوا مختلفين، وذوي خصوصيّة على طريقتهم، يشعرون ويفكِّرون ويعيشون في الكون بأسلوبهم الخاص، وبشكل مستقل.

يتحد الناس من أجل الفوز بهذا الحق، أو للدفاع عنه، أو لتوسيعه. وهنا يولد رأي باطل رهيب، لكنه قوي، مفادُهُ أنّ الاتحاد من أجل العرق، والله، والحزب، والدولة هو معنى الحياة، وليس وسيلة. لا، لا، لا! المعنى الوحيد والحقيقي والأزلي للكفاح من أجل الحياة يكمن في الإنسان، في خصوصياته المتواضعة، وفي حقه في هذه الخصوصية.

شعر نوفيكوف أنهم سيحققون هدفهم - إنهم يركزون ويخدعون

وسيتغلبون على العدو في المعركة. هذه الكتلة من العقل، والاجتهاد، والشجاعة والحساب، ومهارات العمل، والغضب، هذه الثروة الروحية لأفراد الشعب - الطلاب، والتلاميذ الذين يبلغون العاشرة، وحرفيي الخراطة، وسائقي الجرارات، والمعلمين، والكهربائيين، وسائقي المركبات - الأشرار والطيبين والمتناغمين الحذرين والبطيئين والمقدامين، - سوف يتحدون، وعندما يتحدون معاً، يجب أن ينتصروا، إنهم عند ذلكَ أغنياء جداً.

إذا لم يكن هذا، فسيكون الآخر، وإذا لم يكن في الوسط، فسيكون على الجناح، وإذا لم يكن في الساعة الأولى من المعركة، فسيكون في الثانية، لكنهم سيحققون، وهم يتفوقون عليهم، وهناك سيحطمون كلّ هذه الكتلة الضخمة ويقهرونها... النجاح في المعركة يأتي منهم بالتحديد، سيحصلون عليه في غبار المعركة، وفي الدخان، في الوقت الذي يكونون فيه قادرين على التركيز، يستديرون، ويقتحمون، يضربون في جزء من الثانية قبل، وفي جزء صغير من السنتيمتر بشكل أدق، وأكثر بهجة وأقوى من العدو.

يكمن حلّ اللغز فيهم، في الشباب على الآليّات التي تحمل المدافع والمدافع الرشاشة - إنهم القوّة الرئيسية للحرب.

لكن الجوهر كان في السؤالِ: هل سيتّحدون ويجمعون الثروة الداخلية لكل هؤلاء الناس في قوّة واحدة.

نظر نوفيكوف إليهم، ونظر، وانبثقَ في روحه إحساسٌ نحو المرأة؛ صادقٌ وواثقٌ وسعيد: «ستكون لي، لي ستكون».

54

كم كانت هذه الأيام مدهشة.

بدا لكريموف أن كتاب التاريخ لم يعد كتاباً، بل أصبح جزءاً من الحياة، وامتزج بها.

أحسَّ بحماسةٍ شديدة بلون السماء وبغيوم ستالينغراد والتماعِ الشمس على الماء. ذكّرته هذه الأحاسيس بطفولته، عندما ملأه مشهد أول تساقط للثلجِ، وانهمارٍ لأمطار الصيف، وقوسِ قزح، بمشاعر السعادة. إن هذا الشعور الرائع يُغادرُ تقريباً مع مرور السنين، جميع الكائنات الحيّة المعتادة على معجزة حياتها على الأرض.

بدا لكريموف كلُّ ما في الحياة الحديثة خاطئاً، وغيرَ صحيح، ولكن هنا، في ستالينغراد لم يشعر بذلك. فكّر: «هكذا كانت الحال أيام لينين».

بدا له أن الناس هنا يعاملونه بطريقة مختلفة، أفضل مما كانوا يفعلونَ قبل الحرب. لم يشعر بأنَّهُ منبوذُ الزمن، مثلما كان الأمرُ في مرحلةِ التطويق. منذ وقت ليس ببعيد، في منطقة ما وراء الفولغا، أعدَّ بحماسة التقاريرَ، واعتبر أنه من الطبيعي أن تقوم الإدارة السياسية بنقله لإلقاء المحاضرات.

ويرتفع الآن في روحه بين الحين والآخر شعورٌ ثقيلٌ مهين. لماذا أُعفيَ من مهمَّتهِ مفوضاً عسكريّاً؟ فقد تصوّر أنّه كان ناجحاً في عمله، وأفضل من كثيرين. . .

كانت علاقات الناس جيدة في ستالينغراد. عاشت المساواة والكرامة على هذا المنحدر الطيني المروي بالدماء.

كان الاهتمام بتنظيم المزارع الجماعية لفترة ما بعد الحرب، وبالعلاقات المستقبلية بين الشعوب العظيمة والحكومات، شبه عام في ستالينغراد. يبدو أن حياة أفراد الجيش الأحمر العسكريَّة وعملهم بالمجرفة، أو بسكين المطبخ الذي يُقشِّرونَ به البطاطا، أو بسكين الأحذية الذي يستخدمهُ صانعو الأحذية في الكتيبة، جميعُ ذلك سيكونُ لهُ تأثيرٌ مباشرٌ على حياة الناس والدول والشعوب الأخرى بعد الحرب.

اعتقد الجميعُ تقريباً أن الخير سينتصرُ في الحرب، وأن الأشخاصَ الشرفاءَ الذين لم يبخلوا بدمائهم، سيكونون قادرين على بناء حياة جيدة وعادلة. عَبَّرَ عن هذا الإيمان المؤثر أشخاصٌ اعتقدوا أنهم لن يتمكنوا من البقاء أحياء حتى نهاية الحرب، وفوجئوا كل يوم، بأنهم يعيشون على الأرض من الصباح إلى المساء.

55

وجد كريموف نفسه في المساء، بعد محاضرتِهِ الدوريّة، في مخبأ المقدّم باتيوك، قائد الفرقة الموجودة على سفوح رابية مامايف ووادي باني.

باتيوك رجل صغير، له وجه جندي عذّبته الحرب، فرحَ بكريموف.

وضعَ على طاولةِ عشاءِ باتيوك مرقٌ جيدٌ منزلي الصنع، وفطيرة حلوى ساخنة. قال باتيوك في أثناء صب الفودكا لكريموف وهو يضيّق عينيه:

- سمعت أنك جئتنا لإلقاء محاضرات، وفكرت من ستقصدُ أولاً - روديمتسيف أم أنا. واتَّضحَ أنّك قصدتَ روديمتسيف في البداية.

تأوّه، وضحك.

- نحن نعيش هنا كما في القرية. تهدأ المعارك في المساء، فنبدأ بالاتصال مرة بجيراننا: ماذا تناولت على الغداء، ومن كان عندك، وإلى من ستذهب، وما الذي أخبرك به رؤساؤك، ومن كان لديه حمام أفضل، وعَمَّن كتبوا في الصحيفة؛ إنهم لا يكتبون عنا، يكتبون دائماً عن روديمتسيف، وإذا حكمنا من خلال الصحف، فهو وحده يقاتل في ستالينغراد.

قدَّمَ باتيوك الضيافة للضيف، وهو نفسه شرب الشاي مع الخبز فقط - اتضح أنه كان غير مبالٍ بفن الطبخ.

رأى كريموف أن هدوء الحركات وبطء الكلام الأوكراني لا يتطابقان مع الأفكار الصعبة التي يحاول باتيوك إعادة التفكير فيها.

ما أزعج نيقولاي غريغوريفيتش هو أنّ باتيوك لم يطرح عليه سؤالاً واحداً يتعلق بالمحاضرة. وكأنّ المحاضرة لم تتطرّق إلى ما كان يشغل باتيوك بالفعل.

أدهش كريموف حديثُ باتيوك عن الساعات الأولى للحرب. لقد قاد فوجه إلى الغرب، أثناء الانسحاب العام من الحدود؛ كي يسترجع المعبر من الألمان. تصوّرت القيادة المنسحبة على الطريق السريع، أنّه سيستسلم للألمان. وأمروا على الفور، وهنا على الطريق السريع، بعد استجواب تكوّن من لغة الشتائم والصراخ الهستيري بإعدامه. وقامَ جنود الجيش الأحمر، في اللحظة الأخيرة عندما كان يقفُ بجانب الشجرة، باسترجاع قائدهم.

قال كريموف:

- نعم، إنّها مسألة خطيرة، أيّها الرفيق المقدّم.

أجاب باتيوك:

- لم أصب باحتشاء في القلب، لكن مع ذلك حصلت على تشويهٍ لسمعتي، هذا ما تمكنت من تحقيقه.

قال كريموف بنبرة أقرب إلى المسرحيّة:

- هل تسمع إطلاق نار في البازار؟ ما الذي يفعلُهُ غوروخوف الآن؟

نظر باتيوك إليه بعينين نصف مغمضتين وقال:

- وماذا يفعل، يلعب بورق الشدّة على الأغلب.

قال كريموف إنّهم أخبروه بالمؤتمر الذي سيعقد عند باتيوك للقنّاصة - وهو مهتم بحضوره.

أجابَ باتيوك:

- نعم مثير للاهتمام، ولماذا لا يكون مثيراً للاهتمام.

تحدّثا عن الوضع على الجبهة. ما أقلق باتيوك هو التركيز الهادئ الذي يجري في الليل للقوات الألمانية على القطاع الشمالي.

أدرك كريموف عندما اجتمع القنّاصة في مخبأ قائد الفرقة، لمن تمّ شَيُّ الفطائر.

جلس الناس على المقاعد الموضوعة عند الحائط وحول الطاولة، في سترات مبطّنة، يطغى عليهم الخجل والحرج وعزّة النفس. حاول الوافدون من جديد، ألّا يصدروا أصوات طقطقةِ المعاولِ والمجارفِ مثلما يفعلُ العمال، وضعوا رشّاشاتهم وبنادقهم في الزاوية.

بدا وجه القناص الشهير زايتسيف بيتوتيّاً مجيداً - فلاح شاب لطيف هادئ. ولكن عندما أدار فاسيلي زايتسيف رأسه وحدّق، أصبحت ملامحُ وجهه القاسية واضحةً.

خطر ببال كريموف انطباعٌ عرضيٌّ خلالَ فترة ما قبل الحرب: مُراقباً بطريقة ما، أحد معارفه لفترة طويلة في أحد الاجتماعات؛ رأى نيقولاي غريغوريفيتش ذلك الرجل الذي بدا صارماً دائماً، وكأنَّ وجهَهُ مختلفٌ تماماً الآن - كانت عيناه تلمعان، وكان أنفه منخفضاً، وفمه نصف مفتوح، وذقنه صغيرة اتحدت بصورةِ رجل معدوم الإرادة وغير حاسم.

جلسَ بجوار زايتسيف، بيزديدكو قاذف الهاون، وهو رجلٌ ضيّق الكتفين ذو عينين بنيتين، ضاحكتين طوال الوقت، والأوزبكي سليمان حليموف، الذي كان ينفخُ شفتيه السميكتين بطريقة طفولية. بدا رجل القناصة - المدفعي الذي يمسح بمنديله العرق عن جبينه، وكأنه رجل أُسرةٍ كبيرةٍ، ذو طبيعةٍ لا شيء يجمعها بعمل القنّاص الرهيب.

وبدا سائرُ القنّاصة الذين دخلوا المخبأ - المدفعي الملازم أول شوكلين، توكاريف، مانجولي، سولودكي - شباباً حزينين وخجولين.

سأل باتيوك القادمينَ، حانيَ الرأس، وبدا وكأنّه طالب فضولي، وليس أحد قادة ستالينغراد الأكثر خبرة وحكمةً.

وعندما التفت إلى بيزديدكو، ظهر في عيون الجالسين جميعاً انتظارٌ مرحٌ لمزحةٍ قادمة.

- حسناً، كيف حالك بيزديدكو؟

- لقد جهّزت للألمان عيد سابانتوي[1] كبيراً يوم أمس، أيّها الرفيق المقدم، سمعتَ بذلك، وقتلتُ منذ الصباح خمسةً منهم، أنفقت عليهم أربعة ألغام.

- نعم، ذلك ليس عمل شوكلين، تدميرُ أربعَ عشرة دبابة ألمانية بمدفع واحد.

- ضرب بمدفعٍ واحدٍ، لأنّه الوحيد المُتبقّي في بطاريته.

(1) عيد وليمة عند شعوب آسيا الوسطى، بمناسبة انتهاء أعمال الزراعة في نهاية الربيع. (المترجمان).

قال بولاتوف الجميل، واحمرّ:

- كسرَ صندوق التابلو للألمان.

- لقد منحتُه مخبأً طبيعيّاً.

قال باتيوك:

- نعم المخبأ، لقد كسرت قذيفة بابي اليوم - واستدار نحو بيزديدكو، وأضاف باللغة الأوكرانية موبّخاً:

- وأنا فكرت، أنَّ ذلكَ من عملِ ابن العاهرة بيزديدكو، ذلكَ أنني من علَّمه إطلاق النار.

تناول مانجول المدفعيُّ الخجولُ كثيراً قطعةً من فطيرة الحلوى، وقال بهدوء:

- عجينة جيّدة، أيها الرفيق المقدّم.

طرق باتيوك الكأس بخرطوشة بندقية قائلاً:

- حسناً، أيّها الرفاق، لنأخذ الأمر على محمل الجد.

لقد كان هذا الاجتماع إنتاجياً، مثله مثل الاجتماعات في المصانع، وفي الظروف الميدانية. لكن هنا لم يجلس نساجون ولا خبّازون، وما من خيّاطين، ولم يتحدث الناس عن القمح والطحن.

تحدث بولاتوف كيف أنَّهُ عندما رأى الألماني الذي كان يسير حاضناً امرأة في الطريق، جعلهما يسقطان على الأرض في البداية، وقبل أن يقتلهما، سمح لهما أن يقفا ثلاث مرّات، ثم أرداهُما أرضاً مرة أخرى، رافعاً بالرصاص غيماتٍ من الغبار على ارتفاع سنتمترين أو ثلاثة سنتيمترات فوق أقدامهما.

- قتلتُه، عندما كان واقفاً فوقها، فاستلقيا على الطريق صليباً على صليب.

تحدّث بولاتوف بكسل، وكان حديثه مرعباً جدّاً، بصورةٍ غير معهودة في حديث الجنود من قبل.

قاطعه زايتسيف قائلاً:

- هيّا يا بولاتوف، ومن دون كذب.

- أنا تطلب مني أن أتحدَّثَ بلا كذب - قال بولاتوف، دون أن يفهم - عدد من أرديتهم هو ثمانية وسبعون حتى الآن. الرفيق المفوّض لا يدعني أكذب؛ هذا هو توقيعه.

أراد كريموف أن يتدخل في الحديث، ليقول قد يكون من بين الألمان الذين قتلهم بولاتوف عمال وثوريون وأمميون... ينبغي تذكر ذلك، وإلا سيتحوَّل أمثالهم من الألمان إلى قوميين متطرفين. لكن نيقولاي غريغوريفيتش صمت. لم تكن الحرب بحاجة إلى هذه الأفكار - فهي أفكارٌ لا تُسلِّح، بل تنزعُ السلاح.

وحَدَّثَ سولودكي الأبيض ذو الصوت الحاد، كيف قتل يوم أمس ثمانيةً من الألمان. ثم أضاف:

- أنا نفسي، المزارع من منطقة أومان، ارتكبَ الفاشيون فظائع كبيرة في قريتي. أنا نفسي فقدت بعضاً من دمي؛ جُرحت ثلاث مرّات. وها قد بدلتُ المزارعَ بالقنّاص.

أوضح المتجهّم توكاريف كيفيةَ اختيارِ المكان المناسب على الطريق التي يسير فيها الألمان لجلب المياه وإلى المطابخ، وأضافَ قائلاً:

- كتبت زوجتي أنَّهم قتلوا ابني في الأسر في ضواحي ماجاي، لقد قتلوه لأنّني أسميته لينين.

قال خاليموف، قلقاً:

- أنا لم أتعجّل أبداً، إذا ما ثبَّتُّ قلبي أطلق النار. جئت إلى الجبهة، وكان صديقي الرقيب غوروف الذي علّمته اللغة الأوزبكية، وعلّمني اللغة الروسية. قتله ألماني، فقضيت على اثني عشر منهم. نزعت عن الضابط المنظار، ووضعته على رقبتي: لقد نفذت الأمر، أيها الرفيق الموجّه السياسي.

هذه التقارير الإبداعيّة التي قدمها القنّاصة كلها مخيفة. سخر كريموف طوال حياته من المثقفين عديمي الإرادة، وسخر من يفغينيا نيقولايفنا وشتروم، اللذين اشتكيا من معاناة الذين زُجّوا في الكولاك في مرحلة التأميم. قال ليفغينيا نيقولايفنا حول أحداث عام 1937: «ليس مخيفاً أنّهم يقضون على الأعداء، ليذهبَ هؤلاء إلى الجحيم، المخيف هو أن يضربوا أبناء وطنهم».

والآن أراد أن يقول إنه كان دائماً، ومن دون تردد، مستعداً للقضاء على رجال الحرس الأبيض البغيضين، والمنشفيين والاشتراكيين الثوريين الحثالة، والبابويين، والكولاك، وإنّه ما كانت لتظهر لديه أي شفقة على أعداء الثورة قَطّ، لكن بالمقابل لا يمكن للمرء أن يفرح، بأنّه يقتلُ العمالَ الألمانَ مع الفاشيين. إنّ أحاديث القنّاصة مخيفة، على الرغم من أنهم يعرفون، من أجل ماذا يقومون بهذه الأعمال.

بدأ زايتسيف الحديث عن منازلته التي استمرّت عدة أيام مع قناص ألماني عند سفح تل مامايف. عرف الألمانيُّ أن زايتسيف كان يتتبعه، وهو نفسه كان يتتبّع زايتسيف. بدا أنهما متساويين في القوة ولا يستطيعان التعامل أحدهما مع الآخر.

- أردى في ذلك اليوم ثلاثةً من جنودنا، وبقيتُ جالساً في الأخدود لا أطلق رصاصة. وها هو يطلق طلقته الأخيرة، كانت إصاباته دقيقة، سقط مُقاتلٌ واستلقى على جنبه وألقى يده جانباً. رأيتُ جندياً ألمانياً يسير في جهتهم حاملاً ورقة، وأنا أجلس وأنظر.. . أنا أفهم أنّه يُدركُ لو أنَّ قنّاصاً منا يجلس هنا لقتلَ ذلكَ الجندي الذي يحملُ الورقة، لكنّه مرّ. وأنا أعرف أنّه ما استطاعَ أن يرى جيّداً الجندي الذي قنصه، وأثار ذلك اهتمامه فرغبَ بأنّ يرى ويتأكّد. صمت. وركض ألمانيٌّ ثان يحمل دلواً - الأخدود صامت. استغرق الأمر ستَّ عشرةَ دقيقة. بدأ بالوقوف. وقف. وأنا وقفت على طولي. . .

وانتصبَ زايتسيف خلف الطاولة، مستَعيداً القلق الذي عاناهُ من جديد - وقد ارتسمَ ذلك التعبير الخاص عن القوّة، التي ومضت في وجهه، والتي أصبحت التعبير الرئيس والوحيد، ولم يعد ذلك الشاب الطيّب ذا العينين الواسعتين - كان ثمّةَ ما هو أكثر قوّة، وأكثر غضباً وتَحَفُّزاً في هذه الخياشم المنتفخة، وفي جبهته العريضة، وفي عينيه الممتلئتين بإلهام النصر الرهيب. وقال متابعاً:

- فهم، وعرفني. وأطلقت النار عليه.

عمّ الهدوء للحظة. ربما هكذا عمّ الصمتُ بعد طلقة الرصاصة القصيرة التي سُمعت يوم أمس، وكأنّ صوتَ سقوطِ الجثّةِ البشريَّةِ سُمع من جديد. استدار باتيوك فجأة نحو كريموف، وسأله:

- حسنا، هل أعجبك الذي سمعته؟

- شيء رائع.

قال كريموف تلكَ العبارة، ولم ينبس بعد ذلك ببنتِ شفة.

نام كريموف عند باتيوك.

حرّك باتيوك شفتيه وهو يعدّ قطرات دواء القلب التي يُقَطِّرُها في الكأس، ثم سكب كوباً من الماء.

حدّث باتيوك كريموف وهو ينعس عن شؤون الفرقة، ليس عن المعارك، بل عن أحداث الحياة المختلفة.

هُيّئ لكريموف أنّ كل ما قاله باتوك كان مرتبطاً بالقصة التي حدثت له في الساعات الأولى من الحرب، ومنها امتدت أفكاره.

لم يشعر نيقولاي غريغوريفيتش منذ الساعات الأولى لوصوله ستالينغراد، بأي شعور غريب.

بدا له أحياناً أنّه وقع في عالم غير حزبي. وأحياناً على العكس من ذلك، بدا له أنه يتنفس هواء الأيام الأولى للثورة.

سأل كريموف فجأة:

- كم مضى على انتسابك للحزب، أيّها الرفيق المقدم؟

أجابه باتيوك:

- وهل يبدو لك أيّها الرفيق المفوّض، أنّني حدتُ عن الخط؟

لم يُجبه كريموف على الفور.

وقال لقائد الفرقة:

- تعرف، أنا أُعَدُّ مُتحدِّثاً حزبياً جيّداً، ألقيتُ كلماتٍ في اجتماعات عمّالية كبيرة. لكن هنا يتملّكني شعور دائم، بأنّهم يقودونني، ولست أنا من يقود. هذا هو الأمر الغريب. نعم، من يلوي الخطَّ، هو من يلويه الخطُّ بدوره. أردت التدخّل في حديث

القنّاصة، لإجراء تعديل واحد. ثم فكرتُ - هل أُعلّمُ العلماء - وأفسدُ... ولو شئتُ أن أقولَ الحق؛ ليس فقط لهذا السبب بقيت صامتاً. تُوَجِّهُ الإدارةُ السياسيَّةُ الخطباءَ أن يُرسِّخوا في وعي المقاتلين بأن الجيش الأحمر هو جيشٌ من المنتقمين. وهنا أبدأ عن الأممية والمدخل الطبقي. الأمرُ الرئيسُ هو تعبئة غضب الجماهير ضد الأعداء! وما يحدُثُ هو مثل ما حدثَ لذلكَ الأحمق في الحكاية: جاء لحضور حفل الزفاف، فبدأ يقرأ دعاءً لراحة نفسِ الميّت...

فكّر وقال:

- نعم إنّها العادة... يُعَبِّئُ الحزب في العادة غضبَ الجماهيرِ وحماسَها، ويصوّب نحو هدفٍ هو ضرب العدوّ وتدميره. الإنسانيَّةُ المسيحيّةُ لا تصلحُ في عملنا. إنسانيّتنا السوفييتيّة قاسية... نحن لا نعرف الغطرسة والتكلّف...

فكر، قال:

- بطبيعة الحال، لا أقصد تلكَ الحالة عندما أطلقوا عليكَ النار ظُلماً... ففي عام السابع والثلاثين حدثَ أنهم ضربوا مواطنيهم: في هذه الأمور تكمُنُ مصيبتنا نحن. والألمان اعتدوا على وطن العمال والفلاحين، حسناً! الحرب هي الحرب. فلنواجههم.

انتظرَ كريموف ردَّ باتيوك، لكن باتيوك صمت، وما كان السببُ أنَّ كلمات كريموف أربكته، بل لأنّه غفا.

56

تدفّق الناس إلى ورشة المجمرة المكشوفة[1] في مصنع «كراسني أوكتيابر»[2] حيث يخيّم شيءٌ من ظلمةٌ سديميّة، يرتدون الستر المبطنة، وسُمعَ صوتُ أعيرةٍ نارية تتلاشى، واشتعل لهب بسرعة، منتصباً في الهواء، لا هو غبار، ولا هو ضباب.

نقل قائد الفرقة غوربيف مراكزَ قيادةِ الأفواجِ إلى أفران المجمرة المفتوحة. اعتقد كريموف أن الأشخاص الذين كانوا يجلسون في الأفران التي تصهر الصلب منذ فترة قريبة، إنما هم أشخاصٌ مميّزون، قلوبُهم مصنوعة من الفولاذ.

هنا سُمِعَ خَطو الأحذية الألمانية، وليس صرخاتُ الفريقِ فحسب، بل سُمعَ أيضاً طقطقةٌ خفيفةٌ ورنينٌ؛ كان الألمان يعيدون تلقيم بنادقهم الآلية.

---

(1) فرن المجمرة المكشوفة (بالإنجليزية: Open hearth furnaces) هو أحد أنواع الأفران التي يُحرَقُ فيها الكربون الزائد والشوائب الأخرى من الحديد الغفل لإنتاج الصلب، فلصعوبة إنتاجهِ الصلب، نظراً لارتفاع درجة انصهاره، كان الوقود والأفران العادية غير كافيين لتوليد الحرارة اللازمة لصهره. لذا اختُرِعَ فرن المجمرة المكشوفة للتغلب على هذه الصعوبة. (المترجمان).

(2) الترجمة الحرفية: مصنع أكتوبر الأحمر. (المترجمان).

وعندما دخل كريموف ضاغطاً رأسه بينَ كتفيه مَصبَّ الفرن، حيث يقع مقر قائد فوج المشاة، وأحَسَّ براحتيه الدفءَ المختبئَ في الطوب الحراري الذي لم يبرد خلال عدةٍ من الشهور، استولى عليه نوع من الخجل؛ وتراءى له أنَّ سرَّ المقاومةِ العظيمَ سيتكشَّفُ له الآن.

ميّز في نصف الظلمة رجلاً يجلس القرفصاء، ورأى وجهَهُ الواسع، وسمع صوتاً مشهوراً:

- انظروا لقد وصل ضيفٌ إلى البلاط الملكي، مرحباً بك؛ مئة غرام من الفودكا، والمازا بيضة مشوية.

خطرَ في بال نيقولاي غريغوريفيتش في الضباب الخفيف الخانق والمُغبر، أنّه لن يُحدّث يفغينيا نيقولايفنا البتَّةَ كيفَ تذكَّرَها، وهو يصعد إلى وجار[1] مجمرة ستالينغراد المكشوفة. كان يريد من قبل الانفصالَ عنها، ونسيانها. لكنه الآن تصالح مع حقيقة مفادُها أنّها تلاحِقُه من دون تراجع. وها هي تتسلّق الفرنَ ساحرةً لا يمكنُ الاختباءُ عنها.

طبعاً، لقد بدا كلّ شيء أبسطَ من اللفت المُبخّر. من يحتاج (أطفال الزمن) منبوذي الزمن؟ في إعاقته، في تقاعده! أكَّدَ رحيلُها يأسَ حياتِه كلَّه وأضاءَهُ، حتى هنا في ستالينغراد ليس له عمل قتالي حقيقي...

وفي المساء، تحدث كريموف إلى الجنرال غورييف بعد التقرير، في الورشة نفسها. جلس غورييف من دون سترة، وهو يمسح وجهه الأحمر بمنديل المرَّةَ تلوَ الأخرى، وبصوت عالٍ مبحوح عرض أن يقدِّمَ الفودكا إلى كريموف، وبالصوت نفسه صاحَ موجِّهاً الأوامرَ

(1) الوجار: نسبة إلى مخبأ الدبّ الشتوي. (المترجمان).

للقادة العسكريين على الهاتف؛ وبالصوت العالي المبحوح نفسه جادلَ الطبَّاخَ، الذي لم يستطع شَيَّ اللحم وفقاً للقواعد، واتصل بجاره باتيوك، وسأله ما إذا كانت التيسُ قد ذُبح على رابية مامايف.

قال غوربيف:

الناس هنا مرحونَ وجيّدونَ بشكل عام. باتيوك رجل ذكي، والجنرال زولوديف في مصنع الجرّارات هو صديقي القديم. وفي مصنع «بارِّيكادي» العقيد غورتييف رجلٌ مجيدٌ أيضاً، لكنه راهبٌ يرفض الفودكا تماماً. وهذا بالتأكيد ليس صحيحاً.

ثم أخذ يشرح لكريموف أنه لم يعد عند أحدٍ إلّا قليل من المقاتلين النشطين، فعندهُ مثلاً ما لا يزيدُ عن ستة إلى ثمانية مقاتلين في السريّة؛ والعبور إليه هو الأصعب قياساً إلى غيره من القادة، فقد يحدُثُ أن ينقلَ ثلثُ المقاتلين جرحى على القوارب، هل تعتقد أن هذا يحصل فحسب عندَ غوروخوف في السوق.

– استدعى تشويكوف أمس رئيسَ أركاني شوبا، شيءٌ ما لم يتحقق لديهِ عندَ تحديدِ الخطِّ الأمامي، وهكذا عاد صديقنا العقيد مريضاً تماماً.

وحدَّقَ في كريموف قائلاً:

– أتعتقدُ أنّي عنّفته ولم أترك كلمة سيّئةً في حَقِّ أُمِّهِ إلّا وقُلتُها؟ – ثم ضحك مُتابعاً كلامَهُ – وما هي الأمّ، أنّا أفصّل له كلَّ يومٍ أمّاً. حتّى أسقطتُ أسناني، والطرف الأمامي كلّه.

– نعم – قالها كريموف مُطوّلةً. لقد عبّرت هذه «النعم» عن أنّ كرامة الإنسان على ما يبدو لم تنتصرْ دائماً عندَ منحدر ستالينغراد.

ثم أخذ غورتييف فيما بعد ينتقدُ تغطيةَ كتَّابِ الجرائدِ السيّئةَ لأحداثِ الحرب.

- يجلس، أبناء الكلبة هناك، ولا يرون أي شيءٍ مما يحدثُ بأنفسهم، إنّهم يجلسون خلف نهر الفولغا، في العمق الخلفي، ويكتبون. فمن يقدّم لهم ضيافةً أفضل من غيره يكتبون عنه. هذا ليف تولستوي كتب «الحرب والسلام». مئةَ عام يقرؤها الناسُ وسيقرَؤونها مئة عام أخرى. ولماذا؟ لأنّه شارك في الحرب بنفسه، وقاتل بنفسه، لذلك يعرف عمّا يكتب.

قال كريموف:

- اسمح لي، أيّها الرفيق الجنرال، لم يشارك تولستوي في الحرب الوطنية.

سأل الجنرال:

- إذاً، كيف «لم يشارك»؟

قال كريموف:

- الأمر بسيط للغاية، لم يشارك. تولستوي ما كان قد ولدَ بعد عندما حدثت الحرب مع نابليون.

عاد غورتييف يسأل:

- ما كان قد ولدَ؟ وكيف يمكن أن يكون ذلك، لم يكن مولوداً؟ من كتب عنه إذا كان الأمرُ كذلك. ها؟ كيف تعتقد؟

انطلق بينهما فجأة نقاشٌ حماسي. كان هذا هو النقاش الأوّل الذي يظهر بعد خطاب كريموف. واتَّضحَ أنّ نيقولاي غريغوريفيتش، لم يتمكن من إقناع محاوره، وهو أمرٌ يثيرُ الدهشة!

57

وصل كريموف في اليوم التالي، إلى مصنع «بارِّيكادي»، حيث كانت تتمركز فرقة سيبيريا للمشاة بقيادة العقيد غورتييف.

كان شكُّهُ يزدادُ يوماً بعدَ يوم: هل كانت خطاباته ضرورية؟ بدا له في بعض الأحيان أنهم استمعوا إليه من باب المجاملة، مثلما يستمع غير المؤمنين إلى الكاهن العجوز. صحيح أن وصوله كان موضعَ ترحيب، لكنه فهم أنّهم فرحوا به كإنسان، وليس بخطبه. لقد أصبح واحداً من أولئكَ السياسيين العسكريين الذين يمارسون الأعمال الورقيّة، يثرثرون، ويزعجون أولئك الذين يحاربون. في أماكنهم كان أولئك العاملونَ السياسيون الذين لم يسألوا، ولم يشرحوا، ولم يكتبوا تقاريرَ وإخباريَّاتٍ طويلةً، ولم يشاركوا في الدعاية، بل قاتلوا فحسب.

استذكر الدراسة ما قبل الحرب في جامعة الماركسيَّة اللينينيَّة، وكانَ هو ومن يستَمعُ إليه يشعرون بالملل القاتل من جرَّاءِ الدراسة، كما في التعليم المسيحي، «الدورة القصيرة» لتاريخ الحزب.

لكنَّ ذلكَ الملل كان في وقت السلم قانونيّاً، ولا مفر منه، أما هنا، في ستالينغراد، فأصبح أمراً سخيفاً ولا معنى له. لكن لماذا نتحدَّثُ عن كل هذا؟

التقى كريموفُ غوريفَ عند المدخل إلى مخبأ القيادة ولم يتعرف قائدُ الفرقة هذا الشخص الرقيق، الذي ينتعلُ حذاءً مشمعاً، ويرتدي معطفاً قصيراً على قياسه.

جرى خطاب كريموف في المخبأ الفسيح ذي السقف المنخفض. لم يسمع كريموف البتَّة مثل أصوات قصفٍ مدفعيٍّ كهذه طوال فترة وجوده في ستالينغراد، كان عليه أن يصرخ طوال الوقت.

قال مفوض الفرقة سفيرين، الرجل ذو الحديث المنَظَّم والصوت العالي، الغنيّ بالكلمات الحادة والمبهجة، قبل بداية الخطاب:

- ولماذا يقتصر الحضور على كبار القادة؟ هيّا، نادوا الطبوغرافيين، والمقاتلين الذين ليست لديهم نوبة حراسة، وجنود الإشارة والاتصالات غير المناوبين، ليتفضّلوا بسماع الخطاب الخاص بالوضع الدولي! بعد الكلمة هناك سينما. ورقص حتى الصباح.

غمز كريموف، وكأنه يقول: «انظر، سيكون ثمَّةَ حدث رائع آخر؛ يصلح للتقرير لك ولنا».

لذلك ابتسم غورتييف، ونظر إلى سفيرين الصاخب، فعدّل سفيرين وضعيَّةَ المعطف الملقى على كتفَي غورتييف، فهم كريموف روح الصداقة التي تسود في هذا المخبأ.

وفي الآن نفسه نظر سفيرين مضيّقاً عينيه الضيقتين أصلاً إلى رئيس الأركان سافراسوف، الذي بادله النظرةَ على مضض، مستاءً، فأدرك كريموف أيضاً أنَّ روح الصداقةِ والرفاقيَّة ليست وحدها التي تسود في هذا المخبأ.

غادرَ قائدُ الفرقة ومُفَوَّضُها مباشرة بعد الكلمة بطلبٍ عاجل من القيادة. وتحدّث كريموف إلى سافراسوف. لقد كان على ما يبدو شخصاً ذا طبيعةٍ صعبةٍ وحادّةٍ، معتدّاً بنفسه وسريع الغضب، فيه كثيرٌ من الكبرياءِ والحدّة، وكان حديثهُ إلى الناسِ باستخفافٍ ساخرٍ، شديدَ السوء.

ودارت في نفسِ سافراسوف، وهو ينظر إلى كريموف، المُناجاة الآتية:

- تأتي إلى أي فوج في ستالينغراد وأنت تعرف: أنَّ الأقوى والأكثر حسماً في الفوج؛ هو قائد الفوج! هذا أكيد. هنا لا يرون عددَ الأبقار عند العمّ. ينظرون إلى شيء واحد: هل ثمَّةَ... قائد؟ عندئذٍ يكون كلّ شي على ما يرام. لا مراءَ في ذلك. وفي وقت السلم، ما الذي كان يحدُث؟- ابتسم بعينيهِ الصفراوين مباشرة في وجه كريموف - أتعرف، أنا أكره السياسة ولا أستطيع تحمّلها. لا أستطيع تحمّل المتملّقين، وكل هؤلاء اليمينيين، واليساريين، والانتهازيين، والمنظّرين. وقد أرادوا تحطيمي عشر مرّات وبدون سياسة حتّى. إنّه لأمر جيّدٌ أنّني لست حزبيّاً - وإلّا فسيتهمونني بأنّي سكّير، ثم يَتَّضحُ أنّي زير نساء. هل عليّ أن أُمثّل عليهم؟ لا أستطيع.

أراد كريموف أن يخبر سافراسوف أنّ مصير كريموف هنا في ستالينغراد لا يتحسّن، إنّه يتسكّع من دون عمل حقيقي. لماذا فافيلوف، وليس هو، مفوّض فرقة روديمتسيف؟ لماذا يثق الحزب بسفيرين أكثر مما يثق به؟ إنّه في الواقع أكثر ذكاء، وأوسع وأبعد نظراً، وتجربته الحزبية أكبر، ورجولته كافية، وإذا لزم الأمر فإنّه قاس

بما فيه الكفاية، يده لا ترتجف. . . في حقيقة الأمر إنّهم وبالمقارنة به مجرد رعاة غنم! زمنك انتهى، أيّها الرفيق كريموف، ارحل.

لقد أشعَله هذا العقيدُ ذو العينين الصفراوين، وجعلهُ يلتهب، ويتعكَّر.

وهل ثّمَّةَ ما يبعثُ على الشك يا ربّ، ها هي حياته الشخصية قد انهارت، وانزلقت مُنحَدِرَةً. . . الأمرُ ليس في أنَّ جينيا بطبيعةِ الحال رأت عجزه الماديّ. هذا الأمر سيّان بالنسبة لها. إنّها إنسان نزيه. لم تعد تحبّه! إنّهنّ لا يقعن في حبّ المكسورين والماضين. رجل من دون هالة. نعم، نعم، وقد طارَ من مرتبة المسؤولين. . . بالمناسبة. نزيهةٌ هي، نعم نزيهة، لكن يعنيها الوضع الماديّ. الجميع يمشونَ على الأرض. ومنهم يفغينيا نيقولايفنا. فهي مثلاً لا تتزوّج فنّاناً فقيراً، بالرغم من أنّه يمزجُ ألوانه بطريقةٍ تراها عبقريّة. . .

كان يمكن أن يقول كريموف للعقيد ذي العينين الصفراوين كثيراً من هذه الأفكار، لكنّه عبَّرَ لهُ فحسب عمَّا كان يوافقهُ عليه.

- ما بك، أيّها الرفيق العقيد، أنت تبسّط الأمور كثيراً. لقد نظروا في فترة ما قبل الحرب، ليس فقط إلى: كم عدد الأبقار عند العم. واختيار الكوادر وفقَ صفةٍ عمليَّةٍ واحدة، لا يجوزُ أيضاً.

لم تسمح الحرب بالحديث عما كان قبل الحرب. دوّى انفجار ثقيل، وخرج نقيب قلق من الضباب والغبار، وصرخ اختصاصيُّ الاتصال الهاتفي، اتصلوا من الفوج إلى المقر أنَّ دبابة ألمانية قصفت مقر الفوج، واندفع حاملو البنادق الرشاشة خلفها، إلى المنزل الحجري حيث يوجد مديرو مدفعية الفرقة؛ فبدأ أولئكَ المديرون، الجالسون في الطابق الثاني، معركةً مع الألمان. أشعلت الدبابة

منزلاً خشبياً في الجوار، وحملت الرياح القوية من نهر الفولغا النيران إلى مركز قيادة القائد تشاموف، وبدأ تشاموف وموظفوه يختنقونَ فقرروا تغيير موقع القيادة. لكن تغيير موقع القيادة كان صعباً تحت نيران المدفعيَّة في النهار، وتحت رشقات القذائف الثقيلة المتقطِّعة، التي أبقت تشاموف تحت النار.

وقعت هذه الأحداث كلُّها في وقت واحد في قطاع دفاع الفرقة. طلب بعضهم النصيحة، وآخرون طلبوا مساندة المدفعية، وفريقٌ ثالثٌ طلبَ السماح بالانسحاب، ورابعٌ نقلَ أخباراً، وخامسٌ طلبَ أخباراً. وكانت لكل منهم مسألة هامّة، وكان الجامع هو أن الحديث كان يدور حول الحياة والموت فحسب.

وعندما هدأ الوضع قليلاً، سأل سافرافوف كريموفَ:

- ألا نتناول طعام الغداء، أيّها الرفيق مفوّض الكتيبة، ريثما يعود القادة من مقرّ الجيش؟

لم يطع القاعدة التي وضعها قائدُ الفرقة ومفوّضُها - ولم يرفض الفودكا. لذلك، فضَّل تناول الطعام بشكل منفصل.

قال سافراسوف، وهو مخمور قليلاً:

- إنّ غورتييف مقاتل جيّد، كفءٌ ونزيه. ولكن مُصيبتُهُ: إنّه زاهد رهيب! أنشأ ديراً للعبادة. أمّا أنا فعنديَ اهتمام ذئبٍ بالفتيات، أحبّ هذا الأمرَ مثل العنكبوت. لا قدّر اللّه أن تَروي طُرفةً بحضورِ غورتييف. ولكننا نقاتلُ مَعاً، وبشكل عام الأمور تسير على ما يرام. المفوض لا يحبّني، رغم أنه بطبيعته راهب ليس أسوأ مني. أتعتقد أنّ ستالينغراد كبّرتني في السن؟ ها هم أصدقائي، وأنا على العكس، أراني سمنت.

قال كريموف:

- وها أنذا من فصيلة المفوّضين.

هزّ سافراسوف رأسه قائلاً:

- في هذه، لا ليست في هذه. المشكلة ليست في هذه الفودكا، بل في هذه - ونقر بإصبعه على الزجاجة، ومن ثم على جبينه.

كانا قد انتهيا من تناول الغداء، عندما عاد من مقرّ قيادة تشويكوف القائدُ ومفوّضُ الفرقة.

سأل غورتييف بسرعة وبشكل صارم، وهو ينظر إلى المائدة:

- ما الجديد؟

أجاب سافراسوف:

- أُصيبَ رئيسُ الاتصالات، ووصل الألمان إلى مفترق طرق مع جيلوديف، أُحرِقَ المنزل عند مفترق تشاموف وميخاليف. توفي تشاموف، من جَرَّاءِ استنشاق الدخان، ولكن لا شيء خطير بشكل عام.

قال سفيرين بلطف ماطَّاً عباراته وهو ينظر إلى وجه سافراسوف المُحمرّ:

- فودكا للجميع، فودكا أيّها الرفيق العقيد، هيّا نشرب.

58

سأل قائدُ الفرقةِ الرائدَ بيريزكين قائدَ الفوج، عن الوضع في منزل «ستة على واحد»: أليسَ من الأفضل سحب الناس من هناك؟

نصح بيريزكين قائدَ الفرقة بألّا يفعل، على الرغم من تعرّض المنزل لخطر التطويق. في المنزل توجد مراكز مراقبة مدفعيةِ الفولغا، وهي تنقل معلومات مهمة عن العدو. يحتوي المنزل وحدةً هندسية، يُمكنها أن تشلَّ حركةَ الألمان في الاتجاهات الخطرة للدبابات. من غير المرجح أن يشنَّ الألمانُ هجوماً شاملاً قبل أن يزيلوا مركز المقاومة هذا، فقاعدتُهم تلك معروفة جيداً. ومع بعض الدعم سيتمكَّنُ المنزل «ستة على واحد» من الصمود لفترة طويلة، وبالتالي يعيق البرنامج الألماني. نظراً لأن المراسلين لا يستطيعونَ الوصول إلى المنزل المحاصر إلا خلال ساعات نادرةٍ من الليل، ويتقطَّعُ الاتصال السلكي باستمرار، فسيكون من الجيد نقل مشغِّل اللاسلكي مع جهاز الإرسال إلى هناك.

وافق قائد الفرقة مع رأي بيريزكين. وتمكن الضابط السياسي سوشكين في الليل، مع مجموعة من جنود الجيش الأحمر من الوصول إلى المنزل «ستة على واحد»، وسلَّموا عدةً من صناديق

الذخيرة والقنابل اليدوية للمدافعين عنه. وفي الوقت نفسه، سلَّم سوشكين إلى المنزل «ستة على واحد» عاملةَ لاسلكي مع مشغِّل لاسلكي، مأخوذ من مركز الاتصالات.

قال الضابط السياسي، الذي عاد قبيلَ الصباح، إنّ قائد المفرزة رفض كتابة تقرير الاستلام، وقال:

- ليس لدي وقت للتعامل مع هذا الهراء الورقي، فنحن ندقّق حساباتنا مع الألماني فحسب.

قال سوشكين:

- بشكل عام، لا تفهم شيئاً مما يجري عندهم هناك، جميعهم يخشون غريكوف هذا، وهو مُساوٍ لهم، يستلقون بعضهم بجانب بعض، ويتحدثون إليهِ بصيغةِ المفرد، وينادونه «فانيا». عفواً أيّها الرفيق قائد الفوج، هذه ليست قطعة عسكرية، ولكنها تُشبهُ كومونة باريس.

سأل بيريزكين، وهو يهزّ رأسه:

- رفض كتابة تقريرالاستلام؟ هذا الفلاح!

وهنا سَاقَ مفوض الفوج بيفوفاروف حديثاً عن قادة حرب العصابات.

وقال بيريزكين متقَبِّلاً الفكرة:

- إذاً حرب عصابات؟ إنّها مبادرة ذاتيَّة، استقلاليّة. أنا نفسي أحلم أحياناً: بأن أكونَ مُحاصراً وأرتاح من كل هذا الروتين الورقي.

قال بيفوفاروف:

- بالمناسبة، عن الروتين الورقي. اكتبْ تقريراً مُفصَّلاً، وسأقدمه إلى مفوض الفرقة.

أخذوا في الفرقة تقرير سوشكين على محمل الجد.

أمر مفوض الفرقة بيفوفاروف بتلقي معلوماتٍ مفصّلة عن الوضعِ في منزل «ستة على واحد»، وتصحيح دماغ غريكوف. وعلى الفور أبلغ مفوَّضُ الفرقةِ رئيسَ الدائرةِ السياسيَّة في الجيش بوجودِ مشكلةٍ أخلاقيَّةٍ وسياسيَّةٍ لأحد أعضاء المجلس العسكري.

كان ردُّ فعلِ قادة الجيش أكثرَ جديّةً من قادة الفرقة على معلومات الضابط السياسي. وتلقى مفوّضُ الفرقة تعليماتٍ بالتحقيق في وضع البيت المحاصر من دون تأخير. وكتب رئيسُ القسمِ السياسي في الجيش، مفوّضُ اللواء، تقريراً عاجلاً إلى رئيسِ الإدارةِ السياسيَّة للجبهة، مفوّضِ الفرقة.

وصلت مشغّلةُ اللاسلكي كاتيا فينغروفا إلى البيت «ستة على واحد» ليلاً. وفي الصباح قدّمت نفسها إلى المدير غريكوف، فأخذ الرجلُ ينظر وهو يتقبل تقرير الفتاة المتراخية، إلى عينيها المرتبكتينِ، والخائفتينِ، والساخرتين في الوقت نفسه.

كان لها فم واسع وشفتانِ توشكان على الذبول. تمهَّلَ غريكوف بضع ثوانٍ قبل الإجابة عن سؤالها: «أتسمحون لي بالذهاب؟»

بزغت خلال هذه الثواني أفكارٌ في رأس المضيف، لا علاقة لها بالشؤون العسكرية: «واللّه لطيفة... ساقان جميلتان... خائفة... واضح، إنّها ابنة أمّها. لكن كم عمرها، عسى ألّا يتحرّش بها الشبان...».

هذه الهواجس كلها، التي عبرت رأسَ غريكوف، انتهت بشكل غير متوقع بالفكرة الآتية: «من سيّدُ هذا المكان، من الذي دَفعَ الألمان إلى هذه الوحشية، إيه؟»

ثم أجاب عن سؤالها:

- إلى أين أنت ذاهبة يا فتاة؟ ابقي بالقرب من جهازك. سنخترع شيئاً ما.

نقر على جهاز الإرسال اللاسلكي بإصبعه، وحدق في السماء، حيث كان يُسمعُ هديرُ القاذفاتِ الألمانيَّة.

سألها:

- هل أنت من موسكو، أيّتها الفتاة؟

أجابت:

- نعم.

- اجلسي، عندنا كل شيء هنا بكل بساطة، على الطريقة الريفية.

خَطتِ المشغلة اللاسلكية جانباً، وصرّ الطوب تحت جزمتها العسكريَّة، وكانت الشمس تسطَعُ فوقَ أزيزِ المدافع الرشاشة، وتُضيءُ الجسمَ الأسودَ لبيتِ مُسدَّس غريكوف. جلست، ونظرت إلى المعاطف المكدسة أسفل الجدار المدمّر. وللحظة فوجئت أنه ما من أمرٍ يثيرُ الدهشة بالنسبة لها في هذه الصورة. عرفت أن الرشاشات التي تراها في فتحات الجدار، هي من نوع ديغتياريف، عرفت أن هناك ثماني رصاصات في مخزن مسدس ووالتير، وأنّ ووالتير يطلق بقوّة، لكنّه يصوّب بشكل سيّئ، وعرفت أن المعاطف المكدَّسة في الزاوية تعود إلى القتلى، وأنهم دفنوا على عمقٍ قليل - كانت رائحة الاحتراق مختلطة مع الروائح الأخرى، التي أصبحت مألوفة لها. وجهاز الإرسال اللاسلكي الممنوح لها في تلك الليلة، يشبه ذاك

الذي عملت عليه في كوتلوبانيا؛ مقياس الاستقبال نفسه، والمفتاح نفسه. تذكرت كيف كانت في السهب تحدّق في الزجاج المغبر الموجود في مقياس التيار الكهربائي، وتقوم بتصفيف شعرها، الذي يخرج من تحت القبعة.

لم يتحدث إليها أحد، وبدا أن حياةً عنيفةً ورهيبةً في المنزل كانت تمر بجوارها.

لكن عندما أقذعَ رجلٌ أبيضُ الشعر في الكلام، وأدركت من الحديث أنه قاذف مدفع هاون. قال لهُ غريكوف:

- أيّها الأب، ما هذا؟ هنا تجلسُ فتاتنا. يجب أن تكون أكثر حذراً.

اقشعرّ بدن كاتيا ليس من كلمات الرجل العجوز السيّئة، بل من نظرة غريكوف.

شعرت أنه على الرغم من عدم تحدُّثهم إليها، فإنَّهم أحسّوا بالقلق من ظهورها في المنزل. بدت تشعر ببشرتها بالتوتر الذي ظهر حولها. استمر الأمر عندما بدأت القاذفات برمي القنابل، التي أخذت تنفجر في مكان قريب جداً، وبدأت شظايا الطوب تطرق جدارَ المنزل.

اعتادت إلى حد ما على القصف، وصفير الشظايا - ولم ترتبك كثيراً. لكن الشعور الذي نشأ عندما أحسَّت بالنظرات الرجوليّة الثقيلة المهتمّة بها ما زالَ كالسابق يسبّب لها الإرباك.

أسفت فتيات الاتصالات لها في الليلة السابقة، وقُلنَ:

- أوه، سيكون الوضعُ صعباً جداً عليك هناك!

أحضرها المراسل في الليل، إلى مقر الفوج. شعرت هناك بخصوصية القرب من العدو، وبهشاشة الحياة. بدا الناسُ قابلينَ للكسر هناك إلى حد بعيد - ها هم موجودون، وبعد دقيقة ما عادوا موجودين.

قال قائد الفوج متحسّراً وهو يهز برأسه:



- أيمكن إرسال الأطفال إلى الحرب!

ثم قال:

- لا تكوني خجولة، يا عزيزتي، إذا حدث أمرٌ ليس على ما يرام، أخبريني مباشرةً عبرَ جهاز اللاسلكي.

لفظَ تلكَ الكلمات بصوتٍ أُسَري حانٍ، حتى أن كاتيا بالكاد تمكنت من حبسِ دموعها.

ثم أخذها مراسلٌ آخر إلى مقر الكتيبة. هناك كان الفونوغراف يَصدَح، واقترح قائد الكتيبة الأصهب على كاتيا أن تشربَ وترقصَ معه على أنغامِ أسطوانة «أغانٍ صينية».

كان الوضع في الكتيبة صعباً للغاية، وهُيّئ لكاتيا أن قائد الكتيبة لم يشرب من أجل المتعة، ولكن لخنق غربته التي لا تطاق، ونسيان هشاشته الزجاجية.

وها هي الآن تجلسُ على كومة من الطوب في المنزل رقم «ستة على واحد»، ولسبب ما لم تشعر بالخوف، وفكرت في حياتها الخرافيَّة الرائعة قبل الحرب.

كان الناسُ في المنزل المحاصر أقوياء وواثقين بأنفسهم لدرجة كبيرة، وهذه الثقة بالنفس هدأتها. وهي ثقة مقنعةٌ تجدُها عندَ الأطباء

المشهورين، والعمال المتفوقين في ورشات القطع الذين يقصّون القماش الثمين، وعندَ رجال الإطفاء، والمعلّمين القدامى الذين يشرحون على السبورة.

تصوّرت كاتيا قبل الحرب أنّها ستعيش حياة غير سعيدة. كانت تنظر إلى صديقاتها ومعارفها الذين كانوا يستقلّونَ الحافلات كما لو أنَّهم يهدرون المال. وبدا لها أنَّ الأشخاصَ الذين يخرجونَ من المطاعمِ الرديئة مخلوقاتٌ غير عادية، وكانت في بعض الأحيان تتبع الخارجين من شركةِ «داريال» أو «تيريكا» وتستمع إلى أحاديثهم. وعند عودتها من المدرسة، كانت تقول لوالدتها منتصرة:

- تعرفين ماذا حدث اليوم، ضيّفتني فتاةٌ ماءً غازيّاً مع شرابٍ طبيعيٍّ تنبعثُ منه رائحةُ الكشمش الأسودِ الحقيقي!

لم يكن وضعهما مع النقودِ المتبقِّيةِ من الأربعمئة روبلٍ هي راتب الأم سهلاً؛ بعد حسم ضريبة الدخل والضريبة الثقافية، وبعد حسم قرض الدولة وبناء الميزانيّة. لم يشتريا الأشياء الجديدة، وأعادتا خياطة الأشياء القديمة، ولم يشاركا في دفع أجرةِ عاملة النظافة ماروسيا، التي كانت تُنظِّفُ المناطقَ المشتركةَ في الشقة، فعندما تحلُّ أيام التنظيف كانت كاتيا تمسحُ الأرضيات وتُخرجُ سلَّةَ المهملات؛ لم يشتريا الحليب من بائعة الحليب، بل من المتجر الحكومي، حيث كانت طوابير الانتظار طويلة للغاية، لكن هذا وفّر لهما ستة روبلات في الشهر؛ وعندما لم يكن هناك حليب في المتجر الحكومي، كانت والدة كاتيا تقصدُ البازارَ في المساء - حيثُ بائعات الحليب اللواتي كنّ يستعجلنَ العودةَ إلى البيت، فيبعنَ الحليب بسعرٍ أرخص منهُ في الصباح، بسعرٍ يقارب السعر الحكومي. لم تركبا الحافلةَ البتّة، كان

ذلكَ مكلفاً للغاية، وركبتا الترامواي عندما اضطرتا للسفر مسافاتٍ طويلة. لم تقصد كاتيا صالون تصفيف الشعر، والدتها قصّت لها شعرها بنفسها. غسلتا ثيابهما، بالطبع، بنفسيهما، وأشعلتا المصباح الكهربائي بضوء خافتٍ، أكثر إضاءة بقليلٍ من تلك المصابيح التي أضاءت الأماكن المشتركة. حَضَّرتا الغداء لثلاثة أيام. غداءٌ يتكون من الحساء، وأحياناً من عصيدة مع الزيت النباتي، وكانت كاتيا عندما تتناولُ بطريقة ما ثلاثة أطباق من الحساء تقول: «حسناً، غداؤنا اليوم مكوَّنٌ من ثلاثة أصناف».

لا تتذكر الأم كيف عاشوا في عهد الوالد، وكاتيا لا تذكر ذلك. في بعض الأحيان فقط، كانت فيرا ديميترييفنا، صديقة أمّها تقول عندما كانت الأم وابنتها تحضِّران طعام الغداء: «نعم، كنّا يوماً ما، نمشي خَبباً[(1)]».

لكن أمّها غضبت، ولم تنشر فيرا ديميترييفنا شيئاً حول ما حدث عندما كانت كاتيا ووالدتها من الأحصنة التي تمشي خبباً.

وجدت كاتيا ذاتَ مَرَّةٍ صورة والدها في الخزانة. رأت وجهَه لأوّل مرّة في الصورة وعلى الفور، كما لو أنَّ شخصاً ما أخبرها، فهمت أنّه كان والدها. على الوجه الخلفي من الصورة، كُتب: «ليدا - أنا من آل أزروف الفقراء، حين نحب، نموت بصمت». لم تقل شيئاً لوالدتها، لكنها عندما عادت من المدرسة، أمسكت الصورة ونظرت طويلاً إلى العينين العاتمتين اللتين بدتا حزينتين.

---

(1) مقطع من قصيدة لأحد الشعراء الروس القدامى. (الخبب: ضربٌ من ضروبِ مشية الخيل فيه كبرياء، أشبه بالرقص). (المترجمان).

سألت ذات مرّة:

- أين هو أبي الآن؟

قالت الأم:

- لا أعرف.

وعندما التحقت كاتيا بالجيش، تحدثت والدتها إليها لأوّل مرّة عن والدها، فعلمت أن والدها اعتُقل في عام 1937، وعرفت قصةَ زواجه الثاني.

لم تناما طوال الليل، تحدثتا. واختلط كل شيء - روت الأم، التي عادة ما تكون متكتّمة، لابنتها كيف تركها زوجها، وتحدثت عن غيرتها وإذلالها وغضبها وحبّها وشفقتها. ما أدهش كاتيا هو أنّ عالم الروح الإنسانيَّة بدا كبيراً جداً، لدرجة أنّ الحرب المستعرة تراجعت أمامه. وفي الصباح ودَّعت إحداهُما الأخرى. ضمت الأمُّ رأسَ ابنتها إليها، كيس القماش شدّ كتفي كاتيا. وقالت كاتيا: «ماما، أنا من آل أزروف الفقراء، حين نحب، نموت بصمت...».

بعدها دفعت الأم كتفها برفقٍ قائلةً:

- لقد حان الوقت، كاتيا، اذهبي.

وسارت كاتيا، كما سار في هذا الوقت الملايين من الشبان وكبار السن، مَضت من بيت أمّها، ربما، كي لا تعود إليه أبداً، أو تعود إليه إنساناً آخرَ مُفارقاً إلى الأبد طفولته اللطيفة وغير الطيِّبة.

وها هي تجلس إلى جانب مدير منزل ستالينغراد غريكوف، وتنظر إلى رأسه الكبير، وإلى سحنته القبيحة المتجهّمة ذات الشفتين الغليظتين.

59

في اليوم الأوّل عملت الاتصالاتُ السلكيَّة.

شعرت فتاة الاتصالات اللاسلكية بكآبة لا تطاق، بسبب جلوسها بلا عمل، وعزلتها عن حياة البيت «ستة على واحد».

لكن هذا اليوم الأوَّل في البيت «ستة على واحد» حضّر لها الكثيرَ لغايةِ تقريبها من الحياة التي تواجهها.

علمت أنَّ مُراقبي المدفعيَّة موجودونَ بين أنقاض الطابق الثاني، وهم ينقلون البيانات إلى منطقة ما وراء الفولغا، وأن الأكبر في الطابق الثاني هو ملازم يرتدي سترة قذرة، ونظارات تنزلق باستمرار عن أنفه.

وفهمت أن الرجل العجوز ذا اللسان السيّئ، جاء إلى هنا من الميليشيا وكان فخوراً بلقبه كقائد لحسابات الهاون. وتمركز فريقُ الهندسةِ بين السور العالي وتلّة الطوب المحطم؛ وهناكَ كان يسيطر رجلٌ ممتلئ الجسد، يمشي متجهّماً وينعقُ، وكأنّه يعاني من مسامير لحمية في أسفل قدميه.

الوحيد الذي كان يدير المدفعَ رجلٌ أصلع يرتدي قميص بحّار. اسم عائلته كولومييتيف. سمعت كاتيا كيفَ صرخ به غريكوف قائلاً:

- هيه، كولومييتيف، أرى أنَّكَ فوّتَّ الهدفَ العالمي.

قاد الملازمُ ذو اللحية الشقراء المشاةَ وقاذفي الرشاشات. بدا وجهه في إطار اللحية شاباً بشكل خاص، وربما اعتقدَ أن اللحية تعطيه مظهرَ رجلٍ في الثلاثين من العمر.

أطعموها في فترة ما بعد الظهر؛ فأكلت الخبزَ ونقانق من لحم الغنم. ثم تذكرت أن لديها قطعة كراميلا في جيبها، فوضعتها في فمها دونَ أن يلاحظَ أحدٌ ذلك. بعد تناول الطعام أرادت النوم، بالرغم من أنّ إطلاقَ النارِ كان قريباً جداً. غفت، واستمرّت تمصُّ قطعة الحلوى وهي نائمة، واستمرت في المعاناة، والشوق، وانتظار المتاعب. فجأة تناهى إلى مسامعها صوتٌ يُنشِدُ. فاستمعت إلى الكلمات، دون أن تفتح عينيها:

. . . مثل النبيذ، حزن الأيام التي مرّت

في روحي، كلّما كان أقدَمَ، كان أقوى. . .

وقفَ في البئر الحجريّة، المضاءة بمصباحٍ مسائيٍّ غازيٍّ أصفر، رجلٌ أشعث قذر قصير يحمل كتاباً أمامه. وجلس خمسة أو ستة أشخاص على الطوب الأحمر؛ واستلقى غريكوف على المعطف، سانداً ذقنه بقبضتيه. واستمع غير واثق إلى شخص بدا جورجيّاً، وكأنّه يقول: «لا، لا يمكن أن تشتريني بمثل هذا الهراء، انزع هذه الفكرة من رأسك».

ارتفعت سحابةٌ من غبار الطوب بسبب انفجار قريب، وتراءى أن ضباباً خياليّاً يلفّ المكان، وأصبح الأشخاصُ على أكوام الطوب المُدمّاة، وأسلحتهم في الضباب الأحمر كما في اليوم الرهيب الذي

ذُكِرَ في «كلمة عن فوج إيغور[1]». وفجأة هزّ قلبَ الفتاة بثقة غير معقولةٍ شعورٌ بأن السعادة تنتظرُها.

اليوم الثاني. وقعَ في هذا اليوم حدثٌ أثارَ حماسةَ السكان الاعتياديين في المنزل.

كان المسؤول في الطابق الثاني هو الملازم أوّل باتراكوف ومعه كانَ الحاسب والمراقب. رأتهم كاتيا عدّة مراتٍ في اليوم - لامباسوف المصاب بالكآبة، وبونتشوك الماكر والبريء، والملازم الغريب الذي كان يبتسم طوال الوقت، وهو يضعُ نظارة طبية.

سمعت أصواتهم في لحظات السكون من الأعلى، عبرَ الفجوة في السقف.

كان لامباسوف قبل الحرب يمارس تربية الدواجن، وتحدث إلى بونتشوك عن ذكاءِ الدجاجِ وعاداته الغادرة. مال بانتشوك إلى الأنبوب المصفّح، وقدم تقريره بصوت ممطوط وكأنّه يغنّي: «إنّي أرى... قائداً ألمانيّاً يتمشّى مع كلب، الكلب يشمشم الأعمدة، يريد أن يقضي حاجته، نعم فعلاً، لذلك، العاهر؛ الضابط يقف، وينتظر؛ وهاتان فتاتان من المدينة تتحدثان مع جنود ألمان، يضحكون، ويُخرج جنديٌّ سجائر، فتاة تأخذ سيجارة وتدخن، والأخرى تهز رأسها، ربما تقول: أنا لا أدخن...».

وفجأة يخبر بونتشوك بالصوت الغنائي نفسه:

- إنّي أرى... يصطف مشاة على أرض العرض بكامل

(1) نصٌّ أدبيٌّ شهير في روسيا القديمة. يستند هذه النص إلى الحملة الفاشلة للأمراء الروس ضد البولوفتسين، التي نظمها الأمير نوفغورود سفرسكي والأمير إيغور سفياتوسلافيتش عام 1185. (المترجمان).

حيويّتهم... وتقف أوركسترا... يوجد منبر ما وسطَ المكان، لا، إنّهُ حطب مكدّس... - أوه، أراهم أيّها الرفيق الملازم أوّل يقتادون امرأةً، ترتدي قميصاً، إنّها تصرخ بكلام ما... الأوركسترا تعزف... يربطون هذه المرأة بالعمود، أوه، أرى أيّها الرفيق الملازم أوّل، طفلاً بجانبها، ويربطونه أيضاً... أيّها الرفيق الملازم أوّل، ليتَ عينيَّ لا تريان؛ ضابطان يصبّان البنزين من البدونات...

أبلغ باتراكوف عما يحدث عبر الهاتف إلى ما وراء الفولغا.

مال نحو الأنبوب المصفّح، وبطريقته الكالوغيية[1]، قلّد صوت بونتشوك، وقال:

- أوه، أرى يا شباب، كل شيء في الدخان والأوركسترا تعزف... نار تشتعل! صرخ بصوت رهيب وانتقل إلى منطقة ما وراء الفولغا.

لكن ما وراء الفولغا كانت صامتة...

وفي دقائق معدودة غطّت نيرانُ فوجِ المدفعيَّةِ الثقيلةِ المركزةِ مكانَ الإعدام. وغطّت المنطقة سحبٌ من الدخانِ والغبار.

وبعد ساعات قليلة عُرِفَ من خلال الاستطلاعي كليموف أن الألمان كانوا على وشك حرقِ غجريّةٍ وصبيّ غجريّ مشتبه في قيامهما بالتجسس. ترك كليموف في اليوم السابق، عند امرأة عجوز تعيش في قبو مع حفيدتها وعنزة زوجاً من الثياب الداخلية القذرة، وقطعَ قماشٍ للفّ الرجلين، ووعد بالحضور في الصباح لارتداء الملابس المغسولة. أراد أن يعرف من المرأة العجوز عن الصبيّ

---

(1) نسبة إلى اسم مدينته - كالوغا. (المترجمان).

الغجريّ والمرأة الغجرية؛ وهل قُتلا بالقذائف السوفييتية، أم احترقا بالنار الألمانية قبل القذائف السوفييتيّة. زحف كليموف بين الأنقاض على طول أحد المسارات الرئيسيّة، لكن في المكان الذي يوجد فيه المخبأ، كان القاذف الليلي السوفييتي قد ألقى قنبلة ثقيلة - فما عادت توجد جدّةٌ ولا حفيدة، ولا عنزة، ولا قمصان ولا لفائف قماش. وجد فقط بين الجذوع المهشّمة وكسرات الطينة الداخلية قطّاً قذراً. ما كانت ثمّةَ فائدة تُرتجى من القط الصغير، وهو لم يطلب أيَّ شيءٍ ولم يشتكِ من أيِّ شيء، واعتَقَدَ أن هذا الدويَّ والجوعَ والنارَ هي الحياة على الأرض.

لم يستطع كليموف أن يفهمَ سببَ وضْعِهِ القطَّ فجأةً في جيبه.

أدهشت كاتيا العلاقاتُ بين الناسِ في البيت «ستة على واحد». فقد قدّم الاستطلاعي كليموف تقريره إلى غريكوف، ليس على الطريقة العسكرية واقفاً، بل جلس بجانبه، وتحدثا، وكأنّهما رفيقٌ يحدّثُ رفيقَه. وأشعلَ كليموف سيجارته من سيجارة غريكوف.

اقترب كليموف من كاتيا، بعد الانتهاء من القصة وقال:

- أيّتها الفتاة، مثل هذه الأشياء الفظيعة توجد في هذا العالم.

تنهّدت، وخجلت، وشعرت بنظرته الواخزة والحادّة.

سحب القطَّ الصغيرَ من جيبه، ووضعه على قطعةِ الطوب بجوار كاتيا.

اقترب عشرات الأشخاص من كاتيا في هذا اليوم، وتحدثوا إليها في مواضيع تمسُّ القطط، لكن أحداً لم يتحدث في أمرِ الغجريَّة، على الرغم من أن هذا الحادث أزعج الجميع. أولئك الذين أرادوا

إجراء أحاديث حسّاسة وصريحة مع كاتيا، تحدثوا إليها بسخرية ووقاحة. وأولئك الذين فكروا ببساطة غير ماكرة في النوم معها، تحدثوا إليها رسمياً برقّة متملّقة.

ارتجف القط، وأخذ جسده كلّه يرتعش، كان مصاباً على ما يبدو.

قال قاذف الهاون العجوز متجهّماً:

- يجب قَتلُه، وينتهي كل شيء - ثم أضافَ قائلاً: - لو أنك تنظفينه من البراغيث.

ونصحها قاذف الهاون الثاني، وهو رجل الميليشيا الأسمر الجميل تشينتسوف:

- لو أنك ترمينَ هذه القمامة أيّتها الفتاة. ليته كان قطّاً سيبيريّاً.

كان جندي الهندسة لياخوف المتجهّم ذو الوجه الشرّير والشفتين الرقيقتين، هو الوحيد الذي اهتمّ بالقطّ بالفعل، غيرَ مبالٍ بسحر مشغّلة اللاسلكي.

قال لكاتيا:

- عندما وقفنا في السهب، لا أدري كيف اندفع نحوي، اعتقدت أن قذيفة كانت على وشك السقوط. كانَ أرنباً. جالسني حتى المساء، وعندما هدأ الوضعُ غادَرَ.

وقال:

- أعتقد أنّك تعرفين أيتها الفتاة أنّهم يقصفون بمدفع هاون مئة وسبعة ميلليمتر، وهذا هو الـ«نيبل فيرفير» الذي يقذف، وطيارُ الاستطلاع يحلّقُ فوق نهر الفولغا. أمّا الأرنب الأبله، فلا يميّز بين

مدفع الهاون والمدفع العادي. أطلق الألماني القذائف، فهزّته - وهل تستطيعين التوضيح له؟ لذلك نحزن عليه.

شعرت كاتيا بجديّة المحاور، فأجابت هي أيضاً بجدّية:

- أنا لا أتّفق تماماً معك. الكلاب على سبيل المثال تفرّق بين الطائرات. عندما كنا في القرية، كان ثمَّةَ كلب كيرزون مهجّن، ولاحظنا أنَّه يبقى مُستلقياً على الأرض حتى أنّه لا يرفع رأسه عندما تعبُرُ طائراتنا الـ«أليوشين»، أمّا عندما تئنّ طائرات «اليونكر»، فترى ذلك الكيرزون يهربُ إلى فجوة قريبة. كان يميّزها بسهولة.

ارتعش الهواء من جراءِ الصرير النجس القاتل، رَمى «نيبل فيرفير» الألماني ذو الاثنتي عشرة فوَّهة. وضرب الطبلَ الحديديَّ، واختلط الدخان بغبار الطوب المُدَمّى، وسقط حجرٌ سقوطاً مدوّياً. وبعد دقيقة، عندما أخذ الغبار يركد، تابعت مشغلة اللاسلكي ولياخوف الحديث، وكأنّهما لم يسقطا على الأرض. أصيبت كاتيا، على ما يبدو، بعدوى الثقةِ بالنفس، التي انتقلت إليها من الناس في البيت المحاصر. بدا أنَّهم مقتنعون بأنّ كلَّ ما في البيت المتداعي هشٌّ وقابل للكسر - الحديد والحجر، لكن ليسَ هم على الإطلاق.

ومرّ بجانب الشقوق التي جلسا فيها أزيزُ وعواءُ رشقةٍ طلقاتٍ، ثم تبعها رشقة ثانية.

قال لياخوف:

- كنّا في الربيع في ضواحي سفياتوغورسك. وكم كان الصفيرُ حاداً فوق الرأس، لكن إطلاق النار لم يُسْمع. لم نفهم شيئاً؛ لكن تبيّن أنّ المدافعَ تعلّمت تقليدَ الرصاصات. . . كان القائد عندنا نقيب، أيقظنا في حالة الخطر، هكذا كانت تئزّ القذائف.

- تخيّلتُ الحربَ في البيت: الأطفالُ يصرخون، والنار تحيطُ بكلِّ شيء، والقطط تهرب. وصلت إلى ستالينغراد، واتَّضحَ أنّ تصوّري كان صحيحاً.

سرعان ما اقترب زوبروف ذو اللحية من فينغروفا مشغّلة اللاسلكي.

سأل متعاطفاً:

- حسناً كيف تسير الأمور؟ أما زال يعيش الشاب ذو الذيل؟ - ورفع قطعة قماش الأرجل التي تغطي القط - أو، يا له من بائس، كم هو ضعيف - قال ذلك، ولمع في عينيه تعبيرٌ وقحٌ.

تمكن الألمان في المساء، بعد معركة قصيرة، من إحراز بعض التقدم على جانب المنزل «ستة على واحد»، مما أدى إلى قطع الطريق بين المنزل والدفاع السوفييتي بنيران الرشاشات. انقطع الاتصال السلكي بمقر الفوج. أمر غريكوف بفتح ممرّ من الطابق السفلي إلى نفق المصنع تحت الأرض، الذي يقع بالقرب من المنزل.

وقال غريكوف للفورمان أنتسيفيروف عريض المنكبين، وهو يحمل كوباً من الشاي في إحدى يديه وقطعة سكر في الأخرى:

- المتفجّرات موجودة.

تبادلَ سكَّانُ المنزل الحديثَ، وهم يجلسونَ في الحفرة، بالقرب من الجدار الرئيسي. إعدام الغجر أقلق الجميع، لكن أحداً لا يتحدث عن ذلك. وبدا وكأنّ الناس لا يقلقها الحصار.

كان غريباً هذا الهدوء بالنسبة لكاتيا، لكنّه أخضعها لنفسه، والكلمة الأسوأ «الحصار»، لم تكن فظيعة عندها طالما هي بين

ساكني المنزل الواثقين بأنفسهم. لم تَخف حتى عندما اصطدمت بالقرب منها قذيفةُ مدفعٍ رشاشٍ وصاحَ غريكوف قائلاً: «اضرب، اضرب، إنّهم يتسلّقون». ولم تكن خائفة عندما صرخَ غريكوف: «فليضرب كلٌّ منكم بما يشاء - بقنبلة يدوية أو بسكين أو بمجرفة. إذا علّمناكم - فسنفسد الأمر. أرجو فقط أن تضربوا، كلّ منكم بما يحب».

ناقشَ ساكنو المنزلِ في لحظات الهدوءِ، من دون تسرّع وبدقّة، مظهرَ مشغِّلة اللاسلكي. باتراكوف، الذي بدا أنه ليس من هذا العالم، بالإضافة إلى أنّهُ كانَ قصيراً أحولَ، أظهر معرفةً في تفاصيل جمال كاتيا كلّها.

قال:

- عندي صدرُ المرأة هو الأساس.

جادله جنديُّ المدفعيَّةِ كولوميتسيف، فهو حسب تعبير زوباريف «يوضّح بالتفصيل المملّ»

سأل زوباريف:

- حسناً، وهل تحدثتم عن القط؟

أجاب باتراكوف:

- بالطبع. من خلال روح الطفل إلى جسد الأم. حتى الأب تحدّث عن القط وسأل عنه.

بصق العجوزُ قاذفُ الهاون ومسّدَ صدرَهُ براحةِ يده قائلاً:

- أين كل تلكَ الأشياء التي تملكها، كل ما يلزم لفتاة لها وظيفة رسمية؟ ها؟ أنا أسألك.

غضب بشكل خاص عندما سمع تلميحاتٍ تشيرُ أن غريكوف نفسه معجب بمشغِّلة اللاسلكي.

- طبعاً في ظل ظروفنا كاتيا هذه مقبولة، ففي الصيف حتى البطَّةُ تعمل غسّالةً. ساقان طويلتان، مثل الزرافة، ومن الخلف: لا شيء. وعينان كبيرتان، كما عند البقرة. فهل هذه فتاة؟

قالَ تشينتسوف مُعترضاً:

- ما يعنيكَ أن تكون الفتاة ذات نهدين كبيرين. هذه وجهة نظرِ ما قبل الثورة، وقد استهلكت نفسها.

قال كولومييتسيف ذو الكلام السفيهِ والوسخ عادةً، الذي جمع في صلعة رأسه الكبيرة الكثير من الميزات والصفات، وهو يضحك ويغمض عينيه الرماديتين الباهتتين:

- فتاة على «الموضة»، لكن عندي، على سبيل المثال، وجهةُ نظرٍ خاصة؛ أحبُّ الأرمنيَّات واليهوديات، الصغيرات، ذوات العيونِ الرشيقة والسريعة، وقصّة الشعر القصيرة.

نظر زوباريف وهو يفكر إلى السماء المظلمة، الملوّنة بأضواء الكواشف، وسأل بهدوء:

- يا هل ترى كيف ستسير الأمور؟

- لمن ستقدّم نفسها؟ - سأل كولومييتسيف - لغريكوف بالتأكيد.

قال زوباريف:

- لا، هذا غير واضح. ورفع قطعةً من الطوب عن الأرض، وضربَ بها الحائط بكلّ قوّته، فنظر الأصحابُ إليه وإلى لحيته وأخذوا يضحكون.

استوضح باتراكوف:

- بماذا ستغريها، بجمال شعرك؟

صحّح كولوميتسيف قائلاً:

- بالغناء! استوديو الراديو: المشاة إلى المايكريفون. هو سيغنّي، وهي ستبث ذلك على الهواء، ثنائي- فو!

التفت زوباريف إلى الفتى الذي أنشدَ الشعرَ الليلةَ السابقة.

- وماذا عنك؟

قال قاذف الهاون العجوز مشاكساً:

- إنّه صامت - يعني أنّه لا يريد أن يتكلّم - وبلهجة الأب الذي يحاول إقناع ابنه، الذي يستمع إلى أحاديث الكبار، أضاف قائلاً: - لو تذهب إلى القبو، وتنام، حتى تسمح الظروف.

قال باتراكوف:

- هناكَ سيفجّر الآن أنتسيفيروف الممرّ بال ت- ن- ت.

أملى غريكوف في هذه الأثناء تقريراً على فينغروفنا.

أبلغ مقرُّ قيادةِ الجيش أنَّ الألمانَ، حسب الدلائل كلها، يستعدونَ لتوجيه ضربة، وحسب تلك الدلائل ستوجَّهُ هذه الضربة إلى مصنع الجرارات.

لم يخبرهم بأنّ البيت الذي يجلس فيه مع ناسه، وحسب رأيه، سيكون في محور الضربة الألمانية. لكنَّهُ تخيّلَ، مُتأمِّلاً عنقَ الفتاةِ وشفتيها وأهدابها نصف المتدليّة، بصورةٍ حَيَّةٍ تماماً، أن هذا العنقَ الرقيقَ قد انكسرَ، وخرجت فقرات عظميَّةٌ بيضاء من تحت الجلدِ الممزق، وأنَّ هذه الأهداب فوق العينين السمكيّتين الزجاجيّتين، والشفاه الميتة، كما لو كانت من المطاط الرمادي المغبرّ.

وأراد أن يمسك بها، ويشعر بدفئها، وبالحياة، ما داما لم يمضيا بعد، ولم يختفيا، ما دامَ هناك كثيرٌ من الروعة في هذا المخلوق الشاب. بدا له أنه بدافع الشفقة على الفتاة، أراد أن يعانقها، لكن هل بسبب الشفقة هذا الطنين في الأذنين، والدم الضاربُ في الصدغين؟

لم يُجب مقرّ القيادةِ على الفور.

تمطَّى غريكوف حتّى أنّ عظامه فرقعت بهدوء، وتنهّد بصوت عالٍ، وفكّر: «حسناً، حسناً، الليل أمامنا»، وسأل بلطف:

- كيف يعيش هذا القط الصغير، الذي جلبه كليموف، هل تعافى وأصبح أقوى؟

أجابت مشغّلة اللاسلكي:

- من أين له القوّة.

بدأت أصابعُ كاتيا ترتجف، وهي تتخيّلُ الغجريّةَ والطفلَ على الموقد، ونظرت بطرف عينِها إلى غريكوف - هل لاحظ ارتجافَها؟

بدا لها بالأمس، أنّ أحداً لن يتحدث معها في البيت «ستة على واحد»، واليوم، عندما كانت تأكل العصيدة، ركض ذو اللحية من جانبها والبندقية الرشاشة في يده، وصاح كصديق قديم:

- كاتيا، المزيد من الحياة!- وأشار بيده كيف يجب وضع الملعقة بسرعة في الصحن.

رأت الشاب الذي قرأ الشعر يوم أمس، عندما كان يجر اللغم على قطعة قماش الخيمة. نظرت حولها مرة أخرى، ورأته - كان واقفاً بجانب مرجل الماء، وأدركت أنه ينظر إليها، لذلك التفتت، لكنَّهُ تمكّن من الاستدارة.

لقد خمّنت بالفعل من الذي سيعرض رسائله وصوره عليها غداً، ومن سيتنهّد وينظر بصمت، ومن الذي سيُقدم لها هديةً - نصفَ وعاءٍ من الماء، وخبزاً مُجففّاً، ومن سيخبرها أنه لا يؤمن بحبِّ المرأة ولن يحبَّ أبداً. في حين سيمدُّ رجل المشاة الملتحي يدَهُ إلى الأماكن الحسّاسة في جسمها.

أخيراً أجاب المقرُّ الرئيسي، وأخذت كاتيا تنقل الإجابة إلى غريكوف: «آمركم أن تُبلّغوا كلّ يوم بالتفصيل في الساعة الثانية عشرة تماماً. . .».

فجأة ضربها غريكوف على يدها، وأزاح راحة يدها عن المفتاح - صرخت مذعورة.

ابتسم ابتسامة عريضة وقال:

- أصابت شظايا اللغم جهاز الإرسال اللاسلكي، وسيُؤمَّنُ الاتصالُ، عندما يكون غريكوف بحاجة إليه.

نظرت إليه مشغّلة جهاز اللاسلكي مرتبكةً.

- اعذريني يا كاتيوشا - قال لها ذلك وأخذها من يدها.

60

أبلغوا من فوج بيريزكين في الصباح مقرَّ الفرقة أن الأشخاص المحاصرين في البيت «ستة على واحد» حَفروا ممراً التقى بنفقٍ خَرساني للمصنع، وخرجوا إلى ورشةِ مصنع الجرارات. أبلغَ الضابطُ المناوبُ في مقرِّ الفرقةِ قيادةَ الجيش بذلك، وأبلغوا بدورهم الجنرالَ كريلوف، فأمر كريلوف بإحضار أحد الخارجين لمقابلته. قاد ضابط الاتصال الشابَ الذي اختيرَ مناوباً إلى مقرّ قيادة الجيش. سارا إلى الشاطئ من خلال الوادي، قلق الشابُ في الطريق، وطرح أسئلة:

- أحتاج العودةَ إلى موقعي، لقد كان عليَّ فقط أن أستكشف النفق، لنقل الجرحى.

أجاب ضابط الاتصالات:

- لا تقلق. أنت ذاهب إلى قائدٍ أعلى رتبةً من قائدك، وستنفِّذ ما يأمرون به.

أخبر الشابُّ ضابطَ الاتصال في الطريق، بأنهم يجلسون في البيت «ستة على واحد» للأسبوع الثالث، وقد أكلوا في وقت من الأوقات البطاطا المرمية في القبو، وأخذوا الماء من غلاية تسخين البخار، وقبل ذلك أنهكوا الألمان، الذين أرسلوا رسولاً، وعرضوا

السماحَ للمحاصرين بالانتقال إلى المصنع، ولكن بالطبع، أمر القائد (أطلق الشاب عليه اسم «مدير البيت») بإطلاقِ النار من أنواع الأسلحة المتوفرة كافّة، رداً على عرضهم. عندما وصلا إلى نهر الفولغا، انبطحَ الشاب وشرب الماء، وبعد أن ارتوى، هزّ قطرات الماء بعناية عن السترة المبطنة إلى كَفِّه ولعقها مثلما يفعلُ جائعٌ بفتات الخبز. قال إن الماء الموجود في غلاية تسخين البخار قد تعفن وإن الجميعَ عانوا في الأيام الأولى من أمراضٍ في المعدة، لكن مدير المنزل أمر بغلي الماء في الأواني، فتوقفت أمراض المعدة بعد ذلك. ثم تابعا السير بصمت. استمعَ الشاب الصغير إلى القاذفاتِ الليليةِ، ونظر إلى السماء، الملوّنة بالصواريخ الحمراء والخضراء، وأسلاك الرصاص والقذائف. ألقى نظرة سريعة على اللهب الضعيف والمرهق لحرائق المدينة التي لم تخمد بعد، وعلى وميض المدفعية الأبيض، والانفجارات الزرقاء للقذائف الثقيلة في جسم الفولغا، وأخذ يبطئ خطواته حتى ناداه ضابط الاتصالات:

- هيّا، بحيويّة أكثر!

مشيا بين الأحجارِ الساحليَّة، وكانت القذائفُ تحلّقُ مسرعةً صافرةً فوقهما، ناداهما الحراس. ثمَّ أخذا يصعدان المنحدر على درب للمشاة، وسط ممرات متعرجة، بين المخابئ المحفورة في جبل من الطين، تسلقا أحياناً درجات ترابية، وأحياناً كانا يطرقان بأعقاب حذاءيهما ألواحاً خشبيةً، وأخيراً وصلا ممراً مسدوداً بسلك شائك - كان هذا هو موقع قيادة الجيش ال- 62. صحّحَ ضابطُ الاتصال وضعيَّةَ حزامه ومضى عبر ممر إلى مخبأ المجلس العسكري، الذي تميّز بسماكة خاصّةٍ في جذوع الأشجار.

ذهب الحارس لاستدعاء الحاجب، وللحظة، لمع من خلف الباب نصف المفتوح ضوءُ مصباحِ الطاولةِ الكهربائي المغطى بالعاكس.

أضاء الحاجب أمامه بالمصباح، وسأل عن اسم عائلة الشاب، وأمره بالانتظار.

سأل الشاب:

- وكيف سأتمكن من العودة إلى موقعي؟

- لا تقلق، لسانك يوصلك إلى مدينة كييف - قال الحاجب وأضاف بصرامة: ادخل إلى الدهليز، وإلّا ستصيبك قنبلة، وسأكون مسؤولاً أمام الجنرال.

جلس الشاب الصغير في الرواق الدافئ نصف المظلم، على الأرض، واتكأ جانباً على الحائط وغفا.

هزّته يد شخص ما بعنف، واندفع صوت غاضب، اختلط في داخله أثناء نومه المربك بصراخ القتال القاسي في الأيام الماضية وهمس منزله الأصلي السلمي الذي لم يعد موجوداً منذ فترة طويلة.

- شابوشنيكوف، هيّا بسرعة إلى الجنرال...

61

أمضى سيريوجا شابوشنيكوف يومين في مخبأ حرسِ مقر القيادة. أنهكته حياة المقر، واتضحَ لهُ أن الناس عانوا الكسلَ من الصباح حتى الليل.

تذكَّر كيف جلس مع جدّته ثمانيَ ساعات في روستوف، في انتظار القطار المتجه إلى سوتشي، وفكر بأن الانتظار الحالي يذكِّرُ بعملية تبديل القطار في فترة ما قبل الحرب. ثم بدت له مقارنة البيت «ستة على واحد» بمنتجع سوتشي مضحكةً. طلب من الرائد (مدير المقر) السماح له بالرحيل، لكنَّ الثاني ماطله - لم يكن ثمَّةَ أمر من الجنرال؛ وجَّه الجنرال سؤالين فَحسب لشابوشنيكوف عندما استدعاه، وأنهى المحادثة - صرفت انتباهَهُ مكالمةٌ هاتفيَّةٌ من القائد. قرر مدير المقر عدمَ إطلاقِ الشاب، ربما يتذكره الجنرال.

التقط مدير المقر، وهو يدخل المخبأ، نظرةَ شابوشينكوف إليه وقال:

- حسناً، أنا أتذكر.

أغضبتهُ عينا الشاب المتوسّلتان أحياناً فقال:

- ما الذي يزعجكَ هنا؟ يطعمونك جيداً، وتجلس في الدفء. ما زال في الوقت مُتَّسَعٌ كي يقتلوكَ هناك.

عندما يكون اليوم مليئاً بالهدير ويغطس الشخص حتى أذنيه في مرجل الحرب، فإنه لا يستطيع أن يفهم، ويرى حياته، يجب عليه التنحي جانباً خطوةً على الأقل. وبعد ذلك، سيُصبح الأمرُ كما لو كانت العينانِ تنظرانِ من الشاطئ، فترياِن ضخامَةَ النهر- أيعقلُ أن يكون قد أبحر لتوّه في هذا الماء المجنونِ وهذا الزبد؟

بدت الحياة في فوج الميليشيا لسيريوجا هادئة: حارسٌ ليليٌّ في السهب المظلم، وهجٌ بعيد في السماء، وأحاديثُ رجال الميليشيات.

وجد ثلاثة رجال من الميليشيا أنفسهم في قرية مصنع الجرارات. قال بولياكوف الذي لم يحب تشينتسوف: «بقي من جيش الميليشيات كلّه - عجوز، وصغير، وأحمق».

طغتِ الحياةُ في البيت «ستة على واحد» على كل ما كان من قبل. على الرغم من أن هذه الحياة كانت لا تصدق، إلا أنها بدت الواقع الوحيد، وأصبحتِ الأشياء السابقة لها كلُّها خيالية.

بَزَغت فَحَسب في بعض الأحيان في ذاكرةِ رأس ألكساندرا فلاديميروفنا الشائب، عينا العمّةِ جينيا الساحرتان، فيبدأ قلبُها الذي سيطر الحبّ عليه، يؤلمها.

كان يعتقد، في الأيام الأولى لوجوده في البيت «ستة على واحد» - أنَّ من الغرابة وغير المألوف، أن يدخل غريكوف وكولوميتسيف وأنتسيفيروف فجأةً في حياته البيتيَّة... والآن يتخيّل في بعض الأحيان مدى سخافة أن تدخل عماتُه وابنةُ عمّه، وعمُّه فيكتور بافلوفيتش في حياته الحاليّة.

أوه، لو تسمع الجدّة، كيف يشتم سيريوجا...

غريكوف!

ليس من الواضح تماماً هل انتُقِيَ أناسٌ مُميّزون وعجيبون للبيت «ستة على واحد»، أم أنَّ الناسَ العاديين أصبحوا مميّزين، بعد أن دخلوا هذا البيت. . .

ما كان للميليشياوي كرياكين أن يقودَ ليومٍ واحدٍ هنا. وحتى تشينستسوف، وبالرغم من أنّهم لا يحبونه إلّا أنَّه موجود. لكنه لم يعد ذلك الرجل الذي كان في الميليشيا - لقد أخفى ميله الإداري.

غريكوف! إنّه مزيجٌ مدهش من القوةِ والشجاعةِ، من السلطةِ مع العيشِ العاديّ. إنه يتذكر كم كان سعر أحذية الأطفال قبل الحرب، وما هو المرتَّب الذي تتقاضاه عاملة النظافة أو السمكري، ويتذكَّرُ كمِّيتي الحبوب والمال الممنوحتين ليوم العمل في الكلخوز حيث يعمل عمّه.

تحدّث أحياناً عن شؤون الجيش قبل الحرب وعمليات التطهير، وإعادة التأهيل، والنفوذ عند الحصول على الشقق، وتحدّث عن بعض الأشخاص الذين وصلوا رتبة جنرال في عام 1937 ممن كتبوا عشرات الإخباريات والتصاريح، التي تفضح الأعداءَ المتخيَّلين للشعب.

وأحياناً تجلَّت قوتُه في شجاعة الأسدِ، في اليأسِ المرحِ، الذي يخالِطُ صُراخَهُ وهو يقفزُ من خلال الفتحة القائمةِ في الجدار:

- لن أسمح لكُنّ بالمرورِ أيّتها القطط العاهرات! - ويُلقى قنابلَ يدويَّة على الألمان المهاجمين.

يبدو أحياناً أن قوته في الصداقة المبهجة والمتواضعة، في صداقتهِ مع سكان البيت جميعهم.

لم يكن في حياته قبل الحرب ما هو مُميّز، كان ذاتَ يوم رئيسَ مجموعةٍ في أحد المناجم، ثم أصبح فنيَّ بناءٍ، وكابتنَ مشاةٍ في إحدى الوحدات العسكرية الموجودة بالقرب من مينسك، وأجرى دروساً في الميدان وفي الثكنات، وخَضَعَ في مينسك للتدريب على إعادة التأهيل، وفي المساء كان يقرأ الكتبَ، ويشرب الفودكا، ويقصدُ السينما، ويلعب الشدّة مع الأصدقاء، ويتشاجرُ مع زوجته، التي كانت غيورة عليه كثيراً من الفتيات والسيدات في المنطقة. تحدث عن كل هذا. وأصبح فجأة، في تصوّر سيريوجا، وليس سيريوجا فحسب، بطلاً ومناضلاً من أجل الحقيقة.

أحاط أناسٌ جددٌ بسيريوجا، وأزاحوا من روحه حتى أكثر الناس المقرّبين إليه.

وكان المدفعي كولوميتسيف بحاراً محترفاً، أبحر على متنِ سفينة حربية، وغرق ثلاث مرات في بحر البلطيق.

أعجبَ سيريوجا أن كولوميتسيف كان يتحدث في كثير من الأحيان بسخرية عن الناس، الذين ليس من المعتاد التحدث عنهم باحتقار، وأظهر الاحترام الاستثنائي للعلماء والكتّاب. إنّ جميع المسؤولين، حسب رأيه، الذين لديهم مناصب ورُتب، لا يعنون أي شيء أمام لوباتشيفسكي الأصلع أو رومان رولاند المنكمش[1].

تحدّث كولوميتسيف في بعض الأحيان عن الأدب. لكنَّ كلماته

(1) نيقولاي لوباتشيفسكي (1856 -1792) عالم رياضي روسي. وضع مصطلح الهندسة غير الإقليدية. وتسمى الهندسة البيانيّة. رومان رولان هو أديب فرنسي ولد يوم 29 يناير 1866 وتوفي يوم 30 ديسمبر 1944، من قادة الفكر الحديث المدافعين عن السلام. (المترجمان).

لم تشبه أحاديث تشينتسوف حول الأخلاق والأدب الوطني على الإطلاق. كان يحب كاتباً ما أمريكياً أو إنجليزيّاً. وعلى الرغم من أن سيريوجا لم يقرأ هذا الكاتب البتَّة، وكولوميتسيف نسي اسمَ عائلته، إلا أن سيريوجا كان متأكداً من أن هذا الكاتب يكتبُ جيداً - أثنى عليهِ كولوميتسيف بكلماتٍ غير لائقة، لكنّها ممتعة للغاية، ومرحة.

- ما الذي أحبُّهُ فيه، - قال كولوميتسيف - إنّه لا يعلِّمُني. رجل يتسللُ إلى امرأة؛ وهذا كل شيء. جندي في حالة سكر؛ وهذا كل شيء. ماتت امرأة عجوز عند رجل عجوز؛ يصفها بدقة. وتجدُ عنده الضحك، والشفقة، وما يثير الاهتمام، ومع ذلك لا تعرف ما الذي يعيش الناس من أجله.

قامت صداقةٌ ما بين الاستطلاعي فاسيا كليموف وكولوميتسيف.

تسلّل كليموف وشابوشنيكوف بطريقة ما إلى موقع ألماني عبرَ رَدميَّةٍ للسكة الحديدية، وزحفا إلى حفرة كانت قد أحدثتها قذيفة ألمانية، قريباً من مكان تموضعِ طاقم مدفع ألماني ثقيل وضابط مراقبة. تمسّكا بحافة الحفرة، ونظرا إلى الحياة الألمانيّة. مدفعيٌّ ألماني صغير يفك أزرار صدريّته العسكرية ويضعُ منديلاً أحمرَ ذا مربّعات تحت قبّة قميصه، ويبدأُ يحلق ذقنه. سمع سيريوجا صريرَ شعره القاسي المغبرّ تحت ماكينة الحلاقة. وألماني ثان كان يتناولُ طعاماً من علبة مسطّحة، نظر سيريوجا للحظة قصيرة، لكن بعمقٍ إلى وجهه الكبير، الذي يعبّر عن متعة مُركّزة. وكانَ الضابطُ - المراقبُ يفتلُ لولبَ ساعته اليدوية. همَّ سيريوجا أن يسأل الضابط بصوت خفيف، كي لا يخيفَهُ: «هيه، هل تسمعني، كم الساعة الآن؟».

سحب كليموف مسمارَ أمانِ قنبلةٍ يدويَّةٍ ورماها في الحفرة. وعندما كان الغبار ما يزال في الهواء، ألقى كليموف قنبلةً ثانيةً وبعد الانفجار قفز إلى القمع. ماتَ الألمان كما لو أنهم ما كانوا يعيشونَ منذ دقيقة في هذا الكون. أخذ كليموف، وهو يعطس من جراءِ غازات الموادِ المتفجرة والغبار، كل ما يحتاج إليه؛ المغلاق من المدفع الثقيل، ومناظير، ونزع الساعة من يد الضابط الدافئة بعناية حتى لا تتلطّخ بالدم، وأخرج البطاقاتِ والدفاتر الصغيرة من بذلاتِ طاقم المدفع العسكرية الممزقة.

سلّم الغنائم التي كسبوها، وحدّث بما حصل، وطلب من سيريوجا أن يسكبَ قليلاً من الماء على يديه، جلس سيريوجا بجانب كولوميتسيف، وقال:

- والآن سندخّن.

هرع في هذه الأثناء بيرفيلييف، الذي يقول عن نفسه: «أنا مُسَالِمٌ من سكان ريزان، أهوى صيد السمك». ثمَّ صاحَ قائلاً:

- هل تسمع أنت، كليموف، لماذا تجلس، مديرُ البيت يبحث عنك، لا بُدَّ من الذهاب مرَّةً أخرى إلى البيوت الألمانية.

- الآن، الآن!

أجابَ كليموف بصوت مُعاتبٍ وأخذ يجمع حاجياته: الرشاش، وحقيبة القماش مع القنابل اليدوية. كان يلمسُ الأشياء بعناية، كما لو أنّهُ يخشى أن يؤذيها. كان يخاطب مُعظمَ زملائهِ بصيغة الجمع «أنتم»، ولم يكن يشتمُ أبداً.

سأل العجوزُ بولياكوف ذات مرّة كليموفَ الذي قتل مئةً وعشرةَ أشخاص:

- أنتَ. . . ألست معمدانيّاً؟

لم يكن كليموف شخصاً صموتاً، وقد أحبَّ الحديث عن طفولته. كان والده يعمل في مصنع بوتيلوف. وكان كليموف نفسه مختصّاً بأعمال الخراطة، ودرّس في مدرسة المصنع المهنية قبل الحرب. أضحك سيريوجا حديثُ كليموف وهو يصفُ كيف بدأ أحد الحرفيين يختنقُ ببرغي، وأخذ يزرقّ، فأخرج كليموف البرغي من بلعوم الحرفي قبل وصول سيّارة الإسعاف، بواسطة كمَّاشة المسامير.

ذاتَ مرَّةٍ رأى سيريوجا كليموفَ مخموراً بالفودكا الألمانية المغتنمة - وكان فظيعاً، حتى أنّ غريكوف تَهَيَّبَهُ.

كان الملازم أوّل باتراكوف أكثر الأشخاص قذارةً في البيت. لم ينظّف باتراكوف حذاءَه، أحد نعليه كان يصفّق أثناء المشي - لم يُدرْ جنود الجيش الأحمر رؤوسَهم، ولم يلتفتوا عندما كانوا يعرفون باقتراب الملازم أوّل مدفعية. لكن الملازم أوّل كان يمسح نظَّارته بقطعة قماش من جلد الغزال عشرات المرات في اليوم، والنظارات لم تكن تتوافق مع بصره، وبدا لباتراكوف أن غبار الانفجارات ودخانها هما اللذان يغبّشان زجاج النظارات. وقد أحضر له كليموف عدّة مراتٍ نظاراتٍ انتزعها من القتلى الألمان، دونَ أن يحالفه الحظ؛ كان الإطارُ جيداً، ولم تكن العدساتُ مناسبة.

درَّسَ باتراكوف قبل الحرب الرياضياتِ في معهد فنّي، وامتازَ بثقة كبيرة بالنفس، وتحدّث عن تلاميذ المعهد الجهلاء بصوت متعجرف.

أجرى لسيريوجا امتحاناً في الرياضيات، فجلب سيريوجا العارَ لنفسه؛ ضحكَ سكان البيت وهدّدوهُ بالرسوب في صفّه.

ذات مرّة في أثناء غارة جوية ألمانية، عندما كان الحدادون الذينَ فقدوا صوابهم يضربون بمطارقهم الثقيلة على الحجر والأرض والحديد، رأى غريكوفُ باتراكوفَ جالساً فوق فسحة الدرج المُتَصَدِّعَةِ يقرأ كتاباً صغيراً.

قال غريكوف:

- لا، لن يتمكن الألمان من تحقيق أيّ شيء. فماذا سيفعلون بمثل هذا الأحمق؟

لم يستطعِ الألمانُ إثارةَ الشعورِ بالرعب بين سكان البيت، بالرغم من كلّ ما فعلوه، بل أثاروا موقف سخريةٍ متساهلةٍ. «أوه، الألماني يحاول»، «انظر، انظروا بماذا يفكر هؤلاء البلطجيّة. . .»، «أحمق بالفعل، أين يسقط القنابل. . .».

صَادَقَ باتراكوف قائدَ فصيلةِ الهندسةِ أنتسيفيروف؛ الرجلَ البالغَ من العمر أربعين عاماً، والذي كان يحبُّ التحدُّثَ عن أمراضه المزمنة - وهذهِ ظاهرة نادرة على الجبهة - القرحاتُ والديسكاتُ شفيت من تلقاءِ نفسها تحت القصف.

لكن أنتسيفيروف استمر يعاني في جحيم ستالينغراد عديداً من الأمراض التي عشّشت في جسمه الضخم. الطبيب الألماني لم يشفِه.

بدا هذا الرجل ذو الوجهِ الممتلئِ والرأسِ المستديرِ الوعرِ والعينين الدائريتين، خياليّاً غيرَ معقولٍ، فعندما كان يضيءُ بريقُ الحرائقِ المشؤومةِ المكانَ، كانَ يحتسي الشاي بِرِضاً مع جنود فصيل الهندسة.

جلسَ عادة حافي القدمين، لأن المسمار اللحمي يؤلم قدمَه وهو ينتعل الحذاء، ومن دون كنزة - كان أنتسيفيروف يشعر بالحرّ دائماً - احتسى الشاي الساخن من فنجان ذي زهور زرقاء، ومَسحَ صلعته بمنديل واسع، كان يتنهّد، ويبتسم، وينفخ في الفنجان من جديد، بينما كان المقاتل المتجهّم لياخوف يربط رأسه بضمادة، ويسكب الماء المغليّ الراكد من غلاية ضخمة.

كان أنتسيفيروف يتسلق أكوام الطوب في بعض الأحيان، دون أن يرفع حذاءه، وهو يتأوّه مستاء، لكي يرى ما يحدث في هذا العالم. وقف حافي القدمين، من دون قميص وغطاء رأس، يشبه الفلاح الذي خرج في عاصفة ممطرة إلى عتبة الكوخ يتفقّد موجودات حديقة المنزل.

كان قبلَ الحرب يعملُ رئيساً لفريقِ عمل. واكتسبتِ الآن تجربتُهُ كبَنَّاءٍ نوعاً من الإشارة العكسية؛ فقد بزغت في دماغه باستمرار أسئلةٌ عن تدمير المنازل والجدران وأعمدة الأقبية.

كانت القضايا الفلسفية هي الموضوع الرئيسي لأحاديث باتراكوف مع جندي الهندسة. ظهرت عند أنتسيفيروف حاجةٌ لفهم مسألة الانتقال غير الاعتيادية من البناء إلى التدمير.

كان حديثهما في بعض الأحيان يهبطُ من القمم الفلسفية - ما هو هدف الحياة، وهل السلطة السوفييتية موجودة في عوالم النجوم، وما هي أفضلية البنية العقلية للرجل على مثيلتها عند المرأة - إلى العلاقات اليوميَّة العاديَّة.

كان كل شيء هنا، بين أنقاض ستالينغراد مختلفاً، وكانت

الحكمة التي يحتاج إليها الناس في كثير من الأحيان إلى جانب إرباكات باتراكوف.

قال أنتسيفيروف لباتراكوف:

- صدقني يا فانيا، بدأت أفهمُ أموراً معيّنةً من خلالك. وقبل ذلك اعتقدتُ أنني أفهم الميكانيك كلَّهُ حتى النهاية - من يحتاج إلى نصف كيلو من الفودكا مع المازا، ومن يحتاج إلى توصيل إطاراتٍ جديدةٍ للسيارة، ولمن يكفي أن تقدِّمَ مئة غرام.

أجاب باتراكوف بتسامح، وهو يعتقدُ بجدية تامة أنه هو، بحججه الغامضة بالذات، وليسَ ستالينغراد، من اكتشف لأنتسيفيروف علاقةً جديدةً بالناس:

- نعم، يا عزيزي، يمكنك بشكل عام وتام، أن تأسف لأننا لم نلتق قبل الحرب.

وعاش المشاة في القبو، أولئك الذين صدّوا الهجومَ الألمانيَّ وانتقلوا بأنفسهم إلى الهجوم المضاد بناء على تعليمات صوت غريكوف الثاقب.

قادَ المشاةَ الملازمُ زوباريف. الذي درس الغناء في المعهد الموسيقي قبل الحرب. كان يصلُ أحياناً في الليل إلى البيوت الألمانية ويبدأ الغناءَ: «أوه، لا توقظيني، يا أنفاس الربيع[1]»، وأحياناً أغنية لينسكي[2].

(1) إحدى أغنيات أوبرا جول ماسينيه (1842-1912) المؤلف الموسيقي الفرنسي. (المترجمان).

(2) أحد أبطال الرواية الشعرية «يفغيني أونيغين» لبوشكين. (المترجمان).

يلوّح زوباريف بيده، عندما يُسأل عن سبب صعوده أكوامَ الطوبِ ليغني، وهو ما يُعرِّضُهُ لخطورة القتل. ربما أرادَ أن يثبت هنا، حيث كانت تنتشرُ رائحةٌ كريهةٌ في الهواء ليلاً ونهاراً، ليس فقط لنفسه ولرفاقه، ولكن للأعداءِ أيضاً، أن القوات المقاتلة الجبارة لا يمكنها أبداً أن تهزمَ روعة الحياة.

هل كان من الممكن العيش دون أن يعرف عن غريكوف، وكولوميتسيف، وبولياكوف، وعن كليموف، وباتراكوف، وعن زوباريف الملتحي؟

لقد أصبحَ واضحاً بالنسبة لسيريوجا، الذي عاش طوال حياته في بيئة مثقَّفة، صحّة مقولة جدته، وهي تؤكِّدُ دائماً أن العمالَ البسطاءَ هم أشخاص طيبون.

لكن تمكّنَ سيريوجا الصغيرُ الذكيُّ من ملاحظة خطيئة جدته - التي كانت تعدُّ الناسَ العاديينَ بسطاء.

لم يكن الناسُ في البيت «ستة على واحد» بسيطين. لقد أدهش غريكوف ذات مرّة سيريوجا بكلماته عندما قال:

- لا يمكنك أن تقودَ شخصاً مثلما تقودُ غنمة، وهذا ما كان لينين ذكياً فيه، ومع ذلك لم يفهم. إنهم يقومون بالثورة من أجل ألّا يقودَ الإنسانَ أحدٌ. بينما قال لينين: «لقد قادوكم من قبل بغباء، لكنني سأقودكم بذكاء».

لم يسمع سيريوجا البتَّة أشخاصاً يدينون بهذه الشجاعة مفوّضي الشعب الذين قتلوا عشراتِ الآلاف من الأبرياء عام 1937.

ولم يسمع سيريوجا الناس يتحدثون بألم شديد عن المصائب

والعذابات التي عانى منها الفلاحون خلال فترة إجبارهم على الالتحاق بالمزارع الجماعيّة. كان المتحدِّثُ الرئيسي في هذه المواضيع هو مدير البيت نفسه غريكوف، ولكن في كثير من الأحيان طرحَ كلٌّ من كولومييتسيف وباتراكوف مثل هذه الأحاديث.

تبدو في مخبأ المقر الرئيسي الآنَ كلُّ دقيقةٍ يقضيها سيريوجا خارج البيت «ستة على واحد» طويلةً بشكلٍ مؤلم. وبدا له من غير المعقول الاستماع إلى الأحاديث حول ضيق الوقت، وحولَ استدعاء رؤساء الإدارات.

بدأ يتخيل ما يفعله الآن بولياكوف وكولومييتسيف وغريكوف.

مساءً، في ساعةِ الهدوء يتحدَّثُ الجميع من جديد عن عاملةِ اللاسلكي.

لا يمكن إيقاف غريكوف بأي طريقة، إذا ما قرّرَ أمراً، حتى لو هددهُ بوذا نفسه أو تشويكوف[1].

كان قاطنو البيت بشراً رائعين وأقوياء ويائسين. ربما، يغنّي زوباريف الليلةَ أيضاً أغنيةَ أوبرا... ها إنَّها تجلس عاجزةً، في انتظار مصيرها.

«سأقتلك!» فكّر هو، لكنّه لم يفهم بوضوح من سيقتل.

وكيف له... فهو لم يقبّل فتيات من قبل البتَّة، وهؤلاء الشياطين ذوو خبرة، بالطبع، سيكذبون عليها، ويخدعونها.

لقد سمع الكثير من القصص عن ممرضاتٍ واختصاصيّاتِ اتصالٍ هاتفي ومدرّساتٍ ومشغلاتِ أجهزة وفتيات مدارسٍ عارضن إرادة قادةَ

(1) مارشال في الجيش السوفييتي. (المترجمان).

أفواجِ القطعِ العسكريّةِ وقوات المدفعيَّة. هذه القصص لم تقلقه أو تشغله.

ألقى نظرة على باب المخبأ. كيف لم يخطر في باله من قبل - أن يقف ويغادر دون أن يسأل أحداً؟

نهض وفتح الباب وغادر.

وفي هذهِ الأثناء تلقّى المناوب التنفيذي في مقر الجيش مكالمة، بناء على تعليمات رئيس القسم السياسي فاسيلييف، وطلبوا منه إرسال الجندي من المنزل المحاصر إلى المفوض على الفور.

تُلامسُ قصة دافنيس وكلوي[1] قلوبَ الناسِ باستمرار، ليس لأن حبهما ولد تحت السماء الزرقاء وبين الكروم فحسب.

إنّ قصة دافنيس وكلوي تتكررُ دائماً وفي كل مكانِ - وفي القبو الذي تفوح منه رائحة سمك القد المقلي، وفي قبو معسكر الاعتقال، على صوت نقراتِ الحسابات في قسم المحاسبة في المؤسسات، وفي جوّ التفل المغبر لمطحنة الغزل.

وظهرت هذه القصة من جديد بين الأنقاض، تحت هدير القاذفات الانقضاضيّة الألمانيّة، حيث غذّى الناسُ أجسادَهم القذرة والمتعرّقة ليس بالعسل، بل بالبطاطا الفاسدة وماء مرجل التدفئة القديم، نشأت حيث لم يكن هناك صمت مدروس، بل حجرٌ مكسورٌ فقط، ودويٌّ ورائحةٌ كريهةٌ.

---

(1) دافنيس وكلوي: واحدة من أشهر قصص الحب اليونانية القديمة في القرن الثاني للميلاد. لا يعرف عن مؤلفها سوى أن اسمه لونگوس. (المترجمان).

62

سلّموا العجوز أندرييف، الذي كان يعمل حارساً في محطة ستالينغراد الكهربائيَّة الحراريَّة، رسالةً استثنائية من مدينة لينينسك - كتبت زوجة الابن إنّ فارفارا ألكساندروفنا ماتت بسبب التهاب رئويّ.

أصبح أندرييف متجهّماً كثيراً بعد خبر وفاة الزوجة، ونادراً ما زار سبيريدونوف، وجلسَ في الأمسيات عند مدخل السكن الجماعي، ونظر إلى وميض المدافع والأضواء الكاشفة في السماء الملبدة بالغيوم. تحدثوا إليه أحياناً في السكن الجماعي، ولكنهُ كان يظلُّ صامتاً. فكروا حينها أن الرجل العجوز لا يسمع جيداً، لذلك كان المتحدثُ يكرّرُ السؤالَ بصوتٍ عالٍ، فيجيبُ أندرييف عابساً:

- إنّني أسمع، أسمع، لست أصمَّ - ويصمتُ من جديد.

صدمَه موت الزوجة. كانت حياتُهُ تنعكسُ في حياة الزوجة، وكل ما كان يحدثُ لهُ من مزاج سيّئٍ وجيّدٍ، وحزينٍ ومرحٍ، كان منعكساً في روح فارفارا ألكساندروفنا.

فكّر بافل أندرييفيتش في أثناء القصف العنيفِ، وساعةَ انفجارِ أطنانٍ من القنابل، وهو ينظر إلى الأعمدة الترابية والدخان

المتصاعدة من بين ورش محطة ستالينغراد الكهربائية الحرارية: «أوه لو تنظر عجوزتي. . . أوه فارفارا، يا لهذهِ الانفجارات. . . ».

وهي لم تكن على قيد الحياة في ذلك الوقت.

بدا له أن أنقاض المباني التي تحطمت بالقنابل والقذائف، وساحةَ الفناء التي حرثتها الحرب، وأكوامَ التراب، والحديدَ الملتوي، والدخانَ المرَّ الرطبَ والأصفرَ، ولهبَ الزيوتِ المحترقةِ لموادِ العزلِ المُتَلِّونَ والزاحفَ - إنما كلُّ ذلك تعبيرٌ عن حياته، وهذا ما ترك له من أجلِ أن يكمل حياته تلك.

أحقَّاً جلس يوماً ما في غرفة مشرقة، وتناول وجبة الإفطار قبل العمل، ووقفت زوجته إلى جواره وكانت تنظر إليه: هل يجبُ إعطاؤه طعاماً إضافيّاً؟

نعم، بقي له أن يموتَ وحيداً.

وفجأة تذكَّرها فتيّةً، ذاتَ يدين لفحتهما الشمسُ، وعينين مرحتين.

حسناً ستأتي الساعةُ، ما عادت بعيدةً على الإطلاق.

نزل في إحدى الأمسيات، وهو يصرّ ببطء على الدرجات، إلى مخبأ سبيريدونوف. نظر ستيبان فيدوروفيتش إلى وجه الرجلِ العجوز وقال:

- أتشعرُ بسوءٍ بافل أندرييفيتش؟

أجاب أندرييف:

- أنت ما زلت شاباً، ستيبان فيدوروفيتش. ومع ذلك لديك قوة أقل، يمكنك أن تهدأ. لدي ما يكفي من القوّة: سأصل وحدي.

نظرت فيرا، التي كانت تغسلُ القدر في ذلك الوقت، إلى الرجل العجوز، ولم تفهم على الفور معنى كلماته.

وقال أندرييف، الذي أراد أن يغيِّرَ الحديث؛ فهو لم يكن بحاجة إلى تعاطف أحد:

- لقد حان الوقت يا فيرا لتُغادري المكان، هنا لا يوجد مستشفى، توجد دباباتٌ وطائراتٌ فحسب.

ابتسمت وفتحت يديها المبتلّتين.

قال ستيبان فيدوروفيتش بغضب:

- الغرباء يقولون لها، وكل من ينظر إليها: حان الوقت للانتقال إلى الضفة اليسرى. جاء بالأمس أحد أعضاء المجلس العسكري للجيش، ودخلَ مخبئنا، فنظر إلى فيرا، ولم يقل شيئاً، دخل السيارة، وبدأ يوبخني: أنتَ! ألست أباً، إذا كنتَ تريد فسننقلها على متن قارب مصفّح عبر نهر الفولغا إلى الضفَّةِ الأخرى. ما الذي يمكنني فعله: هي لا تريد، وانتهى.

تحدَّثَ بسرعةٍ وبأسلوبٍ مُرتّبٍ، كما يقول الناس، وهو يُجادلُ في الأمر نفسه كل يوم. نظر أندرييف إلى كُمّ جاكيته وإلى الرتق المألوف الزاحف وصمت.

تابع ستيبان فيدوروفيتش قائلاً:

- أيُّ رسائلٍ يمكن أن تصل إلى هذا المكان. وهل يوجد بريد هنا. منذ متى ونحن هنا، ولم نتلقَّ خبراً صغيراً واحداً من جدتي، أو من جينيا، أو من لودميلا... أين توليا، وأين سيريوجا، وهل يمكن أن نعرف ونحن هنا.

قالت فيرا:

- هذا بافل أندرييفيتش قد وصلته رسالة.

- تلقّى إشعاراً بالموت - وخاف ستيبان فيدوروفيتش من كلماته، وبدأ يتكلم بطريقة متوتّرة، مشيراً بيده إلى الجدران الضيقة في المخبأ، وإلى الستارة التي تفصلُ سريرَ فيرا: - وكيف لها أن تعيش هنا، إنّهما فتاة صغيرة، وامرأة، وهنا رجال يتجوّلون دائماً، ليلاً ونهاراً، عمَّالٌ أحياناً، وأحياناً أفراد الحراسة العسكريّة، يمتلئ المكان بالناس، يعجّون ويدخنون.

قال أندرييف:

- أشفقي على الطفل، سيضيعُ هنا.

قال ستيبان فيدوروفيتش:

- فكّري فقط، إذا اقتحم الألمان المكان! ماذا سيحدث عندها؟

صمتت فيرا.

أكدت لنفسها أن فيكتوروف سيدخل من بوابة محطة ستالينغراد الحرارية الكهربائية المدمرة، وستراهُ من بعيد مُرتدياً بذلة عملٍ صيفيَّة، ومنتعلاً حذاءً عالياً، ومحفظةٌ على جانبه.

خرجت إلى الطريق السريع - ومضت تنظر، هل هو قادم؟ - صاح بها جنود الجيش الأحمر الذين يستقلون الشاحنات:

- أيتها الفتاة، من تنتظرين؟ اركبي معنا.

شعرت للحظة بالفرح، وأجابت:

- الشاحنةُ لا تستطيع نقلي.

كانت تحدِّقُ عندما حلقتِ الطائراتُ السوفييتيَّةُ، في تلك المقاتلات التي تطير على ارتفاع منخفضٍ فوق محطة ستالينغراد، وبدا لها أنها كانت على وشك أن تميزَ وتعرفَ فيكتوروف.

لوَّحت في أحد الأيامِ مقاتلةٌ كانت تطيرُ فوق محطةِ ستالينغراد بجناحيها ملقية التحية، صرخت فيرا وكأنها طير يائس، ركضت، تعثرت، وسقطت، وبعد هذا السقوط، آلمتها خاصرتها عدّة ليالٍ.

شَهِدتْ في نهاية شهر تشرين الأوّل (أكتوبر) معركةً جويَّةً فوقَ محطةِ توليد الكهرباء، وانتهتِ المعركةُ بلا نتائج، غادرتِ الطائراتُ السوفييتيَّةُ إلى الغيوم، واستدارت الطائرات الألمانية، وتوجّهت غرباً. وقفت فيرا، ونظرت إلى السماء الفارغة، وفي عينيها الواسعتين كان ثمَّةَ إجهادٌ مجنون حتَّى أن الميكانيكي الذي مرّ عبر الفناء سألها:

- ما بك يا رفيقة سبيريدونوفا، هل أُصبتِ؟

آمنت بأنها ستلتقي فيكتوروف هنا في محطة ستالينغراد بالتحديد، لكن بدا لها أنها لو أخبرت بهذا الأمر والده، فسيغضبُ القدر عليها ويفسدُ اللقاء. كانت ثقتها في بعض الأحيان كبيرة حتى أنَّها ذات مرَّة أخذت على عجل تخبز فطائر الجاودار والبطاطا، ومسحت الأرض، وأعادت ترتيب الأشياء، ونظفت الأحذية القذرة. . . وقالت وهي جالسة مع الأب إلى الطاولة، مرهفةً السمع:

- انتظر، سأعودُ بعدَ لحظة، وألقت معطفها على كتفيها، وصعدت من القبو إلى السطح، ونظرت حولها لمعرفة ما إذا كان ثمّةَ طيّار يقفُ في الفناء، ويسأل عن كيفية الوصول إلى أسرة سبيريدونوف.

لم يخطر ببالها البتَّة، ولو للحظة، أنّ باستطاعته نسيانها. كانت متأكدة من أن فيكتوروف يفكِّرُ فيها بعنادٍ وقوّة، كما تفعلُ هي ليلاً ونهاراً.

كانت المدافع الألمانية الثقيلة تُطلق قنابلها على المحطة كل يوم تقريباً - اكتسبَ الألمان خبرةً، إنَّهم يطلقون النار ويصبّون القذائف بدقة، على جدران ورش العمل، فيهزّ الأرضَ دويُّ الانفجارات. كانت قاذفاتُ القنابلِ تطيرُ مفردةً في كثير من الأحيان، وترمي قنابل «ميسر»، تُحلّقُ منخفضةً فوق الأرض، وتطلق رشقات نارية من أسلحة خفيفة فوق المحطة. وتظهرُ في بعض الأحيان الدبابات الألمانية على التلال البعيدة، ثم يُسمع صوت فرقعة الرشاشات المتعجّلة.

وكان ستيبان فيدوروفيتش قد اعتادَ إطلاقَ النار والقذائفَ، وبدا أنّ عمال المحطة الآخرين قد اعتادوا كذلك عليها. لكنهم خلالَ هذا الاعتياد فقدوا احتياطي القوى الروحية الذي يملكونه، وسيطرَ الإرهاقُ على سبيريدونوف أحياناً، فكان لا يرغب إلّا في الاستلقاء على السرير، وهو يلف على رأسه سترةً مبطّنة، متمدِّداً، من دون حراك ومن دون أن يفتح عينيه.

كان أحياناً يشربُ حتى يسكر، وأحياناً كان يرغب في الركضِ على شاطئ الفولغا، وينتقل إلى مدينة توما على الضفة الأخرى ويمشي على طول سهوب الضفة اليسرى للنهر، ولا يلتفت ولو لمرّة واحدة إلى محطة ستالينغراد الكهربائية، وأن يتقبل عار الهروب من الخدمة، من أجل ألّا يسمعَ العواء المخيف للطلقات والقنابل الألمانية فقط.

عندما اتصلوا بستيبان فيدوروفيتش من موسكو على موجات الأثير العالية، عَبْرَ مقرِّ الجيشِ الرابع والستين المجاور، قال نائب مفوض الشعب: «الرفيق سبيريدونوف، بلّغ تحيات موسكو للفريق

البطولي الذي تقوده»، شعر ستيبان فيدوروفيتش بالحرج - أين هي البطولة. وكانت قد انتشرت طوال الوقت شائعات، بأن الألمان يعدّون العُدَّة لشنِّ غارةٍ ضخمةٍ على محطةِ كهرباء ستالينغراد الحراريَّة، ووعدوا بتدميرها بقنابل ثقيلةٍ عجيبة. أصابت تلكَ الشائعات الأيدي والأرجل بالبرودةِ. وكانت العيون في فترة ما بعد الظهر، تدور في السماء الرماديّة - ألا تغيرُ الطائراتُ بعد؟ قفز فجأة في الليل متخيِّلاً ضجَّةً كثيفةً من جرَّاء اقتراب الجحافل الجوّية الألمانيّة. وتصببَ ظهره وصدره عرقاً من الخوف.

لم يكن على ما يبدو الشخصَ الوحيدَ الذي أُنهكت أعصابه. قالَ لهُ كبيرُ المهندسين كاميشوف ذات مرة: «لا مزيدَ من القوة، يبدو أن ثمَّةَ نوعاً من الشيطنة يحدث، أنظُرُ إلى الطريق السريع وأفكر: آخ، لو نهرب». أمّا المنظّم الحزبي للجنة المركزية نيقولاييف فقد مرّ به في المساء وطلب إليه: «اسكب لي يا ستيبان فيودوروفيتش كأساً من الفودكا، أُنهكتُ تماماً، لا أستطيع النومَ في الفترة الأخيرة أبداً من دون مُضاداتِ القنابلِ هذه». قال ستيبان فيودوروفيتش وهو يسكب الفودكا لنيقولاييف: « عش قرناً، تتعلّم قرناً. كان يجب اختيار الاختصاص، الذي يمكن فيه نقل المعدَّات بسهولة، وهنا كما ترى، بقيت التوربينات، وبقينا معها. في حين عُمّالُ المصانع الأخرى يتنزَّهونَ منذ زمن في مدينة سفيردلوفسك[1]».

قال ستيبان فيودوروفيتش ذات مرّة، وهو يحاول إقناع فيرا أن تغادر:

---

(1) مدينة يكاترينبورغ حالياً، تقع في سيبيريا، وهي رابع مدينة في روسيا من حيث عدد السكان. (المترجمان).

- أنا أشعرُ بالدهشةِ منك بالفعل، يأتي إليّ موظّفونا، يطلبون مُغادرةَ المكان تحت أيِّ ذريعة، وأنا أحاول إقناعَكِ بشرف، فلا تريدين الذهاب. لو يسمحون لي أنا نفسي، لما كنت تأخرتُ دقيقة واحدة.

- أنا أبقى هنا من أجلك - أجابته بغلظة - ستدخل في حالةِ سُكرٍ طويلة من دوني.

ولكن، بالطبع، لم تكن تُقلِقُ ستيبان فيدوروفيتش النيرانُ الألمانيّةُ فحسب. ففي محطة كهرباء ستالينغراد، كان ثمّةَ شجاعة، وعمل شاق، وضحك، ونكات، وشعورٌ لامبالٍ بمصيرٍ قاسٍ.

عَذَّبَ فيرا دائماً قلقُها على الطفل. ألن يولدَ مريضاً، ألن يؤذيه القبو المدخَّن قليلُ الهواء، والأرض التي تهتزّ كل يوم من جرَّاءِ انفجار القنابل. غالباً ما عانت في الآونة الأخيرة الدوّارَ والإقياءَ. كم سيكون مغموماً وخائفاً، وكم سيكون حزيناً عندما يولد الطفل، فعينا أمّه تريان طوالَ الوقتِ الدمارَ والنارَ، والأرض المشوّهة، والطائرات ذات الصلبان السود في السماء الرمادية. وبإمكانهِ أن يسمع حتى دويّ الانفجارات، ويمكن أن يتصلَّبَ جسدُهُ الصغيرُ الملتوي في أثناء دويّ القنابل وينضَغط رأسُه بين كتفيه.

وكان ناسٌ يمرّون بها مسرعين في معاطف قذرة ملوّثة بالزيوت، محزّمين بأحزمة عسكرية مشمّعة، فيلوّحون لها بأيديهم، ويصرخون مبتسمين:

- فيرا، كيف حالك؟ فيرا، هل تفكرين فيَّ؟

كانت تشعر باللطفِ الذي عاملوها بهِ كأمّ مستقبليّة. لعلَّ الجنينَ أيضاً يشعرُ بذلك فينمو قلبُهُ نقيّاً وطيّباً.

كانت تقصدُ في بعض الأحيان الورشةَ الميكانيكيّة، حيث كانوا يصلحونَ الدبابات، هناك عمل فيكتوروف ذاتَ يوم. خمّنت - عند أيِّ قاعدةٍ كان يقف؟ حاولت أن تتصوّره في ثياب العمل أو في بِزَّةِ الطيّار، لكنّه كان دائماً يظهَرُ لها في مريلةِ المستشفى.

لم يكن عُمَّالُ المحطةِ الكهربائيّة في ورشة العمل يعرفونها وحدهم، بل سائقو الدباباتِ من القطع العسكرية. كانَ من الصعب التمييز فيما بينهم - عمال المصنع والمُحاربون كانوا يشبهون بعضهم بعضاً كثيراً - ارتدى الجميع سُتُراتٍ مبطّنةً ملوّثةً بالزيوتِ، وقبعاتٍ مجعّدة، وكانت أياديهم سوداء.

سيطرت على فيرا أفكارٌ عن فيكتوروف وعن الجنين، اللذين شعرت بوجودهما ليلاً ونهاراً، وتراجع في قلبها قلقُها على الجدة والعمة جينا وسيريوجا وتوليا، فأحسَّت بإرهاق ثقيلٍ فحسب عندما كانت تفكرُ فيهم.

حنّت ليلاً إلى أمّها، ونادتها، واشتكت لها، وطلبت المساعدة قائلة: «أمّي، عزيزتي، ساعديني».

وشعرت في هذه اللحظات أنَّها عاجزة، وضعيفة، وليست على الإطلاق كما كانت في تلك اللحظة عندما قالت لزوجها بهدوء:

- لا تطلب ذلكَ منّي، لن أذهب من هنا إلى أيّ مكان.

63

قالت ناديا مُفَكِّرةً في أثناء الغداء:

- كان توليا يحب البطاطا المسلوقة أكثر من المقلية.

قالت لودميلا نيقولايفنا:

- غداً سيصبح عمره تسعة عشر عاماً وسبعةَ أشهر تماماً.

في المساء قالت:

- كم ستغضب ماروسيا عندما تعلم بالفظائع الفاشية في ياسنايا بوليانا.

حَضَرت ألكساندرا فلاديميروفنا بعد وقت قصير من انتهاءِ اجتماع المصنع، وقالت لشتروم، الذي كان يساعدها على خلع معطفها:

- الطقس رائع، فيكتور، الهواء جاف وجليدي. قالت أمك: مثل النبيذ.

أجابها شتروم:

- وقالت أمّي أيضاً عن الملفوف الحامض: إنّه عنب.

تحركت الحياة مثل كتلة جليدية تسبح في البحر، ينزلق جزؤها الذي تحت الماء، في الظلام البارد، ويمنحُ الاستقرارَ للجزء

السطحي فوق الماء، الذي يعكس الأمواج، ويستمع إلى الضجيج وطبطبات الماء، ويتنفس. . .

عندما تَقَدَّمَ الشبانُ من الأُسر الصديقةِ إلى الدراسات العليا، ودافعوا عن أطروحاتهم، ووقعوا في الحب، وتزوجوا، أضيف الشعور بالحزن إلى التهاني والأحاديث العائلية.

عندما كان شتروم يعلَمُ بوفاة شخص يعرفه في الحرب، كان كما لو أن جُسيماً حيّاً يموت أيضاً فيه، ويشحُبُ لونه. ولكنَّ صوتَ المتوفى يستمرُّ في ضجيج الحياة.

كان الزمن الذي ارتبطت به أفكارُ شتروم وروحُهُ فظيعاً، فقد تطاول على النساء والأطفال. وقتلَ في عائلته امرأتين وفتىً، بل طفل تقريباً.

تذكَّرَ شتروم مراراً أسطراً شعريَّةً للشاعر ماندلشتام سمعهما ذات يوم من قريبه سوكولوف ومن المؤرخ مادياروف:

ينوءُ كتفي بحملِ قرنٍ – الكلب الذئبيّ
لكنني لست ذئباً بدمي. . .

ولكن ذلكَ القرن كان زمنه، عاشَ معه، وسيرتبط به بعد الموت.

كان عمل شتروم ما يزال يسير بشكل سيّئ.

التجارب التي بدأت قبل فترة طويلة من الحرب لم تسفر عن النتائج التي تنبأت بها النظرية.

في اختلاطِ نتائجِ التجاربِ وتناثرها وفي ممانعتها التي ناقضتِ النظريَّة، تَلَخَّصتِ الفوضى المُثبِّطة والضياع.

كان شتروم في البداية مقتنعاً أن سبب فشله هو عيب في التجارب

ونقص في المعدات الجديدة. كان منزعجاً من عاملي المختبر، وبدا له أنهم لم يعملوا بجد بما فيه الكفاية، وألهتهم هُموم المعيشة.

لكن المسألة لا تكمن في أن سافوستيانوف الموهوب والمرح واللطيف كان يحاول باستمرار الحصول على قسائم الفودكا، وفي أنَّ ماركوف يلقي محاضرات خلال ساعات العمل أو يشرح للموظفين ما هي الإمدادات التي يحصل عليها هذا الأكاديمي أو ذاك، وكيف تقسّم حصص هذا الأكاديمي بين زوجتين سابقتين وزوجة ثالثة حاليّة، وفي أن آنّا نعومافنا قد أخبرتنا بالتفصيل عن علاقتها مع صاحبة الشقة.

كانت فكرة سافوستيانوف مفعمة بالحيوية والوضوح. وماركوف كان معجباً كما في السابق بشتروم بسبب اتساع معرفته وقدرته الفنية على إجراء تجارب عالية الدقّة وبمنطقه الهادئ. وآنّا نعومافنا، على الرغم من أنها عاشت في غرفة ممرّ منهارة وباردة، إلّا أنها عملت بعناد وضمير لاإنسانيين. وكان شتروم كما في السابق فخوراً بأن سوكولوف كان يعمل معه...

لم تجلبِ الوضوحَ في العمل، لا الدقةُ في مراعاةِ ظروف التجاربِ، ولا تحديداتُ التحكم، ولا تكرارُ معايرة العدّادات. لقد غزت الفوضى دراسةَ تعرِّضِ الملح العضوي للمعدن الثقيل للإشعاع فائق القسوة.

بدت حبة غبار الملح هذه لشتروم أحياناً قزماً فقدَ العقلَ كلَّه وقواعد السلوك - قزماً في قبّعة تغطي أذنه، ذا سحنة حمراء، عَرَضَ حركات خليعة وهو يتلوّى، رافعاً إصبعَ التحدِّي في قبضته أمام الوجه الصارم للنظرية. لقد شارك فيزيائيون ذوو شهرة عالمية في ابتكار

النظرية، وكانت عُدَدُها الرياضيَّة لا تشوبها شائبة، وتلاءمت الموادُّ التجريبيَّة، التي تراكمت على مدى عقود في المختبرات المشهورة في ألمانيا وإنجلترا، معها بحرية. أُعِدَّتْ تجربةٌ قبل وقت قصير من الحرب في كامبريدج، وكان من المفترض أن تؤكد سلوك الجسيمات التي تنبأت بها هذه النظرية في ظل ظروف خاصة. وكان نجاح هذه التجربة أعلى انتصار للنظرية. وبدت لشتروم شاعريَّةً وساميةً مثل التجربة التي أكدت انحراف أشعة الضوء القادمة من النجم في مجال جاذبية الشمس التي تنبأت بها نظرية النسبية. يبدو أن التعدي على النظرية أمرٌ لا يمكن تصوره، كما لو كان جندياً ينزعُ الرتبَ الذهبيَّةَ عن كتفَي المارشال.

وكان القزم لا يزال يرفعُ إصبعَ التحدّي في وجه النظرية، وبدا أنَّ من المستحيل كبحه. خطر في بال شتروم قبل فترة وجيزة من ذهاب لودميلا نيقولايفنا إلى ساراتوف، أنَّ توسيع أُطر النظرية كان ممكناً، ومن أجل ذلك، كان من الضروري وضع افتراضين تعسفيَّين وتثقيل الجهاز الرياضي بشكل كبير.

تتعلق المعادلاتُ الجديدة بفرع الرياضيات وسوكولوف قويٌّ بشكل خاص في هذا المجال؛ فطلب شتروم من سوكولوف مساعدته؛ ذلكَ أنَّهُ لم يكن يشعر بثقة كافية بقدراتهِ في هذا الجانبِ من الرياضيات، فيتمكّن سوكولوف بسرعة كبيرة من استخلاص معادلات جديدة لنظريَّة موسعة.

بدا أن المشكلة قد حُلَّت - البيانات التجريبيَّة لم تعد تنقُضُ النظرية. فرح شتروم بالنجاح وهنأ سوكولوف. فبادلهُ الرجلُ التهنئةَ، ولكنَّ القلق وعدم الارتياح لم يزولا.

أُصيب شتروم بعد مدة وجيزة بالإحباطِ من جديد.

قال لسوكولوف:

- لاحظتُ، بيوتر لافرينتييفيتش، أن مزاجي تعكّر عندما كانت لودميلا نيقولايفنا ترتق الجوارب في الأمسيات؛ فقد ذكَّرتني بحالنا أنا وأنت؛ لقد رتّقنا معاً النظرية، عمل فظ، بخيوطٍ مختلفة الألوان، إنّه عمل عبثي.

غَذّى شكوكه؛ ولحسن الحظ، لم يكن يعرف أن يخدع نفسه، وشعر غريزياً بأن العزاء الذاتيّ يؤدي إلى الهزيمة.

ما من أمرٍ جيد في توسيع النظرية. لقد تخلت عن تماسكها الداخلي، وحرمتها الافتراضات التعسفية من قوتها المستقلة، وحياتها المستقلة وأصبحت معادلاتها مرهقة، ولم يكن من السهل التعامل معها. شيء تلموديٌّ مشروط، ظهر فيها فقر الدم. ويبدو أنها خسرت عضلاتها الحية.

أمّا السلسلة الجديدة من التجارب، التي طرحها ماركوف الرائع، فقد دخلت مرة أخرى في تناقضات مع المعادلات المشتقَّة. ويتعين على المرء لتفسير هذا التناقض الجديد، أن يتخذ افتراضاً تعسفيّاً آخر، ويدعم النظرية مرة أخرى بأعواد الثقاب والنشارة، ويربط كل شيء بالحبال.

- هذا هراء - قال شتروم لنفسه. مُدرِكاً أنه يسير في الطريق الخطأ.

تلقّى رسالة من المهندس كريموف، كتب فيها أنه سيضطر لتأجيلِ العملِ على صبٍّ وتحويل الجهاز التي طلبه شتروم، لفترة من الوقت،

فالمصنع مشغول كثيراً بالطلبات العسكرية - على ما يبدو، سيتأخّرُ تصنيع الجهاز شهراً إلى شهرين عن الموعد المحدد.

لكن شتروم لم ينزعج من هذه الرسالة، فهو لم يعد ينتظرُ بنفسِ نفاد الصبر السابقِ الجهازَ الجديد، ولم يعد يعتقد أنَّ بالإمكانِ إجراء تغييرات على نتائج التجارب. تملّكَهُ الغضبُ لدقائق، وأراد الحصول بسرعة على الجهاز الجديد، وأخيراً تأكد من أن المادة التجريبية الوفيرة والموسعة تناقض النظرية من دون رجعة ومن دون أمل.

ارتبط في ذهنه الفشلُ في العمل بالأحزان الشخصية، واندمجَ كل ذلكَ في يأس رمادي.

استمر هذا الاكتئاب عدّة أسابيع، وأصبحَ شتروم سريعَ الانفعال، وبدأ اهتمامه يظهر بالتفاصيل المعيشة، وتدخَّل في شؤون المطبخ، وكان مندهشاً كيف تنفق لودميلا هذا القدر الكبير من المال.

أخذَ يشغله الجدالُ بين لودميلا وأصحاب الشقة، الذين طالبوا بدفع مبلغ إضافي مقابل استخدام غرفة مستودع الخشبية.

- حسنا، كيف هي المفاوضات مع نينا ماتفيفنا؟- سأل، وبعد الاستماع إلى حديث لودميلا، قال: - آه، يا للشيطان، إنّها امرأة حقيرة. . .

لم يعد يفكر الآن في العلاقة ما بين العلم وحياة الناس، وهل هي سعادة أم مصيبة. فلأجل هذه الأفكار كان ينبغي أن يشعر بأنّه سيّد، منتصر. لكنَّه رأى نفسه في هذه الأيام متدرباً غير ناجح.

هُيّئ له أنه لم يعد قادراً البتّة على العمل كما في السابق، فالمصيبة التي عاناها حرمته من القدرة البحثيّة.

استعرض في ذاكرته أسماء الفيزيائيين وعلماء الرياضيات والكتّاب الذين أنجزت أعمالهم الرئيسية في شبابهم، ولم يبدعوا أي شيء مهم بعد أن جاوزوا 35-40 عاماً. كان لديهم ما يفخرونَ به، وكان عليه أن يُكمل حياته وما أنجزَ أعمالاً في شبابِهِ، يمكن أن تُذكر فيما تبقّى له من الحياة. توفي غالوا الذي حدد لقرن كاملٍ كثيراً من طرقِ تطوّرِ الرياضيات وعمره واحد وعشرون عاماً، ونشر أينشتاين البالغ من العمر ستةً وعشرين عاماً كتابه «عن الديناميكا الكهربائية للأجسام المتحركة»، وتوفي هيرتز قبل بلوغه سن الأربعين. يا للفارق الكبير بين مصير هؤلاء الناس ومصير شتروم!

قال شتروم لسوكولوف إنه يودّ إيقافَ عمل المختبر مؤقتاً. لكن بيوتر لافرينتييفيتش اعتقد أن العمل يجب أن يستمر، وتوقع الكثيرَ من الجهاز الجديد. ونسي شتروم أن يخبره على الفور بأمرِ الرسالة التي تلقّاها من المصنع.

رأى فيكتور بافلوفيتش أن زوجته كانت على علم بفشله، لكنها لم تتحدث إليهِ عن عمله.

كانت غير مهتمة بأهم أمرٍ في حياته، لكنّها وجدت بالمقابل وقتاً للأعمال المنزلية، وللأحاديث مع ماريا إيفانوفنا، وللخلافات مع صاحبة الشقّة، ولخياطة ثيابٍ لناديا، وللقاءات مع زوجة بوستوييف. غضب من لودميلا نيقولايفنا، ولم يفهم حالتها.

بدا له أن الزوجة قد عادت إلى حياتها المعتادة، وفعلت كل ما هو معتاد لمجرد أنّه معتاد، ولا يتطلَّبُ قوى نفسيَّةً ومعنويَّةً، لم تكن موجودة لديها.

كانت تطبخ حساء المعكرونة وتتحدث عن أحذية ناديا، لأنها

كانت تعمل لسنوات عديدة في التدبير المنزلي وكررت ميكانيكيّاً الآن ما اعتادت عليه. لكنه لم ير أنّها وهي تستمرُّ في حياتها السابقة، فإنها لا تشارك فيها على الإطلاق. ورفيق الدرب، المنغمس في أفكاره، يسير في الطريق المعتادة، متجاوزاً الحُفرَ ويتخطّى الخنادق وفي الوقت نفسه لا يلاحظها مطلقاً.

تحتاج من أجل التحدث إلى زوجها عن عمله، إلى حالة عاطفية جديدة حاليّة، إلى قوة جديدة. ولم يكن لديها قوى. وبدا لشتروم أنّ لودميلا نيقولايفنا حافظت على اهتمامها بكل شيء، ماعدا عمله فحسب.

كان يزعجه أنّها عندما تتحدث عن ابنها، عادة ما تتذكر الحالات التي لم يكن فيها فيكتور بافلوفيتش جيداً بما فيه الكفاية مع توليا. وكأنّها تلخِّصُ العلاقةَ بين توليا وزوج والدته، ولم تكن النتيجة لمصلحة فيكتور بافلوفيتش.

قالت لودميلا لأمّها:

- كم كان المسكينُ يعاني في وقت من الأوقات بسبب حَبّ الشباب على وجهه. حتى أنه طلب إليَّ الحصولَ على مَرهم ما من عند اختصاصيّة التجميل. وكان فيكتور يمازحه ساخراً طوالَ الوقت.

هذا ما حصل بالفعل.

كان شتروم يحبّ مشاكسة توليا، فعندما كان يعود إلى المنزل، يستقبله زوج أمه، فيكتور بافلوفيتش، وينظر عادة بانتباهٍ إليه، ويهزّ رأسه ويقول مُفكّراً:

- إنّها، يا أخي، تُصبحُ نجوماً عندك.

ما أحبَّ شتروم في الآونة الأخيرة الجلوسَ في المنزل مساء. كان يذهب في بعض الأحيان إلى بوستوييف للعب الشطرنج، والاستماع إلى الموسيقى - كانت زوجة بوستوييف عازفة بيانو جيّدة. ويذهب في بعض الأحيان إلى كريموف، وهو أحد معارفه من كازان. ولكنَّهُ كان يزور سوكولوف في معظم الأحيان.

كان يحب غرفة أسرة سوكولوف الصغيرة، وكان يحب الابتسامة الحلوة لماريا إيفانوفنا المضيافة، وأحبّ بخاصّة الأحاديثَ التي كانت تدور حول المائدة.

لكنَّ الكآبةَ التي كانت قد هدأت لبعض الوقت تعودُ فتتملّكه من جديد عندما يقتربُ من المنزل عائداً من زيارته في وقت متأخر من المساء.

64

توجّه شتروم وهو عائد من المعهد إلى صديقه الجديد كاريموف، ليصطحبه معه إلى منزل سوكولوف، دون أن يعرِّجَ على البيت.

كان كاريموف رجلاً مَجدوراً غير جميل. سُمرتُه أظهرت شيبَ شعرِهِ، وبسببِ شيبه بدت سُمرتُهُ أكثر كثافة.

تحدَّثَ كاريموف الروسية بشكل صحيح، ويمكن للمرء من خلال الاستماع بعناية فحسب، أن يلاحظ وجود ظلٍّ طفيف يميز بعض الفروقات في نطق العبارة وبنائها.

لم يسمع شتروم باسم عائلته، لكن اتضح أنه لم يكن معروفاً في كازان فحسب. لقد ترجم كاريموف إلى اللغة التترية «الكوميديا الإلهية»، و«رحلة غاليفر»، وعمل مؤخراً على ترجمة «الإلياذة».

غالباً ما كانا يلتقيان في غرفة التدخين، بعد أن يخرجا من قاعة المطالعة في الجامعة، قبل أن يتعرّف أحدهما إلى الآخر. أخبرت أمينةُ المكتبة، السيدةُ العجوزُ الثرثارةُ قذرةُ اللباس، ذات الشفتين المطليتين بالأحمر، شترومَ كثيراً من التفاصيل حول كاريموف – من أنه تخرَّج في جامعة السوربون، وكان لديه منزلٌ صيفيٌّ في القرم، وقضى معظم أوقات السنة على شاطئ البحر قبل الحرب. وعلقت

زوجته وابنته في القرم، خلال الحرب؛ ولا يعرف أيّ معلومات عنهما. ألمحت المرأة العجوز لشتروم أن حياة هذا الرجل كانت صعبة، وعانى ثمانية أعوامٍ، لكن شتروم قابل هذا الخبر بنظرة حائرة. وأخبرت العجوز على ما يبدو كاريموف أشياءَ عن شتروم. لقد شعرا بالإحراج وهما يتعارفان، لأنهما ما عرفا بعضهما بعضاً من قبل، ما تبادلا الابتسامات في اللقاءات، بل على العكس، كانا عابسين. وانتهى الأمر أنهما بعد أن التقيا بطريقة ما في بهو المكتبة، ضحكا وتحدّثا في الوقت نفسه.

ما عرفَ شتروم ما إذا كان كاريموف مهتماً بمحادثته، لكنه كان من جهتهِ شغوفاً بالحديث حينما كان كاريموف يستمع إليه. عرف فيكتور بافلوفيتش من خلال التجربة الحزينة، كيف يمكن أن تلتقي غالباً محادثاً يبدو ذكيّاً وبارعاً في الحديث، وفي الوقت نفسه مملاً بشكل لا يطاق.

كان ثمّة أشخاص يصعبُ على شتروم في حضورِهم نطقُ كلمة، فيصبح صوته خشبيّاً، والحديثُ بلا معنى ولا لون له، على طريقة الصمّ والبكم.

وكان ثمَّةَ أشخاص تبدو أي كلمة صادقة في وجودهم زائفة.

وكان بينَ معارفه القدامى من يشعر شتروم في حضورهم بوحدة قاتلة.

لماذا يحدث هذا؟ لأن الرجل يمكن أن يلتقي فجأة رفيقَ درب لفترة قصيرة، أو جاراً في السرير، أو مشاركاً في جدال عارض، يفقدُ في وجوده العالمُ الداخليُّ للشخص قدرتَه على الكلام.

سارا جنباً إلى جنب، وتحدَّثا، واعتقد شتروم أنه الآن لن يتذكر عمله لساعات، وبخاصّة في أثناء الأحاديث المسائيّة مع سوكولوف. لم يحدث هذا من قبل البتّة، لأنه كان دائماً يفكر في عمله - في الترامواي، وفي أثناء تناول طعام الغداء، والاستماع إلى الموسيقى، وهو يمسح وجهَهُ بعد الاغتسال صباحاً.

لا بُدَّ أنَّ المأزق الذي دخل فيه صعبٌ للغاية، فإذا به وفي لاوعيهِ يبعدُ عن نفسه الأفكارَ التي تتعلَّقُ بالعمل...

سأل:

- كيف كان عملك اليوم، أحمد عثمانوفيتش؟

قال كاريموف:

- هذا الرأسُ لا يستوعبُ شيئاً. لقد فكرتُ طوال الوقت في زوجتي وابنتي، فبدا لي أحياناً أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنّي سأراهما، وأحياناً أحدُسُ بأنهما قُتلتا.

قال شتروم:

- أَفهمُ وضعك.

- أعرفُ ذلك؟- أجابَ كاريموف.

فكّر شتروم: غريب! إنّه مستعدٌّ للحديث إلى شخص تعرّف إليهِ قبل أسابيع قليلة، في أمورٍ لا يتحدّث بها مع زوجته وابنته.

65

اجتمع الناس كل مساء حول الطاولة في غرفة سوكولوف الصغيرة، وهم الذين ما كان لهم على الأرجح أن يجتمعوا هكذا في موسكو.

تحدث سوكولوف، الشخص ذو العبقرية المتميّزة، عن كل شيء باسترسال، وبكلمات الكتب نفسها. ما يجعلكَ لا تُصدِّق أنه جاء من عائلة بحّار على نهر الفولغا، فقد كان حديثه سلساً للغاية. وكان إنساناً طيِّباً ووقوراً، لكن تعابير وجهه كانت ماكرة وقاسية.

لم يشبه بيوتر لافرينتييفيتش بحارَ الفولغا؛ فهو لم يشرب الخمرة على الإطلاق، وكان يخاف مسربَ الريحِ، تجنّباً للعدوى، وغسَّلَ يديهِ باستمرار وقطَعَ قشرةَ الخبزِ في المكانِ الذي لمسته أصابعه.

دهشَ شتروم دائماً، وهو يقرأ أعماله: كان الرجلُ يفكِّرُ بشجاعةٍ ولطف، ويعبّر باختصار ويبرهنُ على تلك الأفكار المعقدة جداً والسهلة جداً، لكنَّهُ في أثناء شرب الشاي يسمّمُ الجلسةَ بالثرثرة المُضجرة والطويلة.

كان شتروم نفسه، مثله مثل كثيرٍ من الناس ممن نشأوا في بيئة مثقّفة وقارئة للكتب، يحب أن يستخدم في حديثِهِ كلماتٍ مثل

«هراء»، «فضيحة»، ويسمّي في حديثٍ مع رجلٍ أكاديمي قديم سيِّدةً عالمةً مشاكسة «سافلة» أو حتى «قحبة».

لم يتحمّل سوكولوف الأحاديثَ السياسيّة قبل الحرب. فكان سوكولوف يصمتُ قليلاً، أو طويلاً، بمجرد أن يقتربَ شتروم من السياسة، أو يغيّر الموضوع بشكل متعمّد واضح.

لقد ظهرَ عندهُ نوعٌ من الإذعانِ الغريبِ والضعف أمام الأحداث الوحشيَّة زمنَ تعميم الوسائل التعاونيّة عام 1937. بدا أنه ينظر إلى غضب الدولة على أنه غضب الطبيعة أو الإله. وتراءى لشتروم أن سوكولوف يؤمن باللّه، وأن هذا الإيمان يتجلى في عمله وفي إذعانه وتواضعه أمام العالم القوي كلّه، وفي علاقاته الشخصية مع الناس.

ذات مرة سأله شتروم مباشرة:

- هل تؤمن باللّه، بيوتر لافنتريفيش؟

لكن سوكولوف عبس، ولم يُجِب.

من المدهش الآن أن الناس اجتمعوا عند سوكولوف في الأمسيات، وأجروا أحاديث حول موضوعات سياسية، ولم يحتمل سوكولوف الأحاديث فحسب، بل وشارك فيها أيضاً في بعض الأحيان.

كانت ماريا إيفانوفنا - وهي صغيرة ونحيلة، ولها حركاتُ فتاة مراهقة، تنقصها البراعة - تستمع إلى زوجها بنوع من الاهتمام الخاص. وقد جمع هذا الاهتمام المؤثرُ بين الاحترام الخجول للطالبة الفتيّة والإعجاب المؤثر للمرأة العاشقة، والاهتمام والقلق الأمومي المتسامح.

طبعاً، بدأت الأحاديثُ بالأخبار الحربيّة، ثم ابتعدت عن الحرب. ومع ذلك، بغضِّ النظرِ عمَّا تحدّث الناس به، كان كل شيء مرتبطاً بحقيقة أن الألمان وصلوا إلى القوقاز والأطراف السفلى لنهر الفولغا.

وإلى جانب الأفكار الكئيبة حول الإخفاقات العسكريّة، عاش شعورٌ باليأسِ والاستهتارِ - إي، ضياعٌ، فليكن ضياع!

تحدثوا كثيراً في الأمسيات في الغرفة الصغيرة؛ وهيّئ أن الجدران قد اختفت في المساحة المغلقة والمحدودة، تحدَّثَ الناسُ ليس بالطريقة الاعتيادية.

كان يروي أحياناً المؤرِّخ مادياروف ذو الرأس الكبير والشفتين الغليظتين، ذو الجلد المصنوع من المطاط المسامي داكنِ الزُرقة، زوج أخت سوكولوف الراحلة، عن الحرب الأهليّةِ ما لم يكتب في التاريخ: حول المجري لوهافر، قائد الفوج الدولي، وعن القائد كريفوروشكو، عن بوجينكو، وعن الضابطِ الشاب تشورس، الذي أمر بجلد أعضاء اللجنة المرسلة من قبل المجلس العسكري الثوري لتدقيق مقر تشورس، في عربتهم.

تحدث عن مصير أم غافرو الرهيب والغريب، وهي فلّاحة مجرية عجوز لم تعرف كلمة باللغة الروسية. لقد جاءت إلى ابنها في الاتحاد السوفييتي، وبعد اعتقال لوهافر، كان الجميع يبتعدون عنها، كانوا يخشونها، ومضت تتجول في موسكو بجنونٍ دون أن تعرفَ لغة الناس.

تحدّث مادياروف عن ضباط الصف ذوي السراويل القرمزية المزينة بقطع جلدية، وذوي الرؤوس المحلوقة الزرقاء، الذين

أصبحوا قوّاد فرق وفيالق، وعن أنّ هؤلاء الناس أعدِموا ثمَّ أعفوا، وعندما تركوا قوات الفرسان، تهافت كلٌّ منهم على امرأة وقعت في الحبّ. . . وحدّث عن مفوضي الألوية والفرق ذوي القبعات الجلدية السوداء، الذين قرؤوا نيتشه «هكذا تكلَّمَ زرادشت» وحذّروا المقاتلين من بِدَع الباكونيين[1]. . . كما وتحدّث عن حاملي الرايات القيصريين، الذين أصبحوا مارشالات وقادة من الدرجة الأولى.

قال ذات مرة بصوت خفيض:

- حدث هذا في ذلك الوقت عندما كان ليف دافيدوفيتش[2] ما يزال ليف دافيدوفيتش، وقد ظهرَ في عينيه الحزينتين، كما يحصل ذلك عند المرضى الأذكياء ذوي السمنة، تعبيرٌ خاص.

ثم ابتسم وقال:

- قمنا في فوجنا، بتنظيم أوركسترا: مزيج من عازفي الأدوات الأنبوبية والوترية المختلفة. كان يعزف دائماً أغنية فولكلوريّة هادفة: «أنثى تمساح كبيرة تسير على طول الشارع، إنّها. . . إنّها خضراء. . .[3]». في جميع الأحوال، أثناء الهجوم ودفن الأبطال، كنّا نقلي تلكَ «التمساحة».

---

(1) واحدة من التوجهات السياسية الفكريّة في تلك المرحلة أسسها ميخائيل باكونين وقد رأت أن مكانَ الدولة المركزيّة يجب أن تحل الفيدراليّةُ والإدارةُ الذاتيّة. . . (المترجمان).

(2) يقصد الكاتب- تروتسكي. (المترجمان).

(3) ترمز هذه الأسطورة، إلى ليونتتوفيتش، نيقولاي بافلوفيتش، صاحب حديقة حيوانات خاصّة في بيته، هرب منها تمساح إلى الشارع، بعد اعتقاله من قبل البلاشفة. (المترجمان).

أتى تروتسكي إلينا بعد التراجع الرهيب، لرفع معنوياتنا - قادوا الفوج بأكمله إلى تجمُّع، كانت البلدة متربة ومملة، والكلاب تتجول، وضعوا منبراً في منتصف الساحة، أذكر: حرٌّ شديدٌ، حالُ خدرٍ منوّمة، وها هو تروتسكي بعقدة حمراء كبيرة، وعينان تلمعان يصرخ: «يا رفاق الجيش الأحمر،» - قالها بذلك الزئير، كما لو أنَّ عاصفة رعدية أحرقت الجميع. . . ثم قَلَتِ الأوركسترا «التمساحةَ». شيء غريب، لكنَّ هذا الأداءَ على الآلات البسيطة لـ«التمساحة» أثَّرَ فيَّ أكثرَ مما فعلت الأوركسترا الموحدة التي تعزف نشيد «الأممية»، ما جعلني مجنوناً، ومستعداً للذهاب حتى وارسو، وحتى برلين بيديَّ العاريتين. . .

لقد تحدّث مادياروف بهدوء وبلا استعجال، ولم يؤيِّد قادة الفرق وقادة الفيالق الذين تم إعدامهم فيما بعد كأعداء للشعب وكخونة، ولم يؤيّد تروتسكي، ولكن في إعجابه بكريفوروشكو ودوبوف، وبالطريقة التي وصفَ بها باحترامٍ وبساطةٍ أسماءَ قادة الجيش الذين أُبيدوا في عام 1937، كان ثمَّة شعور بأنه لا يعتقد أن المارشال توخاشيفسكي، وبلوشر، وإيغوروف، وقائد منطقة موسكو العسكرية مورالوف، وقائد الرتبة الثانية ليفاندوفسكي، وجامارنيك، وديبنكو، وبوبنوف، والنائبُ الأول لتروتسكي سكليانسكي وأونشليخت أعداءً للشعبِ وخونةً للوطن الأم.

بدا الهدوء الاعتيادي لصوت مادياروف لا معنى له. لأنّ قوّة الدولة، خلقت ماضياً جديداً، وحرّكت قوات الفرسان من جديد على طريقتها الخاصة، وأعادت تعيين أبطال الأحداث التي أُنجزت وسرّحت الأبطال الحقيقيين. كانت الدولة قوية بما يكفي لإعادة لعب

ما أنجزته ذات مرّة وإلى الأبد، وإعادة بناء وتجسيد غرانيت وبرونز الخطابات المدوّية، وتغيير ترتيب الشخصيات في الصور الوثائقية.

لقد كان تاريخاً جديداً حقاً. حتى الأشخاص الأحياء، الباقون على قيد الحياة من تلك الأزمان، تأثّروا بحياتهم التي عاشوها في السابق بطريقة جديدة، وحوّلوا أنفسهم من رجال شجعان إلى جبناء، ومن ثوار إلى عملاء للخارج.

ومع ذلك يبدو لك وأنت تستمع إلى مادياروف، أنّه سيأتي حتماً منطق أكثر قوّة بعد، هو منطق الحقيقة. لم تَدُر مثل هذه الأحاديث البتّة قبل الحرب.

لقد قال ذات مرّة:

– آخ، لو قاتل كل هؤلاء الناس الفاشيَّة معاً اليوم بكلّ إخلاص، باذلين دماءهم. لكنَّهم قتلوهم عبثاً...

كان المهندس الكيميائي فلاديمير رومانوفيتش أرتيليف، وهو من سكان كازان، صاحبَ الشقة التي استأجرتها أسرة سوكولوف. زوجة أرتيليف تعودُ من الخدمة مساءً. وكان ولداهُ في الجبهة. أرتيليف نفسُهُ يعمَلُ مديراً لورشة في مصنع للكيماويات. كان يرتدي ملابس غير كافية – لم يكن لديه معطف شتوي وقبعة من الفرو، ولذلك طلباً للدفء ارتدى كنزة قطنيَّة تحتَ معطفِهِ المطاطي. واعتمرَ على رأسه قبّعةً عُمّاليّةً مجعّدةً مُبقّعةً بالزيت، كان يسحبها بإحكام على أذنيه وهو ذاهب إلى العمل.

عندما دخل على أسرة سوكولوف، ينفخُ على أصابعه الحمراء المتجمّدة، ابتسم للناس الجالسين خلف الطاولة بخجل، وهُيّئ

لشتروم أنّ هذا الرجلَ لم يكن صاحبَ الشقة، ورئيسَ ورشة كبيرة في مصنع كبير، بل جار فقير يسكن في الجوار.

ها هوذا يقفُ هذا المساء أيضاً عند الباب، بخدّيه الغائرينِ غير المحلوقين، خائفاً على ما يبدو من صرير الأرضيّة واستمع إلى مادياروف.

اقتربت منه ماريا إيفانوفنا وهي تتوجَّهُ إلى المطبخ هامسةً في أذنه بأمرٍ ما. هزّ رأسه فزعاً؛ لعلَّهُ رفض الطعام.

- البارحة حدّثني أحد العقداء، - قال مادياروف - وهو يتعالج هنا، أنَّ ثمّة قضية رُفِعتْ ضده في اللجنة الحزبيّة لشؤون الجبهة، لأنّه لكَمَ مُلازماً على وجهه. لم تحصل مثل هذه الحالات خلال الحرب الأهلية.

قال شتروم:

- لقد قلت أنت نفسك إن شورس جلد لجنة المجلس العسكري الثوري.

فعقَّبَ مادياروف:

- ذاك مرؤوس جَلَدَ القيادةَ. هناك فرق.

قال أرتيليف:

- إليكم ما يحدث في حقل الصناعة، يخاطبُ مديرنا فنيي الهندسةِ جميعاً بصيغةِ المفرد «أنت»، وإذا خاطبتَهُ: «يا رفيق شوربيف»، فسوف يغضب، يجب أن تخاطبهُ: «ليونتي كوزميش». أغضبه منذ أيام كيميائيٌّ عجوزٌ في ورشة العمل، فأخذ شوربيف يشتمه ويصرخ: «بمجرد أن قلت لك فيجب أن تُنفّذ، وإلا فسأضربك

بركبتي على مؤخرتك. . . وسوف تطير من مصنعي»، والرجل العجوز دخل عامه الثاني والسبعين.

سأل سوكولوف:

- والنقابة صمتت؟

فأردفَ مادياروف:

- وأيُّ نقابةٍ موجودة هناك، النقابة تطالب بالتضحية: قبل الحرب تجري الاستعدادات للحرب، وأثناء الحرب كلُّ شيءٍ للجبهة، وبعد الحرب ستدعو النقابة إلى القضاء على آثارِ الحرب. وكيف لها أن تهتم بقضية الرجل العجوز في هذا الخِضم.

سألت ماريا إيفانوفنا سوكولوف بصوت منخفض:

- ربما حان الوقت لشربِ الشاي؟

أجاب سوكولوف:

- بالطبع، بالطبع، هيّا أحضري الشاي.

فكَّر شتروم وهو ينظر شارداً إلى كتفي ماريا إيفانوفنا وهي تنسلّ من باب المطبخ نصف المفتوح: «مدهش كيفَ تتحرك بلا ضجيج».

قال مادياروف فجأة:

- آه، أيها الرفاق الأعزاء، هل يمكنكم أن تتخيلوا ما هي حرية الصحافة؟ ها أنتم تفتحون الصحيفة في صباح هادئ بعد الحرب، وبدلاً من الافتتاحية المُهلهِلة، وبدلاً من رسالة العمال إلى ستالين العظيم، وبدلاً من خبر قيام فريق من عمال الصلب بالذهاب إلى وردية العمل احتفاءً بالانتخابات التي أجراها السوفييت الأعلى، وأن العمال في الولايات المتحدة يحتفلون بالعام الجديد في جو من

اليأس والبطالة والفقر المتزايد - تجدون في الصحيفة، أتدرونَ ماذا؟ معلومات! تخيّلوا مثل هذه الصحيفة؟ صحيفة توفر المعلومات!

وها أنتم تقرؤونَ: نقص في المحصول في منطقة كورسك، وتقرير التفتيش على النظام في سجن بوتيرسك، والجدل حول ما إذا كانت ثمَّةَ حاجة إلى القناة بين البحر الأبيض والبلطيق، وتقرؤونَ أنّ العامل غولوبوزوف اعترضَ على إصدار قرضٍ جديد.

وبشكل عام فأنتم تعرفون كل ما يحدث في البلد: فشل المحاصيل، الحماسة والسطو. إطلاق عمل المنجم وكارثة في المنجم؛ خلاف بين مولوتوف ومالينكوف؛ ولكنتم قرأتم تقريراً عن التقدم الذي أُحرِزَ في الإضراب الذي سبَّبته إهانة مدير المصنع الكيميائي للعجوز البالغ من العمر سبعين عاماً؛ تقرأ خطاب تشرشل، وبلوم، وليس ما «زُعم». تقرأ تقريراً عن النقاش في مجلس العموم؛ وتعرفون عدد الأشخاص الذين انتحروا في موسكو يوم أمس؛ وكم عدد المصابين الذين نُقِلوا حتى المساء إلى مستشفى سكليفوسوفسكي الإسعافي حتى المساء.

ستعرفون لماذا لا توجد حنطة سوداء، وليس فقط أنّهم سَلَّموا القطفَ الأول من الفراولة بالطائرة، من طشقند إلى موسكو. سوف تكتشفُ عدد الغرامات التي يتلقَّاها الفردُ في الكلخوز مقابل يوم عمل واحد من الصحف وليس من مدبرة المنزل، التي جاءت إليها ابنة أختها من القرية لشراء الخبز في موسكو. نعم، نعم، وفي الوقت نفسه تبقى رجلاً سوفييتياً بالتمام والكمال.

يمكنك الدخول إلى مكتبة وشراء كتاب وتظلُّ شخصاً سوفييتياً، وتقرأ الفلاسفة والمؤرخين، والاقتصاديين، والمراقبين السياسيين

الأميركيين، والإنجليز، والفرنسيين. وتعرف بنفسك أين يكمن خطؤهم. وتتنزَّهُ في الشارع بنفسك، ومن دون مربّية.

وفي الوقت الذي كان فيه مادياروف ينهي كلامه دخلت ماريا إيفانوفنا حاملةً صينيةَ الشاي.

ضرب سوكولوف فجأة الطاولةَ بقبضته، وقال:

- كفى! أنا أطلب منكم بكل جدية وإصرار أن توقفوا هذه الأحاديث.

نظرت ماريا إيفانوفنا إلى زوجها بفم نصف مفتوح. رنّت الفناجين في يديها؛ لقد ارتجفت يداها على ما يبدو.

انفجر شتروم ضاحكاً:

- ها هو بيوتر لافرينتييفيتش يقضي على حريّة الصحافة! لم تدم طويلاً. من الجيد أن ماريا إيفانوفنا لم تسمع هذه الفتنة.

قال سوكولوف متوتّراً:

- إن نظامنا أظهر قوّته. وفشلت الديمقراطيات البرجوازية.

قال شتروم:

- فيمَ أظهرَ قوّته؟ الديمقراطية البرجوازية القديمة التي استهلكت نفسها في فنلندا واجهت مركزيتنا عام الأربعين، وقد شعرنا بحرج كبير. أنا لست من محبي الديمقراطية البرجوازية، لكن الحقائقَ هي الحقائق. وما علاقة الكيميائي العجوز في كلِّ ذلك؟

التفتَ شتروم ليرأى عيني ماريا إيفانوفنا المهتمّة والمركّزة عليه، وهي تستمع إليه.

وقال سوكولوف:

– المسألة ليست بفنلندا، بل بالشتاء الفنلندي.

قال ماجياروف:

– آه، بيتيا دعك من هذا.

قال شتروم:

– لنقل التالي، لقد اكتشفت الدولةُ السوفييتيّةُ خلال الحرب أفضلياتها ونقاط ضعفها.

قال سوكولوف:

– ما هي نقاط الضعف هذه؟

قال مادياروف:

– إليكَ على الأقل أولئك الكثيرين الذين يمكن أن يحاربوا الآن، وقد زُجّوا في السجون. وها أنت ترى، نحن نقاتل على نهر الفولغا.

سأل سوكولوف:

– لكن ما شأنُ النظام هنا؟

قال شتروم:

– وكيف ما شأن النظام؟ برأيك بيوتر لافرينتييفيتش، أنّ ضابط الصف الأرملة هي التي أطلقت الرصاص على نفسها عام سبعة وثلاثين؟

ونظرَ من جديد إلى عيني ماريا إيفانوفنا اليقظتين. فكّرَ أنه يتصرف بغرابة في هذا النقاش: فمن قبلُ بمجرد أن يبدأ مادياروف انتقادَ الدولةِ، كان شتروم يُجادلُهُ في ذلك؛ ولكن عندما ينتقدُ سوكولوفُ الآن ماديا‌روفَ، يبدأ شتروم بانتقاد سوكولوف.

كان سوكولوف يحب أحياناً أن يضحك على مقالة غبيّة أو خطاب أميّ، لكنّه يصمتُ حين يدور الحديث عن الخط الرئيسي. ومادياروف، على العكس من ذلك، لم يخفِ وجهات نظره.

قال سوكولوف:

- إنك تبحث عن تفسيرات لتراجعنا في عيوب النظام السوفييتي، لكن الضربةَ التي وجّهها الألمانُ لبلدنا كانت قوية جدّاً، وأثبتت الدولة قوتَها بوضوح تامٍ حين احتملت هذه الضربة، وليس ضعفها. أنت ترى ظلَّ العملاقِ على الأرض، وتقول: انظر، يا له من ظل. لكنك تنسى العملاق نفسه. إنّ مركزيتنا هي المحرك الاجتماعي لقوة الطاقة العملاقة، القادرة على أداء المعجزات. وقد أنجزتها بالفعل. وسوف تنجزها في المستقبل.

قال كريموف:

- إذا لم تكن الدولة بحاجة إليك، فستجففك، وتسحب كل أفكارك وخططك ومؤلفّاتك، لكن إذا توافقت أفكارك مع مصلحة الدولة، فستحلِّقُ على بساط الريح!

- فعلاً، فعلاً، - عقَّبَ أرتيليف - أرسِلتُ في مهمة إلى إحدى مؤسّسات الدفاع ذات الأهمية الخاصة لمدة شهر. تابَعَ ستالين بنفسه إطلاقَ العمل في الورشات، واتصل بالمدير هاتفياً. المعدات! الموادُ الخامُ والآلات وقطع الغيار أُمِّنت بطريقة سحريّة! والظروف! حمّام، لقد أحضروا الحليب المركّز في الصباح إلى المنزل. لم أعش في حياتي في ظروف كهذه. إمدادات العمّال استثنائية! والأهم: لا توجد أيّ بيروقراطية. أُنجِزَ كل ذلك من دون مراسلات.

قال كريموف:

- أي أنّ بيروقراطية الدولة مثل العملاق في الحكاية الخرافية، تخدم الناس هناك.

وقال سوكولوف:

- ما داموا قد حققوا مثل هذا الكمال في المنشآت الدفاعية ذات الأهمية الوطنية، فهذا يعني بشكلٍ واضحٍ ومبدئيٍّ: يمكن تنفيذ مثل هذا النظام في الصناعة بأكملها.

- السيطرة المركزيّة! - عَقَّبَ مادياروف - هذان مبدآن مختلفان تماماً، وليس مبدأ واحداً. ستالين يبني ما تحتاج إليه الدولة، وليس الإنسان. الصناعة الثقيلة تحتاج إليها الدولة، وليس الشعب. قناة البحر الأبيض-البلطيق لا فائدة منها للناس. أحد القطبين - احتياجات الدولة ؛ والقطب الآخر - احتياجات الفرد. لا يمكن أن توفّق بينهما أبداً.

قال أرتيليف:

- إنها لكذلك، فإذا ما ابتعدت خطوة عن هذه السيطرة - عرفتَ السبب، إذا كانت ثمّةَ حاجة إلى منتجاتي من قِبل الجيران في كازان، فعليَّ أن آخذها إلى شيتا وفقاً للخطة، فيستلمونها في شيتا ويعيدونها إلى كازان. أحتاج إلى عُمّالٍ تجميعٍ وتركيب، لكنَّ ما تبقّى لي هو قرض أو موازنة لمربّي أطفالٍ في دار حضانة، فأوظِّفُ عمّال التجميع والتركيب بصفةِ مُربّي أطفال. لقد خنقتنا المركزية! يقترحُ المخترع على المدير إنتاجَ ألفٍ وخمسمئةِ قطعةٍ بدلاً من مئتي قطعة، يبعده المدير عنه: فهو ينفذ الخطة المرسومة «بتعبير دقيق»، وهذا أكثر

أماناً. وإذا ما توقف العمل، وكان يمكن منعُ ذلك بشراء المادة المفقودة من السوق بثلاثين روبلاً، فسيكون من الأفضل تحمّل خسارة مليوني روبل، على أن يخاطرَ المديرُ بشراء المادة من السوق بثلاثين روبلاً.

نظر أرتيليف إلى المستمعين وتابعَ من جديد بسرعة، كما لو أنّه كانَ خائفاً ألا يُسمح له بإكمال حديثه:

- يتلقى العامل القليلَ، ولكن حسب عمله. بائع الماءِ والعصير المُحلّى خمسة أضعاف ما يتقاضاهُ المهندس. أما القادة والمديرون ومفوضو الشعب فيعرفون أمراً واحداً - هيّا نفّذ الخطة! أن تمشي متورّماً، جائعاً، المهم هيّا نفّذ الخطة! كان عندنا مديرٌ يدعى شماتكوف، صرخ في الاجتماعات: المصنع أغلى من أمّك، عليك أن تمزِّقَ جلدَكَ ثلاث مرّات بنفسك من أجل تنفيذ الخطة. وأنا بنفسي وباللاوعي سأقوم بنزع جلدي ثلاث مرّات. وفجأة اكتشفنا أن شماتكوف ينتقل إلى مدينة فوسكريسينسك. سألته: «كيف تترك المصنع مكسوراً أفاناسي لوكيش؟» فأجابني بكل بساطة، ومن دون ديماغوجيّة: «أنت تعلم، يدرسُ أبناؤنا في المعهد في موسكو، وفوسكريسينسك أقرب إلى موسكو. علاوة على ذلك، يقدمون هناك شقة جيدة مع حديقة، والزوجة متوعّكة، تحتاجُ إلى هواء نقيّ». ولهذا أتساءل لماذا تثق الحكومة بمثل هؤلاء الناس، والعمال والعلماء غير الحزبيين المشهورين، ينقصهم تسعة كوبيكات ليكملوا الروبل.

- إنه أمر بسيط للغاية،- قال مادياروف - فهؤلاء الناس مكلفون بأمرٍ أكثر أهميّةً من المصانع والمؤسسات، لقد عُهد إليهم بِقلب

النظامِ وروحه، بأقدس المقدسات: القوّة التي تمنح البيروقراطية السوفييتية الحياة.

تابع أرتيليف، دون أن يعير اهتماماً للمزحة:

- أنا أقول: أحبُّ ورشتي، وأتفانى في العمل. لكن ذلكَ لا يدفعني لأنزع ثلاثَ مرّات جلدَ الأشخاص الأحياء. أستطيع بشكل ما أن أنزع جلدي، لكنني أشعر بالأسف تجاه العامل.

شعر شتروم، وهو يتابع ما لم يفهمه هو نفسه، بالحاجة إلى الاعتراض على ما قاله مادياروف، على الرغم من أن كل ما قاله بدا لهُ عادلاً.

قال:

- ما تقوله غير منطقي، أيعقل ألّا تتوافق وتندمج مصالح الإنسان اليوم بالكامل مع مصالح الدولة التي خلقت الصناعة الدفاعيّة؟ يبدو لي أن المدافع والدبابات والطائرات التي يتسلح بها أولادُنا وإخواننا ضرورية لكل واحد منا.

قال سوكولوف:

- هذا صحيح تماماً.

66

مضت ماريا إيفانوفنا تصب الشاي. كانوا يتجادلونَ حول الأدب.

قال مادياروف:

- نَسوا دوستويفسكي عندنا، المكتبات تحجم عن إعارتِهِ إلى البيت، والناشرون لا يعيدون إصداره.

قال شتروم:

- لأنّه رجعي.

وافَقَ سوكولوف:

- هذا صحيح، كان عليه ألّا يكتب «الشياطين».

لكن شتروم سأله هنا:

- هل أنت واثقٌ، بيوتر لافرينتييفيتش، أن لا ضرورةَ لكتابة «الشياطين»؟ على الأغلب، كان عليه أن لا يكتب «يوميات الكاتب»[1].

قال مادياروف:

---

(1) مجلّة ثقافيّة أدبيّة اجتماعيّة أصدرها فيودور دوستويفسكي كاملةً بنفسهِ في بطرسبورغ لبضع سنين، أما «الشياطين» فهي واحدة من رواياته المهمّة. (المترجمان).

- إنهم لا يمشّطون العباقرة. دوستويفسكي لا يدخل في أيديولوجيتنا. أمّا ماياكوفسكي؛ فلم يسمّه ستالين عبثاً الأفضل والأكثر عبقرية؛ هو الدولة ذاتها في مشاعره. ودوستويفسكي هو الإنسانية نفسها حتى في دولته.

- إذا حاكمنا الأمور هكذا،- قال سوكولوف - فإنّ أدب القرن التاسع عشر كلُّه بشكل عام لا يدخل. . .

قال مادياروف:

- لا تقل ذلك. ها هو تولستوي قد جعل فكرة الحرب الشعبيّة شاعريَّةً، وتقود الدولةُ الآن حربَ الشعبِ العادلة. وكما قال أحمد عثمانوفيتش - تطابقت الأفكار، وظهر بساط الريح: يقرؤونَ تولستوي في الراديو، وتقرَؤهُ القارئات في الأمسيات، ويعيدون نشره، والقادة يقتبسون منه.

قال سوكولوف:

- إن تشيخوف هو الأسهل على الإطلاق، يعترف به العصر الماضي وعصرنا.

- يا لهذا القول! - صاح مادياروف وضرب بكفّيه على الطاولة - اعترفوا بتشيخوف بسبب سوء فهمهم له. كما كانت الحالُ إلى حدٍّ ما مع زوتشينكو من بعده.

قال سوكولوف:

- أنا لا أفهم ؛ تشيخوف واقعي، ونتناوله عندنا كأحد أنصار أدبِ الانحدار[1].

---

(1) يستخدمُ الروائي هنا مصطلحاً مأخوذاً عن الفرنسيّة: «ديكادانس» ويعني

سأل مادياروف:

- لا تفهم؟ سأوّضح لك.

قالت ماريا إيفانوفنا:

- لا تسيئوا إلى تشيخوف، فأنا أحبه أكثر من الكتّاب جميعهم.

- وصحيح ما فعلت يا ماشينكا، - قال مادياروف - وأنت، بيوتر لافرنتييفيتش، هل تبحث عن الإنسانيّة عند أدباءِ الانحدار؟

لوّح سوكولوف بيده غاضباً وأشاح عنه.

لكن مادياروف لوّح بيده أيضاً، وكان من المهم عنده التعبير عن أفكاره، ولهذا من الضروري أن يبحث سوكولوف عن الإنسانية عند أدباء الانحدار.

- الفردية ليست الإنسانية! أنت تخلط. الجميع يخلطون. هل تعتقد أن أدباء الانحدار يتعرضون للضرب؟ هراء. إنهم ليسوا معادين للدولة، ببساطة هم غير ضروريين، لايعنون أحداً. أنا على قناعة أنْ لا هاويةَ بين الواقعية الاشتراكية وأدب الانحدار. لقد جادلوا من قبل عمّا تعنيه الواقعية الاشتراكية. هذه مرآة سحريّة تجيب عن سؤال الحزب والحكومة: «من الأحلى والأكثر جمالاً وبياضاً في العالم؟» تجيب المرآة: «أنتَ، أنتَ، أيّها الحزب، أنتِ أيتها الحكومة،

التأخر أو الانحطاط أو التفسّخ، وهومصطلح بدأ يُطرح منذ عام 1880في وصفِ الكتّاب والفنانين الذين مهّدوا الطريق للرمزيّة، وأصبحَ يعني اتجاهاً أو مدرسةً أدبيّة من أعضائها بودلير وفيرلين ومالارميه. فضلنا في سياق الحديث هنا استخدام مصطلح «أدب الانحدار»، منعاً لخلط الأمور مع أدبِ الانحطاط في تاريخ الأدب العربي، وشتان بين الأدبين. (المترجمان).

الدولة - الأكثر جمالاً وتَورُّداً[1]!».

أمّا إجابة أدباء الانحدار عن هذا السؤال: «أنا، أنا، أنا، الانحداري (الديكادان)، أجمل من الجميع وأكثر تَورُّداً». ليس هناك فرقٌ كبير. الواقعية الاشتراكية هي تأكيد استثنائية الدولة، وأدب الانحدار (الديكادانس) هي تأكيد الاستثنائية الفرديّة. الأساليب مختلفة، ولكن الجوهر هو نفسه - الحماس أمام استثنائيتهما الخاصّة. إن الدولة العبقرية الخالية من العيوب لا يهمّها أحد، من يتّفق معها أو من لا يتّفق. والشخصّية الدانتيلية الانحداريّة (الديكادانسيّة) غير مبالية إلى حد كبير بالشخصيات الأخرى جميعها، باستثناء شخصيتين - واحدة تقود معها محادثةً راقيةً، وثانية تتلاءم معها وتنجذب إليها. ويبدو ظاهرياً أنَّ الفرديَّة والانحداريّة تقاتلان من أجل الإنسان. لكنّهما لا تُقاتلانِ جوهريّاً على الإطلاق، فالانحداريون غير مبالين بالإنسان، والدولة غير مبالية. وهنا لا توجد هاوية بين الجانبين.

استمع سوكولوف لكلام مادياروف، مُحدِّقاً به وشعرَ بأنه سيتحدث الآن عن أشياء محظورة تماماً، فقاطعه قائلاً:

- اسمح لي، لكن ما علاقة تشيخوف بكل هذا؟

- إنّ الحديث يدور عنه. بينه وبين الحداثة تكمن الهاوية العظيمة. إنّ تشيخوف رفع على كتفَيه الديمقراطية الروسية الفاشلة.

---

(1) هذه المقاطع تحاكي مقاطع من حكاية بوشكين «الأميرة الميتة والفرسان السبعة»، وتذكِّر أيضاً بقصة «بياض الثلج» التي ألّفها الأخوان غريم. (المترجمان).

إنّ طريق تشيخوف - هو طريق الحرّية الروسية. ونحن سرنا في طريق آخر. فلتحاول الإحاطةَ بأبطالهِ جميعاً. ربّما أدخلَ بلزاك وحده في الوعي الاجتماعي مثل هذه الأعداد الضخمة من الناس. ومع ذلك، ليس كما ينبغي! فكِّر في: الأطباء والمهندسين والمحامين والمدرسين والأساتذة وملّاكي الأراضي وأصحاب المتاجر والمصنّعين والمربيات والخدم والطلاب والمسؤولين من جميع الطبقات، تاجر المواشي، مرافقي عربات القطارات، النساء المتخصّصات بانتقاء العرائس، الكتّاب، الأساقفة، الفلاحين، العمال، صانعي الأحذية، العارضين أجسادهنّ للرسم والنحت، البستانيين، علماء الحيوان، الممثلين، أصحاب الحانات، الصيادين، البغايا، صيادي الأسماك، الضباط، ضباط الصف، الفنانين، الطهاة، الكتّاب، عمال النظافة، الراهبات، الجنود، القابلات، المنفيين في سخالين...

صاح سوكولوف:

- كفى، كفى.

أعاد مادياروف السؤال مع تهديد هزلي: - كفى؟ لا، ليس كافياً! لقد أدخل تشيخوف في وعينا ضخامة روسيا كلّها، بكل طبقاتها، وفئاتها، وأعمارِ ناسها... وليس هذا وحسب! لقد أدخل هؤلاء الملايين كديمقراطي، هل تفهم، كديمقراطي روسي! قال ما لم يقلهُ أحدٌ من قبله، حتى تولستوي: نحن في المقام الأول بشر، هل تفهم، بشر، بشر، بشر! تحدَّثَ في روسيا، كما لم يتحدّث أحد من قبله. لقد قال: الشيء الأكثر أهمية هو أن الناس هم ناس، ثم أصبحوا فيما بعد أساقفة وروساً وأصحاب متاجر وتتاراً وعمالاً. وكما تعرف،

الناسُ جيدون وسيئون ليس لأنهم أساقفة أو عمال، تتار أو أوكرانيون - الناس متساوون لأنهم ناس. قبل نصف قرن من الزمان، ظن الناس الذين أعماهم ضيق أفق الحزب أن تشيخوف لم يكن يُعبِّر عن زمنه. وتشيخوف هو حامل أعظم راية، رُفعت في روسيا على مدى ألف سنة من تاريخها - راية الديمقراطيّة الحقيقيّة، الروسيّة، الطيّبة، أتفهم، راية كرامة الإنسان الروسي والحريّة الروسيّة. إنّ إنسانيتنا كانت دائماً عنيفة وطائفيّة. ومن حبقوق[1] إلى لينين، إنسانيتنا وحريتنا حزبيّة، ومتعصِّبة، تضحي بلا رحمة بالإنسان من أجل الإنسانيّة المجردة. إن تولستوي حتى مع الوعظ بعدم مقاومة الشر، غير متسامح، والأهم من ذلك، أنه لا ينطلق من الإنسان، بل من اللّه. من المهم بالنسبة له أن تنتصر الفكرة التي تؤكد الخير، لأنّ حاملي اللّه يسعون دائماً إلى غرس اللّه بالقوة في الإنسان، وفي روسيا لأجل هذا الهدف لن يوقفهم شيء، لن ينثنوا، وسوف يَقتِلون - لن يقفوا متفرّجين.

قال تشيخوف: دعوا اللّه يتنحى جانباً، دعوا الأفكار التي تسمّى تقدميَّة عظيمَةً تتنحى جانباً، لنبدأ من الإنسان، ولنكن لطفاء، نهتم بالإنسان أياً كان - كاهناً، فلّاحاً، صاحبَ مصنعٍ - مليونيراً، أحدَ المنفيين في ساخالين، خادماً في المطعم؛ ابدأوا بحقيقة مفادُها أننا سوف نحترم الإنسان، ونعطف عليه، ونحبّهُ، فمن دون ذلكَ، لن تسير الأمورُ قُدُماً عندنا. هذا هو ما يُسمَّى ديمقراطيّة، ديمقراطية الشعب الروسي غير المُحققة حتى الآن.

---

(1) حبقوق بتروف (1620-1682): كاهن في الكنيسة الروسية، ومؤلّف عدد من الكتب الجدلية. (المترجمان).

رأى الإنسان الروسي منذ ألف عام، ما يكفي من العظمة والعظمة الفائقة، لكنّه لم ير شيئاً واحداً - الديمقراطية. هنا، بالمناسبة، يكمنُ الفرق بين الانحداريين (الديكادانسيين) وتشيخوف. يمكن للدولة أن تضرب الانحداري على قفاه في حالة الهياج، وتحشر ركبتها في مؤخّرته. لكن الدولة لا تفهم جوهر تشيخوف، ولهذا فهي تحتملُه. الديمقراطية في اقتصادنا لا قيمة لها - الديمقراطيّة الحقيقية هي الديمقراطية الإنسانيّة.

كان من الواضح أن حدّة كلمات مادياروف لم تعجب سوكولوف البتّة.

وبعد أن لاحظ شتروم ذلك، قال بغرابة غير مفهومة له نفسه:

- لقد تحدثت بشكل رائع، وصحيح، وذكي. أنا أطلب منك فقط تسامحاً مع سكريابين، يبدو أنّه منضمّ إلى الانحداريين، وأنا أحبّه.

وأومأ بيده مُعتَذِراً نحو زوجة سوكولوف، التي وضعت أمامه صحناً من المربّى وقال:

- لا، لا شكراً، لا أريد.

قالت:

- إنّه مربّى الكشمش الأسود.

نظر إلى عينيها البنيّتين الصفراوين وسأل:

- وهل أخبرتكِ من قبل عن نقطة ضعفي؟

أومأت بصمت وابتسمت. كانت أسنانُها غير متساوية، وشفتاها رقيقتين وباهتتين. وبسببِ ابتسامتها الشاحبة، أصبح وجهها الرماديُّ لطيفاً وجذّاباً.

فكّر شتروم. «إنّها لطيفة، وجميلة، لو أنَّ أنفها لم يحمرّ طوال الوقت».

قال كاريموف لمادياروف:

- ليونيد سيرغييفيتش، كيف يمكن ربط الخطاب العاطفي حول إنسانية تشيخوف بالنشيد الوطني لدوستويفسكي؟ عندَ دوستويفسكي، ليس الناسُ في روسيا كلّهم متساوين. لقد وصف هتلر تولستوي بأنه لقيط، في حين كانت صورة دوستويفسكي، كما يقولون، معلقة في مكتبهِ. أنا من أقلّية قوميّة، أنا تتريّ، ولدت في روسيا، ولا أسامح الكاتب الروسي في كراهيته للبولونيين ولليهود. لا أستطيع، ولو كان عبقريّاً عظيماً. لقد هدرنا دماء كثيرة في روسيا القيصريّة، وبُصِقَ في عيوننا، وموِرستْ أعمالُ شغبٍ ضدنا. ليس للكاتب العظيم في روسيا الحقُّ بتسميم المواطنين من الأقليّات القوميّة، واحتقار البولونيين والتتار، والأرمن، والشوفاش وغيرهم.

قال التتريّ ذو الشعر الشائب والعينين العاتمتين لمادياروف بابتسامة غاضبة، ومنغولية متعجرفة وساخرة:

- ربما قرأت عمل تولستوي «الحاج مراد»؟ ربما قرأت «القوزاقيون»؟ ولعلّكَ قرأت قصة «سجين القوقاز»؟ هذهِ الأعمال كلّها كتبها الكونت الروسي، وهو أكثر روسيّة من الليتواني دوستويفسكي. وما دام التتار على قيد الحياة، فسيصلّون إلى اللّه من أجل تولستوي.

نظر شتروم إلى كاريموف.

وفكّر: «يا لك من شخص، يا لك من شخص».

قال سوكولوف:

- أحمد عثمانوفيتش، أحترم بشدة حبك لشعبك. لكن اسمح لي أن أفتخر أيضاً بأنني روسي، اسمح لي أن أحب تولستوي، ليس فحسب لأنه كتب جيداً عن التتار. فنحن الروس ولا أدري لماذا لا يمكننا أن نفخر بشعبنا؛ عندها سَنُحسَبُ فوراً على المئات السود[1].

وقف كاريموف، وكان وجهه مغطى بعرق لؤلؤيّ، وقال:

- أقولُ لكم الحقيقة، بالتأكيد، ولماذا عليَّ أن أكذبَ ما دامت الحقيقة موجودة. إذا كنتم تتذكرون كيف أحرقوا في العشرينيّات من القرن الماضي أولئكَ الذين افتخروا بالشعب التتريّ، وشخصيّاتنا الثقافية الكبيرة كلها، عندها يمكن فهم سبب حظر «يوميّات الكاتب».

قال أرتيليف:

- لم يضربوا ناسكم فقط، بل ضربوا ناسنا أيضاً.

قال كاريموف:

- لم يقضوا على الناس عندنا فحسب، بل دمّروا الثقافة الوطنية. إن المثقفين التتريين الحاليين ليسوا أكثرَ من متوحشين مقارنةً بأولئكَ الناس.

قال مادياروف بسخرية:

- نعم، نعم، يمكن لهؤلاء أن يبنوا ليس الثقافة فحسب، بل السياسةَ التترية الخارجيَّة والداخليَّة. وهذا لا ينفع.

---

(1) وضّحنا المصطلح سابقاً. هو اسم جامع لممثلي أكثر المؤسّسات يمينية والمتعصّبين قومياً في روسيا أعوام 1905-1917، . (المترجمان).

- لديكم الآن دولتكم الخاصة - قال سوكولوف - هناك معاهد ومدارس وأوبرا وكتب وجرائد باللغة التترية، لقد أعطتكم الثورة كل شيء.

- هذا صحيح، هناك أوبرا حكوميَّة وحكومة الأوبرا. ولكن محاصيلنا تحصدها موسكو، وموسكو تسجننا.

قال مادياروف:

- حسناً، أتعرف، إذا سجنك التتريّ، وليس الروسي، فلن يكونَ الأمرُ أسهل عليكم.

سألت ماريا إيفانوفنا:

- وإذا لم يسجنوا على الإطلاق؟

قالت مادياروف:

- حسناً، ماشينكا، ماذا تريدين أن تقولي. ونظر إلى ساعته وتابع:

- أوهو، الوقت.

قالت ماريا إيفانوفنا على عجل:

- ليونشكا، ابقَ للنوم هنا. سوف أرتب لك سريراً قابلاً للطي.

لقد شكى ذات مرة لماريا إيفانوفنا شعورَهُ بالوحدة عند عودته إلى المنزل في المساء، حيث لا أحدَ ينتظره، ويدخل غرفة مظلمة فارغة.

قال مادياروف:

- حسناً، أنا لا أمانع. بيوتر لافرينتييفيتش، هل تمانع؟

قال سوكولوف:

- لا، بالطبع لا. فعقّبَ مادياروف:

- لقد وافقَ المضيفُ من دون أيّ حماس.

وقف الجميع من خلف الطاولة، وأخذوا يودّعون بعضهم بعضاً.

خرج سوكولوف لمرافقة الضيوف، فقالت ماريا إيفانوفنا لمادياروف خافضةً صوتها:

- من الجيد أن بيوتر لافرينتييفيتش لا تزعجه هذه الأحاديث. كان في موسكو يصمتُ وينطوي، بمجرد أن يُلمِّحَ أحدهم إلى هذهِ المواضيع.

لفظت اسم زوجها واسم أبيه بنبرة حبّ واحترام خاص: «بيوتر لافرينتييفيتش». كانت تعيد كتابةَ أعماله في الليالي بيدها، واحتفظت بالمسودات، وألصقت على ورقٍ مُقوّى ملاحظاتِه العشوائيّة. كانت تعدُّهُ رجلاً عظيماً، وفي الوقت نفسه بدا لها طفلاً عاجزاً.

قال مادياروف:

- يعجبني شتروم هذا، أنا لا أفهم لماذا يعتبرونه شخصاً غير مريح.

وأضاف مازحاً:

- لاحظتُ أنه يلقي كل مداخلاته بحضورك ماشينكا، وعندما تكونين مشغولة في المطبخ، كان يبخلُ ببلاغته.

وقفت في مواجهة الباب، صامتة، كما لو أنها لم تسمع مادياروف، ثم قالت:

- وكيف تقول ذلك يا ليونيا، إنّه يعاملني مثل حشرة. بيتيا يعتبرُه غيرَ طيبٍ، مثيراً للسخرية، متعجرفاً، ولهذا يكرهه الفيزيائيون، وبعضهم يخافُه. لكنني لا أوافق، يبدو لي طيباً للغاية.

قال مادياروف:

- إنّه بعيد جداً عن الطيبة. لقد لسع الجميع، ولا يتفق مع أي شخص. لكن عقله حرٌّ، وغير مُمغنط.

- لا، إنه طيّب، وغير محميّ.

قال مادياروف:

- لكن يجب الاعتراف، لن يقول بيتينكا الآن كلمة زائدة.

دخل سوكولوف الغرفة في هذه الأثناء، وقد سمع كلمات مادياروف.

فقال:

- هذا ما سأطلبه منك، ليونيد سيرغييفيتش، أولاً لا تعلمني، وثانياً أطلب إليكَ ألّا تفتحَ مثل هذه الأحاديث في وجودي.

قال مادياروف:

- أتعرف يا بيوتر لافرينتييفيتش، وأنت أيضاً لا تعلمني. أنا شخصياً مسؤول عن أحاديثي، كما أنك مسؤول عن أحاديثك.

أرادَ سوكولوف على ما بدا الإجابة بقسوة، لكنه ضبط نفسه وغادر الغرفة من جديد.

قال مادياروف:

- حسناً، سأذهب على الأرجح إلى البيت.

قالت ماريا إيفانوفنا:

- لقد أغضبتني حقاً. إنّك تعرف طيبته. سيتعذَّبُ طوال الليل.

أخذت توضّح أن بيوتر لافرينتييفيتش ذو روحٍ جريحة، وأنه عانى كثيراً، فقد استُدعي للاستجواب القاسي سنة سبعٍ وثلاثين، وبعدها أمضى أربعة أشهر في مستشفى الأمراض العصبية.

استمعَ مادياروف هازاً رأسه، ثمَّ قال:

- حسناً، حسناً، ماشينكا، لقد أقنعتني، وفجأة، أضاف غاضباً:

- كل هذا صحيح، بالطبع، ولكن ليس زوجك وحده من استُدعيَ. أتذكرين عندما اعتُقلتُ في لوبيانكا[1] أحدَ عشرَ شهراً؟ خلال تلكَ الفترة اتصل بيوتر بكلوفيا مرةً واحدةً بالهاتف. وهي أُختُهُ الشقيقة هاه؟ وإذا كنتِ تذكرين، فقد منعك من الاتصال بها أيضاً. لقد كان الأمر مؤلماً جدا لكلوفيا... ربما كان فيزيائياً رائعاً، لكن لديه روحاً تعاني من العبوديّة.

غطت ماريا إيفانوفنا وجهها بيديها وجلست بصمت.

وقالت بهدوء:

- لا أحد، لا أحد سيفهم كم هذا مؤلم لي.

لقد عرفت وحدها كيف كانت سنة سبعٍ وثلاثين، وكيفَ كانت وحشية التأميم والتجميع المستمر تثيرُ اشمئزازه، وكيف كان طاهراً روحيّاً. لكنها وحدها تعرف كم هو مقيّد، وطاعته عبودّية للسلطة.

لذلك، كان مزاجيّاً جداً في المنزل، وراهباً، واعتاد أن تنظّف ماشا حذاءَه، وأن تضعَ منديلاً على وجهه عندما ترتفع حرارته، وخلال السيران الصيفي في العزبات الريفية، كانت تطرد البعوض عن وجهه بغصن شجرة صغير.

(1) لوبيانكا: مبنى قيادة الكي. جي. بي. - الاستخبارات السوفييتية. (المترجمان).

67

حينما كان شتروم طالباً في السنةِ الأخيرةِ قالَ فجأة ذات مرة لرفيق في حلقة بحث:

- لا يمكن القراءةَ مطلقاً - عَسلٌ أسودُ وضجر لا يطاق - وألقى بجريدة «البرافدا» على الأرض.

وما إن قال تلك العبارة، حتى سيطر عليه الرُعب. التقط الجريدة، ونفضها، ابتسم ابتسامة مُراوغةً مذهلة، ولسنوات طويلة بعدَ تلك الحادثة، كانت ترتَفِعُ حرارتُه عندما يتذكر تلكَ الابتسامة الكلبيّة.

بعد بضعة أيام قدّم جريدة «البرافدا» إلى الرفيق نفسه وقال بحماس:

- غريشكا، اقرأ الافتتاحية، إنّها رائعة.

قال له الرفيق، وهو يأخذ الصحيفة بأسف:

- جباناً كان فيتيا المسكين. أتعتقد أنني سأبلِّغ عنه؟

وعد شتروم نفسه بعد ذلك، بينما كان ما يزال طالباً إمّا أن يصمتَ ولا يعبّر عن الأفكار الخطيرة، أو أن يفعلَ ذلكَ بجرأة. لكنه لم يحتفظ بكلمته. غالباً ما كان يفقد الحذر فيتأججُ حماسةً،

و«يُثرثر»، ثمَّ يفقدُ شجاعته بعد أن يثرثر، ويبدأ بإطفاء الحريق الذي أشعله.

قال لكريموف عام 1938، بعد محاكمة بوخارين:

- كما تريد، لكنني أعرف بوخارين شخصيّاً، لقد تحدثت إليهِ مرتين؛ رأس كبير، ابتسامة لطيفة وذكية، بشكل عام، إنّه الإنسانُ الأكثر نقاءً وجاذبيّة.

وتمتم شتروم مباشرة بعد أن أربكتهُ نظرة كريموف العابسة:

- ومع ذلك، فإن الشيطان يعرفه، التجسس، عميل للشرطة السرية، أين الطهارة والسحر، سلوك شنيع!

وكان عليه أن يخلط من جديد. قال له كريموف بالنظرة العابسة نفسها التي استمعَ إليه وهو يُحدِّجُهُ بها:

- أنتَ تستغلُّ حقيقةَ أننا أقارب، وأعلِنُ لك: بوخارين والشرطة السرية لا يدخلان في رأسي ورأسي لن يتّسع لهما.

وصاح شتروم، بغضب شديد مفاجئ ضد نفسه، وضد القوى التي تعيق الناس أن يكونوا أناساً:

- نعم يا إلهي، أنا لا أؤمن بهذا الرعب! وهذه المحاكمات التي هي كابوس حياتي. لماذا يعترفون، لماذا يعترفون؟

لكن كريموف لم يتابع الحديث، لقد قال الكثيرَ على ما يبدو. . .

أوه، ما أروعَ القوة الواضحة للحديث الصريح، قوّة الحقيقة! ويا له من ثمن باهظ فظيع دفعه الناس بسبب بعض الكلمات الجريئة الملفوظة، من دون الالتفات حولهم.

كم مرة في الليل استلقى شتروم على السرير واستمع إلى ضجيج

السيارات في الشارع. وها هي لودميلا نيقولايفنا تمشي حافية القدمين إلى النافذة، وتسحب الستارة. تنظر، وتنتظر، ثم بصمت - وقد بدا لها أن فيكتور بافلوفيتش نائم - تذهب إلى السرير، وتستلقي. في الصباح تسأل:

- كيف نمت؟

- شكراً، لا باس. ماذا عنك؟

- كان الجو خانقاً قليلاً. ذهبت ووقفت بجانب النافذة الصغيرة.

- آ-آ.

كيف يمكن نقلُ هذا الإحساس الليلي بالبراءة والشعور بالمصير المُحتّم.

«تذكّر، فيكتور، كل كلمة تصل إلى هناك، تجعلكَ تدمّر نفسَك وتدمّرني وتدمّر الأطفال».

وهذا حديث آخر:

«لا أستطيع أن أقول لك كل شيء، ولكن من أجل اللّه، أتسمع، لا تقل كلمةً واحدة بحضور أحد. فيكتور، نحن نعيش في زمنٍ رهيب، أنت لا تتخيّل أي شيء. تذكر، فيكتور، لا كلمة، مع أيٍّ شخص...».

وتبرزُ أمام فيكتور بافلوفيتش عينان عاتمتان ومبهمتان، لرجل يعرفه منذ طفولته، ويظهر الخوف ليس من كلماته، ولكن من حقيقة أن الصديق القديم لا يكمل قول ما يريد قوله، وأنّ فيكتور بافلوفيتش لا يجرؤ على طرح سؤال مباشر عليه: «هل أنت عميل، هل يستدعونك؟».

يتذكَّر وجه مساعده، الذي مزحَ أمامه بلا تفكير بأن ستالين قد صاغ قوانين الجاذبية قبل فترة طويلةٍ من نيوتن.

قال الفيزيائي الشاب بمرح:

- أنت لم تقل شيئاً، وأنا لم أسمع شيئاً.

لماذا، لماذا، لماذا هذه النكات؟! المزاحُ هو غباءٌ في جميع الأحوال، وهو مثل النقرِ على وعاءٍ يحتوي النتروغليسيرين.

أوه، يا للقوة الواضحة للكلمة الحرّة الفَرِحة! وهي تتجلى، في أنّها خلافاً للخوف، ينطقونها فجأة.

هل فهم شتروم مأساة الأحاديث الحرّة الحالية - يكرَهُ المشاركون في هذه الأحاديث جميعُهم الفاشيَّةَ الألمانيّة، ويخافونها... فلماذا تومض الحرية في أيام الحرب التي وصلت إلى نهر الفولغا، حينما كان الجميعُ يعاني من مصيبة النكسات العسكريّة التي تَعِدُ بالعبودية المكروهة للألمان؟

سار شتروم بصمت بجانب كاريموف.

قال فجأة:

- إنّه لأمر مدهش، تقرأُ رواياتٍ أجنبيةً عن المثقفين، وقد قرأتُ همنغواي، يشرب المثقفون عنده باستمرار أثناء الأحاديث. الكوكتيلات، والويسكي، والروم، والكونياك، والكوكتيلات مرة أخرى، والكونياك مرة أخرى، والويسكي مرة أخرى بأنواعها جميعاً. ويدورُ الحديثُ الرئيسي للمثقفين الروس حولَ كوب من الشاي. اتفقت «الإرادةُ الشعبيّة» و «الشعبيون» و«الاشتراكيون الديمقراطيون» حولَ كأس الشاي السائل الشهير، وناقشَ لينين الثورة

العظيمةَ مع الأصدقاء حول كوب من الشاي. ولكنهم يقولون، صراحةً، إن ستالين كان يفضل الكونياك.

قال كاريموف:

- نعم نعم نعم. لقد دار حديثنا اليوم أيضاً ونحن نشرب الشاي. أنت على حق.

- وها هوذا مادياروف الذكي! والجريء! يستحوذ عليكَ كثيراً بأحاديثه المجنونة وغير الاعتيادية.

أخذ كاريموف ذراع شتروم قائلاً:

- فيكتور بافلوفيتش، هل لاحظت أن أكثر الأشياء براءة عند مادياروف تبدو تعميمية؟ هذا يقلقني. لقد اعتقلوه عام سبعة وثلاثين، لعدّة أشهر وأفرجوا عنه. يومَ لم يطلقوا سراحَ أحد. لم يطلقوا سراحه عبثاً. هل تفهم؟

قال شتروم ببطء:

- أنا أفهم، أنا أفهم، وكيف لا أفهم - ألا يكون مخبراً؟

افترقا عند الزاوية، وسار شتروم نحو منزله.

فكّر: ليذهب إلى الجحيم، دعه، دعه يخبر، لقد تكلّمنا على الأقل كبشر، من دون خوف، وعن كلّ شيء، إلى أقصى حدّ، من دون اشتراطات، ومن دون نفاق. باريس تستحق القداس[1]...

---

(1) وفقاً للأسطورة، قال هذه العبارة (1593) زعيم الهوغانيين (البروتستانت الفرنسيين أو الكالفينيين، أتباع مصلح الكنيسة كالفين)، يستشهد بها كمبرّر فكاهي للتوصل إلى صفقة أو حل وسط لتحقيق مكاسب شخصية. (المترجمان).

من الجيد أن هناك أشخاصاً مثل مادياروف، يمتلكون حريّة روحيّة داخليّة. وكلام كريموف، الذي قيل له حينما افترقا، لم يُجبرهُ كالعادةِ على الإحساس بالبرد.

فكّر أنه نسي من جديد إخبار سوكولوف بشأن الرسالة الواردة من جبال الأورال.

مشى في شارع مظلم مهجور.

ظهرت فكرة مُفاجئة على حين غَرَّة. وفهم على الفور من دون شك، وشعر أيضاً أنها فكرة صحيحة. لقد رأى تفسيراً جديداً بشكل لا يصدق لتلك الظواهر النووية التي يبدو أنْ لا تفسير لها - فجأة أصبحت الهاويات جسوراً. يا للبساطة، يا لهذا الضوء! كانت هذه الفكرةُ لطيفة ومدهشة وجيّدة، وبدا له أنّه ليس هو من أوجدها، بل صعدت ببساطة، وبسهولة، مثل زهرة ماء بيضاء من ظلام البحيرةِ الهادئ، تأوّه، فَرِحاً بجمالها...

يا للمصادفة الغريبة، فكَّر فجأة، جاءت إليه عندما كان عقلُه بعيداً عن الأفكار المُتعلِّقةِ بالعلم، عندما تملّكته حواراتٌ حول الحياة، وكانت حوارات رجل حرّ، وعندما حدّدت الحرّيّة المريرة وحدها فحسب كلماته وكلمات محاوريه.

68

يبدو سهبُ كليمكيا العشبي، فقيراً وكئيباً عندما تراهُ للمرة الأولى، ولا سيما حين ينظرُ إليهِ المرءُ من سيارة طافحاً بالقلق والهموم، وعيناه تراقبان شاردتين نمو التلال المنخفضة وذوبانها، وهي تطفو ببطء من الأفق وتبحر ببطء في الأفق. . . بدا لدارينسكي أن التلّ الذي عرّته الريح هو نفسه يسبحُ ويطفو أمامه، وتعرُّجُ الطريقِ هو نفسه ينعطف وينعطف ويغادر خلف إطارات السيارات الكاوتشوكيّة. وبدا كما لو أن جميع الراكبينَ فوقَ الخيولِ في السهوب هم أنفسهم، على الرغم من أنهم كانوا من الشبانِ وغير ملتحين تارةً، وتارةً أخرى من أصحابِ الشعور البيضاء، وبعضهم على زلّاجات شقراء، وآخرونَ على زلاجات سوداء. . .

مرَّتِ السيارةُ عبر القرى والبلدات، وبجانب المنازل ذات النوافذ الصغيرة التي نمت إبرةُ الراعي سميكةً عليها، كما هي الحال في أحواض السمك - بدا أنها ستحطم وأن الهواء الحي سوف يتدفق إلى الصحراء، وسيجف، ويموت الخضار؛ ومرّت السيارة بجانب منازل اليورت[1] المغطاة بالطين، وسارت بين أعشاب الرعي

(1) اليورت هو منزل قابل للنقل، تقليدي الهيكل مُحاط بإطار من الخشب

الباهتة، بين أعشاب الإبل الشائكة، وبقع المستنقعات المالحة، وبجانب الغبار الذي تثيره أرجلُ الأغنامِ الصغيرةُ، وبجانب المواقد التي لا ينبعثُ منها الدخان وتهزّها الريح...

امتزجَ كل شيءٍ هنا أمامَ نظرةِ المسافر، المتزلّجة فوقَ إطاراتِ منفوخة بهواء المدينةِ الدخاني، في رتابة رمادية فقيرة، أصبح كل شيء منفرداً ومتشابهاً...، الأشواك، وأعشاب الرعي، والشيح... وانتشرتِ التلالُ عبر السهول، التي سوّاها صقلُ الأزمان العظيمة. يمتلك هذا السهبُ جنوبَ شرقِ كالميكيا خاصيةً مذهلة، حيث يتحوّل تدريجياً إلى صحراء رملية، تمتد شرقاً من إيليستا إلى ياشكول حتى مصب نهر الفولغا، وإلى ساحل بحر قزوين... حدَّقتِ الأرضُ والسماءُ في هذا السهب، إحداهما في الأخرى زمناً طويلاً حتى أصبحتا مثل زوجينِ عاشا الحياة معاً. ولم يعد بمقدور المرء أن يميّز ما إذا كان الشيبُ الألوميني المغبرّ لعشب الرعي قد نما على الزرقة الجبانة الباهتة لسماء السهب، أم أصبحَ يضيءُ زرقة السهب، ولم يعد بإمكانك فصل السماء عن الأرض، وقد امتزجتا في غبار حليبيّ. وعندما تنظرُ إلى ماءِ بحيراتِ تساتس وبارمانتساك الثقيل الكثيف، يبدو لكَ أن الملحَ قد وصل إلى سطح الأرض، وإذا نظرت إلى بقع

المقوس تستخدمه قبائل البدو الرحل في سهوب آسيا الوسطى. وهيكل منزل اليورت يتألف من سقف يشبه التاج وعادةً يكون قد تم تشكيله عن طريق تقويسه بالبخار، ويكون مدعوماً بدعامات السقف المقوسة للأسفل عند نهايتها حيث تتلاقى مع الجدار الشبكي المُعرَّش، غالبا ما يكونُ هيكل المنزل مُغطى بطبقات من الألياف ولباد صوف الأغنام من أجل العزل ومقاومة عوامل الطقس. (المترجمان).

الملح التي تشبهُ رؤوساً صلعاء، تشعرُ أنها ليست الأرض، بل مياه بحيرة. . .

من المذهل في الأيام التي لا تتساقط فيها الثلوج من أيامِ شهري تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الأوّل (ديسمبر)، أنكَ ترى الطَريقَ في سهوب كالميك وقد غطّاها الغطاءُ الأخضرُ الرماديُّ الجافُ نفسه، والغبارُ نفسهُ يَهبُّ على الطريق؛ ولا تفهم، أنّ السهب قد جفّفته الشمس أم الصقيع.

ربما هذا هو السبب في ظهور السراب هنا - انمحى الخطُّ الفاصلُ بين الهواء والأرض، وبين الماء والمستنقعات الملحيّة. ويبدأ فجأة هذا العالمُ جرّاءَ هزّة يعطيها دماغُ الشخصِ العطشانِ، في التبلور، ويصبح الهواءُ الساخن حجراً مُزرقّاً ونحيفاً، وتتبقع الأرضُ الفقيرةُ بالمياهِ الهادئة، وتمتد حدائق النخيل إلى الأفق، وتختلط أشعة الشمسِ الفظيعة بسحب الغبار، وتتحوّل إلى قباب ذهبية من المعابد والقصور. . . ويخلق الشخص نفسه في لحظة الإنهاكِ من الأرض ومن السماء عالمَ أمنياته.

تسير السيارة مسرعة في الطريق، داخل السهب المملّ.

وفجأة ينفتحُ عالمُ صحراء السهب بشكل مختلف تماماً، بطريقةٍ مختلفةٍ تماماً للإنسان. . .

سهب كالميكيا! إبداعُ الطبيعة القديم جداً والنبيل، حيثُ لا يوجد طلاء صارخٌ واحدٌ، وحيث لا توجد أيُّ ميّزة حادة في تكوين الأرض، وحيث يمكن أن يتجادل الحزن الضئيل لظلال اللونين الرمادي والأزرق مع الانهيار الثلجيِّ العملاقِ المضيءِ للغابة الروسيَّة الخريفيَّة، وحيث تجسِّدُ الروحُ الخطوطَ الناعمةَ المتموِّجةَ أعمقَ من

تلال القوقاز، وحيث يبدو أن البحيرات الشحيحة المليئة بالمياه القديمة المظلمة والهادئة تعبِّر عن جوهر الماء أكثر من جميع البحار والمحيطات. . .

كل شيء سيمر، لكن هذه الشمس الضخمة الثقيلة المسكوبة في الدخان المسائي، وهذه الرياح المريرة المليئة حتى حوافها بالشيح، لن ينسيا. وفيما بعد، ينهضُ هذا السهبُ بغناه وليس في فقره. . .

ها هو الربيع فتيّ، محيطٌ من أزهار التوليب، لا تصخب الأمواج فيه، بل الألوان. وتلوّنت نباتات شوكة الإبل الشريرة بالخضرة، لكنَّ أشواكها الحادة الصغيرة ناعمة وطرية، لم تتصلّب بعد. . .

وترى في ليلة صيفية في السهب، كيف ترتفع ناطحة سحاب المجرة بأكملها، من كتل النجوم الزرقاء والبيضاء الأساس إلى السُّدُمِ الدخانية التي تمر تحت سقف العالم وقباب ضوءِ مجموعات النجوم الكروية. . .

امتاز السهبُ بخاصيّة بديعةٍ واحدة تلاحظ بشكل خاص؛ إنَّكَ تعيشُ هذا الميّزة فيه دائماً - في فجرِ أيام الشتاء والصيف، وفي الليالي الممطرة المظلمة، وفي الليالي المُضيئة. يحدّثُ السهبُ الإنسانَ دائماً وقبل كل شيء عن الحرية. . . يذكر السهب بها أولئك الذين فقدوها.

نظر دارينسكي، وهو يخرج من السيارة، إلى الفارس الذي يصعد إلى التل. كان يرتدي جلباباً، حزمَ وسطه بحبلٍ، ويركب فرساً صغيرةً شعثاء، وينظر من التل إلى السهب. كان متقدماً في السن، وبدا وجهُهُ صلباً كالحجر.

نادى دارينسكي الرجلَ العجوز، وقدّم إليه علبةَ سجائر. استدار الرجل العجوز بسرعة بكامل جسده وهو على السرج، جامعاً بين حركة الشاب وتفكير الشيخوخة الهادئ، ونظر إلى اليد الممدودة التي تحمل علبة سجائر، ثم إلى وجه دارينسكي، فإلى مسدسه على جنبه، وإلى رتبة المقدم على كتفيه، وحذاء جبهة القتال. وبعد ذلك، أخذ سيجارة بأصابعه البنيّة الرقيقة، وهي صغيرة جداً ورقيقة حتى أن من الممكنِ أن تسَمِّيها أصيبعات، وأدارها في الهواء.

غيّر وجهُ الكلميكي العجوزِ الحجريُّ الصلبُ ذو العظامِ النافرةِ كلَّ شيء، فمن خلال التجاعيدِ نظرت عينان ذكيّتان وطيبتان. وبدا واضحاً أن نظرة هاتين العينين البنيّتين أضمرتِ الثقةَ واليقظةَ في الوقت نفسه. تملّك دارينسكي الفرح والمتعة. هدأت فرسُ العجوزِ فجأة بعد أن انتصبت أذناها تعبيراً عن عدم المودة، وعند اقتراب دارينسكي، أشارت بأذن واحدة بداية بدافع الفضول، ثم بالأذن الأخرى، وابتسمت فيما بعد بسحنتها ذات الأسنان الكبيرة والعينين الجميلتين.

قال العجوز بصوت رقيق:

- شكراً لك.

مرّر كفّه على كتف دارينسكي قائلاً:

- كان عندي ولدان في فرقة الفرسان، أحدهما استشهد، الأكبر سنّاً - وأشار بيدهِ أعلى من رأس الحصان. والثاني الأصغر - وأشار بيده أدنى من رأس الحصان - قاذفُ مدفع، حاصل على ثلاثة أوسمة، ثم سأل: هل لك والدان؟

- أمي على قيد الحياة، أمّا والدي فقد مات.

– آه، آسف – هزّ العجوزُ رأسه، وفكَّر دارينسكي، أنّه ما تأسفَ بدافع اللطافة، بل فعلَ ذلك من أعماق قلبه، فالمقدم الروسي، الذي ضيّفه سيجارة، قد مات والده.

ثم شهق العجوز فجأةً، ولوّحَ بيده غير مبالٍ، وانطلقتِ الفرسُ من التلَّةِ بسرعة لا توصف، وخفّةٍ نادرةٍ.

فيمَ فكّر الفارس، عندما انطلق مسرعاً في السهب، في أبنائه، في موت والد المقدم الروسي الذي بقي بالقرب من السيارة المشوّهة؟

راقب دارينسكي قفزاتِ الرجلِ العجوزِ السريعةَ، ولم يكن الدم ينبض في صدغيه، بل كلمة واحدة فحسب هي: «الإرادة. . . الإرادة. . . الإرادة. . .».

وتملّكه حسدٌ تجاهَ العجوز الكالميكي.

69

غادر دارينسكي المقر الرئيسي في مهمة طويلة، غرضُها الجيشُ الذي كان في أقصى الجناح اليساري. عُدَّت الرحلاتُ إلى هذا الجيش، بين موظفي المقر، مزعجةً بشكل خاص - فقد خافوا نقصَ المياه، والسكنَ، وضعفَ الإمداد والمسافات الطويلة، والطرق السيئة. لم تكن لدى القيادة معلومات دقيقة عن الوضع في تلكَ القوات التي تاهت في الرمال، بين ساحل بحر قزوين وسهب كالميكيا، وقد أرسلت القيادة دارينسكي، إلى هذه المنطقة، وأعطته الكثير من التعليمات.

مُسافِراً مئاتِ الكيلومترات عبرَ السهبِ شعرَ دارينسكي بالكآبة تسيطرُ عليه. ما من أحدٍ يفكِّرُ هنا في الهجوم، وبدا وضع القوات التي طردها الألمان إلى نهايات الأرض يائساً. . .

ألم يكن حلماً توترُ مقر القيادة الذي لم يضعف ليلاً ونهاراً، والتكهنات حول اقتراب الهجوم، وحركة الاحتياطيات، والبرقيات، والتشفير، وعمل مركز اتصالات الجبهة على مدار الساعة، وهدير السيارات وقوافل الدبابات القادمة من الشمال؟

كان دارينسكي يتأثّر طائعاً بالكآبة الرتيبة لهذه الأماكن، وهو

يستمع إلى الأحاديث المملّةِ لقادة سلاح المدفعيّة والجيوش، وهو يجمع البيانات عن حالة الجزء المادّي ويتفحّصها، ويتفقد أقسام بطاريات المدفعية والفرق، وهو ينظر إلى وجوه رجالِ وقادةِ الجيش الأحمر الفظة، وهو يرى كيفَ يتحرَّكُ الناسُ ببطءٍ وكسلٍ على طول السهب المغبرّ. فكرّ أنّ روسيا قد وصلت إلى سهوب الجمال، وإلى تلال الكثبان الرملية واستلقت مرهقة على الأرض غير المألوفة، ولم تعد قادرة على النهوض والوقوف.

وصل دارينسكي إلى مقرّ قيادة الجيش وتوجّه إلى القيادة العليا.

في غرفة فسيحة نصف مظلمة يلعبُ شابٌّ أصلعُ يرتدي كنزة من دون إشارات فارقة «الشدّة» مع امرأتين بلباس عسكري. لم يقطع الشابُّ والمرأتان وهما برتبة ملازم أوّل اللعبةَ عند دخول المقدَّم، واكتفوا بالنظر إليهِ مذهولين، وتابعوا يقولون بعصبيّة:

- ألا تريد «الجوكر»؟ ألا تريد «الشاب»؟

انتظر دارينسكي حتى انتهى التبديل، وسأل:

- هنا مقر قائد الجيش؟

أجابت إحدى الشابتين:

- لقد غادر إلى الجناح الأيسر، لن يعود قبل المساء - نظرت إلى دارينسكي نظرة خبرة عسكرية وسألت: - أعتقد أنّك من قيادة الجبهة، أيّها الرفيق المقدّم؟

- بالضبط، - أجابها دارينسكي، وغمز غمزة تكاد لا تُلحظ، وسأل: - آه، عفواً، هل أستطيع رؤية عضو المجلس العسكري؟

أجابت المرأة الثانية:

- ذهبَ مع القائد، ولن يكونَ هنا قبلَ المساء. وسألت: - هل أنت من قيادة المدفعيّة:

أجاب دارينسكي:

- بالضبط.

بدت الأولى، التي أجابت عن سؤالهِ عن القائد، مثيرةً جداً لاهتمام دارينسكي، على الرغم من أنها كانت تبدو أكبرَ سناً بكثير من تلك التي أجابت عن سؤالهِ حولَ عضو المجلس العسكري. تبدو هؤلاء النسوة أحياناً جميلات جداً، حتّى إذا ما استدارت إحداهنَّ فجأة استدارةً عشوائيّة تحوَّلت إلى امرأةٍ ذابلة وكبيرةٍ في السنّ وغير مثيرة. وهذه المرأة أمامه كانت من تلكَ السلالة، لها أنف جميل مستقيم، وعينان زرقاوان غير ودودتين، تُحدِّثان أنّ صاحبتهما تعرف قيمتها الشخصيّة وقيمَ الناس الدقيقةِ من حولها.

بدا وجهها فتيّاً تماماً، حتى أنَّكَ لا تعطيها من الأعوامِ أكثر من خمسةٍ وعشرين عاماً، لكن ما إن عبست قليلاً وفكّرت حتى أصبحت التجاعيدُ، في زاويتي شفتيها وبشرتها المتدلية تحت ذقنها، مرئيةً، وما عاد بإمكانِكَ أن تمنحها أقلَ من خمسة وأربعين عاماً. ولكن الساقين في الحذاءِ العسكري من جلد الكروم وحسب القياس كانتا جيدتين بالفعل.

هذه الظروف كلّها، التي يمكنُ الحديثُ عنها مُطوّلاً، أصبحت واضحة على الفور لعين دارينسكي الخبيرة.

أمّا الثانية فكانت شابّةً، لكنها ممتلئة وكبيرة الجسد - ولم يكن كل شيء فيها جميلاً إذا ما نُظرَ إليهِ بشكلٍ مُنفَصلٍ؛ كشعرها قليلِ

الكثافةِ، وعظامِ وجنتيها العريضة، ولون العينين غير الواضح، لكنها كانت فتيّة وشديدةَ الأنوثة، حتى أنَّ مكفوفَ البصرِ لو جلسَ بقربها فليس لهُ إلّا أن يشعر بأنوثتها.

هذا ما لاحظه دارينسكي على الفور، وفي غضون ثوان.

علاوة على ذلك، وفي غضون هذه الثواني نفسها، قَيَّمَ سريعاً محاسنَ المرأة الأولى، التي أجابت عن سؤالهِ حولَ القائد ومحاسن المرأة الثانية، وحَدَّدَ خيارهُ الذي لم يكن له أي نتائج عمليَّة تقريباً، وهو ما يفعله الرجال دائماً على الأغلب عندما ينظرون إلى النساء. تمكّن دارينسكي الذي أزعجته الأفكارُ حول كيفية العثور على القائد، وما إذا كان سيقدِّمُ له المعلومات التي يحتاج إليها، ومكان تناول الغداء، ومكان المنامة، وما إذا كانتِ الطريق إلى الفرقة بعيدةً وصعبةً، على الجهة اليمنى المتطرفة، تمكّنَ بطريقة ما وفي الوقت نفسه، من أن يفكّر: «هذه هي!».

والذي حَدَثَ أنّه لم يذهب مباشرةً إلى رئيس الأركان، بل بقي يلعب بورقِ «الشدّة».

توضّحت خلال اللعبة (وقد وجد نفسه شريك المرأة ذات العينين الزرقاوين) أمورٌ كثيرة؛ اسم شريكته آلّا سيرغييفنا، والثانية الأصغر سناً كانت تعمل في المركز الطبي في المقر، ويُطلق على الشاب ذي الوجه الريّان الذي لا يضعُ رتبةً عسكريَّةً اسم فولوديا، ومن الواضح أنه قريبُ شخصٍ في القيادة، ويعمل طباخاً في مطعم المجلس العسكري.

شعر دارينسكي على الفور بقوة آلّا سيرغييفنا - كان هذا واضحاً من خلالِ الطريقة التي خاطبها بها الأشخاصُ الذين دخلوا الغرفة.

على ما يبدو، أنّ قائد الجيش هو زوجها الشرعي، وليس عشيقها على الإطلاق كما هُيّئ لدارينسكي في البداية.

لم يكن واضحاً له لماذا كان فولوديا يُعاملها كما لو كان واحداً من أسرَتها. ولكن دارينسكي عاد فخمَّن أن فولوديا قد يكون شقيق زوجة القائد الأولى. بالطبع لم يكن من الواضح ما إذا كانت الزوجة الأولى على قيد الحياة، وما إذا كان القائد قد طلَّقها.

أما الشابة كلافديا فبدا واضحاً أنها لم تكن متزوجة قانونياً من عضو المجلس العسكري. وقد زلَّ لسانُ آلّا سيرغييفنا بملاحظاتٍ فيها غطرسة وتدليل: «طبعاً، نحن نلعب معك بورق اللعب، ونتحدث أحدُنا إلى الآخر بصيغةِ المفرد، لكن هذا هو ما تتطلبه غايات الحرب التي أشارك فيها أنا وأنت».

ولكن عندَ كلافديا كان ثمّة شعور بالتفوق على آلّا سيرغييفنا. بدا الأمر لدارينسكي تقريباً على النحو الآتي: «على الرغم من أنني لست زوجة شرعيّة، بل صديقة حَربٍ، لكنني مخلصة لعضو المجلس العسكري، أما أنت فعلى الرغم من أنّك شرعيّة، فإننا نعرفُ أموراً محدّدة عنك. جرّبي أن تقولي كلمة فحسب»...

كان لعب دارينسكي «بورق الشدّة» ضعيفاً، فأخذته آلّا سيرغييفنا تحت وصايتها. أعجبتْ آلّا سيرغييفنا بالمقدم النحيل: قال لها «أشكُركُم»، وتمتم «سامحوني لأجل الله»، عندما تلامست أيديهما أثناء توزيع الورق، نظر بحزن إلى فولوديا، عندما كان يمسح أنفه بأصابعه، ثم يمسح أصابعه بمنديل، ابتسمَ بأدب لتعابير الآخرين البارعة وهو نفسه كان يعبّر ببراعة.

قالت بعد أن استمعت إلى إحدى نكات دارينسكي:

- براعة، لم أفهم على الفور. أصبحت غبيّة بسبب حياة السهب هذه.

قالت ذلكَ بهدوء، كما لو أنها تُخبره، أو بالأحرى تُشعِره أنّ بإمكانه بدء حديث خاصٍ، يشارك فيه هما الاثنان فقط، حديث يُثلج الصدر، فريد وشديدة الأهميّة للرجل و المرأة.

استمر دارينسكي في ارتكاب الأخطاء، وكانت تُصَحّحها، ونشأت في تلكَ الأثناء لعبة أخرى بينهما، وفي هذه اللعبة لم يعد دارينسكي يخطئ، لقد عرفها بمهارة. . . وعلى الرغم من أنه لم يُقَلْ كلامٌ كثيرٌ بينهما، باستثناء: «لا تُمسك بورقة رابحة صغيرة، ارمها، لا تخف، لا تأسف على الجوكر. . . »- كانت تعرف بالفعل وتقدر الصفات الجذابة جميعها التي تَحلّى بها: النعومة والقوة وضبط النفس والجرأة والخجل. . . شعرت آلّا سيرغييفنا بكل ذلك لأنها تفحّصت هذه الميزات فيه، ولأن دارينسكي تمكن من إظهارها لها. واستطاعت أن تريه أنَّها فهمت نظراتهِ الموجهة إلى ابتسامتها، وحركات يديها، وضغط كتفيها، وإلى ثدييها تحت كنزة قماش الغبردين الأنيقة، وإلى ساقيها، وطلاء أظافرها. شعرَ أن صوتها كان زائداً قليلاً، ممطوطاً بصورةٍ غير طبيعيّة، وابتسامتها كانت أطول من الابتسامة المعتادة، حتى يتمكّن من تقدير الصوت الرقيق، وبياض أسنانها، والغمّازتينِ على خدَّيها. . .

كان دارينسكي متوتّراً ودَهِشاً جراءَ الشعور الذي زاره فجأة. لم يعتد هذا الشعور البتّة، وبدا له في كل مرة زاره فيها، كما لو أنه يفعل ذلك للمرة الأولى. لم تتحول تجربتة الكبيرة لعلاقاته مع النساء إلى عادة - كانَ لكل تجربةٍ خصوصيتها في حد ذاتها، وترويحٌ سعيدٌ

عن النفسِ في حد ذاته. وفي هذا بالتحديد كان يظهر عشقه الحقيقي للنساء وليس المُزيّف.

وحصل بطريقة ما أنّه قضى الليلة في مركز قيادة الجيش.

في الصباح دخلَ على رئيس الأركان، العقيد الصامت الذي لم يسأله سؤالاً واحدا عن ستالينغراد، وعن أخبار الجبهات، وعن الوضع في شمال غرب ستالينغراد. بعد المحادثة، أدرك دارينسكي أن العقيد في هيئة الأركان لن يُشبعَ فضوله التفتيشي، فطلب إليهِ وضع تأشيرة على مهمّته، وغادر إلى القوّات.

دخل السيارة شاعراً بفراغ غريب وخفة في ذراعيه وساقيه، لا فكرة لديه، ولا أيّ رغبة، يجمعُ في نفسهِ بين الإشباع التام والفراغ التام... بدا كل شيء حوله بلا طعم، وفارغاً - حتى السماء، وعشب الرعي وتلال السهب، التي أعجبته يوم أمس. لم يرغب في المزاح والحديث مع السائق. كانت الأفكار حول الأحباء، وحتى الأفكار عن الأم، التي أحبها دارينسكي وقدّسها، مُملةً، وباردةً... الأفكارُ حولَ المعارك في الصحراء وعلى حدود الأراضي الروسيّة لم تعد تقلقه، كانت تمرّ بكسل.

أخذ دارينسكي يبصق، ويهزّ رأسه ويتمتم بنوع من الاستغراب المملّ: «يا لها من امرأة...».

ارتعشت في رأسه في هذه اللحظاتِ أفكارُ التوبة، فمثل هذه الهوايات لن تؤدي به إلى الخير، وتذكَّر كلماتٍ قرأها ذات مرة، إما عندَ كوبرين أو في بعض الروايات المترجمة، بأن الحبّ يشبه الفحم، فالفحم عندما يكون مُشتعلاً يحرق، وعندما يكون بارداً يوسّخ... أحسَّ برغبةٍ في البكاء، في الحقيقة ليس في البكاء، بقدر

ما هي رغبة في الشكوى لأحد ما، ذلكَ أنَّهُ لم يصل إلى ما هو عليهِ بإرادته، بل القدر هو الذي أوصل المُقدَّمَ المسكينَ إلى مثل هذهِ العلاقة مع الحب... ثم غفا، وعندما استيقظ، فكر: «إذا لم يقتلوني، فسأُعرِّجُ على ألوشكا بالتأكيد في طريق العودة».



70

توقف الرائد يرشوف عند عودته من العمل، عند سرير موستوفسكي، وقال:

- هل سمعت الراديو الأمريكي - مقاومتنا بالقرب من ستالينغراد تكسر حسابات الألمان.

عبس وأضاف:

- وخبر من موسكو عن تصفيةِ الكومنترن، أو شيء من هذا القبيل.

قال موستوفسكي ناظراً إلى عيني يرشوف الذكيتين، اللتين تشبهان مياه الربيع الباردة والعكرة:

- ما الذي أصابك هل جُننت؟

- ربما أخطأتُ بما قالتهُ الأمريكيَّةُ - أجابَ يرشوف، وأخذ يحك صدره بأظافره - قد يكون العكس من ذلك، أن الكومنترن يتوسع.

عرف موستوفسكي في حياته الكثير من الناس الذين أصبحوا بطريقة ما طبولاً، يعبرونَ عن المثل العليا، والعواطف، وأفكار المجتمع بأسره. بجانب هؤلاء الأشخاص لم يسبق أن مَرَّ حدثٌ

خطيرٌ في روسيا. كان يرشوف مُعبّراً عن أفكار ومُثلِ مجتمعِ معسكر الاعتقال. لكن الشائعات حول تصفية الكومنترن لم تكن مثيرة للاهتمام على الإطلاق بالنسبة للأفكار المسيطرة في المعسكر.

وكان مفوّض اللواء أوسيبوف، الذي مارس التربية السياسية في وحدة عسكرية كبيرة، غير مبالٍ بهذا الخبر.

قال أوسيبوف:

- أخبرني الجنرال هوتس: أنّه من خلال تربيتكم الأممية، أيها الرفيق المفوض، أرخيتم ستاراً سميكاً، كان عليكم تربية الناس بروح وطنية، بالروح الروسية.

ضحكَ موستوفسكي ساخراً وهو يقول:

- تماماً مثل: من أجل اللّه، والملك، والوطن؟

- إنّ كل ذلك هراء - أجاب أوسيبوف متثائباً بتوتّر - المسألة ليست في العقيدة، المسألة هي أن الألمان سوف يسلخون جلودنا أحياء، أيّها الرفيق موستوفسكي، أيّها الأب العزيز.

كتب الجندي الأسباني، الذي أطلق عليه الروس اسم أندريوشكا، الذي يشغلُ سريراً من أسرّة الطابق الثالث: «ستالينغراد» باللغة الإسبانية على لوح خشبي وتَمَلّى هذا النقشَ ليلاً، وفي الصباح قلب اللوح حتى لا يرى المناوب المتجول في الثكنات الكلمةَ الشهيرة.

قال الرائد كيريلوف لموستوفسكي:

- عندما لم يقتادوني إلى العمل، استلقيت على السرير عدة أيام.

والآن غسلتُ قميصي بنفسي وأمضغ رقائق الصنوبر ضد الأسقربوط[1].

أمّا عساكر الحزب النازي العقابيون، الملقبون بـ «الرجال المرحون» (كانوا دائماً يذهبون إلى العمل وهم يغنّون)، ويظهرون القسوة الشديدة تجاه الروس.

تربط سكان مهاجع المعسكر بالمدينة على نهر الفولغا علاقةٌ غير مرئية. أما فيما يتعلّقُ بالكومنترن فاتَّضحَ أنّ الجميع غير مبال.

اقترب المهاجرُ تشيرنيتسوف من موستوفسكي في هذه الأثناء.

وتحدث عن البرنامج الإذاعي الذي سُمِعَ من الأمريكيين، وهو يغطي العين الفارغة براحة يده.

كانت الحاجة كبيرة إلى هذه المحادثة حتّى أن موستوفسكي قالَ بفرح:

- المصادر ليست موثوقة بشكل عام، إنّه هراء، هراء فارغ.

رفع تشيرنيتسوف حاجبيه - المنظر كان سيّئاً للغاية - كان الحاجب المرفوع فوق العين الفارغة مثيراً للحيرة والعصبية.

سأل المنشفي أحادي العين:

---

(1) الأسقربوط أو عوز الفيتامين سي أو عوز الفيتامين ج، ويُسمى أيضاً مرض بارلو. تتجلى بداية المرض عادة بالإرهاق الشديد، ويتبع ذلك تكون البقع على الجلد. وتصبح اللثة ذات طبيعة إسفنجية (مما يجعلها معرضة للنزيف نتيجة ضعف الشعيرات الدموية فيها)، ويتبع ذلك نزيف في الأغشية المخاطية. ومع تقدم المرض قد تظهرالجروح المفتوحة المتقيحة ويبدأ سقوط الأسنان، واصفرار الجلد، والحمى، والاعتلال العصبي وأخيراً الموت إثر النزيف. (المترجمان).

– ولماذا؟ لماذا لا يصدق؟ أنشأ السادة البلاشفة الأممية الثالثة، وأسّسَ السادة البلاشفة نظرية ما يسمى الاشتراكية في بلد واحد. جوهر هذا الاتحاد فارغ.

جليد حارّ. . . كتب غيورغي فالنتينوفيتش[1] في إحدى مقالاته الأخيرة: «يمكنُ للاشتراكية أن توجدَ كنظام عالميٍّ، دوليٍّ، أو لا توجد على الإطلاق».

سأل ميخائيل سيدوروفيتش:

– ماذا تقصد بـ «ما يسمى الاشتراكية»؟

– نعم، نعم، ما يسمى. الاشتراكية السوفييتيّة.

ابتسم تشيرنيتسوف ورأى ابتسامة موستوفسكي. لقد ابتسمَ أحدهما للآخر لأنهما عرفا ماضيهما بكلمات شريرة، وبنبرات ساخرة وحاقدة.

كما لو أنَّ سماكة عقود من الزمن أضاءت حدّةَ عداوةِ الشباب، وهذا اللقاء في معسكر الاعتقال النازي لم يذكّر بسنوات كثيرةٍ من الكراهية فحسب، بل وبالشباب أيضاً.

رجلُ معسكر الاعتقال العدائي والغريب هذا أحبَّ وعرف ما كان يحبُّه ويعرفه موستوفسكي في فتوَّتهِ. هو، وليس أوسيبوف، ولا يرشوف، يتذكر القصص المتعلقة بزمن المؤتمر الأول، وأسماء الأشخاص الذين لم يباليا بهم. كان كلاهما قلقاً بشأن العلاقة بين ماركس وباكونين، وما قاله لينين وما قاله بليخانوف عن أنصار صحيفة «الإيسكرا» الناعمين والصلبين. وكيف تعامل عاطفيّاً إنجلس

(1) المقصود المفكر الماركسي بليخانوف. م.(المترجمان)

الأعمى العجوز مع الديمقراطيين الاشتراكيين الروس الشباب الذين أتوا إليه، ويا للقرحة التي كانتها في زيوريخ لوبوشكا أكسلرود[1]!

شعر المنشفيُّ أحاديّ العين، على ما يبدو، بما شعر به موستوفسكي، وقال مبتسماً:

- وصفَ الكُتّابُ بشكلٍ مؤثّرٍ لقاء أصدقاء مرحلةِ الشباب، لكن ماذا بشأنِ لقاء أعداء تلكَ المرحلةِ، مثل هذينِ الكلبينِ العجوزين المعذّبينِ، رماديي الشعر مثلي ومثلك؟

رأى موستوفسكي دمعة تسيل على خد تشيرنيتسوف. وفهم كلاهما: أنّ الموت في المعسكر سوف يسوّي قريباً، ويغطي بالرمل كل ما كان في الحياة الطويلة؛ بما في ذلك الحقيقة، والأخطاء، والعداوة.

- نعم،- قال موستوفسكي- من يعشْ في خلاف معك طوال حياتك، يصبح لاإراديّاً مشاركاً في حياتك.

قال تشيرنيتسوف:

- إنه لأمر غريب، أن نلتقي بهذا الشكل في حفرة الذئب هذه.
- وأضاف بصورةٍ غير متوقّعة: - كم هي رائعة كلمات: القمح والذرة ومطر الفطر...

قال موستوفسكي وهو يضحك:

- أوه، مُخيفٌ هذا المعسكر. وبالمقارنة به يبدو كل شيء جيداً، حتى اللقاء مع المنشفيّ.

---

(1) لوبوف إسحاقوفنا أكسلرود (1868-1946): ثوريّة روسيّة وفيلسوفة وناقدة أدبيّة. دكتورة في الفلسفة (1900). (المترجمان).

أومأ تشيرنيتسوف بحزن:

- نعم، حقاً، ليس هذا بالأمر السهل عليك.

- الهتلريَّة، - قال موستوفسكي- الهتلريّة! لم أتخيّلْ جحيماً مثلها!

قال تشيرنيتسوف:

- ما من شيء يدهشك. الإرهاب لن يدهشك.

وكأن الريح هبّت حزينة ورخيّةً بسببِ ما نشأ بينهما. لقد تجادلا بغضب لا يرحم.

كانَ تشهير تشيرنيتسوف فظيعاً، لأنه تغذى ليس على الكذب وحده فحسب، بل على القسوة المصاحبة للبناء السوفييتي، اعتبرَ تشيرنتسوف الأخطاء منفصلة هنا وهناك وكأنها قانون عام. قال لموستوفسكي:

- بالطبع، تناسبك فكرةٌ مفادها أن عام سبعة وثلاثين شهدَ تجاوزات، ومن جرّاء الدوار الذي سببته نجاحات التأميم والتجميع كان عزيزُك وعظيمُك قاسياً بعض الشيء ومُحبّاً للسلطة. لكن الجوهر هو في عكس ذلك: فالوحشية غير الإنسانية لستالين جعلته خليفة لينين. إنّهم يحبون الكتابة عندكم: ستالين هو لينين اليوم. يبدو لكم جميعاً أن فقر الريف وانعدام حقوق العمال كلّها مشاكل مؤقتة في مسيرة النمو. والقمح الذي تأخذونه بالقوّة من الفلاحين، أيّها المحتكرون، مقابل عشرة كوبيكات للكيلو الواحد وتبيعونه للفلاح نفسه مقابل روبل للكيلو، هو الأساس الأول لبنائكم.

- ها أنت أيضاً أيّها المنشفيّ المهاجر تقول: إنّ ستالين هو لينين

اليوم - قال موستوفسكي - نحن ورثة أجيال من الثوريين الروس منذ بوغاتشيف ورازين، لا المنشقين المنشفيّين الذين فرّوا إلى الخارج، أمّا ستالين فهو الوريث لرازين، ودوبرلوبوف، وغيرتسين.

قال تشيرنيتسوف:

- نعم- نعم أنتم ورثة! أتعلم ماذا عَنت الانتخابات الحرة في الجمعية التأسيسية لروسيا! في بلدِ ألفِ سنة من العبودية! طوال ألف عام ما كانت روسيا حرة لأكثر من ستة أشهر أو أكثر بقليل. صاحبك لينين لم يرث، بل دمّر الحريّة الروسيّة. عندما أفكر في عمليات سنة سبعٍ وثلاثين، أتذكر ميراثاً مختلفاً تماماً؛ تذكرُ العقيدَ سوديكين، رئيسَ الفرقةِ الثالثةِ، فقد أراد مع ديغاييف تنظيم مؤامرات وترهيب القيصر والاستيلاء على السلطة بتلكَ الطريقة. وأنت تعتبر ستالين وريث غيرتسين؟

سأل موستوفسكي:

- ماذا تقول، أنت أحمق حقاً؟ هل أنت جاد فيما قلته بشأن سوديكين؟ والثورة الاجتماعية العظيمة، ومصادَرَةُ من صادرَ أرزاقَ الناس، ومصانع ومعامل الرأسماليين المؤمّمة، وأرض الملاكين المؤمّمة؟ شاهدتَها؟ ميراث من هذه - أكل ذلك ميراث سوديكين؟ والتعليم العام، والصناعات الثقيلة؟ ودخولُ الفئة الرابعة من العمال والفلاحين مجالاتِ النشاطِ البشريِّ جميعها ؟ هل هذا هو إرث سوديكين؟ ما قُلتَهُ يجعَلُني آسَفُ لأجلك.

- أعلمُ، أنا أعلم، - قال تشيرنيتسوف - لا جدالَ في الحقائق. لكن يُمكنُ شرحُها. إن ماريشالاتكم وكتّابكم ودكاترة العلوم والفنانين والمفوضين ليسوا خادماً للبروليتاريا. بل هم خدم للدولة. عدا أولئك

الذين يعملون في الأرض وورش العمل، وأعتقدُ أنكَ لا تجرؤ أن تسمّيهم أصحَابها. أي أصحابِ أرضٍ هم!

وانحنى فجأةً نحوَ موستوفسكي وقال:

- بالمناسبة، أنا أحترم منكم جميعاً، ستالين فحسب. إنه حجّار وأنتم مثاليون حتى القرف! أما ستالين فيعرفُ: الإرهاب الحديدي، معسكرات الاعتقال، عمليات القرون الوسطى، إنّه ساحر- هذا ما تنهضُ عليه الاشتراكيةُ في بلد واحدٍ بعينه.

قال ميخائيل سيدوروفيتش لتشيرنيتسوف:

- عزيزي، سمعنا كل هذه القذارة. لكن يجب عليّ أن أقول لك صراحةً، أنت تتحدّث بطريقة خسيسة. هكذا يستطيعُ الشخص أن يتقاذَرَ وأن يتواسَخَ، إذا كان قد عاشَ في بيتكم منذ الطفولة ثم طردَ منه. هل تعرف من يكون هذا الشخص المخلوع؟... إنّه خادم.

نظر باهتمام إلى تشيرنيتسوف وقال:

- لن أخفي، في البداية أردت أن أتذكر ما الذي ربطنا في السنة الثامنة والتسعين للقرن التاسع عشر، وليس ما حصل في عام تسعمئة وثلاثة[1].

- تتحدّث عن الزمن الذي لم يكن الخادم قد طُردَ فيه بعد من البيت؟

لكن غضب ميخائيل سيدوروفيتش كان قد استعرَ.

- نعم، نعم، هذا ما أعنيه بالتحديد! الخادم المطرود، الهارب! بقفازاتٍ قماشيّة! أما نحن فلا نخفي الأمر: نحن بلا قفازات. أيادينا

---

(1) يقصد طبعاً عام 1903. (المترجمان)

في الدم، في الوحل! حسناً إذاً! دخلنا الحركة العمالية من دون قفازات بليخانوف. ماذا أعطتكم قفازات الخدم؟ عملات يهوذا الفضية لقاء المقالات في «نشرة الاشتراكية» الخاصة بكم؟ هنا، يثق بنا معتقلو المعسكر البريطانيون والفرنسيون والبولنديون والنرويجيون والهولنديون! خلاص العالم بين أيدينا! في قوة الجيش الأحمر! إنّه جيش الحرية!

قاطعه تشيرنيتسوف قائلاً:

- هكذا كان الأمر دائماً؟ واحتلال بولندا بالمؤامرة مع هتلر في السنة التاسعة والثلاثين؟ وسحق دباباتكم لاتفيا وإستونيا وليتوانيا؟ وغزو فنلندا؟ لقد أخذ جيشك وستالين من الشعوب الصغيرة ما قدّمته لهم الثورة. وقمع الانتفاضات الفلاحية في آسيا الوسطى؟ وقمع كرنشتات[1]؟ كل هذا من أجل الحرية والديمقراطية؟

مدّ موستوفسكي يديه نحو وجه تشيرنيتسوف قائلاً:

- هاتان هما، من دون قفازات الخدم!

أومأ تشيرنيتسوف له:

- أتذكر عقيد الشرطة ستريلنيكوف؟ عمل من دون قفازات أيضاً: لقد كتب اعترافاتٍ كاذبة بدلاً من الثوار الذين ضَرَبَهم حتى وصلوا إلى حافة الموت. لماذا احتجتم للاستعداد حتى عام سبعة وثلاثين لمحاربة هتلر؟ ستريلنيكوف أم ماركس علّمكم ذلك؟

---

(1) كرونستدت (بالروسية: Кронштадт) هي إحدى مدن روسيا في الكيان الفدرالي الروسي سانت بطرسبورغ. تقع على جزيرة كوتلين في الخليج الفنلندي التابع لبحر البلطيق. (المترجمان).

قال موستوفسكي:

- كلماتك النتنة لا تفاجئني، ولن تقول شيئاً آخر. أتعرف ما يدهشني حقاً! لماذا يبقيك النازيون في معسكر الاعتقال؟ من أجل ماذا؟ إنهم يكرهوننا جداً. كل شيء واضح هنا. ولكن لماذا يجب على هتلر أن يحتفظ بك وبأمثالك في معسكر الاعتقال!

ابتسم تشيرنيتسوف، وأصبح وجهه كما كان في بداية الحديث.

قال:

- نعم، هل ترى، إنهم يحتجزوننا. لا يطلقون سراحنا. توسّط لي عندهم، ربما يطلقون سراحي.

لكن موستوفسكي لم يرغب في المزاح.

- أنت، مع كراهيتك لنا، يجب ألا تجلس في معسكر الاعتقال الهتلري. لست أنت وحدك، وهنا هذا الأخ، وأشار إلى إيكونيكوف - مورج الذي اقترب منهما،

كان وجه إيكونيكوف ويداه ملطخة بالطين.

وسلم موستوفسكي بضعَ أوراقٍ قذرة ومُسوَّدَةٍ وقال:

- اقرأ، ربّما سيقتلوننا غداً.

قال موستوفسكي متوتّراً، وهو يخفي الأوراق تحت الفراش:

- سأقرأ، لماذا تنوي مغادرة هذا العالم؟

- هل تعرف ماذا سمعت؟ الحفر التي حفرناها مُعدّة لكاميرات الغاز. اليوم بدؤوا بصبِّ القواعد الإسمنتية.

قال تشيرنيتسوف:

- كانت هناك شائعات حول ذلك، حتى عندما كانوا يرصفون سكّة عريضة.

نظر حوله، واعتقد موستوفسكي أن تشيرنيتسوف كان يُجرِّبُ ما إذا كان أولئك الذين أتوا من العمل رأوا مدى سهولة حديثه مع البلشفيكي القديم. من المحتمل أنه يفخر بذلك أمام الإيطاليين والنرويجيين والإسبان والبريطانيين. لكن الأهم من ذلك كله، أنه ربما كان فخوراً بذلك أمام أسرى الحرب الروس.

سأل إيكونيكوف- مورج:

- وهل نواصل العمل؟ ونشارك في تحضير الرعب؟

ضمّ تشيرنيتسوف كتفيه إحداهما باتجاه الأخرى قائلاً:

- أتعتقد أنّنا في إنجلترا؟ يرفض ثمانية آلافٍ العمل، فيقتلُ الجميعُ في غضون ساعة.

قال إيكونيكوف- مورج:

- لا، لا أستطيع، لن أذهب إلى العمل، لن أذهب.

قال موستوفسكي:

- إذا رفضت العمل، فسيقتلونك خلال دقيقتين.

قال تشيرنيتسوف:

- نعم، يمكنك أن تصدق هذه الكلمات، فالرفيق يعرف ما تعنيه الدعوة إلى الإضراب في بلد لا توجد فيه ديمقراطية.

أزعجَه الجدال مع موستوفسكي. هنا، في معسكر الاعتقال النازي، كانت الكلمات تُسمع في أذنيه نفسه مزيّفةً وبلا معنى، تلكَ التي ردَّدها عدّة مراتٍ في شقته في باريس.

التقطتْ أذُنا الشاب الإنكليزي غالباً، وهو ينصتُ إلى أحاديث المعتقلين، كلمة «ستالينغراد»، سواء أراد ذلكَ أم لا، كان المصير والعالم مرتبطاً بها.

أظهر الشاب الإنجليزي علامة النصر لتشيرنيتسوف وقال:

- أصلّي من أجلك، ستالينغراد أوقفي الانهيار - فشعر تشيرنيتسوف بالإثارة السعيدة حال سماعِهِ تلكَ الكلمات.

قال لموستوفسكي:

- أتعرف، قال هاينه إن الأحمق فقط هو الذي يظهر ضعفه أمام العدو. لكن حسناً، أنا أحمق، وأنت محق تماماً، الأهمية الكبيرة للكفاح الذي يخوضه جيشك الآن واضحة بالنسبة لي. يشعر الاشتراكي الروسي بالمرارة عند فهم ذلك، ويفرح مُدركاً، ويفخر، ويعاني، ويكرهكم.

ونظرَ إلى موستوفسكي، فبدا لموستوفسكي كأنّ العين الثانية، التي يرى بها تشيرنيتسوف قد امتلأت بالدم.

سأل تشيرنيتسوف:

- لكن أيعقل أنّك حتى هنا لم تدرك بجلدك أنّ الإنسان لا يمكن أن يعيش من دون ديمقراطية وحرّية؟ إن كنتَ قد نسيتَ ذلكَ هناك في البيت!

قطّب موستوفسكي حاجبيه قائلاً:

- اسمع، يكفي هيستيريا.

وتلفّتَ حوله، فاعتقد تشيرنيتسوف أن موستوفسكي قلق بشأنِ ما إذا كان أولئك الذين أتوا من العمل قد رأوا مدى سهولة أن يتحدَّثَ مهاجرُ المنشفيك إليه. ربما كان يخجل من هذا أمام الأجانب. لكن الأهم من ذلك أنه كان يشعر بالخجل من أسرى الحرب الروس.

نظرت الحفرةُ العمياءُ إلى موستوفسكي وجهاً لوجه.

أمسك إيكونيكوف رجلَ الكاهن الجالسِ على الطابق الثاني منزوعة الحذاء، وأخذ يسأله باللغة الفرنسية والألمانية والإيطالية المكسّرة: ماذا عليّ أن أفعل أيّها الأب؟ نحن نعمل في معسكر الإبادة.

نظرت عينا غاردي الفحميتان البرّاقتان في عيون الناس، وقال ببطء:

- الجميع يعمل هناك. وأنا أعمل هناك. نحن عبيد. سيسامحنا الربّ.

أضاف موستوفسكي قائلاً:

- هذه هي مهنته.

ردَّ غاردي مؤنّباً:

- ولكنها ليست مهنتك.

قال إيكونيكوف- مورج بسرعة:

- نعم، نعم هذا صحيح ميخائيل سيدوروفيتش من وجهة نظرك، أما أنا فلا أريد مغفرة الذنوب. لا تقل هذا الكلام: المخطئون هم أولئك الذين يجبرونك على فعل ذلك، أنت عبد، أنت لست مذنباً لأنك لست حراً. أنا حر، أقوم ببناء معسكر الإبادة، ومسؤولٌ أمام الناس الذين سيُخنقونَ بالغاز. أستطيع أن أقول لا! ما هي القوة التي يمكن أن تمنعني؟ هذا إذا وجدتُ القوة في نفسي كي لا أخافَ القتل. سأقول لا!

لمست يدُ غاردي رأسَ إيكونيكوف الشائب، وقال:

- أعطني يدك.

قال تشيرنيتسوف:

- حسناً، ستكون الآن موعظة القسيس للخروف التائه في العجرفة.

هزّ موستوفسكي رأسَه متعاطفاً لاإرادياً مع كلماته.

لكن غاردي لم يعظ إيكونيكوف، بل رفع يد إيكونيكوف المتّسخة إلى شفتيه وقبّلها.

71

تحدّث تشيرنيتسوف في اليوم التالي إلى بافليوكوف أحد معارفه السوفييت القلائل، وهو جندي الجيش الأحمر، الذي عمل مسعفاً في محميّة.

أخذ بافليوكوف يشكو إلى تشيرنيتسوف بأنهُ سَيُطردُ من المحمية، وسيقوم بحفر القواعد.

قال:

- كلّ ذلك من صنع الحزبيين، لا يستطيعون تحمّل أنني وجدت عملاً في مكان جيد: وكنت قد رشوتُ من يلزم. عيّنوا جماعتهم كنّاسين، وفي المطبخ، وفي غرفة الغسيل وفي كل مكان. هل تتذكر كيف كانت الحال في زمن السلم؟ لجنة المنطقة الحزبية من جماعتهم. واللجنة المحليّة من جماعتهم. أليس صحيحاً؟ وهنا أيضاً لديهم مكتب مشبوه كالذي تنظِّمه أجهزة الأمن السوفييتيّة للمساجين المسيئين، جماعتهم في المطبخ، يقدمون لهم وجبات خاصّة. يعاملون البلشفي العجوز كما في المصّح، وأنت يعاملونك كالكلب، لا يلتفتُ أي منهم نحوك. هل هذا عدل؟ وهنا أيضاً، نمضي حياتنا في الأعمال الشاقة من أجل السلطة السوفييتية.

أخبره تشيرنيتسوف منزعجاً أنه لم يعش في روسيا منذ عشرين عاماً. وقد لاحظ بالفعل أن كلمة «مهاجر»، أو «أجنبي» تَصد فوراً الناس السوفييت عنه. لكن بافليوكوف لم يتوخَّ الحذرَ بعد كلمات تشيرنيتسوف.

جلسا على كومة من الألواح، وقال بافليوكوف، عريضُ الأنفِ والجبهةِ، الابنُ الحقيقي للشعب، كما فكّر تشيرنيتسوف، وهو ينظر نحو الحارس الذي يسير في برج خرساني:

- ما من مكانٍ أذهبُ إليه، فقط إلى تشكيل المتطوعين. أو أحمل غطاء الضعيف والخانع.

سأل تشيرنيتسوف:

- لإنقاذ حياتك، إذاً؟

- أنا لست كولاكاً على الإطلاق،- قال بافليوكوف - ولم أستثمر أموالاً في قطع الأشجار، ومع ذلك أشعر بالإهانة من قبل الشيوعيين. لا يوجد تحرّكٌ حرّ. لا تزرع هذا، لا تتزوج هذه، هذا ليس عملك. الإنسان يصبح مثل الببغاء. كنت أرغب في فتح متجري الخاص منذ الطفولة، حتى يتمكن من يدخله من شراء ما يريد. وفي المتجر مطعم للوجبات الخفيفة، اشترِ ما تحتاج إليه، وتفضّل: إذا كنتَ تريد فاشرب قدحاً، تريد - لحماً مشوياً، أو تريد - جعةً. لو تعلم كيفَ كنتُ سأخدِم الناس؟ كل شيء رخيص! وكنت لأقدّم طعاماً ريفيّاً في المطعم. تفضّل! البطاطا المشوية! شحم الخنزير مع الثوم! ملفوف مُخلّل! أتعرف ما الوجبة الخفيفة التي كنت سأقدمها للناس، عظام الدماغ! أغليها في المرجل، تفضّل، اشرب مئة غرام - وهذه قطعة من خبزٍ أسود، حسناً، واضح، ملح. والكراسي

جلديّة في كل مكان بحيث لا يعشّش القمل. تجلس، وتسترخي، وتُقدَّم لك الخدمة. إذا عرفوا أني أمارس هذا العمل، فسيرسلونني على الفور إلى سيبيريا. لكنني أفكِّرُ ما الضرر الخاص الذي يمكن أن يلحقه بالشعب عملي هذا؟ سأخفّض السعر أقلّ مرتين من سعر الحكومة.

نظر بافليوكوف إلى المستمع:

- سجّل في مهجعنا أربعونَ شاباً في تشكيل المتطوعين.

- ولأي سبب؟

- من أجل تحضير الحساء، وخياطة المعطف، كي لا يعملوا حتى تتكسّر الجمجمة.

- ولأي سبب أيضاً؟

- وبعضهم من منطلقٍ عقائديّ.

- أيّ عقيدة؟

- عقائد مختلفة، عدد منهم من أجل الذين استشهدوا في معسكرات الاعتقال. وآخرون سئموا من الفقر في الريف. إنّهم لا يطيقون الشيوعيّة.

قال تشيرنيتسوف:

- هذه دناءة!

نظر الرجل السوفييتي بفضول إلى المهاجر، ورأى الثاني ذلك بفضول محيّرٍ ساخط.

قال تشيرنيتسوف:

- هذا سيّئ، وغير نزيه، وغير نبيل. ليس هذا وقت الحساب؛ ليس هذا جيداً للمرءِ أمام نفسه وأمام أرضه.

نهض عن الألواح ونفَّضَ مؤخرته بيده.

- لا يمكنك أن تتهمني بحبِّ البلاشفة. حقيقةً ليس الوقتُ وقتَ تسويةِ الحسابات. لكن لا تذهب إلى فلاسوف، صحا فجأة وأضاف: اسمع، أيّها الرفيق، لا تذهب - ولأنه نَطَقَ، كما كانتِ الحالُ زمنَ الشباب القديم، كلمةَ «رفيق»، لم يعد بإمكانه إخفاء حماسه و لم يخفه، فتمتم: - يا إلهي. يا إلهي، هل يمكنني...

غادرَ القطارُ المنصةَ. كان الهواءُ ضبابيّاً من الغبار، ومن رائحة الليلكِ وقمامةِ المدينةِ الربيعيّة، ومن دخان القطار، ومن البخار القادم من مطبخ مطعم المحطة.

ظل المصباح يطفو مُبتَعِداً، وبعد ذلك بدا وكأنّه لا يتحرّك بين الأضواء الخضراء والحمراء الأخرى.

وقف طالب على المنصّة، وعبرَ من خلال الباب الجانبي. طوَّقت امرأة عنقه بيديها وهي تودّعه وقبّلته على جبينه، وعلى شعره، مرتبكةً مثله من جَرّاءَ الشعور القويّ المفاجئ... مشى مغادراً المحطة، وقد نمت السعادة فيه، وأصابته بالدوار، وبدا أنّ هذه بداية حبكة يمكن أن تملأً حياته كلّها...

تذكَّرَ ذلك المساء، وهو يغادر روسيا، في الطريق إلى سلافوتا. تذكّره في أحد مستشفيات باريس، حيث كان يرقد بعد عملية جراحية: استئصال العين المصابة بالماء الزرقاء، وتذكَّره وهو يدخل في مدخلٍ مظلمٍ باردٍ للبنك الذي عملَ فيه.

كتبَ الشاعر خوداسيفيتش الذي هرب مثله من روسيا إلى باريس:

تائه يدخل متكئاً على عصا -
لسبب ما تذكرتك،
تسير عربة ذات عجلات حمراء -
لسبب ما تذكرتك.
مساءً أضاؤوا مصباحاً في الممر -
لسبب ما تذكرتك.
ومهما يحدثُ: على الأرض، في البحر
أو في السماء - سوف أتذكرك...

لقد أراد الاقتراب من موستوفسكي مرة أخرى، ليسأل: «ألم تعرف ناتاشا زادونسكايا، هل هي على قيد الحياة أم لا؟ أيعقل حقاً أنّك طوال هذه العقود، كنت تسير معها على أرض واحدة؟».

72

كان اللصُّ الهامبورغي[1] كيزي، في موقع أببيل شتوبينيلتير المسائي، مُرتدياً سروالاً أصفرَ وجاكيتاً قشديَّاً مخططاً ذا جيوب صغيرة، يجلسُ مرتاحاً. يغني بصوت خافت بلغة روسية ركيكة: «كالي[2] غداً حرب، إذا مضينا غداً في حملة...».

عبَّرتْ عيناه البلاستيكيّتان البنيّتان المتغضِّنتان ووجهُهُ الزعفراني عن رضاه في ذلك المساء. ربتَتْ يدهُ المنتفخة، البيضاء الثلجيّة، التي لا شعر فيها، بأصابع قادرة على خنق حصان، على أكتافِ السجناءِ وظهورهم. كان القتلُ عنده بسيطاً مثل وضعِ قدمكَ أمامَ شخصٍ فيتعثَّر بها. وكان يتوتّر بعد القتل، لفترة قصيرة، مثل قطٍّ فتيٍّ يُلاعبُ جندبَ شهر أيّار (مايو).

قتل في معظم الأحيان بأمر من الفيورير دروتنهار، الذي كان مسؤولاً عن القسم الصحي في كتلة المنطقة الشرقية.

كان الأمر الأصعبُ في هذه الحالة هو سحب جثث القتلى إلى المحرقة، لكن كيزي لم يقم بذلك، لم يجرؤ أحد على عرض مثل

---

(1) نسبةً إلى مدينة هامبورغ. (المترجمان).

(2) كالي أو كاليكا هي الإلهة المرتبطة بالموت والدمار في الهندوسية. (المترجمان).

هذا العمل عليه. كان دروتنهار من الخبرةِ بحيث لم يسمح للناس أن يضعفوا كثيراً لدرجة يُضطرُّ أعوانُه إلى سحبهم إلى مكان الإعدام على الحمّالات.

لم يتعجّل كيزي المعنيينَ بالعمليّة، ولم يوجّه إليهم ملاحظات غاضبة، ولم يدفع أو يضرب أيّاً منهم ولو مرَّةً واحدة، صعد كيزي أكثر من أربعمئة مرة الدرجتين الإسمنتيتين إلى الغرفة الخاصة وكان يبدي اهتماماً حيّاً بالشخص الذي ينفّذ به العملية: بمظهر الرعب ونفاد الصبر والطاعة والعذاب والفضول العاطفي الذي كان يقابل به المحكوم عليه بالموت من قَدِمَ لقتله.

لم يستطع كيزي أن يفهم لماذا أعجبه الروتين الذي أدار به أعماله إلى تلكَ الدرجة. بدت الغرفة الخاصة مُملّة: مقعد صغير، أرضية حجريَّة رماديَّة، أنبوب تصريف، صنبور، خرطوم، طاولةُ مكتب عليها دفتر ملاحظات.

تم تقليص العملية إلى روتين كامل؛ تحدثوا عنها دائماً ما بين المزاح والجد. فإذا ما نُفِّذت العمليةُ باستخدامِ المسدس، سمّاها كيزي «إدخال حبّة قهوةٍ في الرأس»؛ وإذا نُفِّذت بواسطة تسريب الفينول[1]، أطلق عليها كيزي «كميّة صغيرة من الإكسير[2]».

---

(1) الفينول محدود الذوبان في الماء، من أشهر خصائص الفينول أنه مادة سامة وأكّالة ولذلك لا بدّ من ارتداء اللباس الواقي أثناء الاستخدام والحرص الشديد على عدم اللمس والاستنشاق نظراً لخطورته الشديدة على الجلد والجهاز التنفسي والعيون، والتعرض لتركيز عالٍ منه يسبب حروقاً خطيرة. (المترجمان).

(2) الإكسير عند القدماء مادة كان يُعتقد أنها تضاف إلى الفضة ونحوها فتحولها إلى ذهب؛ أما عند الصيادلة المعاصرين فهو وجود أي مستحضر كيميائي

بدا لكيزي مدهشاً وبسيطاً كشفُ سر حياة الإنسان في حبة البن والإكسير.

وبدت عيناه البنيّتان المسكوبتان من البلاستيك لا تنتميان إلى كائن حي. كانتا أشبه بقطرانٍ بنيٍّ مُصفَر... وعندما كان يظهر تعبيرٌ مبهج في عيني كيزي الخرسانيتين، يرتعب الناس، هكذا على الأغلب تشعر السمكة بالرعب وهي تسبح بالقرب من الجذمور المغطّى بالرمال، إذ تكتشف فجأة أن الكتلة المظلمة واللزجة إنما تحتوي عيوناً وأسناناً ومخالبَ.

هنا، في معسكر الاعتقال شعرَ كيزي بالتفوق على الفنانين والثوريين والعلماء والجنرالات والخطباء الدينيين. المسألة لم تكن في حبة القهوة وكمية الإكسير. بل كان شعوراً بالتفوق الطبيعي، الذي جلب له كثيراً من السرور.

لم يكن مبتهجاً بقوّته الجسديّة الضخمة، ولا بقدرته على مواجهة الصعاب، وبإسقاط الخصم بضربة قاضية، وكسر حديد الخزنة، بل كان معجباً بنفسيّته وعقله، كان غامضاً ومُعقّداً. ظهرَ غضبُه وعَطفُهُ ليس بطريقة عادية - بدا ذلك خارج المنطق؛ حينما نُقِلَ أسرى الحرب الروس الذين اختارهم الغيستابو إلى المهجع الخاص بوسائل النقل، طلب منهم كيزي أن يُغنّوا أغانيهم المفضّلة.

غنّى أربعة أشخاص روس، لهم نظرات الموتى، وأيديهم متورّمة:

يحوي مكونات كالمورفين تذاب في محلول يحتوي الإيثانول ويُؤخذ كشراب. (المترجمان).

أين أنت يا سوليكو[1]؟

استمع كيزي عابساً، ونظرَ إلى الرجل ذي العظام النافرة الواقفِ جانباً. واحتراماً للفنانين، لم يوقف كيزي الغناء، لكن عندما صمت المغنّون طلبَ إلى الشخص ذي العظام النافرة، الذي لم يغنِّ مع الجوقة، أن يغني منفرداً. وحينَ نظرَ إلى الياقةِ القذرة لكنزة هذا الرجل ذات آثارِ الخياطة الواضحة للتمزقات، سأل كيزي:

- هل تفهم أيها العاهر؟

أومأ الرجل أنّهُ فهم.

أمسكه كيزي من ياقته وهزَّهُ برفق، مثلما يُهَزُّ المنبِّه المُعطّل. دفع أسيرُ الحرب الواصلُ لتوِّه كيزي بقبضته في وجنتهِ ولعنه.

بدا أن نهايةَ الروسي قد حانت. لكن المسؤول الحزبي الألماني عن المهجع الخاص لم يقتل الرائد يرشوف، بل قاده إلى السرير، في الزاوية عند النافذة. كانت الأسرّة فارغة، بانتظار الشخص اللطيف لكيزي. أحضر كيزي في اليوم نفسه، ليرشوف بيضة أوز وقال له بالألمانية ضاحكاً: «صوتك سيكون على ما يرام»!

ومنذ ذلك الحين، عامل كيزي يرشوف معاملةً حسنةً. وفي المهجع عاملوه باحترام، واتحدت صلابته التي لا تلين مع طبعه الليّن والمرح.

غضب أوسيبوف مفوّضُ اللواء وأحد مغنّي «سوليكو» (الروح)، على يرشوف بعد الحادثة مع كيزي.

---

(1) أغنية جورجية. سوليكو اسم أنثى أو ذكر جورجي، مشتقٌ من جذر الكلمة الذي يعني «الروح». (المترجمان).

وقال:

- إنّه رجل صعب.

عمّدَ موستوفسكي، بعد تلك الحادثة بوقت قصير، يرشوفَ سيّداً للأفكار.

ناصَبَ يرشوفَ العداءَ - بالأضافةِ إلى أوسيبوف - الرجلُ المنغلق والصامت دائماً أسيرُ الحربِ كوتيكوف، الذي يعرفُ كلَّ شيءٍ عن الجميع. كان كوتيكوف نوعاً ما من دون لونٍ، وصوته من دون لون، وعيناه وشفتاه أيضاً، لقد كان بلا لونٍ لدرجة أن ذلكَ أصبحَ محفوظاً، وبدا واضحاً.

أثار مرح كيزي في ذلك المساء شعوراً متزايداً بالتوتر والخوف لدى الناس. انتظر نزلاء المهاجع دائماً أمراً سيئاً، عاشَ فيهم الرعبُ، والشؤمُ، والكربُ والخوفُ ليلاً ونهاراً، يزداد أحياناً ويضعف أحياناً أخرى.

دخل قبل نهاية عملية التفتيش المسائية إلى المهجع الخاص ثمانيةٌ من رجال شرطة المعسكر - الكابو في قبعات مهرّجين غبيّة، وبإشاراتٍ صفراء قماشية زاهية على الأكمام. كان واضحاً من تعابيرِ وجوههم أنهم ينوون شرّاً.

كان يقودهم رجلٌ أشقرُ طويلُ القامةِ وسيمٌ، يرتدي معطفاً حديديَّ اللون شرائطه ممزقة. ويظهرُ من تحت معطفه حذاءٌ ملمّعٌ زاه ألماسيُّ اللون.

كان هذا هو رئيس شرطة المعسكر الداخلي كونيغ، وهو رجل من قوات الأمن الخاصة، محروم من رتبته بسبب جرائم جنائية ومسجون في المعسكر.

صاح كيزي بالألمانية:

- انزعوا القبعات!

بدأ التفتيش، ونقر رجال الكابو على الطاولات اعتيادياً، مثلما يفعلُ عمّال المصانع، باحثين عن التجويفات الفراغية، ونافضين الخرق، وفحصوا بأصابعهم السريعة والذكية وصلات قماش الملابس، ونظروا إلى القدور.

ضغطوا في بعض الأحيان، بركبهم على مؤخرة المعتقل، مازحين وقالوا:

- كن بصحة جيدة.

توجّه رجال الكابو في بعض الأحيان إلى كينيغ، عارضين عليه المذكرات التي عثروا عليها، والدفاتر، وشفرات ماكينات الحلاقة الآمنة. أوضح كونيغ ملوّحاً بقفّازه ما إذا كان الشيء الذي عُثِرَ عليه مثيراً للاهتمامِ أم لا.

وقف السجناء في أثناء التفتيشِ في طابور.

وقف موستوفسكي ويرشوف في مكان قريبٍ، ونظرا إلى كونيغ وكيزي. بدت شخصيات الألمان مصبوبةً صبّاً.

كان موستوفسكي يتمايل، وقد دار رأسه. قال ليرشوف مُشيراً بإصبعهِ نحو كيزي:

- آخ، يا لهذه الشخصيّة!

- إنّه آريّ رائع - قال يرشوف، في أذن موستوفسكي، لعدم رغبته في أن يسمع تشيرنيتسوف الواقف قريباً منهما: - ولكن جماعتنا مثلَهُ أيضاً، أعوذ باللّه!

قال تشيرنيتسوف، مشاركاً في حديث لم يسمعه:

- حقٌّ مقدسٌ لكل أمة أن يكون لها أبطالها وقدّيسوها وأوغادها.

قال موستوفسكي، مُوَجِّهاً كلامَهُ إلى يرشوف، ورادّاً ليسَ عليهِ فحسب:

- بالطبع، وتجدُ بيننا أوغاداً، ولكن ثمَّةَ في القاتل الألماني ما هو فريد من نوعه حتّى أنَّكَ لا تجدهُ إلّا في الألماني.

انتهى التفتيش. وصدر أمرٌ بالعودة إلى الحالة السابقة. بدأ المعتقلون يتسلّقون الأسرّة.

استلقى موستوفسكي، ومدَّ ساقيه. فكّر أنه لم يفحص ما إذا كانت أشياؤه كاملة بعد البحث - تأوّه، ونهض، وأخذ يفتّش في حاجياته.

ظنَّ أنّ الوشاح قد اختفى أو قماش الساقين. لكنه وجد كلاً منهما إلّا أنَّ الشعور بالقلق لم يغادره.

سرعان ما جاء إليه يرشوف وقال بهدوء:

- سمعَ نيدزيلسكي من رجال الكابو، أنّهم سيهزّون مهجعنا، سيتركون قسماً للمعالجة، وسيُرسَلُ الأغلبيَّةُ إلى معسكر اعتقال عام.

- فليكن - أجابَ موستوفسكي - أبصقُ على ذلك.

جلس يرشوف على السرير، وقال بهدوء ووضوح:

- ميخائيل سيدوروفيتش!

رفع موستوفسكي نفسه على كوعه، ونظر إليه.

- ميخائيل سيدوروفيتش، لقد فكّرتُ في عمل كبير، سأتحدث إليكَ حول هذا الموضوع. إذا كنّا سنموت، فلنمت مع الموسيقى!

تحدَّث بصوت هامس، وشعرَ موستوفسكي وهو يستمع إلى يرشوف بالقلق، بينما مسَّتهُ ريح رائعة.

- الوقت ثمين - قال يرشوف - إذا استولى الألمان الشياطين على ستالينغراد هذه، فإن الناس ستتدفّق مرة أخرى. مثل كيريلوف، واضح.

اقترح يرشوف إنشاء تحالف عسكري لأسرى الحرب. قرأ نقاط البرنامج من الذاكرة، كما لو كان يقرأها مكتوبةً.

. . . تحقيق الانضباط ووحدة الناس السوفييت جميعاً في المعسكر، وطرد الخونة من وسطنا، وإلحاق الأذى بالعدو، وإنشاء لجان الكفاح بين السجناء البولنديين والفرنسيين واليوغوسلافيين والتشيك. . .

وقال وهو ينظر إلى أعلى الأسرّة في المهجع المُعتم:

- هناك رجال من المصنع العسكري، وهم يثقوا بي، سنجمع الأسلحة. دعنا نتحرّك. التواصل مع عشرات المعسكرات، الإرهاب ضد الخونة. الهدف النهائي: انتفاضة عامة، أوروبا حرة واحدة. . .

كرّر موستوفسكي قائلاً:

- أوروبا الحرة المتحدة. . . آخ، يرشوف، يرشوف.

- أنا لا أثرثر. حديثنا هو بداية العمل.

قال موستوفسكي وهو يهز رأسه:

- سوف أبدأ العمل، وكرر قائلاً: أوروبا الحرة. . . هنا قسم

للأممية الشيوعية في معسكرنا، وثمّةَ شخصان فيه، أحدهما غير حزبي.

- أنت تعرف الألمانية والإنجليزية والفرنسية، آلاف العلاقات سوف تُحاك - قال يرشوف - ما رأيك في الكومنترن؛ يا معتقلي معسكرات العالم اتحدوا!

ناظراً إلى يرشوف نطقَ ميخائيل سيدوروفيتش بكلمات كان قد نسيها منذ زمن طويل:

- الإرادة الشعبيّة! - واستغرب، لماذا خطرت ببالهِ فجأة هاتان الكلمتان بالتحديد.

وقال يرشوف:

- يجب التحدث إلى أوسيبوف والعقيد زلاتوكريليتس. أوسيبوف قوة كبيرة! لكنه لا يحبني، تحدّث أنت إليه. واليوم سأتحدث إلى العقيد. نُشكل معاً رباعيّةً.



73

عمل دماغ الرائد يرشوف ليلاً ونهاراً بتوتر مستمر.

فكر يرشوف في خطة سرّية تشمل معسكرات الاعتقال الألمانية، وفي تكنولوجيا الاتصالات للمنظمات السرية، حفظ أسماء معسكرات العمل والاعتقال ومحطات السكك الحديدية. كان يفكر في إنشاء شيفرة، وفي كيفية استخدام موظفي ديوان المعسكر وأن تضمَّ قوائمُ النقلِ المنظمينَ، الذين ينتقلون من معسكر إلى آخر.

وعاشَ حلمٌ في نفسه! عَمَلٌ سِريٌّ لآلافِ المحرضين والأبطال - المخرّبين، في الإعداد لاستيلاءِ قوَّةِ المتمردين المسلَّحة على المعسكرات! يجب أن يسيطر المعتلقون المتمردون على المدفعية المضادة للطائرات التي تدافع عن مرافق المعسكر، ويُحوِّلوها إلى أسلحةٍ مضادةٍ للدبّابات والأفراد. من الضروري تحديد المدافع المضادة للطائرات وإعداد الحسابات للبنادق التي ستستولي عليها الجماعات المهاجمة.

عرف الرائد يرشوف حياة المعسكر، ورأى قوّة الرشوة، والخوف، والتعطش لملء المعدة، ورأى كم من الناس بدّلوا الكنزات النظيفة بمعاطف فلاسوف الزرقاء مع الكتّافيات.

رأى الاكتئاب، والهوان، والغدر، والطاعة. رأى الخوف أمام الرعب، ورأى كيف كان الناس يتجمّدون أمام القائمين على المعسكر.

ومع ذلك، لم يكن ثمَّةَ خيال في أفكار الرائدِ الأسير الأشعث. دعم رفاقه في الوقت الكئيب للتقدم الألماني السريع على الجبهة الشرقية، بكلمات مَرِحةٍ ووقِحة، وأقنع المتورمينَ أن يُكافحوا من أجل صحتهم. عاش في داخلهِ ازدراءٌ جريءٌ لا ينطفئُ ولا يُمحى للعنف.

شعر الناس بالحرارة المرحة الصادرة من يرشوف؛ إنّها بسيطة، يحتاج إليها الجميع وتنبَعِثُ من الموقد الروسي الذي يحترق فيه حطب البتولا.

من المؤكَّدِ أنَّ ذلكَ الدفءَ الطيّبَ، وليس قوة العقل وقوة الشجاعة فحسب، قد أسهمَ في أن يصبح الرائد يرشوف قائدَ أسرى الحرب السوفييت.

أدرك يرشوف منذ فترة طويلة أن ميخائيل سيدوروفيتش كان أولَ شخصٍ سيفضي له بأفكاره. كان يرقد على سريره وعيناه مفتوحتان، ينظرُ إلى سقف الألواحِ غيرِ المتساويةِ، كما لو كان ينظرُ من داخل التابوت إلى الغطاء، وكان قلبه ينبض.

أحسّ هنا، في المعسكر، بقوّته كما لم يشعر بها طوال ثلاثةٍ وثلاثينَ عاماً من حياته.

لم تكن حياته قبل الحرب جيدة. اتهم والده الفلاح في مقاطعة فورونيج بأنّه من الكولاك وحُكِمَ على هذا الأساس عام ثلاثين. وكان يرشوف يخدم في الجيش في ذلك الوقت.

لم يقطع يرشوف علاقاته بوالده، لذلك لم يُقبل في الأكاديمية العسكرية، على الرغم من اجتيازه امتحانات القبول بعلامات ممتازة. تخرّج يرشوف بصعوبة من مدرسة عسكرية. وعُيِّنَ في مكتب تجنيد المنطقة العسكرية. عاشَ والده، وهو المُعادُ توطينُه، في ذلك الوقت مع أسرته في جبال الأورال الشمالية. أخذ يرشوف إجازة وذهب إلى والده. سافر من سفيردلوفسك مئتي كيلومتر على خط سكة حديدية ضيّق. امتدّت على جانبي الطريق الغاباتُ والمستنقعاتُ، وأكوامٌ من الخشب المقطوع، وأسلاك المعسكر الشائكة، والثكنات والمخابئ، ووقفت أبراج المراقبة مثل الفطور القذرة على أرجل عالية. أوقِفَ القطار مرتين - كان حرّاس المرافقة يبحثون عن سجين فارّ. وقف القطار في الليل عند التقاطع، في انتظار الآخر القادم. لم ينم يرشوف، استمعَ إلى نباح الكلاب البوليسية، وصفّارات الحراس - كان ثمّةَ معسكر كبير بالقرب من المحطة.

في اليوم الثالث فحسب وصل يرشوف إلى المحطة الأخيرة لخط السكك الحديدية الضيق، وعلى الرغم من أن لديه على الياقة رتبة ملازم، فإنَّ وثائقه وبطاقاته دُقِّقتْ وفقاً للقواعد، كان ينتظر عند التحقق من المستندات أن يقولوا له: «حسناً، هاتِ الكيس» - ويقودوه إلى المعسكر. حتى الهواء في هذه الأماكن كانت له رائحة الأسلاك نوعاً ما.

ثم سافرَ سبعين كيلومتراً في مؤخرة شاحنة صغيرة عابرة، وامتدّت الطريق بين المستنقعات. كانت السيارة تعود للسفخوز المسمّى باسم الإدارة السياسية الموحّدة، حيث يعمل والد يرشوف. كانت مؤّخرة الشاحنة مكتظّةً: حيث كان العمّال المعاد توطينهم

متوجّهين إلى مقرّ المعسكر، وسينقلونَ إلى موقع تقطيع الأشجار. حاول يرشوف استجوابهم، لكنهم أجابوا منفردين بصعوبة، كانوا على ما يبدو خائفين من زيه العسكري.

وصلت الشاحنة مساء إلى قرية بُنيت بين حافة الغابة وحافة المستنقع. تذكّر غروب الشمس، الذي كان هادئاً ووديعاً في مستنقع معسكر اعتقال الشمال. بدت الأكواخ في ضوء المساء سوداء تماماً، ومسلوقةً في القطران.

دخل المنزلَ المحفورَ في الأرض، ودخل ضوء المساء معه، هبَّت للقائهِ الرطوبة، والاختناق، ورائحة الطعام، والملابس والأسرّة الفقيرة، والدفء الدخّاني...

ظهر الأبُ من هذه الظلمة، وجهٌ نحيل، وعينان رائعتان، أدهشتا يرشوف بتعبيرهما الذي لا يوصف.

ضَمّت يدا العجوز النحيلتان الخشنتان عُنقَ ابنه، وفي هذه الحركة المتشنجة ليدي الشيخوخة المنهكة التي حضنت عُنقَ القائد الشاب، عُبِّرَ عن شكوى خجولة وعن ألمٍ شديدٍ، وعن رجاءٍ واثقٍ بالحماية، ولم يستطع يرشوف الرد على ذلك إلا بالبكاء.

ثم وقفا على ثلاثة قبور - توفيت الأم في فصل الشتاء الأول، والأخت الكبرى أنيوتا في الثاني، وماروسيا في الثالث.

اندمجت المقبرة في منطقة المعسكر مع القرية، ونما الطحلب هنا تحت جدران الأكواخ وعلى منحدرات المنزل الواطئ، وعلى تلال القبور وعلى روابي المستنقعات. لذلك ستبقى الأم والأختان تحت هذه السماء - في فصل الشتاء، عندما يجمّدُ البردُ الرطوبةَ،

وفي الخريف، عندما تنتفشُ أرض المقبرة من طين المستنقع الداكن القريب.

وقف الأب إلى جوار الابن الصامت، وكان صامتاً أيضاً، ثم رفع عينيه، ونظر إلى ابنه ونشر ذراعيه قائلاً: «سامحوني، أحياءً وأمواتاً، لم أستطع إنقاذ من أحببتهم».

ليلاً حدّثه والده. تكلم بهدوء، وبصوت خافت. عما حدَّثه عنه كان لا بدّ من أن يتكلّم بهدوء، وكان من الممكن التحدث - صراخا، لا يمكنك التعبير بالبكاء عن ذلك.

على الصندوق المغطى بجريدة وضِعَتِ الضيافة التي أحضرها الابن، وزجاجة نصف ليتر من الفودكا. تحدث الرجل العجوز، وجلس الابن في مكان قريب يستمع.

روى الأبُ عن الجوع، وعن وفاة أصدقاء القرية، وعن النساء المسنات اللواتي جننّ، وعن الأطفال الذين أصبحت أجسادُهم أخفَّ من البالالايكا[1]، وأخف من الدجاج. وحَدَّثَ كيف حلّ عواءُ الجوع ليلاً ونهاراً على القرية، وتحدّث عن الأكواخ المسمّرة ذات النوافذ العمياء.

حدّثَ ابنه عن الطريق الشتوي الذي قطعوه خلالَ خمسينَ يوماً في عربة شحن مدفّأة سقفها مُثقَّب، وعن الموتى الذين سافروا في القطار أياماً طويلة مع الأحياء. تحدّث عن كيفية سير المهجّرين قسريّاً مشياً على الأقدام، والنساء اللواتي حملن الأطفال بين أذرعهنَّ. مشت والدة يرشوف المريضة هذه الطريق، في الحرّ، وقد

---

(1) آلة موسيقيّة وتريّة روسيّة تشبه العود. (المترجمان).

اسودَّ عقلُها. أخبره كيف أحضروهم إلى الغابة الشتويَّة، وما كان هناك من منازل، ولا أكواخ، وكيف بدأوا حياة جديدة هناك، وأشعلوا المواقد، وصنعوا أسرَّة من فروع التنوب، وذوّبوا الثلج في القدور، وكيف دفنوا الموتى...

قال الأب:

- تلكَ إرادة ستالين - قالها دون أن تحملَ كلماته أي غضبٍ أو استياءٍ - هذا ما يقولهُ الناسُ البُسطاء عن القويّ الذي لا يعرف التردد.

عاد يرشوف من العطلة وكتب رسالة إلى كالينين[1]، طلب فيها أعلى درجات الرحمة وأزكاها؛ وأن يغفر للبريء، وطلب السماح للرجل المسن بالقدوم إلى ابنه. لكن رسالته لم تنجح في الوصول إلى موسكو، واستُدعيَ يرشوف إلى القيادة، فقد وصلتهم إخباريّة عن رحلته إلى جبال الأورال.

طردوا يرشوف من الجيش. عمل في البناء، وقرر أن يكسب بعض المال ويعودَ إلى والده، لكن سرعان ما وصلته رسالة نعي من جبال الأورال، توفيَ والده.

في اليوم الثاني بعد اندلاع الحرب، استُدعيَ ملازم الاحتياط يرشوف.

حلّ محل قائد الفوج الذي استشهد في المعركة بالقرب من روسلافل، فجمع الفارين، وضرب العدو، وصدَّه عند محاولتهِ عبور للنهر، وأمّن ترحيل الأسلحة الثقيلة التابعة لمحمية القيادة العليا.

(1) رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي حينذاك. (المترجمان).

كان كلما زاد الحملُ على كتفيه، ازدادت صلابتهما. هو نفسه لم يعرف مقدارَ قوّته. واتضح أنّ الإذعان لم يكن سمة من سماتِ طبيعته، فكلما ازداد العنف من حولِهِ، كانت الرغبة في القتال لديه تزدادُ ضراوةً وحماسةً.

كان يسأل نفسه أحياناً: لماذا يكره أتباع فلاسوف إلى هذه الدرجة؟ لقد كتبت نداءاتُ أنصار فلاسوف عما حدّثه به والده. وكان يعرف أنّها حقيقة. لكنّه عرف أنّ هذه الحقيقة على شفاه الألمان وأتباع فلاسوف - إنما هي كذبة.

كان يشعر، وكان ذلك واضحاً عنده، أنّه بنضاله ضد الألمان، إنما يناضل من أجل الحياة الروسيّة الحرّة، والنصر على هتلر سيكون نصراً على معسكرات الاعتقال تلك، التي ماتت أمّه وأختاه ووالده فيها.

لقد عاشَ يرشوف الشعورين: المرّ والحلو - هنا سقطت «ظروف» الاستمارات الشخصيَّة، وأبدى قوَّةً وصلابةً، فساروا خلفه. هنا، لم تكن تعني الرتبُ العليا شيئاً، ولا الأوسمة، ولا القسم الخاصّ، ولا الإدارة الأولى، ولا إدارة شؤون الموظفين، ولا لجان الفحص، ولا الاتصال الهاتفي من لجنة المقاطعة الحزبيّة، ولا رأي النائب للشؤون السياسية.

قال له موستوفسكي ذات مرة:

- منذ زمن طويل لاحظَ هاينريش هاينه: «كلنا نمشي عراة تحت ثيابنا»... لكن أحدهم، بعد أن يخلع زيّه الرسمي، يُظهر جسداً بائساً ومؤسفاً، بينما تشوّه الملابس الضيقة آخرين، فما إن يخلعوها حتى يصبح واضحاً - هنا تكمنُ القوَّةُ الحقيقية!

ما كان يحلم به يرشوف أصبحَ عملاً يومياً، وفكر في هذا العمل بطريقة جديدة - لمن يكرّسه، ومن يجذب إليه، وصنّف الناس في ذهنه، ووَزَنَ الجيّدينَ، ووزنَ السيّئين، استحضرَ ما كان يعرفه عن الناس.

من سيكون في القيادة السرّية؟ برزت في رأسه خمسة أسماء. نقاط ضعف حياتية سابقةٍ صغيرة، وللغرابة - وقد بدا له كل شيء بطريقة جديدة - لم يكن لها وزن مُؤثّر.

يتمتع غودز بهيبة الجنرال، لكنه ضعيف الإرادة، وجبان، وغير متعلم على ما يبدو؛ إنه جيدٌ عندما يكون لديه نائب وإدارة ذكية، وينتظر من القادة أن يقدموا له الخدمات، ويطعموه، ويأخذ خدماتهم كأمر مسلَّم به، من دون امتنان. ولعلّهُ يتذكّر طبّاخه أكثر من زوجته وبناته. يتحدث كثيراً عن الصيد، والبط، والأوز؛ يتذكر الخدمة في القوقاز بما فيها من الصيد: الخنازير البرية والماعز. من الواضح أنه يشرب كثيراً. مُتباهٍ. يتحدث غالباً عن معارك 1941؛ الجميعُ من حولهِ كانوا على خطأ، جاره من اليسار، وجاره من اليمين، وحده الجنرال غودز كان دائماً على حق. ما من مَرَّةٍ ألقى اللومَ فيها على السلطات العسكرية العليا في حالة الفشل. يتمتع في الشؤون والعلاقات اليومية بخبرة كبيرة مثل موظَّفٍ مُحنّكٍ عركته التجربة. ولكن بشكل عام، إذا كان الأمرُ ليرشوف فإنَّهُ لن يكلف الجنرال غودز بقيادة الفوج، فكيف الشأن إذاً بخصوص الفيلق.

اللواء المفوض أوسيبوف ذكيٌّ. فجأة ينطقُ مبتسماً عبارةً عن أنَّهم رغبوا أن يقاتلوا بدماءٍ قليلةٍ على أراض غريبة، وينظر بعين بنيّة.

وبعد ساعة يعاقب المشكّكين بشدة، ويقرأ موعظة. وفي اليوم التالي سوف يحرك أنفه مرة أخرى ويقول بلثغة:

- نعم، أيها الرفاق، نحن نطير فوق الجميع، وأبعد من الجميع، وأسرع من الجميع - وها نحن قد طرنا إلى الداخل.

تحدّث بذكاء عن الهزيمة العسكرية في الأشهر الأولى من الحرب، لكن من دون شعورٍ بالألم، إنَّهُ يتحدث بقسوة لاعب شطرنج.

يتحدث إلى الناس بحريَّةٍ وبسهولةٍ، ولكن ببساطه مصطنعة؛ ليست البساطة الرفاقيّة الحقيقية. وهو مهتمٌ حقاً بالحديث إلى كوتيكوف.

لكن ما الذي يثير اهتمام اللواء المفوض بكوتيكوف؟

إنّ أوسيبوف ذو تجربةٍ واسعة. معرفة الناس. وهذه التجربةُ ضروريَّةٌ جدّاً؛ للقيادة السرّية، لا يمكن الاستغناء عن أوسيبوف. لكن تجربته بمقدارِ ما يمكن أن تساعد، يمكنها أن تعيق أيضاً.

روى أوسيبوف في بعض الأحيان قصصاً مضحكة عن شخصيَّتين عسكريتين مشهورتين، سمّاهما: سيما بوديوني، وأندريوشا يريمينكو.

قال ذات مرّة ليرشوف:

- توخاشيفسكي، إيغوروف، بليوشير مخطئون مثلي ومثلك.

أخبر كيريلوفُ يرشوفَ أنه في السنة السابعة والثلاثين كان أوسيبوف نائبَ رئيسِ الأكاديميّة - فضح بلا رحمة العشرات من الناس، وأعلنهم أعداءً للشعب.

وهو يخاف الأمراضَ كثيراً: يتحسّسُ نفسه، ويخرج لسانَهُ، ويخفض عينيه، وينظر لمعرفة ما إذا كان ثمّة انسداد. أما فيما يتعلق بالموت فمن الواضح أنه لم يكن يخافه.

العقيد زلاتوكريليتس- عبوس، عنيد، قائد فوج قتالي. يعتقدُ أن السلطات العليا هي المسؤولة عن تراجع عام 1941. يحسُّ الجميعُ بقوّته العسكريّةِ القياديّة. بنيته الجسديّة مُتماسكة. وصوته قوي، بمثل هذا الصوت فقط، يمكن إيقاف المهزومين، ودفعهم للهجوم. لسانه بذيءٌ مُقذعٌ.

لا يحب الشرح - يأمر. إنّه رفيق. وهو على استعداد لأنّ يسكب الحساء للجندي من القدر. لكنّه خشنٌ جداً.

يُحسُّ الناسُ دائماً بإرادتِه. هو القائدُ في العمل، يصرخ، لا أحد يعصي أوامره.

لن تخدعه، لن يسمح بذلك. يمكنك طهو العصيدة معه. لكنه وقح جداً!

كيريلوف - هذا ذكيٌّ، ولكن فيه نوعاً من الليونة. يلاحظ كل صغيرة، لكنّه ينظر إلى الأشياء كلّها بعينين متعبتين نصف مغلقتين. . . غير مبالٍ، لا يحب الناس، ولكنه يغفر لهم ضعفَهم ودناءَتَهم. وهو لا يخاف الموت، وفي بعض الأحيان يطمح إليه.

تحدَّثَ عن التراجع، ربما، بذكاءٍ أكثر مما فعلَ القادةُ جميعاً. إنّه غير حزبي، قال ذات مرة:

- لا أعتقدُ أن الشيوعيينَ يمكنهم أن يجعلوا الناسَ أفضل. لم يكن في التاريخ مثل هذه الحالة.

كان كما لو أنَّه غير مبال بكل شيء، بكى في السرير ليلاً، صمت طويلاً بعد سؤال يرشوف، ثم قال هامساً: «نأسف على روسيا». لكنه متذبذب نوعاً ما، وليّن. قال ذات مرة: «أوه، أحنُّ إلى الموسيقى». وقال بالأمس، مع ابتسامة مجنونة: «اسمع يا يرشوف سأقرأ لك شعراً». لم يعجبِ الشعرُ يرشوفَ، لكنه تذكَّرَه، فقد اندّس في رأسه بضجر:

يا رفيقي، في سكرةِ الموتِ
لا تطلب المساعدةَ من الناس.
خير لك أن تترُكَني أدفِئُ كفيَّ
فوقَ دمِكَ المتصاعدِ دُخاناً.
ولا تصرخ من الرعبِ، مثل صغيرٍ،
أنت لست جريحاً، أنت مقتول فحسب.
والأفضل أن تسمح لي بنزع حذائك،
فما زال عليَّ أن أقاتل.

هل هو من كتب هذا الشعر؟

لا، لا، كيريلوف لا يصلح للقيادة. كيف سيجذبُ الناسَ، وهو نفسه ينجذبُ بصعوبة.

هذا موستوفسكي! متعلّم بما فيه الكفاية، وإرادته حديديّة. قالوا إنه تحمّل الحزام أثناء التحقيق. لكن من المدهش أن لا أحد لم يكن ليرشوف ملاحظات عليه. منذ أيّام وبّخَ موستوفسكي قائلاً:

- لماذا، يا ميخائيل سيدوروفيتش، تخدش بأحاديثك المزدرية ذلكَ الغبي إيكونيكوف- مورج، وذلكَ الوغد المهاجر الأعور؟

قال موستوفسكي ساخراً:

- أتعتقد أنني سأتردد في طرحِ آرائي - هل أُصبحُ مبشراً أو حتى منشفيّاً؟

قال يرشوف:

- الشيطان وحده يعرفهم، لا تلمس البراز حتى لا تفوح رائحته. يجلس هذا المورج في معسكراتنا. الآن يجرُّهُ الألمان إلى الاستجواب. فيبيع نفسه، ويبيعك، ويبيع أولئك الذين يتمسكون بك...

وكانتِ النتيجةُ - ما من أشخاصٍ مثاليين للعمل السرّي. ينبغي قياس قوة وضعف كل شخص. إنها مسألة ليست صعبة. ولكن فقط وفقَ معيارِ ما إذا كان هذا الشخص يصلُحُ أم لا. لكن الأساس لا يمكن قياسه. الأساس يمكن تخمينه، والشعور به. لذلك بدأ مع موستوفسكي.



74

اقتربَ الجنرال - رائد غودز من موستوفسكي وهو يتنفس بصعوبة. خفَقتْ رجلاه، تأوّه، وعضَّ على شفته السفلية، ارتجفت طياتٌ من الجلد البني على خدّيه وعنقه - كل تلك الحركات والإيماءات والأصوات احتفظ بها من سمنته المشرقة السابقة، وبدا ذلكَ غريباً بسبب ضعفه الحالي.

- عزيزي الأب،- قال لموستوفسكي - أن أقدّم لك أنا الرضيع ملاحظةً، فذلكَ أشبهُ بأن يعلّم الرائدُ جنرالاً - عقيداً. سأقول لك صراحةً: عبثاً أقمت مع يرشوف صداقة بين الشعوب - إنّه شخص غير واضح حتى النهاية. ولا يملكُ معارف عسكرية. إنّه عقليّاً بمستوى ملازمٍ، لكنّه يطمحُ إلى القيادة، وتراه يحشر نفسه معلّماً للعقداء. يجب أن تكون حذراً في التعامل.

قال موستوفسكي:

- هذا هراء يا صاحب السعادة.

- بالطبع، هذا هراء،- قال غودز متأوّهاً - بالطبع، هراء. قالوا في المهجع العام، إنَّ اثني عشرَ شخصاً التحقوا بذلكَ الجيش الروسي الحرّ اللعين. واحسبْ كم بينهم من الكولاك؟ أنا لا أقول

لك رأيي الشخصي فحسب، بل أنا مفوّض من قبل شخص لديه خبرة سياسية.

سأل موستوفسكي:

- أليس هذا أوسينوف، بالصدفة؟

- ولنفترض أنه هو. أنت شخص نظري، لعلكَ لا تفهم كامل السمادِ هنا.

قال موستوفسكي:

- لقد أطلقتَ محادثةً غريبة. بدأتُ أعتقدُ أنه لم يبقَ من الناس أحد هنا، لا شيء إلّا اليقظة والحذر. من يستطيع التنبؤ!

استمع غودز كيف يصفرُ التهابُ الشعبِ الهوائيّة في صدره ويغرغر، وقال مكتئباً:

- لا أرى إرادة، لا، لا أرى.

ضرب موستوفسكي، وهو يُتابعُهُ، براحة يده على ركبته، ففهمَ فجأة سبب وجود إحساسٍ مزعجٍ ومؤلم؛ لقد اختفت أثناء التفتيش الأوراقُ التي قدمها له إيكونيكوف.

ماذا بحق الجحيم كتب هناك؟ ربما كان يرشوف على حق، فقد أصبح إيكونيكوف البائس مشاركاً في العمالة، لقد رمي ودسّ هذه الصفحات. ماذا كتب هناك؟

مشى نحو سرير إيكونيكوف. لكن إيكونيكوف لم يكن هناك، ولم يعرف الجيران أين ذهب. ومن كل هذا - اختفاء الأوراق، وسرير إيكونيكوف الفارغ - أصبح من الواضح له فجأة أنه تصرَّف بطريقةٍ غير صحيحة، حيث دخل في الأحاديث كعابد أحمق.

لقد جادَلَ تشيرنيتسوف، لكن، بالطبع، لم يكن الأمر يستحق الجدال، وأيّ جدالات هنا. وبوجود تشيرنيتسوف، سلّم الأحمقُ الأوراقَ إلى موستوفسكي - هناك إذاً مخبر، وهناك شاهد.

كانت حياتُه ضروريّةً من أجل القضية، ومن أجل النضال، وها هو ذا يمكن أن يخسرها بلا معنى.

فكّر، وقلقٌ مرٌّ يتزايد بداخله: «لقد كان الأحمق العجوز يصادق النفايات، ودمّر نفسه في اليوم الذي يجب فيه أن يمارس العمل، العمل الثوريّ».

التقى أوسيبوف في غرفة الغسيل: كان مفوّض اللواء يغسل قماش رجليه، في ضوءِ الكهرباء الهزيلة الخافت، فوق حوض الصفيح.

قال موستوفسكي:

- جيد أني التقيتك. أحتاج أن أتحدَّث إليك.

أومأ أوسيبوف، ونظر من حوله، ومسح يديه المبلّلتين على جانبيه، وجلسا على الحافة الإسمنتية للجدار.

قال أوسيبوف، عندما أخبره موستوفسكي بشأن يرشوف:

- هذا الذي اعتقدته «قبل أن نقول لها كش، كسرَ رجليها».

مسّد يد موستوفسكي براحة كفّه المبلّلة.

قال:

- رفيق موستوفسكي، تسعدني جرأتك في اتخاذ القرار. أنت بلشفي لينيني، لا مشكلةَ عندك مع السنّ. مثالك سيدعمنا جميعاً.

وأردفَ بصوت خافت:

- رفيق موستوفسكي، منظمتنا القتالية قد أُنشِئت بالفعل، قررنا ألا نخبرك بذلك في الوقت الحالي، أردنا أن ننقذ حياتك، ولكن، من الواضح، لا توجدُ شيخوخةٌ عند رفيق لينين. سأخبرك بصراحة: لا يمكننا الوثوق بيرشوف. وكما يقولون، فإن العدسة عليه سيّئة تماماً: إنّه كولاكي، حاقدٌ على القمع. لكننا واقعيون. لا يمكننا الاستغناء عنه حتى الآن. لقد حقّق لنفسه شعبية رخيصة. علينا أن نأخذ ذلك بالحسبان. أنت تعرف أكثر مني كيف أتقنَ الحزب كيفية استخدام هؤلاء الأشخاص في مراحل معينة. ولكن يجب أن تعرف نظرتنا إليه: حتى يحين الوقت المناسب.

- رفيق أوسيبوف، يرشوف سوف يذهب إلى النهاية، ليس لدي شك في ذلك.

سُمع وقعُ أقدامٍ تطرق الأرضيّة الإسمنتية.

قال أوسيبوف ببطء:

- أقول لك يا رفيق موستوفسكي، ليس لدينا أسرار نخفيها عنك. يوجد هنا رفيق مزروعٌ من قبلِ موسكو. أستطيع أن أسمّيه كوتيكوف. هذهِ وجهة نظره عن يرشوف، وليست وجهة نظري فحسب. تعليماته لنا جميعاً، نحن الشيوعيين، قانون - قرارُ الحزبِ، قرارُ ستالين في الظروف الاستثنائية. لكننا سنعمل مع ابنك المُعمّد، حاكم الأفكار، قررنا وسنفعل. شيء واحد فقط هو المهم: أن نكون واقعيين، جدليين. لسنا نحن من يعلّمك.

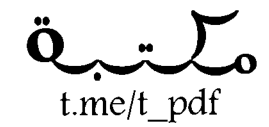
صمت موستوفسكي. احتضنه أوسيبوف وقبّله على شفتَيه ثلاث مرات. ولمعت الدموع في عينيه.

قال:

- أنا أقبّلك كما أقبّل والدي. وأرغب أن أرسم عليك إشارة الصليب، كما كانت أمّي ترسمها عليّ في الطفولة.

وشعر ميخائيل سيدوروفيتش أن الإحساس المؤلم الذي لا يطاق بتعقيدات الحياة كان يتلاشى. ومن جديد، كما كانتِ الحالُ زمنَ الشبابِ، بدا العالمُ واضحاً وبسيطاً، مُقسَّماً إلى أصدقاء وغرباء.

ليلاً جاءَ رجالُ قواتِ الأمنِ الخاصة إلى المهجع الخاص وأخذوا ستة أشخاص. كان بينهم ميخائيل سيدوروفيتش موستوفسكي.



"واحدة من أجمل الروايات الروسية في القرن العشرين".

صحيفة الديلي تلجراف

*****

"في رواية الحياة والمصير أكثر من 150 شخصية، وكل واحدة منها رُسمت فرديتها بصبر وإخلاص الصحفي للوقائع، واستبصار الفنان في المعنى".

سام ساكس (Sam Sacks)، مجلة النيويوركر (The New Yorker)

*****

"لوحة جدارية تاريخية. عملٌ فني ضخم! إنها الرواية الروسية العظيمة للقرن العشرين. أثناء شغف قراءتها يتساءل المرء: من هو فاسيلي غروسمان الذي لديه الثقة للحديث عن بلده بصراحة، وعمق واتساع لم يسبق لهما مثيل في الأدب السوفيتي".

نيكول زاند (Nicole Zand) (صحيفة اللوموند الفرنسية (1983م)

*****

"استغرقت ثلاثة أسابيع في قراءتها، وثلاثة أسابيع أخرى لأستعيد نفسي منها، وأثناء ذلك بالكاد كنت أستطيع التنفس.. لقد بدّلت هذه الرواية كل ما فكرت فيه وشعرت به، وملأتني بما يسمّيه غروسمان الفرح الجنوني للحياة في ذاتها، والذي لم أفقده بعدها أبداً".

ليندا جرانت (Lind Grant) صحيفة الغارديان

الحياة والمصير
فاسيلي غروسمان
ISBN 9786148020834





www.darsoual.com
dar_souaal@outlook.com
@darsoual2014
Dar Soual
@darsoual